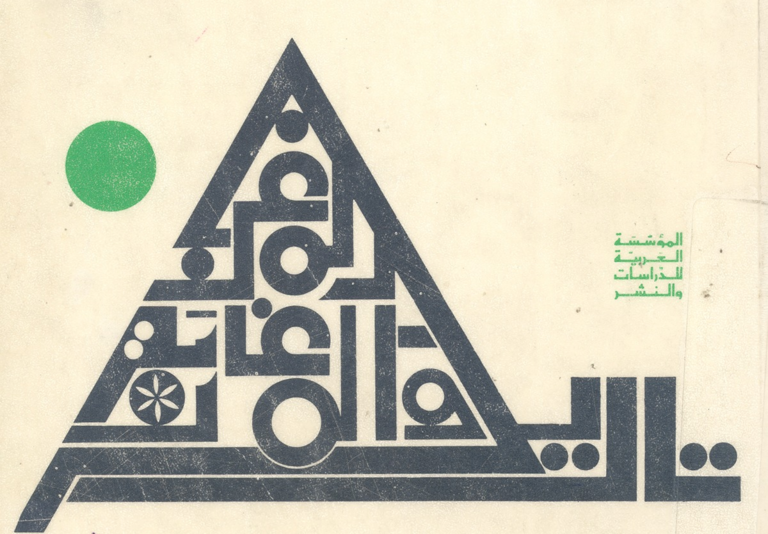
الدكتور عبد الله العروي

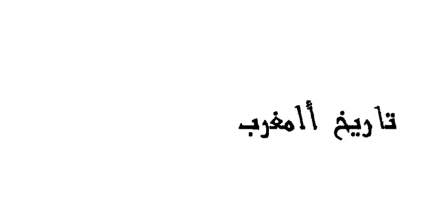
تاريخ المغرب

محاولة في التركيب

ترجمة : د. ذوقان قرقوط



المؤسسة العربية للدراسات والنشر



تاريخ ألمغرب

الدكتور عبد الله العروي

تاريخ المغرب

محاولة في التركيب

ترجمة: د. ذوقان قرقوط

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص.ب: ٥٤٦٠ - ١١ تلفون: ٢٥٦١١٠
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى

تموز (يوليو) ١٩٧٧

مقـدّمة

١ ـ لماذا هذا الكتاب ؟

ثمة فكرة مألوفة جيداً في مجموع إنتاج المؤرخين الرسميين للحقبة الاستعمارية من تاريخ المغرب ألا وهي سوء الحظ : سوء حظه في أنه لم يقدّر القيمة التحضيرية للفتح الروماني ، سوء حظه في أنه كان عليه أن يقبل الإسلام ، سوء حظه في أنه عانى اجتياح الهلاليين وسوء حظه في أنه صلح لأن يكون قاعدة للقرصنة العثمانية ... ولكن ألم يبق ثمة دواعي أخرى للكلام على نكد طالع آخر ؟ وهو أن المغرب كان محظوظاً دائمـاً بمؤرخي المناسبات : جغرافيون من ذوي الأفكار اللامعة ، موظفون ذوو طموحات علمية ، عسكريون متيمّون بالثقافة ، مؤرخون خبراء في الفن يرفضون التخصص ، وعلى مستوى أعلى ، بلا شك ، مؤرخون بلا اعداد لغوي أو لغويون وعلماء آثار بدون اعداد تاريخي ؛ بعضهم يردنا إلى بعض ، ويعتمد هؤلاء على قوة حجة الآخرين فيتكون على هذا النحو ضرب من التواطؤ يضع في التداول أخطر الفرضيات ليعمل على فرضها في النهاية كحقائق مقررة[1] . صحيح أنه من جانب المغاربة ، قلّما يكون هناك أفضل مما يُروى : فالقاريء ، الذي تتجاذبه اجترارات

(١) أوضح حالة لهذا الأدب العجيب توجد لدى ج. كاركوبينو J. Garcopino الذي يبرر فرضياته الخاصة الجريئة بالـ « حدوس العبقرية » الواردة في كتاب: ا.ف. غوتيه E.F.Gautier : مراكش القديمة ، منشورات غاليمار ، باريس ١٩٤٤ ص ٣٠٠ ؛ وهو ما جعله يكتب طبعاً أن المسعودي كان يعيش في القرن الرابع عشر بدلا من القرن العاشر (ص ١٣٨) وأن ثورة الخوارج نشبت عام ٦٥٧ ھ قبل الفتح الحقيقي المغرب (ص ٢٩٩) . أما ش.كورتوا Ch. Courtais الذي يسخر بحق من تلك الـ « حدوس العبقرية » في كتابه : الفاندال وأفريقيا (ص ٣٦٤) إلا أنه يلجأ مع ذلك إلى نفس السياسة مع ج. مارسيه G.Marcais (ص ٣١٨) عندما يحتاج إليها . ولا حصر للأمثلة التي يشار فيها على القارىء بالرجوع ، في هامش ، لتبرير حكم جريء ، إلى عمل هو نفسه أكثر افتراضاً . فإن علماء ما قبل التاريخ يردون إلى علمـاء العصور الوسطى ومؤرخو العصر الحديث إلى مؤرخي العصور القديمة والعكس بالعكس إلى ما لا نهاية .

جيل آخر والزعماء السياسيون والمعلمون ، لا يجد عزاءً إلا بالقول لنفسه أن يقينهم المطمئن ليس ، بعد كل شيء ، أقل ثبوتاً من يقين خصومهم الذين كثيراً ما يبجلونهم أكثر من الحقيقة [١] . ولا شك في أنه سيكون علينا ، زمناً طويلاً بعد ، بقوة الأشياء ، أن نعاني من هذه الضلالات ولا بد من أكثر من نقد مجرد واحد لتأسيس تاريخ علميّ [٢] . فلماذا إذن هذا الكتاب ؟

لأن تجربة في التعليم بجامعة أمريكية ، أقنعتني ، بصفة أساسية ، أن إهمال الكتب الاستعمارية في تاريخ المغرب لا يحول دون أن تؤثر أعمق تأثير في الباحثين المتعطشين للاطلاع والمعدين إعداداً سيئاً جداً لممارسة محاكمتهم الخاصة. فان القضايا التي يسوقها مؤلفو هذه الكتب أنفسهم كنتائج جزئية وعابرة ، تؤخذ من قبل قراء عجلين على انها محصلات إجمالية ونهائية . وعليه نجد الباحثين الأمريكيين ، ومعظمهم من الشباب يجهلون العربية والبربرية ، يهتمون قبل كل شيء بالحاضر ، لا ينظرون إلى التاريخ إلا على أنه مقدمة ملائمة ومطلوبة ، بصورة أكاديمية ، للأعمال السوسيولوجية ولفهم السياسة ، يميلون إلى المبالغة في تقدير كل ما هو مكتوب بالفرنسية وليت حالتهم تكون الوحيدة [٣] . ففكرت أن تقديم وجهة نظر أحد المغاربة في تاريخ وطنه أمر

---

(١) راجع علال الفاسي : تاريخ حركات الاستقلال في المغرب العربي ط ٢ ، بالعربية ، طنجه ١٩٥٧ ومحاولته في الفصل الافتتاحي لـ : ا.ـ ف. غوتيه E.F. Gautier الذي يسميه علامة .

(٢) ذلك هو النقد الذي يمكن توجيهه إلى محمد السهلي في كتابه « تحرير التاريخ من الاستعمار » ، باريس ، ماسبيرو ط. ١٩٦٥ ، الذي كأنه يعتقد بأنه يكفي إظهار افتراضات التاريخ الاستعماري الأيديولوجية لكي يتم تحرير التاريخ من الاستعمار . إنها حقاً مرحلة ضرورية ولكنها غير كافية . وإني وأنا آخذ بمشروع السهلي لأتميز عنه بعدم الادعاء بأنني أقدم تاريخاً محرراً من الاستعمار موضوعياً ، ولكن فحسب « قراءة » لهذا التاريخ الذي أقر شرعية مشروعه بالتأكيد على أنه ، في أسوأ الحالات ، لن يكون أكثر أيديولوجية من تاريخ المستعمرين .

(٣) نذكر جان س. نيكيرسون Jane S.Nickerson في: A Short History of North Africa ، نيويورك ١٩٦١ ؛ كذلك ش. ف. غلاغير Ch.F. Gallagher في كتابه: The U.S. and North Africa.1963 ؛ وكذلك و. زارتمان W. Zartmann في كتابه : Marocco, Problems of New Power نيويورك ١٩٦٤ دون أن ننسى ن.ناربور N.Narbour في كتابه: Survey of North - West Africa,1962 وهو ترجمه لمقالات فرنسية .

يستحق الجهد ، حتى وإن كان لا يمكنه أن يجلب على صعيد البحث إلا قليلا من الجديد وحتى إذا لم يكن عليه أن يختلف عن المؤرخين الاستعماريين إلا بتفسير بعض الوقائع .

بيد أن هذا السبب ليس وحيداً : إن أذهان شباب المغرب أنفسهم ملبدة بمشاكل الحاضر – الاقتصاد ، علم الاجتماع ، السياسة ... – فان دراسة الماضي ، تبدو لهم محاصرة سلبية بعيدة المدى ؛ منهم يحيلون عن أنفسهم هذه المهمة إلى الأجانب دون أن يسألوا أنفسهم ما إذا كانت الصورة التي يرسمها هؤلاء الأجانب لماضيهم ، لا تستطيع ، على المدى الطويل ورغماً عنهم ، التأثير في صياغة حاضرهم . هذا يسمح ، إذا ضم إلى أسباب أخرى ، بإدراك أن التاريخ ، وبخاصة تاريخ الحقبة ما قبل القرن التاسع عشر ، يبقى أقل الميادين التي نحس فيها بأثر زوال الاستعمار . لقد أدخل الاقتصاديون وعلماء الاجتماع ومهندسو المدن والجغرافيون وحتى الأدباء والفنانون في رؤاهم وفي طرائقهم هذه الواقعة الجوهرية في منتصف القرن العشرين ألا وهي نهاية الأمبراطوريات الاستعمارية . إلا أن معظم مؤرخي المغرب وحدهم ، ولاسيما مؤرخي الحقب السابقة للأزمنة الحديثة [1] ، شذوا في ذلك ويكفي للتأكد حضور أي مؤتمر منظم في أحد بلدان البحر الأبيض المتوسط . وما من شك في أن الخطأ في هذا يعود إلى عدم اهتمام المغاربة أكثر منه إلى سوء الفهم لدى المؤرخين الأجانب .

على أن التجربة السياسية نفسها ، بعد خمود الحماسات ، تذكّرنا ، بالحاف متزايد ، بشغل البنى الموروثة وقيمة الأجيال الزائلة . كل يوم ندرك أكثر فأكثر ضرورة مساءلة الماضي في ظاهرتين كالوسواس في حياتنا السياسية والفكريه : التخلّف التاريخي وتعويضه الواعي ، أي الثورة. في الصفحات التالية سأنتقد كثيراً من المؤرخين الأجانب ، وبقسوة شديدة ، لئلا أحس باضطراري إلى الكشف منذ البداية عن الأسئلة التي لن أنفك عن طرحها على التاريخ المغربي : فما هو العمق والتكوّن والتحليل الدقيق

---

(١) كان تاريخ أفريقيا السوداء أقل تعرضاً على هذا الصعيد لأنه المحظورات والأحكام السبقية التي كان عليه هدمها أقل ، بالنظر إلى أنه كان مهملا طيلة الحقبة الاستعمارية . وقد انطلق مع عمليـة نزع الاستعمار وتأثر مباشرة بذلك .

لما سوف يكون في فترة من الفترات « تخلفاً يجب إستدراكه » [١] .

في الوقت الذي يكون فيه درساً يحافظ بالضرورة على وجهه التربوي وإعادة نظر فاحصة لما سبقت كتابته فإن هذا الكتاب سيكون « قراءة » للماضي المغربي . ولعله يصبح من هنا متنافراً بعض الشيء ؛ سوف تختلف اللهجة من مكان لآخر إلا أن المسألة الرئيسية ستبقى ثابتة لا تتغير على مدى الصفحات . ليس المطلوب هو إعادة رواية التاريخ في حد ذاته ، وإن كان من غير الممكن الاستغناء تماماً عن ذلك ، بقدر ما يعني أن تكون العلاقة التي يجدر بابن المغرب اليوم ، الحريص على مستقبله ، أن يواصلها مع مجموع ماضيه . وعلى نحو ما ستتابع هذه الدراسة ، في حالة محـــددة ، وصف الترابطات بين الاستمرارية والانقطاع ، الذي أعلنته في مكان آخر [٢] . فإن المغاربة وماضيهم ، إذن ، هم الغاية التي يجب أن ترجح في كل لحظة .

لا ريب في أن تبرير محاولة طموحه إلى هذا الحد ، بتواضع ، مسألة عسيرة ؛ إن أقل المواقف غموضاً هو ببساطة أن يطالب المرء لنفسه بالحرية التي مارسها الآخرون بالإمعان بالبحث في ما لا يهمهم كثيراً . فعندما يتوفر لمعهد للعلوم التاريخية أن يجد النور في المغرب ، حيث يستطيع الباحثون ، إذ يجمعون معرفة خاصة بالوسط والمصادر المحلية المستندة إلى نزعة نقدية لا هوادة فيها إلى الحماسة المشبوبة بالآفاق الجديدة لتاريخ شامل ، إعطاء التاريخ المغربي إيضاحه الذي يأمله كل منا [٣] ، عندئذ لن يجيز

---

(١) راجع مقالتي : « ماركس ومثقف العالم الثالث » في ديوجين ، عدد أكتوبر — ديسمبر ١٩٦٨ ص ١٣٤ وما بعدها .

(٢) راجع : عبدالله العروي : الأيديولوجية العربية المعاصرة ، باريس ، ماسبيرو ، ١٩٦٧ الجزء الثاني .

(٣) حتى الآن استأثر بهذا الدور كتاب ش. أ.جوليان Ch.A.Julien : تاريخ أفريقيا الشمالية ، منشورات بايو Payot . فلا مناص لمن يكتب في الموضوع من ضرورة تحديد موقفه من هذا الكتاب. ولا بد قبل كل شيء من الاعتراف له بدور تاريخي كبير : وهو أنه أفاد ويستمر في الإفادة كمرجع للمغاربة ولغير المغاربة على حد سواء . بيد أن كل حكم على عمل جوليان يكون عسيراً لأنه ليس من السهل القيام بالتمييز بين أول إيضاح منشور عام ١٩٣١ والتصرف الذي نجم عنه في إعادة الطبع عام ١٩٥١ . صحيح أن ما من مغربي ، شابـــاً كان أو شيخـــاً يستطيع أن يحكم بالعدل تماماً على الشجاعة الفكرية التي احتاج اليها الرجل=

أحد لنفسه المضيّ بالعمل في إطار الفردانية العتيقة . وبانتظار ذلك ، ليس من المحظور على أي إنسان ، يقبل ما في المحاولة من مخاطر ، أن يسائل الماضي لكي يتخيل صورة مستقبل ممكن .

٢ – فكرة المغرب :

من الوهم أن نتوخى الكشف عن تاريخ المغرب منذ بدايته والاقتناع بأننا نستطيع أن نضع أنفسنا مكان المغاربة الأوائل ، مشاهدة ميلادهم في التاريخ ، كما جرت العادة بالبدء في وصف البلاد والناس والمجتمع .. الخ . ذلك أن هذا الجزء يكون في الحقيقة ، عندما يرتكز على نتائج مسلم بها ، تاريخاً طبيعياً ، وعندما يكون افتراضياً ، شأنه هنا ، فإنه يشيع في الحال جميع الأحكام الأيديولوجية المسبقة من الحقبة الاستعمارية .

الواقع ، أنه لا بد من أن نلاحظ ، منذ البداية ، أننا في أشد الحرج . فإلى أي جزء

=المناضل ، والمؤرخ للعمل على إظهار كتاب كهذا في السنوات التي رأت الإحتفاء بفخفخة عظيمة بذكرى مرور مائة عام للاستيلاء على الجزائر . فان مقارنة سريعة بمحتوى كتاب مثل تاريخ ومؤرخو الجزائر ، منشورات بلون Plon الذي يعرض وجهة النظر الرسمية سوف تبرز الجدة العظيمة في مسلك ش. ا. جوليان. حقاً أن هذه المحاولة تقع بأكلها في أفق إصلاحي يدير الحوار مع سادة ذلك الحين وهو يقبل نتائجهم الخاصة ؛ حقاً إن جوليان يحاور في كل لحظة قازال Gsell وغوتيه Gautier وألبيرتيني Albertini محاولا أن يظهر لهم بأن نتائجهم الخاصة تقتضي تجديد الرؤية المستقبل وللممارسة السياسية في أفريقيا الشمالية ، لكن زعماء القومية في ذلك العصر لم يتصرفوا في غالبيتهم العظمى غير ذلك . فكل حكم على جوليان عام ١٩٣١ هو بقوة الأشياء حكم على بورقيبه وفرحات عباس وأصحاب خطة الإصلاح لعام ١٩٣٤ من المراكشيين ، وهذه ليست هنا تحية قليلة توجه لشخص غير مغربي ، وبعد هذا فان التاريخ يحب إيقاع المؤرخين في مقالب وإذا كان الرجل السياسي في شخص جوليان قد تطور بمثل هذه السرعة أكثر من الحوادث فإن المؤلف قد تشبث بعمله ؛ فلم يشأ أو لم تسنح له الفرصة للتخلص من أحكام معينة كانت الحالة في مغرب ما قبل ١٩٣٩ تبررها ، لكنها أصبحت بأكلها مغلوطة تاريخياً بعد عشرين عاماً وهذا هو ما فهمه المسؤلون عن الطبعة الثانية الذين أخرجوا الوقائع حقاً ، لكن حافظوا بعناية كبيرة على تلك الأحكام نفسها التي مضى زمنها. ومن حقنا اعتبار أن هناك كتابين مختلفين ، حتى وأن حملا نفس العنوان . ولا تبدو لنا انتقاداتنا لعمل ش. كورتوا Cfi.Courtois ور. لوتورنو R.Le Tourneau ورفضنا المطلق للأيديولوجية التي تحركهما ، متعارضة مع الصداقة العظيمة التي ما زلنا نكنها لـ ش. أ. جوليان ، الإنساني الليبرالي والمناضل ضد الاستعمار الذي كان لمعظمنا أستاذاً وصديقاً . فان الجزء الثالث من الطبعة الثانية ، المنشور على مسؤوليته وحدهـا وف يساعدنا بالتأكيد على إرساء حكمنا نهائياً على عمله كمؤرخ .

من العالم ينتمي هذا التاريخ الذي نرويه ؟ إفريقيا الشمالية وهو تعبير ينتقده الجغرافيون ؛ أم لشمال — الغرب الإفريقي ، وهي عبارة ، أدق جغرافياً إلا أنها تمليها اعتبارات سياسية معاصرة ؛ أم لبلاد البربر وهي تسمية ذات استخدام مرن تعددت أقداره منذ بداية الأزمنة الحديثة ، ثم أهمل في نهاية الأمر لأنه كان يحتمل مضامين سياسية إن لم تكن عرقية ؛ أم للمغرب ، تلك العبارة العربية المبهمة ، التي يمكن أن تفيد ، لأنها أجنبية ، في لغة أوروبية ، وإن كانت غير مستعملة في العربية ، حتى وإن حددت بدقة مع الأوصاف العربية أو الإسلامية [1] . الأمر الذي نستخلص منه أن هذه الصعوبة تدل على اصطناعية المشروع . على أننا ، عندما نرى الأخطاء ، المثيرة للسخرية أحياناً ، التي يقع فيها التاريخ المحلي كالتخاصم حول أمبراطور أو كاتب أو حتى الاضطرار لاعتبار قرارات متعلقة بأراضي فيما وراء الحدود التي لم تحدد بعد [2] كما لو كانت صادرة عن سياسة أجنبية ، نتأكد من أن النظرة المحلية لا تقل عسفاً عن النظرة التوحيدية .

إن البدء بتأريخ لنتاج المؤرخين الرسميين يكون بالتأكيد هو العمل الأمثل ؛ تتبّع ميلاد فكرة المغرب نفسها والنظر إلى كيف آل الأمر بنعت إلى أن ينتهي إلى التحول إلى موضوع . غير أن هذا التأريخ لأعمال المؤرخين ليس بلا شك أسهل من الآخر الذي يطمح بأن يكون على مستوى الفعل التاريخي نفسه ؛ حتى ليكون ، أحياناً ، من المستحيل متابعته في مساربه والتواءاته وفي إشكالاته ؛ لكن له ، على أية حال ، شرف عدم الاخفاء بأنه هو نفسه حبيس تاريخ معيّن وأنه لا ينشد الدوام ولا إلى التفرد .

(١) إن عبارة المغرب هي التي ستستخدم على مدى هذه الصفحات بطولها إلا عندما تضطر ضرورات الجملة إلى الاستعانة بالتعبير الجغرافي : شمال أفريقيا ؛ كذلك سوف يفضل نعت المغربي على جميع الأوصاف الأخرى إلا عندما يضطرنا المضمون إلى استعمال وصف بربري خاصة في الحقبة السابقة للاسلام .

(٢) أكثر الحالات المتواترة هي : حالة الموحد عبد المؤمن الذي يتنافس عليه الجزائريون والمراكشيون وحالة المؤرخ ابن خلدون الذي يتنازعه الجزائريون والمراكشيون والتونسيون . راجع هـ. تيراس H. Terrasse الذي يعتبر سياسة المرابطين أو الموحدين ، في الأندلس سياسة أجنبية بحسب أصول التاريخ الدبلوماسي للقرن التاسع عشر .

بيد أنني لم أستطع التحول عن مواصلة هذا المنهاج بكل قسوته ، بصفة أساسية لأنه مبشر ، لكن خطة التوضيح المختارة تبقى أمينة على إلهامها نفسه وعليه تفرض على الكتاب بكامله تلك الرؤيا للتاريخ من حيث هو نتاج مؤرخين . فعبارة المغرب المنتقاة ، لعدم توافر الأفضل ، لن تلقى القبول جغرافياً ، لكنها تجد معنى تاريخياً وديناميكياً بصفة أساسية : في كل حقبة سوف يكون ثمة تمييز بين وسط ومحيطه ، بل قد يمكن التحول بين تاريخ وما قبل هذا التاريخ . سيتوقف النظر في كل حقبة عند مدينـــة (قرطاجنة ، القيروان ، فاس) وعند إقليم (إفريقية) وعند سلطنة أو أمبراطورية (الموحدين) تاركاً في اللامنظور ، المجهول ، جزءاً كاملا من الشمال — الإفريقي الجغرافي . ولا ريب في أن المجال التاريخي ، يمضي متزايد الاتساع حتى يغطي كامل المنطقة في القرن العشرين ، لكن أي تاريخ مغربي ، قبل هذا الزمن يكون ، بتعريفه نفسه ، تاريخاً ناقصاً ، من مجرد وجهة نظر التوسع ، من دون الكلام عن الفهم . إنه لأمر مؤسف ، لكننا يجب أن نسلم به ؛ بل لا بد كذلك من تحديده دائماً ، إذ غالباً ما يؤخذ الجزء على أنه الكل أو أن يعارض كلا ما زال مجهولا حتى الآن بجزء يمكن معرفته على أية حال [1] . وهذا الفصل بين المجال التاريخي وتبعيته يتأتى من أن التاريخ لم ينشأ من هذا الجزء من العالم ومن أن « الحضارة » قد جاءت إليه من مكان آخر ومن أنه لا سبب لوجوده إلا بقدر الرؤية التي تبالغ في تقدير التاريخ . ولن يكون هذا الافراط في تقدير التاريح كما يسميه مؤرخو ما قبل التاريخ وعلماء السلالات ، موضع بحث في هذا الكتاب . لعل مغاربة آخرين يقومون به ذات يوم وعليه يصبح تاريخ المغرب بأكمله منفصلا عن المركز . وبانتظار ذلك فإنني أحافظ على بقاء هذا التاريخ منجذباً باتجاه شرق البحر المتوسط ؛ إنه يبدو عندئذ ولأحقاب طويلة ، كأنه تاريخ — لموضوع ، تاريخ أرض تتفتح ، تُستغل ، « تحضّر » ويصبح التعارض بين التاريخ وما قبل التاريخ هو تاريخ الجزء المحتل نفسه من المغرب أو ببساطة الجزء الواقع

---

(١) هذا ما فعله ج. كامبس G.Camps الذي سوف تكون لدينا الفرص مرات عديدة لنقده فيما بعد ، فهناك في المغرب تاريخ وتاريخ بدائي ، لكنهما يشيران قبل كل شيء إلى مرحلة من معرفتنا قبل أن يكون هناك مدلول بنيوي وحتى عندئذ لا ينبغي المبالغة في تقدير لا هذا ولا ذاك .

تحت السيطرة والجزء الخارج عن السيطرة . ومع ذلك فلا يبالغ في تقدير أي من الجزئين بالنسبة للآخر .

عليه يمكن أن نميز حقبة طويلة لا يمكن أن ينظر ، طوالها ، إلى المغرب باعتباره موضوعاً صرفاً ، إلا بأعين فاتحيه الأجانب . ولا يمكن لتاريخ هذه الحقبة إذا أردنا روايته مباشرة ، من دون أن ننقده ، إلا أن يكون تاريخ الأجانب على هذه الأرض الإفريقية . وأياً ما كانت مسايرات البعض والبعض الآخر للفاتحين الذين يفضلونهم ووفرة الوثائق التي وصلت إلينا وقيمتها الأدبية والوقائع المأساوية لفترات معينة، فالقول بأننا قد ميّزناه كثيراً حتى الآن ، أمر لا يعدو الحقيقة [1] . وأياً ما كان الزمن الختامي الذي نحدده لهذه الحقبة (أقترح أن يكون منتصف القرن الثامن بعد الميلاد) فإن المغرب يأخذ بالتخلص من حالته كموضوع ، بالتعرف على نفسه في حركة أيديولوجية ذات خاصية دينية ، تولّد دول — المدن وإمارات وبالتالي أمبراطوريات ، فيختلط تاريخ المغرب بتاريخ تلك الحركات الأيديولوجية حتى القرن الرابع عشر . ويمضي نتاج المؤرخين بمعناه الضيق ، متنامياً مع السلطات التي لن تدين بشيء للانشقاقات الدينية ، متخذاً باديء ذي بدء حياة عواصم السلطنات (فاس ، تلمسان ، تونس) موضوعاً له ، ثم ينحل في التواريخ المحلية : الأقاليم ، المدن الثانوية ، الجمعيات الدينية والأسر . وفي الفترة نفسها تنعكس العلاقات مع عالم جديد يتزايد خطره في روايات الأسفار والأسر والسفارات . وبدءاً من القرن التاسع عشر يظهر نتاج كل من فئتي المؤرخين : الاستعماريين والقوميين فتتعارضان فيه وتتجادلان ويأخذ في التطور في اتجاهين متعاكسين ، إن لم يكن ذلك في جميع أوجههما فعلى الأقل في تعبيرهما عن الحقيقة الواقعة . فان نتاج المؤرخين الاستعماريين في بداياته كان أكثر مطابقة لموضوعه على حين أن نتاج المؤرخين القوميين يجد محتواه في نهاية السيرورة .

---

(١) ثمة التواء دقيق إلا أنه خطير في إعطاء تاريخ المغرب القديم نفس الأهمية ، المعبر عنها في عدد من الصفحات ، المعطاة للتاريخ الإسلامي ، على نحو ما يفعل ش. أ. جوليان ، لأن قيمة الحقبتين مختلفة ، مهما قلنا في ذلك .

سيكون من الضروري ، بالتأكيد ، أن نبرر ، حقبة ، حقبة ، القطيعة وتوالي الاتصال ، ولا سيما التماثل الملتمس بين سياق نتاج المؤرخين والتطور التاريخي ؛ ولا بد كذلك من التأكد من أن المقصود هو تقسيم حقيقي إلى حقب يتيح لنا أن نفرق بين المستويات المتعاقبة للاقتصاد والمجتمع والتنظيم المتعلق بالدولة والثقافة والنفسية ؛ وهذه النقاط سوف تناقش في النتائج الجزئية . في جميع الأحوال سوف يسمح مثل هذا العرض أن نتجنب على الأقل ، عثرات عديدة .

أولها هو المجاورة بين العصور وفقاً لمعيار جغرافي أو سلالي أو عرقي ، شأن الترنيمة التالية : عصور ، بونية (قرطاجية) رومانية ، فندالية ، بيزنطية ، عربية ، تركية ، فرنسية .. ، التي لا شك ، في معايبها . وثانيها وهو أكثر براعة ، لأنه، في الواقع مقبول لدى معظم الكتاب وقرائهم والذي في وسعنا أن نسميه الأسطورة الثلاثية وهي في نفس الوقت من أصل جامعي وذات استخدام أيديولوجي . من الناحية الجامعية تنجم عن التقسيم القدوس : تاريخ قديم ، وسيط ، عصور حديثة ، عصور منفصلة بالاجتياحات البربرية وحركة النهضة ؛ وهذا التقسيم إلى حقب تجري المحافظة عليه في مقابل التلاعبات ، الخفيفة حيناً والجسيمة حيناً آخر التي يحل بها الفتح العربي في القرن السابع محل اجتياحات القرن الخامس ، ويقوم الفتح التركي في بداية القرن السادس عشر أو حتى الفتح الفرنسي من التاسع عشر ، مقام النهضة . وراء هذه المنهجية ، ثمة سياسة ، تختفي بالتأكيد : الرغبة في تصور المغرب على أنه أرض المنازعات بين كيانين ، موجودين في كل مكان ، وغير محددين أبداً : الشرق والغرب ، ليس الدينان : المسيحي والإسلامي واللغتان : اللاتينية والعربية [1] سوى مظاهر لهذين

---

(١) سيعثر القارىء مرات عديدة في الصفحات التالية على دحض هذه الفكرة . وقد أخذ بها علال الفاسي ، لكن مع ناحية مختلفة بمعارضة الفكر اللاتيني بالفكر اليوناني الذي هو في جوهره نفس فكر حضارات شرق البحر الأبيض المتوسط الكبرى . وهذه النقطة لم توضح بما فيه الكفاية من جانب ج. فون غرونيبوم G.Vone Grunebaum في تحليله لعلال الفاسي في كتابه Modern Islam, Vintage Books, NewYork, 1964 ص. ٣٢٨–٣٣٠ . كذلك لجأ جاك بيرك J.Berques إلى نفس الأسطورة في كتابه : المغرب بين حربين ، باريس ، ١٩٦٢ عندما تكلم عن : « إعادة فتح أبدية » متكررة والذي يقارن المغرب بـ « أندلس فقدت مرتين » (ص ٤٢٤) .

الكيانين . إن أصحاب الشأن يقبلون هذا التقسيم الثلاثي لكنهم يقلبونه ، في إطار أضيق ، محدود بانتشار الإسلام : فهم يميزون بين حقبة كلاسيكية طويلة تمتد من القرن السابع إلى الرابع عشر ، تتعاقب داخلها حقب من الإعـداد وبلوغ الذروة والانحطاط ، تتلوها حقبة طويلة من الاختفـاء عن المسرح حيث ينزل بعضها تلو بعض : هزائم في إسبانيا ، تعديات أجنبية على الشواطىء ، تصدعات الدول ، خمود ثقافي يعوض هو نفسه بالتجديد الثقافي في نهاية القرن التاسع عشر الذي يدع وجود المستعمر الثقيل في زوايا النسيان . حقيقة إن هذين التقسيمين إلى حقب يوضحان انقطاعات حقيقية متواترة ينبغي تحليلها ، لكنهما إذ يقيّمانها ، وإن كان بصورة متناقضة ، يشوهان طبيعتها . الحاصل أن كل تقسيم حقبي ثلاثي يحتفظ بأثر من مغزاه الصوفي ويجب تجنبه بأي ثمن .

بانتظار أن يتطور نتاج للمؤرخين اقتصادي واجتماعي فإن فائدة اتخاذ التقسيم الحقبي لنتاج المؤرخين السياسي كوسيلة لترتيب التاريخ نفسه ولعرضه تخلصنا على الأقل من منهجية الازدهار والانحطاط هذه التي كثيراً ما تستحيل إلى سقوط وإلى افتداء . فالمسألة ، ليست ، بالطبع ، أبداً أن نمزج منطق العرض بمنطق الوقائع نفسها .

المغرب تحت السيطرة

١ ــ البحث عن الأصول

كل إنسان يعلم بأن معرفة التاريخ تتبع طريقاً عكسياً لسير الحوادث ؛ فإن الحقبة الأكثر بعداً عنا ، من الماضي المغربي ، السابقة على المؤسسات الفينيقية الأولى في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد ، هي التي كانت أشد تأخراً بدخولها إلى ميدان الدراسات الموضوعية . كذلك هو شأن مجال البحث الاستعماري الذي لا نزاع فيه . فالمغاربة ، القدماء منهم والمحدثون ، يملكون أشياء قليلة جداً موضوعية يقولونها في هــذا الموضوع ؛ وهو أمر طبيعي ، ما دام أن عمر علم أصول الإنسان هو أقل من قرن .

لمدة طويلة كانت دراسة هذا العصر تابعة للعصور القديمة الكلاسيكية ؛ وحتى الحرب العالمية الأولى وهو الزمن الذي فرض ستيفان قزال St. Gsell نفسه فيه استاذاً لتاريخ عصور ما قبل الإسلام في المغرب فإن الطرائق الموضحة من قبل مؤرخي عصور ما قبل التاريخ والنتائج التي كانت ثمرتها في المغرب ، لم تخدم إلا في التحقيق في المعطيات الأدبية . وبعد عام ١٩٣٠ أحرز تاريخ عصور ما قبل التاريخ المغربية خطوات كبرى على طريق التقدم وعادت المكانة التي استأثر بها قزال Gsell بحق ، بعدئذ إلى ل. بالوت L.Balout . إلا أنه ، إذا كان ثمة تغير في الرؤية قد حدث ، وإذا كانت الوثيقة الأثرية قد تقدمت على الوثيقة الأدبية ، فإن ما يربط بين التيارين من المقدمات الأيديولوجية أبعد من أن يمكننا من الكلام عن تجديد حقيقي . إذ ثمة أفكار مسبقة عديدة ، موجودة في بدء كثير من تشويهات التاريخ المغربي ، والتي سنتناولها فيما بعد في مناسبات عديدة بالنقد ، تدين بوجودها لاختصاصيي هذه الحقبة ؛

وهو ما يكون مرة أخرى أمراً طبيعياً بما أن هؤلاء الاختصاصيين يأتون في نهاية الدورة .

يطرح مؤرخو عصور ما قبل التاريخ المغربية ، عادة الأسئلة التالية : هل حدث تغير في مناخ شمال إفريقية ؟ من أين قدم البربر ؟ ما هو أصل لغتهم ؟ ما هو مصدر ثقافتهم بالمعنى الأمريكي ؟ ويخضع كل سؤال والأجوبة المختلفة التي تُعطى عليه ، على التوالي ، لاعتبارات علمية بقدر ما يخضع لاهتمامات أيديولوجية ، توضح توالي النظريات التفسيرية بسهولة أكبر وبالتأكيد مما قد تفعله ملاحظة تقدم العلم الوضعي .

منذ البداية يجد المرء لدى ستيفان قزال St. Gsell ما يعبر بوضوح عن هذا الاهتمام الأيديولوجي : « المقصود أن نعرف ما إذا كان السبب الرئيسي لهذا الازدهار (في الحقبة الرومانية) مناخاً أكثر ملاءمة للثقافة من مناخ اليوم أو ما إذا كان خاصة من صنع ذكاء ونشاط الناس ، وما إذا كان علينا أن نقتصر على التحسر على ماض لا يتجدد قط أو أن نسأله على العكس دروساً مفيدة للزمن الحاضر » [1] . وقد بقي هذا السؤال دارجاً حتى عشية الحرب العالمية الثانية ، إلا أن الإجابة عليه كانت تجري ، بصفة عامة ، بحذر شديد ، كما فعل س. قزال St. Gsell ، إنه كان قد حدث قليل من التغيّر ، وهو ما كان يتفق مع الحكم الأيديولوجي المسبق . وانطلاقاً من الثلاثينات ، أخذت ترغم الاكتشافات المتزايدة لفنون النحت في الصخور ، الرامية إلى البرهان على وجود صحراء أميل إلى الخضرة ، على الأقل في بعض أجزائها وفي عصر لا يبعد كثيراً عنا (على مستوى الألف لا عشرات الآلاف) ، بعض العلماء على الرغم مما بينهم من اختلاف كبير على الاستخدام الملائم للصور والرسومات الصحراوية ، على الاعتراف بميل إلى الجفاف [2] . لكن هذا البرهان أقل من أن يقنع

(١) س. جيزل St.Gsell : التاريخ القديم لإفريقيا السوداء ج ١ ص ٤٠ .

(٢) راجع ا.ف .غوتيه E.F.Gautier الصحراء ، منشورات بايو ١٩٢٨ص.ص٥٩–٦٩؛ و ه. لاهوت H.Lhote في الكشف عن جدرانيات تاسيلي ، طبعة أرتو ١٩٥٨ ، كذلك ل.ك. بريغ L.c. Briggs قبائل الصحراء ، ١٩٦٠ ص.ص ٣٨– ٣٩ ؛ ر .كابوت راي R.Capot-Rey الصحراء الفرنسية ١٩٥٣ .

الجميع ، لذا ثمة عدم اهتمام بإزاء المسألة بدأ يظهر لدى المختصين ؛ واستمر الهواة وحدهم في نشرها . بيد أن المهم هو ملاحظة أن تركة هاتين الرؤيتين تعكس رؤية أخرى نراها في مخططات أخرى ، هي رؤية تفاؤلية يتبعها تشاؤمية عميقة فيما يخص المصير العام لإفريقيا الشمالية .

يلاحظ التطور نفسه فيما يتعلق بأصل البربر [1] . فقد شهدت الحقبة الاستعمارية مدرستين تتجابهان : المدرسة التي كانت تريد ربطهم بسكان أوروبا والتي تريد أن تجعل منهم متحدرين من الشرق الأوسط . وفي الوقت الحالي تميل الدراسات الأنتروبولوجية والمكتشفات الأثرية ، مع إبقائها على هامش كبير من الشك ، إلى إثبات قدم سُكْنَى المغرب وتنوعها في آن واحد.فلم يعد احد يعتقد بحداثة العناصر الزنجية والـ « شقراء » ، ولا بأن التنوع الانتروبولوجي بالتالي ، كما وصف في مطلع القرن ، يعبر عن تعاقب موجات الغزاة قريبة العهد منا . والفكرة الرامية إلى أن تكون شاملة [2] هي أن معظم السكان متكوّنون من خليط استقر في العصر الحجري الأخير (الحجري المصقول) ، من السكان القدماء لعصور البحر الأبيض المتوسط القديمة ، ومن مجموعتين قادمتين ، كليهما من شرق البحر الأبيض المتوسط بآسيا الغربية ولكنهما دخلتا إلى المغرب من طريقين مختلفين : أحدهما في الشمال الشرقي حيث مال بها إلى البياض والآخر في الجنوب الشرقي ، بعد أن قام بدورة كبيرة في إفريقيا الشرقية حيث تهجن بالسود. وأياً ما كانت درجة الصحة العلمية في هذه النظرية ، فالملاحظ أنها لم تعد مستبعدة للبت في الاتجاه إلى أصل غربي أو شرقي للسكان كلهم ؛ إنها تسجل التنوع الحالي وتسقطه حتى على أزمنة ما قبل التاريخ .

---

(1) تقدم مقالة « البربر » في الأنسكلوبيديا الإسلامية ط ٢ ص ١٢٠٨ وما بعدها إيضاحاً لهذه المسألة ؛ كذلك ج. كامبس G.Camps : في أصول البربرية : آثار وطقوس جنائزية، باريس ١٩٦١ ص ١٤ وما بعدها .

(٢) لخصه ش. ا. جوليان Ch.A.Julien في تاريخ إفريقيا البيضاء ، في Call. Que sais-Je,P.U.F.ed.1966 ص ١٧–١٨ . التفاصيل في ل.ك.برايغ L.C.Briggs في كتابه The Stone age races camlr mass.1955 ... ص. ص ٧٢ – ٧٥ .

غير أن الأبحاث في لغة وثقافة قدماء البرابرة آخذة في ترجيح الكفة باتجاه الشرق . ففي موضوع اللغة سيستمر الهواة وحدهم في بناء الفرضيات ، أما علماء اللغة وعلى الأخص أولئك الذين يمارسون الكلام بالبربرية فإنهم يلوذون بالصمت . فلا الأصل الليبي ولا درجة توسعه ولا حتى وجود لغات أخرى للكلام في مغرب ما قبل التاريخ ، تبدو لهم في الوقت الحالي ممكنة التوضيح . إن النقوش الليبية ، حتى المدونة منها بلغتين ، لم يتم التوصل إلى حل رموزها بصورة معبّرة وقد منع هذا الفشل ، في نفس المناسبة ، العلماء من التقدم في دراسة الأبجدية الليبية . إلا أن ممثلي علم اللغات العام يميلون إلى حصر نطاق الأبحاث بما قبل الساميين ، وخاصة في الجنوب العربي. وإذا قبلت هذه الأطروحة فإنها تعمل على الاعتقاد بأن جزء السكان القادم من الشرق الإفريقي هو الجزء السائد . مع أن بعضهم يلاحظ بأن علم دراسة أصل الأسماء الجغرافية Toponymie يقدم الأدلة لصالح مجموعة شرق البحر الأبيض المتوسط الآتين من الشمال الشرقي وعليه يكون قد تم إقرار التوازن على هذا النحو [1] .

أما فيما يتعلق بالثقافة البربرية فقد تم الاقلاع شيئاً فشيئاً عن عادة وضع جميع الاكتشافات التي يدمجها مؤرخو ما قبل التاريخ تحت اسم الثورة النيوليتيكية (العصر الحجري الأخير) لحساب الفينيقيين . كان قزال Gsell يكتب : « إن السكان الأصليين لهذا الصقع لم ينتظروا قدوم البحارة السوريين (!) لممارسة التدجين والزراعة » [2] ولكنه يضيف ، وهذا هو السؤال الذي لم ينفك مؤرخو عصور ما قبل التاريخ يطرحونه على أنفسهم : « هل كان مرد بعض خطواتهم نحو التقدم ، إلى مبادرتهم الذكية ؟ إننا نجهل ذلك » . هذه المكتسبات النيوليتيكية والأينيوليتكية — Eneo lithique هي الآن قديمة في الماضي المغربي ولكن التأثير يظل يسند في قسم كبير منه إلى الأجانب : جيران ، تجار آتون من بعيد ، أو غزاة ... ثم يأخذ الاعتراف

(١) ج. كامبس ، المصدر السابق ص ٣١ حيث يعتمد على قزال بعد أن كان قد أكد فيما سبق بأن الجزء الأول من تاريخه تجاوزه الزمن إلى حد أنه لم يعد هناك من يقرؤه .

(٢) قزال ، المصدر السابق ص ٢٣٩ لملاحظة تلك الإرادة في توجيه الخريطة السياسية القديمة باستخدام التسميات الحديثة .

يتزايد بأن ثمة حضارة نيوليتكية قد تطورت على أساس محلي ولكنها كانت فقيرة إلى حد تكاد معه لا تستحق هذا الاسم ؛ فان التغييرات القاطعة أدخلت من قبل رجال جاؤوا من آسيا مارّين بطريق مصر العليا [١] . وعلى الرغم من مراجعة الأفكار الدارجة في نقاط تفصيلية ، وقد جعلتها الاكتشافات الأثرية ضرورية ، تبقى الرؤية العامة رغم كل شيء هي نفسها . وأكد قزال بأن القمح وبعض أصناف الأشجار والحصان، كلها ، دخلت من الشرق وفي تاريخ قريب العهد نسبياً (الحصان في غضون الألف الثانية) ؛ وهو يؤكد كذلك ، بتحفظ أكثر ، أن النيوليثي (العصر الحجري الأخير) استمر حتّى مطلع الألف الأولى ، إذ انتقل المغرب مباشرة إلى عصر الحديد وقد أدخله الفينيقيون ، من دون أن يكون قد عرف النحاس ولا البرونز [٢] ، وهي فكرة تصبح فيما بعد مشتركة تنتقل من كتاب إلى آخر . إلا أن اكتشاف مناجم النحاس والقصدير ، الذي يهدم إحدى حجج قزال Gsell ، ووجود العجلات ، المعروف قبل قدوم الفينيقيين بزمن طويل والتي يقتضي بناؤها استخدام المعادن وأخيراً اكتشاف النقوش الصخرية في الأطلس الأعلى [٣] قد أنزل ضربة قاسية بقضية القفز عن عصر النحاس والبرونز ؛ ثم صار الرأي القائل إنه إذا كانت المكتشفات النيوليتكية قد أدخلت من الجنوب الشرقي فان مكتشفات عصر المعادن قد أدخلت من الغرب ، وبصفة خاصة بتأثير شبه الجزيرة الأيبيرية ، صار هذا الرأي يصبح مقبولا أكثر فأكثر . فاستبدلت

---

(١) إن الانسان الكابسياني Capsien الشهير في مقابل الانسان Ibéro-Maurusien (الوهراني). وهناك ميل دائماً يقصد منه الايحاء بوجود تعايش بين الاثنين حتّى الألـــف الأول ق. م ، أي أن العصر النيوليثي نفسه (عصر الحجر المصقول) لم يمتد ليشمل المغرب كله . راجع نقد ج. كامبس لهذه الأطروحة في كتابه Massinissa ou les débuts de l'histoire ط ١٩٦٠ ص ١٦٤ .

(٢) أخذ بهذه الفكرة بلا مناقشة في : Caurtais ش. أ. جوليان ص ٤٤ : « إن غياب حقبة إينيوليثية Eneolithique هو في الحقيقة احد السمات المميزة لعصر ما قبل التاريخ في الشمال الإفريقي ». وهي أكثر ظهوراً في كتاب جوليان الآخر : تاريخ إفريقيا البيضاء ص ١٥ : « لئن استورد الغرب النحاس والبرونز من شبه الجزيرة الإيبيرية فان الشرق اضطر (!) إلى الحصول على الحديد مباشرة من الفينيقيين دون أن يعرف البرونز » ، راجع كذلك م. فورون M.Furon في كتابه Manuel de Prehistoire general, Payot 1966 ص ٣٤٨ وما يليها . وص ٤٦٠ .

(٣) راجع : ج. كامبس : «Les Traces d'un age du Bronze en Afr. du Nord» R.A. TCIV,1960 ص. ص ٣١ — ٥٥ في شرح وتفسير مكتشفات ج مالهوم J. Malhomme.

إذن قضية القفزة التاريخية بقفزة من فعل استعماري : أدخلت مواد من النحاس ومن البرونز ولكن لم تدخل صناعة التعدين نفسها . وفي مكان النزاع الكبير ، الذي قابل ، حتى عشية الحرب العالمية الثانية ، القائلين بأصل غربي للبربر ولثقافتهم ، بالقائلين بأصل شرقي ، الأوائل أغلبية بين الهواة والآخرون أغلبية بين العلماء ، حل اعتراف بتعدد الأصول وبالطابع المتجزىء ، والسلبي ، أساساً ، للماضي المغربي[1] وكل ذلك في إطار علم تتضاعف اكتشافاته بلا انقطاع .

* * *

كان علم العصور المغربية القديمة هو علم الإدارة الاستعمارية ؛ اهتم به الحكام والمقيمون العامون شخصياً وكانت مصلحة الفنون الجميلة تتبع مديرية الداخلية طيلة الشطر الأكبر من الحقبة الاستعمارية[2] . فمن الطبيعي إذن أن نكشف فيها تأثيراً مباشراً لأيديولوجية الاستعمار العامة. فالقضية التي تربط البربر بأوروبا ، التي يشيعها عسكريون وموظفون كبار وبعض الصحفيين ، تصدر مباشرة عن السياسة الاندماجية على أساس عرقي[3] ، كما يحلو لرجال ، ما زالوا عميقي الارتباط بأفكار القرن التاسع عشر ؛ جميعهم كانوا يحسبون أن الدمج ليس في الوسع نجاحه إلا إذا كان للبربر مع الأوروبيين أصل مشترك ، مهما كان قديماً وإلا كانت العقوبة هي الدوس بالأقدام . وعندما بدأت هذه السياسة تفقد إغواءها وفعاليتها حوالي عام ١٩٣٠ على

---

(١) إن ما يدافع عنه ج. كامبس في مؤلفاته هي الفكرة العامة : « تجزىء المغرب منذ العصر النيوليثي (الحجري المصقول) ، إبتداء من الألف الثانية بتأثير العمل الاستعماري لمختلف الحضارات الإيبيرية في المغرب والجنوب الإيطالي في الشرق والصحراوي - النيلي في الجنوب ، بالنظر إلى أن المغرب الأوسط هو منطقة انتقال بلا ميزات خاصة » .

(٢) يكفي تصفح قرارات الجمعيات العلمية في إفريقيا الشمالية أو ملخصات المجلات مثل (المجلة الإفريقية (الجزائر) المجلة التونسية (تونس) هسبيريس Hesperis (الرباط) . الخ .. للاقتناع بذلك .

(٣) من قبل كان فايدهيرب Faidherbe يؤكد عام ١٨٦٧ : « أن البربر هم أبناء عمومة سكان أوروبا الغربية القدماء » (مذكوراً في ج. كامبس : Rites et Manuments ص ٢٩). اما بريموند G.L.E.Bremond فانه أوضح أطروحته في عنوان كتابه : بربر وعرب Berbères et Arabes وبلاد البربر بلاد أوروبية : La Berberie est un pays européen,Paris, Payot,1938

وجه التدقيق ، اكتسبت قضية الأصل الآسيوي تأثيراً أكثر فأكثر بفضل علماء كانوا يستطيعون أخيراً التوفيق بين نتائج أبحاثهم والتشاؤم الذي يكتنفها [1]. وليس ابداً من قبيل الصدفة أن يكون أول تعبير علمي رسمي عن هذه القضية محتوى في تقرير مقدم إلى حاكم الجزائر العام في سنة ١٩٤٩ والذي كان، نتيجة لتحريات انثروبولوجية وأثرية منهجية يقضي في الحقيقة على جميع الآمال في دمج نهائي للمغرب بأوربا [2]. وفي عام ١٩٤٨ كان ل. بالوت L. Balout يكتب جملة سوف يعيدها مرة أخرى في عام ١٩٥٥ : « قد يكون إذن منذ آلاف سنيّ ما قبل التاريخ السحيقة ، أن بلدان المغرب ، الملتحمة بإفريقيا وبالشرق ولكنها قادرة على الانفتاح على أوروبا اتخذت هذا الطابع الذي يقعد بها منذ ذلك الحين عن أن تصطنع لنفسها حضارة ما من الحضارات التي كانت موئلا لها ، ولا أن تندمج بلا رجعة بالثقافات الوافدة من الجهات الثلاث التي استعمرتها مرة تلو أخرى » [3]. وعبّر ج. كامبس Camps عن الفكرة نفسها في عام ١٩٦٠ : « فلا هي إفريقية تماماً ولا هي شرق أوسطية بأكملها ، لقد تأرجحت (إفريقيا الشمالية) على مر العصور في البحث عن مصيرها . » [4] إنه لتشاؤم مؤلم يحس الانسان به حسرات عميقة لا تستطيع الإقرار بوجودها ولا تريده .

لم يقابل المغاربة من جهتهم ، بشيء ، هذه النتائج التي تبدو في حمى من أي نقد بدرع من العلم والتقنية [5] ؛ في الحقيقة لا يسعهم مقابلتها بشيء إيجابي ؛ إن التوثيق

---

(١) هذه الملاحظة تصلح بصورة خاصة بالنسبة لـ إ. ف. غوتيه الذي تخفي إدانته للمغاربة تشاؤماً عميقاً فيما يتعلق بمستقبل الاستعمار الإفرنسي .

(٢) تقرير الدكتور فالوا Vallois أدخل فيما بعد في الطبعة المنقحة لكتاب م. بول M.Baulle ; Hommes fossiles وفي: Prehistoire de l'Afrique du Nord المؤلف ل. بالوت L.Balaut

(٣) ل. بالوت : « Quelques problèmes nord-africains de chronologie prehistorique » R.A.T. XIII, 1948 ص ٢٦٢ وكذلك ص ٢٥٥ .

(٤) ج. كامبس : المصدر السابق ص ٥٧١ .

(٥) إن الكتب المدرسية وحدها تهتم بهذه الحقبة من باب الاضطرار ، آخذة بنتائج كثيراً ما يكون البحث الاستعماري نفسه قد تجاوزها . راجع م. مشرفي : إفريقية الشمالية في الأزمنة القديمة (بالعربية) ، الدار البيضاء ١٩٥٧ ط ٢ ؛ أ. بن عبد الله : تاريخ مراكش ج ١ ، الدار البيضاء، الذي يقبل ويعمل على =

العربي الكلاسيكي لا يمكن أن يفيد وتبدو الجامعات الحديثة غير مبالية بحقبة ترتبط دراستها في نظر الجميع بالسياسة الثقافية الاستعمارية . فتونس وحدها هي التي تبذل جهداً في هذا الاتجاه ، ولكن لدوافع يمليها ظاهراً تشجيع السياحة الأجنبية أكثر من حب الاطلاع العلمي . فليس من الممكن إذن بالنسبة لهذه الحقبة مقابلة الأيديولوجية الاستعمارية بأيديولوجية قومية كما يمكن ذلك بالنسبة للفترات اللاحقة . للأسف إن عدم الاهتمام هذا ليس بلا عواقب ، ذلك أن جميع التشويهات تضرب بأصولها في دراسة هذا الجزء من الماضي المغربي ، دون أن نقدر بأن التقنيات الأكثر تحققاً في التقصي التاريخي تزيّف هاهنا ، على الأرجح ، ألا وهي : علم الأثريات ، علم اللغات ، علم الأجناس ... ، وستكون طامة كبرى على الثقافة المغربية في جملتها إذا كان علينا ، كما فعلنا حتّى الآن ، أن نحصر نفسنا في الوثيقة المكتوبة الملائمة جداً للاخطاء اللاشعورية والكسل إن لم يكن لمجرد عدم الاستقامة الفكرية .

غير أن اهتمام « كلية الجزائر » الأيديولوجي ، وإن كان ما قبل التاريخ ليس مما ينكره ذهنها ، على قدر من الجدية بحيث لا يقتضي الأمر أن يكون المرء مؤرخاً ضليعاً في عصور ما قبل التاريخ لتوضيحه ، فالقارىء العادي ، الانسان المستقيم ، يستطيع بلا صعوبة كشف التغاير الموجود بين نتائج البحث والخاتمات المغامرة التي تنتهي إليها ، ومن الحق أن نطلب من مؤرخي عصور ما قبل التاريخ في المغرب الاكتفاء على الأقل بما يظهرونه هم أنفسهم من فطنة أو يظهره الآخرون عندما يبحثون في أقاليم أخرى من الكرة الأرضية . إنهم مع ذلك أول من أبرز ما تمثله ، من صعوبات الاستخدام ، مصادرهم الثلاثة الرئيسية : النقوش الليبية التي ما زالت رموزها لم تفك حتّى الآن ، والفقيرة ، على ما يبدو ، في معلوماتها ، المصادر الأدبية اليونانية ـ اللاتينية ، ذات التلميحات ، صعبة التفسير ، التي تؤثر الغرابة والمفارقة ، وأخيراً الأماكن الأثرية التي تستمر في معاناة الدمار الذي ألحقه بها كثير من الهواة إلى

=إبراز قضايا الأصل الشرقي للبربر لأنها تتفق مع أفضلياته ؛ ا. عياش : التاريخ القديم لإفريقيا الشمالية ، باريس ، طبعة اجتماعية ، ١٩٦٤ ، الذي يحاول تقديم وجهة نظر جديدة ولكن في حقبة ما قبل التاريخ (ص. ص ، ٩ ـ ١٥) .

حد تمكين المرء من التساؤل فيما إذا كان من الممكن ، في هذه الحالات ، إصلاح أخطاء العصر الاستعماري ذات يوم ، حتى ما اقترف منها بنية سليمة . والصعوبات لا تتوقف عند هذا الحد : ففي الحد الفاصل بين المعنيين بالعصور الكلاسيكية والمستعربين ، الذين وجه إليهم النقد مرات عديدة في الماضي ، أضيف فاصل آخر بين مؤرخي ما قبل التاريخ ومعظمهم من علماء الآثار ومؤرخي العصور السابقة مباشرة لاكتشاف الكتابة ومعظمهم من علماء السلالات البشرية Ethnographe وعلماء اللغات والمتخصصين في العصور القديمة ومعظمهم من فقهاء اللغات . ففي تركيباتهم أو في تفسير مكتشفاتهم ، وبقصد كسب الوقت ، يتظاهر البعض بأنهم يأخذون ما لا يقدمه الآخرون الا كفرضيات على أنه نتائج نهائية ، وبفضل هذا التقديس المتبادل للنتائج ، التي غالباً ما تكون جزئية ومشكوك فيها فرضت نفسها الأيديولوجية الاستعمارية على جميع مستويات البحث التاريخي . وللاقتناع بهذا ، تكفي قراءة قزال Gsell وأن يرى المرء إلى أي مدى كان حذراً ، متردداً في أحكامه التي أصبحت فيما بعد في كل مكان مؤكدة لمكتسبات علمية ونهائية . وعندما يتأمل الانسان في مؤرخي القرون الوسطى الذين ليسوا لا علماء آثار ولا هم من مؤيدي العصور الكلاسيكية وفي الباحثين الحاليين (خاصة الأمريكيين منهم) ، الذين ليسوا مستعربين ولا هم من المعنيين بالعصور الكلاسيكية ولا هم مؤرخون والذين يجدون مدخلهم الوحيد إلى معرفة المغرب في تراكيب التعميم الضخمة ، يمكنه تصور الضرر الذي قد يلحقه أقل تهور في صياغة رأي من الآراء [1] .

إنه لواقع ، مع ذلك أن يكون مؤرخو ما قبل التاريخ غير حذرين ؛ فليكونوا إذن واعين على الأقل بنتائج تقديراتهم الاستقرائية غير المبنية على الملاحظة . فان أخطر عاقبة تمس الرؤية الراسخة في التاريخ المغربي بجملته . إذا أخذنا ج. كامبس

(١) مثل ش. غلا غير Ch Galla Gher الذي يتكلم في كتابه: The United States and North Africa عن المغرب كما يتكلم عن « no idea producing area » وهو لايمنحه غير ٦ شخصيات قيمة ، ٣ في العصور القديمة و ٣ في الحقبة الإسلامية ؛ لا شك لأنه هو يشعر أنه غني بكل ثقافة اليونانيين واللاتينيين وأوروبا الحديثة التي يضمها بلا أية مشكلة .

G. Camps كممثل لهذا النوع من النظر ، للاحظنا بسهولة أن عصور ما قبل التاريخ وتاريخ المرحلة السابقة مباشرة لاكتشاف الكتابة ، والتاريخ نفسه ، ليست بالنسبة له مجرد تقسيمات زمنية متسلسلة أو مراحل من معرفتنا وإنما تقسيمات بنيوية تشمل الجوانب الجغرافية والأنتربوولوجية والاجتماعية — الثقافية ، وبالتأكيد المنهجية . وما زال تاريخ ما قبل التاريخ يهتم اليوم بالصحراء وتبعيتها ، فان معرفته يجب أن تستعين بعلم الآثار وعلم خصائص الشعوب ؛ وما زال التاريخ السابق مباشرة للعهود المدونة الذي يمتد من العصر الحجري الحديث إلى الحضارة المدينية ، يهتم بمعظم السكان الريفيين ، فلا بد إذاً من أن تعتمد دراسته على علم الانسان الثقافي ؛ ولم يبق ، التاريخ سوى دراسة الحضارات المدينية الدخيلة ، من الفينيقيين حتى الفرنسيين [1] هذه الرؤية هي التعبير التكنولوجي عن قضية دارجة تتعلق باستمرار العصر الحجري الحديث ، والتي تتضح كذلك على صعيد التنظيم الاجتماعي في فكرة « تاريخ للقبائل » التي سنناقشها فيما بعد . ولا فائدة من نقد هذه الرؤية ، ما دام طابعها الأيديولوجي الضحل واضحاً للعيان ، لاسيما إذا كان المرء لا يستطيع شأننا في هذه الحالة ، الاعتماد في هذا النقد على براهين من النوع الأثري الذي لا يدحض . يمكن القول ، مع ذلك ، إن هذه القضية ستزداد قيمة في المستقبل ، لعله ينبغي ، للتمكن من استخلاص النتائج التي يضمرها أصحابها ، إثبات أن المغرب ينفرد وحده في هذه الحالة من دون جميع مناطق الكرة الأرضية ، وهو أمر يبدو من العسير تأكيده ، وبخاصة أنه قد يقتضي إقامة الدليل على أن ثمة تأخر ينعكس على جميع مستويات التطور اللاحقة [2] . لنأخذ خلاصة ج. كامبس G. Camps: « ثمة ثورة صناعية ،

(١) كما هو الحال دائماً ، يوجد سند حقيقي لهذا التشويه الأيديولوجي . راجع التوسع في المغرب الثلاثي ، فيما يلي .

(٢) كتب ج. بايود G.Bailloud في La préhistoire, Vol. I, de la Nelle elio P.U.F.، وهي طبعة باشراف أ. لوروا—غورهان A.Leroi-Gourhan ، بعد أن أورد عدة أمثلة عن تأخر في مجال من السهل تعويضه في مجالات أخرى ، فقال: « تظهر الأمثلة إلى حد توجد العصور النيوليثية néolithique والشالكوليثي chalcolhitique والبرونزي متشابكة بدقة ومتداخلة ، منذ أن ترتفع النظرة فوق الاطار المحلي » . (ص ٣٣٥) . ويبدو أن مؤرخي المغرب لما قبل التاريخ لا يحرصون على الارتفاع فوق الاطار المحلي .

شبيهة بالثورة التي حولت أوروبا الغربية في التاسع عشر تجري حالياً مع الجزائر . فلدى الراعي الصغير الشاوي Chaouia الذي ينفخ بعض الألحان بناي من القصب ، وصانعة الخزف في بلاد القبائل التي تزين آنياتها بدوافع تمت إلى آلاف السنين القديمة ، ثقة مطمئنة بالدوام إلى الأبد ، إنهما لا يرتابان في أنهما ينتميان إلى عالم قديم في طريقه إلى الزوال » [١] . حسن جداً ، ولكن إذا كان ذلك صحيحاً عن الثورة الصناعية فكيف لا يكون ذلك أصح أيضاً عن ثورة العصر الحجري الحديث (الثورة النيولية) ، وكيف الأمل بخاصة في تصحيح أخطاء التقصي الماضي بطرائق علم السلالات في عالم سرعان ما تغيره ثورتان تغييراً كاملا . فأغنية الراعي الشاوي تعيد إلى المناقشة كافة الدراسات في ما قبل التاريخ وفي تاريخ الحقبة السابقة مباشرة للتاريخ المدون : التي أريد بها تبرير رؤية للتاريخ المغربي ليست سوى الأيديولوجية الاستعمارية القديمة جرى تلاؤمها مع الذوق الحالي [٢] . ولا شك في أن هذا النقد الصوري الصرف سيتوجه إلى الخلاصات المفرطة في مغايرتها للحقيقة ، لا إلى النتائج الخام للبحث ؛ فان العلم الوضعي سوف يأخذ هو نفسه ، على عاتقه بتجدده ، كما سبق له أن فعل ذلك في الماضي ، تقويض هذه النظريات المتألقة التي يروق للناس نشرها .

والعاقبة الثانية للتقديرات الاستقرائية غير المبنية على الملاحظة التي نعني بها هي في

---

(١) ج. كامبس ، المصدر السابق، ص٥٧١ . فان وجهة نظره هنا تختلف عنها في كتابه : مسينيسه أو بدايات التاريخ Massinissa ou les debuts de l'histoire ص ١٦٤ وقد سبق ذكره .

(٢) القياس الأقرن الذي يراد فرضه علينا هو التالي : إما أنكم تصنعون تاريخ المحتلين الأجانب ، وإما أن تبقوا فقط في إطار ما قبل التاريخ أو ما قبل عهد التدوين . من الممكن رفض الأمرين وهذا ما أحاول عمله . أما أن تكون الحضارة قد جاءت في معظمها إلى المغرب من الخارج فأمر لايمكن إنكاره وليس واقعاً ينفرد به هذا الاقليم . النقطة الجوهرية هي أن المغرب قبل أوجهاً معينة ورفض أخرى منها. ويمكن تبرير تمييز عهد ما قبل التدوين – التدوين كأنه يعكس مراحل من معرفتنا ويقدم إطار ترتيب زمني عام ولكن ليس البتة كتقسيم بنيوي ، لايكون له عندئذ من سبب الا الطريقة المستخدمة التي يقرر بصورة تعسفية على أنها الوحيدة الممكنة . ووراء هذه المحاكمة الدائرية يختبىء الباعث الحقيقي الا وهو رفض الشكل الخاص الذي تم به تبني الحضارة في المغرب . فبطرد التاريخ تماماً من المغرب فإن ما يراد حذفه هو هذا الشكل لأنهم يأسفون أن يكون ثمة شكل آخر قد رجح .

فرض نظرة خطوطية وآلية للتاريخ المغربي كله ، جاعلة بذلك أكثر عسراً بتبني نظرة أكثر خصباً لتقدم متباين سوف تواتينا الفرص مرات عديدة فيما بعد لتوضيحه. حتى إذا كان المغرب قد عرف حقبة طويلة من العصر الحجري المصقول وحتى إذا كان قد بقي خارج عصر النحاس والبرونز (وهي أطروحة مرفوضة من أكثرية المتخصصين في الوقت الحالي) فان النتيجة لا يمكن أن تكون بالضرورة هي ما يعتقدها مؤرخو ما قبل التاريخ المخلصين لأفكار القرن التاسع عشر التطورية: إن التأخر يمكن دائماً أن يعوض ، والأوجه السلبية لا تقضي عليه بالضرورة في جميع مستويات الحياة الاجتماعية وهذا بالتأكيد ما عمل على توضيحه احد علماء السلالات ج. تيون G.Tillion في كتاب لم ينل للأسف الصدى الذي يستحقه ، لأنه كان يبدو أنه يعالج موضوعاً خاصاً جداً ، في حين أنه كان يعطي في الواقع تفسيراً جديداً ، آخذاً في اعتباره الأوجه المتناقضة في كل تطور ، للمجتمع المغربي ، ذلك على وجه الدقة ، الذي يراد إبقاؤه إلى ما لا نهاية [1] في حقبة سابقة مباشرة لعصر التدوين .

(١) كتاب: Le Harem et les causins,paris,le seuil ed.1966 لمؤلفه ج. تيون G,Tillion وهو من أبعد الكتب نظراً ، وأكثرها تجديداً حتى في ميدان الفهم التاريخي؛ لكنه بالنظر لمعاكسته للأفكار المستقبلية وباعتبار أن مؤلفه عثر بالمنطق الداخلي لتحريه للواقع ، على أخصب مناحي الديالكتيك ، فلقد نظر إليه بلا شك ، على أنه مجرد مشروع . ولكن إذا كان جميع المؤرخين غير المغاربة يرفضون ، مثل ج. تيون ، التوسع التخطيطي المبسط فإننا لن نضيع الوقت في نقد هذا العدد من الأفكار المسبقة المزمنة .

٢ – من استعمار الى آخر

– ١ –

في موضوع الحقبة الطويلة التي تبدأ من نهاية الألف الثانية قبل الميلاد وتنتهي في القرن السابع من التاريخ المسيحي والتي شهد المغرب في أثنائها فينيقيين ويونان ورومان وفاندال ، ينزلون على سواحله ويستقرون وأحياناً يتغلغلون بعيداً في أراضيه ، ثمة واقع رئيسي يجب التذكير به في المقام الأول الا وهو أن هذه الحقبة ليست معروفة إلا من خلال الأدب اليوناني – اللاتيني . يصف المغاربة فيها جغرافيون ورحالة بل وأحياناً يرد هذا الوصف في ثنايا حكاية تاريخية ، غالباً ما تكون غير متعلقة بهم ؛ غير أن هناك شعوباً كالقرطاجيين والفاندال يوصفون من الخارج كذلك . وعليه يكون البربر إذاً موضوعاً لمعرفة غير مباشرة على وجهين : إذ يجري التعرف عليهم بأعين القرطاجيين ، الذين تعبّر عنهم هم أنفسهم أعين الرومان ويصبحون الممثلين الثانويين لتاريخ تدور رحاه على أرضهم . وإذا كان من العبث حقاً ، أن يأسف المرء على أمر مألوف جداً في الحوليات البشرية ، إلا أنه من الضروري لفت الانتباه إلى العواقب التي يستتبعها ، فالمؤرخ الحديث هو بخاصة « قارىء » مستعجل ، وعليه أن يمارس على نفسه جهداً فوق طاقة البشر للتخلص من الرؤية الإجمالية التي ترسخها في ذهنه ، على الرغم منه أحياناً ، العادة أو الضرورة إلى أن يتتبع ماضي شعب من خلال ماضي شعب آخر ؛ يحدث له أن يروي ، من دون أن يعلم ذلك ، تاريخ الشعب الثاني وهو يحسب أنه يتكلم عن الأول ، لا سيما إذا كان سحر ملحمة رائعة أغراه بذلك ، وفي حالتنا هذه يعطي الانطباع بأن المغربي ليس سوى شخصية متقطعة

تتضح فيها جميع أخطار بلاد عقوق . وباختصار ، في معظم الكتب المخصصة لهذه الحقبة تقريباً ، فان الكلام يدور دائماً عن روما [1] .

قد يقال إنه ليس هناك سوى الوصف : فماذا تفعلون بالاكتشافات الجديدة في المدونات وفي الآثار والمسكوكات ، المتزايدة يوماً بعد يوم . فعندما يتجاوز المرء خلاصات التعميم ، يدرك بسهولة أن تلك التي لا تقدم أية صعوبة في تحديد التاريخ المعين أو في التفسير ، من بين الوثائق غير المكتوبة ، لا تضيف شيئاً إلى المصادر الأدبية وإن تلك التي تكون قمينة باثراء معلوماتنا هي مستعصية على تحديد تاريخها وعلى التفسير [2] . فان الخرائب الرومانية ذات الاستخدام المدني أو العسكري وقطع النقود والنصب الجنائزية أو التذكارية للانتصارات أفادت المدن وبالتالي التنظيم السياسي والعسكري والاجتماعي للرومان ، في حين أن ما يُدْعَى بالخرائب البربرية لم يكن من الممكن أبداً تحديد تاريخها بيقين ، حتى عندما تكون كالآثار الجنائزية موضوعاً لأكثر الأبحاث استمراراً [3] . ولما كان الاهتمام لا ينصرف إلا إلى الأغنياء فان أي لقية توضع على الفور بحساب الرومان ؛ ففي كل بناء ، وكل قبر ، وكل إعداد مائي وكل سلك نقدي يكون المبدأ فيه هو البحث عن الأصل أو البصمة الرومانية وبالضغط على التفسير يتم التوصل إلى ذلك غالباً . ثمة حركة رد فعل تظهر حقاً من حين إلى آخر ، ولكن هل يمكن استدراك السبق الذي أحرزه دعاة الرومان ؟ فعلى الرغم من كل شيء يظل التقليد الأدبي الكلاسيكي راجحاً ، وعلى القارىء أن يحترس مما ينجم

---

(١) وبخداع البصر ، يعطى للوجود الروماني مدة دنيا من عشرة قرون ؛ الأمر الذي يترك القارىء فيما بعد مذهولا أمام السرعة التي اختفى بها أثره .

(٢) راجع انتقادات ج. كامبس الصحيحة في « ماسينيسا وبدايات التاريخ » ، سبق ذكره ، الفصل الأول ، وش. كورتوا في « الفاندال وإفريقيا » ص. ص ٣٣٤ وما بعدها ورقم ٢ . ومن المؤسف أن خطوة ج. كولوبينو والنفوذ المعترف به حتى الآن لـ Gsell قد حالا بينهما وبين تعميم انتقاداتهما .

(٣) هذا مثل من مائة عن نمط المحاكمة التي تبرر في نظر الكثيرين الأحكام التي لا يجرؤ أحد على الشك فيها ، فقد كتب كوركوبينو في موضوع صفحة من اطلس Gsell الأثري : « .. خرائب بربرية لا يجرؤ المرء على تحديد عصرها ولكنها تتراكم بكميات هائلة تمنعنا من حق ارجاعها إلى تدمير إجمالي ، لدى تدفق الاجتياحات العربية التي توالت فيما بين القرن السابع والحادي عشر ، على المغرب » وذلك في « مراكش القديمة » ص ٢٩١ .

عنه [1] من تشويه يكاد أن يكون لا شعورياً .

وعليه هل من العجب آن لا يفعل ، في الغالب ، ما كان قد عُرف بعجلة بالغة هو والتنقيبات الحديثة ، إلا توضيح النتائج المكتسبة منذ بداية القرن وإن كل شيء يشكل جزءاً من التاريخ اليوناني ــ اللاتيني : حروب وانتفاضات وفتوحات وإدارة وتطور ديني . لنلق نظرة في هذه النقاط المكتسبة . في هذه الأبواب الثلاثة : تاريخ عسكري ، إدارة رومانية وتاريخ الكنيسة .

تاريخ عسكري

وفقاً لهذه الرؤية يبدو شمال إفريقيا على ضوء التاريخ في القرن السادس قبل الميلاد في إطار الصراع اليوناني ــ الفينيقي الذي كانت نتيجة النصر فيه هي السيطرة على البحر الأبيض المتوسط ؛ إن مدينة صور الجديدة ، قرطاجة بعد استبعاد فينيقيا من حيث هي قوة مستقلة ، هي التي رفعت لواء التحدي ، هذه المرة في الحوض الشرقي ؛ فأكد يونان صقلية تفوقهم على الشاطىء الشمالي والقرطاجيون على الشاطىء الجنوبي ، فكانت المنازعات المستمرة التي واجهتهم بعضهم ضد بعض ، وعلى الأخص عندما نقل اليونان أعمالهم الحربية ، بحملة أغاثوكل Agathocle (٣١٠ ق.م) إلى الأراضي الإفريقية مناسبة لوضع أولى البيانات المباشرة التي وصلتنا عن السكان الأصليين . وخلفت روما الصقليين في ذلك، وبادىء الأمر اتبع ريجولوس Regulus (٢٣٦ ق. م) ثم الاخوان سكيبيون Scipions فيما بعد مثل أغاثوكل . وإذا كانت بعض الأضواء قد ألقيت على الليبيين الذين يعيشون في أراضي قرطاجة بفضل حملة أغاثوكل فان حملات سكيبيون طيلة الحرب البونية الثانية ستتيح معرفة أفضل بجيران القرطاجيين الغربيين ، النوميين [2] ، المنقسمين إلى مجموعتين كبيرتين : ماسيليس Massyles والمسّائيزيلس Massaesyles بقيادة ملكيهما : ماسينيسا Massinissa وسيفاكس Syphase . ان تاريخ ماسّينيسّا الطويل هوظل السياسة الرومانيــة

---

(١) الملاحظة نفسها صالحة بالنسبة لنتاج المؤرخين العربي القديم بفوارق زهيدة . سوف تتناقض فيمـــا بعد .

(٢) سوف نناقش معاني العبارات الليبية ، نوميد (نوميديون ، رجل) ومورو تطورها فيما بعد .

الممتد ، وإن كان الانسان ما زال يستطيع حتى الآن يناقش فيما إذا كان خدم روما حقاً أو أنه استخدمها . وعلى كل حال ، كل شيء كان يجري تحت نظر مجلس الشيوخ الروماني الذي كان يستطيع إيقاف أية مبادرة يراها خطرة سواء أكانت نوميدية أو قرطاجية . حتى إن حركة ماسينيسا كما تروى عادة عن بوليب Polybe ، تبدو جزءاً من أسطورة آل سكيبيون [١] العائلية . وبعد سقوط قرطاجة وتدميرها (١٤٦ ق. م) يشكل ما نعرفه عن شمال إفريقيا جزءاً مكملا لاحتضار الجمهورية الرومانية الطويل . إن مجلس الشيوخ هو الذي نظم خلافة مسينيسا وعندما انفجرت الأزمة التي ولدها القرار الروماني نفسه ، كانت رواية تدخل جيوش مجلس الشيوخ وحربها الطويلةبقيادة ميتللوس Metellus بداية،ثم ماريوس Marius وسيللاSylla فيما بعد، هي في آنٍ واحد رواية ثورة جوكورتا Jugurtho وتناقضات الجمهورية الرومانية التي استشاطت على وجه الدقة في اثناء حرب ظالمة طويلة وصعبة [٢] . وإذا كان عمل جوكورتا محاولة واعية لتوحيد جميع البربر في حرب وطنية ، فمن العبث البحث عن أدلة على ذلك في رواية سالّوست Salluste ذلك أن جوكورتا لا يرد فيها إلا ذريعة لحكم أخلاقي على روما وزعمائها [٣] . وفي غضون القرن الأول ق. م فان ما يلقي بعض الضوء الخافت على مملكتي بوخشوس Bocchus في الغرب وهيمبسال الثاني Hiempsal II، خليفة غودا Gauda في الشرق ، هي كذلك مناسبة الحروب المدنية . فان التحالفات التي انساق إليها أمراء البربر مع زعماء الأقسام الرومانية المتنازعين هي التي انتهت بانتحار جوبا Juba الأول خليفة هيمبسال Hiempsal الثاني في عام ٤٦ ق. م وإلى توسيع ولاية رومـــا وإلى خراب بوغود Bogud ، وريثة الجزء الغربي من موريتانيا من بوخشوس Bocchus الأول ، وعندما توفي الوريث الثاني بوخشوس الثاني ، كان هناك عدد من الموظفين الرومان يديرون الحكم

(١) إذا كانت نتائج كامبس في « ماسينيسا أو بدايات التاريخ » قابلة للاعتراض فإن نقده للمصير الذي جعل الاسطورة الملك النوميدي له ما يبرره تماماً .

(٢) مثل دقيق حيث يعاد اهتمام المؤرخ القديم من قبل المؤرخ الحديث كما هو في روايـــة حرب جوكورتا في الجزء الأول من تاريخ س. – أ. جوليان (كورتوا .)

(٣) وبالطبع لا يمكن الاستدلال من غياب باعث كهذا لدى سالوست ، على عدم وجوده في الحقيقة .

مباشرة في الشمال الإفريقي بأكمله (من ٣٣ إلى ٢٥ ق. م) . ويظهر الملكسان الماسّيليان Massyles الأخيران جوبا Juba الثاني (٢٥ ق.م إلى ٢٣ بعد الميلاد) وبطليموس Ptolémée (٢٣ إلى ٤٠ بعد الميلاد) عميلي القياصرة أكثر منهما أميرين أهليين حقيقيين .

بعد ضم موريتانيا من بطليموس ولمدة قرنين يختلط تاريخ المغرب بتاريخ الجيش الروماني في إفريقيا وهو نفسه تاريخ الثورات المستمرة . تبدأ السلسلة في نوميديا عام ١٧ بعد الميلاد بتكفاريناس Tacfarinas حتى قبل ضم موريتانيا الذي لم يمكن تلافيه [1] مع ذلك . وكانت الحقبة الهادئة في السيطرة الرومانية التي سادها السلام هي تلك التي تنحصر فيها الثورات في الغرب ولا تمتد إلى نوميديا Numidie إلا في أوقات متقطعة ، وهذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن المؤرخين لا ينوهون بهذه الثورات إلا عندما تتجاوز الحدة التي كانت تقدر بأنها عادية وإلا لكانت الثورة أمراً دائماً ؛ وابتداء من عام ١٨٠ ينفصل الشمال المراكشي ، ويوجه بربر هذه المنطقة غاراتهم إلى بتيكيا Betique (إقليم نهر الوادي الكبير في الأندلس الرومانية) * ويتسارع تواتر الثورات حتى عام ٢٣٥ حيث يشارك فيها الشطر الشرقي نفسه ، مستغلا أزمة الإمبراطورية ، ومن عام ٢٣٥ إلى عام ٢٨٥ كانت الفوضى عامة داخل المنطقة نفسها الواقعة تحت إشراف الرومان . فقد اعترف ديوكليتان بالواقع فأخلى النصف الغربي منها. ، إلا أن الأسباب نفسها استمرت في توليد نفس النتائج في الشطر الشرقي نفسه وعندما نقرأ بأن فيرموس Firmus يثير موريتانيا عام ٣٧٢ فانها في تلك الحقبة تقع في الجزائر الشرقية . وكما غلب بعد أربع سنوات من الصراع استبدل بأخيه جيلدون Gildon الذي خدم الرومان من عام ٣٨٥ إلى ٣٩٣ بوصفه قائداً للجيش الإفريقي .

---

(١) بقراءة رواية هذا التمرد في ناسيت يخرج المرء غالباً بانطباع أنه يزيل أثر سالوست . فهل يحق للمرء أن يستنتج من تقليدية المؤرخين دواماً فعلياً ؟ والملاحظة نفسها صالحة بالنسبة لمؤرخي الحقبة الإسلامية .

(*) Betique هو الاسم الروماني لإقليم الأندلس في إسبانيا (منطقة الوادي الكبير) والاسم مشتق من اسم النهر بيتس Betis ، حكمها الرومان منذ ٢٠٠ ق.م وكانت عاصمتها هيسبالس (إشبيلية) وأنجبت عدداً من المشاهير مثل تراجان « المترجم »

وعندما يثور عام ٣٩٦ نراه يتصدر إدارة إصلاح زراعي حقيقي على حساب الملاكين العقاريين الرومان وعلى رأسهم الإمبراطور . هذه الثورات التي تشكل ترنيمة لا تنقطع قد تروى من وجهة نظر الجيش فتكون عندئذ قصة أمجاده أو من وجهة نظر المتمردين فتكون عندئذ ملحمة معارضة شرسة والاستعادة البطيئة لأرض مفقودة . ولا ننسى ، مع ذلك ، أن ما لدينا فقط هي رواية الجنرالات الذين يقدمون عن أعمالهم رؤية عقلانية ويعرضون أعمال خصومهم على نحو فوضوي . وعليه لا نعرف أبداً أهداف وبواعث الثائرين ؛ فعلينا إذاً ألا نقبل نتائج الجنرالات الرومان ووارثيهم : حتى وإن كان المقصود طوال تلك السنين من الصراع الذي لا مفر منه بين الخير والشر وانتصار البربرية المحزن إلا أنه المحتوم على الحضارة ، انتصار الغريزة على العقل . فكم من الأحكام لدى المؤرخين المحدثين تبدو وكأنها تعترف بحق إرادة البربر في الاستقلال وهي في حقيقة الأمر تمجيد لروما !

ادارة رومانية

تتيح لنا دراسة التنظيم العسكري الروماني في إفريقيا أن نستكشف في الحال السياسة التي تجعل من الجيش أداة لروضة الأهالي والمكانة التي كانت تحتلها الأقاليم الإفريقية في اقتصاد الإمبراطورية العام ، في آن واحد . فكل جيش هو وسيلة دمج بالطبقة المسيطرة بالنظام الذي يرسخه واللغة التي يفرضها والامتيازات التي ينعم بها . وإذ ينال البربري المنخرط في الجيش المواطنة في نهاية خمس وعشرين سنة من الخدمة ويستطيع ، كمحارب قديم الاستقرار في مستعمرة وحرث قطعة من الأرض تمنحها له الدولة فان الجيش كان يصبح على هذا النحو أداة استعمار بقدر ما يكون أداة للروضة . وبعد حقبة الفلافيين Flaviens التنظيمية[1] وسع الجيش ، في أثناء القرن الثاني رقعة الأرض الواقعة تحت إشراف روما ولاسيما في الجنوب ، بعيداً في داخل

---

(١) راجع م. ليغلاي M.Leglay « الفلافيون وإفريقيا » . مجموعة مقالات في الآثار والتاريخ L.xxx ١٩٦٨ ص. ص ٢٠١ – ٢٤٦ . كمثل على التقدم الطفيف بالنسبة للنظرة الاستعمارية .

الصحراء التي كانت حينئذ أقل جفافاً منها اليوم ويبدو الليمس * Limes لاعين الذين يدرسونه الآن . أكثر فأكثر نظاماً للتوسع والاستقرار الإستعماريين أكثر منه مجرد عمل دفاعي ، لعل دوره كان بخاصة اعداد الجنود لحياتهم المقبلة كعمرين مخلصين لأهداف روما . ذلك أن إفريقيا ، وهذا أمر معروف ومعترف به منذ زمن طويل ، لم تجذب اهتمام الرومان إلا بوصفها منتجة للقمح . في القرن الأول كانت زراعته هي الزراعة الوحيدة التي يُشَجع عليها باعتبار أن إيطاليا كانت ما تزال قادرة على توفير المنتجات الضرورية الأخرى . إننا نشهد عودة لاستغلال مكثف لزراعة الزيتون والكرمة بموازاة التوسع في حقول القمح في الهضاب العليا بالجنوب في القرن الثاني فحسب . وكان الشعير ضرورياً لاطعام الخيول وانتاج الحطب لتدفئة الحمامات ، الأمر الذي لم يساعد بالتأكيد في الحفاظ على ازدياد النمو وعلى التربة . وأياً ما كانت قيمة الوسائل غير المباشرة المستخدمة لتقدير إنتاج القمح في إفريقيا والنسبة التي تقتطعها [1] روما منه ، فما من أحد يشك بأن الأمر يعني استغلالا صرفاً لم يكن يترك للافريقيين إلا ما يكاد يساعدهم على العيش . ولم يخفف من وهن السلطة الإمبراطورية على أية حال في القرن الثالث إذ أن أراضي نوميديا Numidie والمتعلقة بالوالي الروماني كانت ضرورية لروما لاسيما وأن إنتاج مصر (الذي يبدو أنه كان في مستوى نصف إنتاج إفريقيا) حول لتموين عاصمة الشرق ، القسطنطينية ، وأن صقلية كانت في تمام انحطاطها . ولم يعرف الإفريقيون الراحة إلا في غضون الحقب التي قطعت فيها الصلات مع إيطاليا ، شأنها في اثناء ثورة جلدون Gildon في نهاية القرن الرابع وبخاصة تحت حكم الفاندال Vandales

ويتيح مجموع التشريع العقاري والمالي تكوين فكرة عن الوضع الاجتماعي ،

(*) Limes في اللاتينية شريط من الأرض غير مزروع كحد فاصل بين حقلين مزروعين. هنا الخطوط أو الحدود الرومانية الفاصلة بين مناطق استقرار أو حكم الرومان ومناطق السكان الأصليين وهي في نفس الوقت خطوط دفاع . « المترجم »

(١) راجع الأرقام التي يقدمها ج .ش-بيكار. G. Ch Picard في « نيرون والقمح الإفريقي » ، دفاتر تونس رقم ١٤ لعام ١٩٥٦ ص ١٦٣-١٧٣ المختلفة عن أرقام ش. سومانيو - Ch.Saumagne في كتابه « تعرفة ضريبية من القرن الرابع » ، Karlhago I ١٩٥٠ .

وبصورة أساسية التجميع الهائل للملكية في أيدي الإمبراطور والأسر الأرستقراطية الكبيرة [١] . جميع الحروب التي شنت على قرطاجة وجوغورتا Jugurtha وجوبا الأول Juba 1er وتاكفاريناس Tacfarinas وآيدمون Acdemon ... وجميع ثورات النوميديين والمور Maures * التي كانت عديدة ، كانت عواقب الأولى مصادرات واسعة النطاق من الأراضي وكانت هذه المصادرات سبب الثانية ، لصالح الرومان الذين كانوا في معظمهم أغراباً عن إفريقيا أو أنهم إذا كانوا مولودين فيها ، قد اغتنموا أول مناسبة للترقية ، لمغادرتها . في الأجزاء التي تروضت زمناً أطول كان يحرث تلك الأراضي وكلاء ويعمل فيها أرقاء أو عمال مياومون ؛ وفي الأجزاء المكتسبة حديثاً ، يسمح لأناس أحرار ، ربما كانوا من الملاكين القدامى بالإقامة في الأملاك العامة في مقابل دفع أتاوات . كانت الملكية الصغيرة الحرة أو نصف الحرة تدفع ضرائب عادية وإضافية كما تدفع أتاوات ، والقى كبار الملاك خلال القرن الرابع نصيبهم من محصول الحول (وهي ضريبة عينية موجهة لتموين روما) ، على الصغار منهم ، إذ إنهم ورثوا جزءاً كبيراً من سلطات دولـــة منهارة . وإذا كان الانتاج ، على هذه الشاكلة لصالح روما فان التوزيع لم يكن أقل منه ؛ إذ كانت تجارة القمح والزيت والخزفيات تحت إشراف وسطاء Negociatares موحدين في هيئة حرفية أمكن وصفهم في تنظيمهم .

إن دراسة التشريع الروماني ، حتى مع إخضاعها لإطار الإمبراطورية بجملتها ، تسمح بالتأكيد بتكوين فكرة عن الحياة الاقتصادية – الاجتماعية ، على الأقل في أقدم شطر محتل من البلاد ؛ إلا أنه من الضروري عدم ارتكاب الخطأ الذي غالباً ما

(*) Maures هو الاسم الـــذي أطلقه القرطاجيون على « البربر » ، سكان إفريقيـــا الشماليـــة الأصليين ، ثم امتدت التسمية لتشمل الفاتحين العرب عموماً وفاتحي اسبانيا خصوصاً . « المترجم »

(١) J. Van Nostrand, The Imperial Damurins of Africa proconsularis, an epigraphieal study, U. of Cal. Publ., XIV, 1925.
وكذلك ج . س بيكار المصدر السابق .

يقع فيه مؤرخو روما الذين لا تكون لديهم فكرة تقريبية عن القوانين الاقتصادية [1] ، وهو الخلط بين الانتاج والتجارة ومستوى الحياة . فقد دلت التجربة دائماً على أن الميزان التجاري ، الفائض على الدوام ، في البلدان الواقعة تحت السيطرة وذات الاقتصاد المميز قليلا ، يمكن أن يُصاحبه تدنٍ ثابت في مستوى الحياة الفردية . إن السيولة النقدية من روما باتجاه إفريقيا التي تثبتها المسكوكات المكتشفة والمصروفات الكمالية في المدن الكبرى والمتوسطة ، تشير إلى روضة مظاهرية لا إلى تحسين حقيقي مادي أو معنوي . ولا شك في أننا نستطيع الاستدلال من هذا التشريع عن الوضع التجريدي للملاكين الأهليين أو الشغيلة بالمياومة ، إلا أنه لا ينبغي أن ننسى قط أن المقصود خاتمة سلبية وأننا لا نملك ، في الوقت الحالي أية وسيلة لسماع حكم المغربي نفسه عن « المهمة التحضيرية » لروما التي تمتدح بحماس لا حد له .

تاريخ الكنيسة

تتخذ الكنيسة المسيحية ، بدءاً من القرن الثالث ، دورها في الرومانية من وجوه عديدة . فقد استخدمت الآداب المدافعة عن المسيحية وقصص الشهداء ووثائق المجامع الدينية وقوانين الإمبراطورية الدينية ، على نطاق واسع لسبر النفس الإفريقية وتقدير درجة التعلق بالكاثوليكية ولمحاصرة الجوانب الخاصة بالكنيسة الإفريقيـــة . فمن ترتوليان Tertullien إلى أوغسطين يرسم الأدب المسيحي الإفريقي منحى هو منحى الكنيسة بأكملها ، والذي يمضي من الاعتراض العنيف على السلطان الإمبراطوري المرموز إليه برفض الخدمة في الجيش ، إلى معاهدة بابوية تتعاضد فيها السلطتـــان بالاعتراف المتبادل بالسلطة المطلقة لكل منهما في ميدانها . فوفقاً لفرضية معتمدة على

---

(١) أوضح حالة هي حالة ا. البيرتيني في : « شهادة القديس أوغسطين حول الازدهـــار النسبي لإفريقيا في القرن الرابع » ، مجموعة مقالات ل. ب .توماس ، Bruges ، ١٩٣٠ ؛ كذلك ش .كورتوا لجأ في كتابه الفاندال وإفريقيا إلى قوانين الاقتصاد الرأسمالي الحديث كما لو أنها كان من الممكن تطبيقها هي على الاقتصاد الروماني (راجع ص ١٠٩ ورقم ٤) وهو يؤكد في ص ١٠٦ «... بأن إفريقيا الرومانية تبرز كدولة مصدرة للقمح من الدرجة الأولى ، الأمر الذي يدل على أن الانتاج كان يتجاوز كثيراً حاجات الاستهلاك » (! !) فيا له من خطأ فادح ، على الرغم من رقم ٣ ص ٣٣١ .

وجه العموم ، أن المسيحية قد انتشرت في أثناء القرن الثاني إنطلاقاً من المدن الساحلية ، في تجمعات شرقية ، ثم انتقلت إلى المدن الصغيرة في الداخل بواسطة الجيش في الوقت الذي كان فيه التنظيم الروماني في أوج كفايته ، أي عندما كان استغلال الشمال الإفريقي في قمته .

وأياً ما كان الدور الذي يعطي في هذه الحركة للطبقة الدنيا في المدن والأرياف ، فإننا مضطرون إلى أن نسجل لدى المؤمنين ميلا واضحاً ضد الامبراطور وإرادة جامحة للاستقلال الذاتي لدى الأساقفة . ذلك أن معظم مسيحيي إفريقيا ، وقد بقوا أمناء على تقليد الاستقلال الذاتي بأزاء روما ، وتمجيد الاستشهاد والمعارضة المطلقة للإمبراطور عدو المسيح ، اندفعوا بلا ترو في الانشقاق الدوناتي ، تماماً في اللحظة التي تصالحت فيها الأسقفية مع الإمبراطورية في مطلع القرن الرابع ، وأضفوا على تنظيمهم الكنسي لوناً وطنياً واضحاً ، دون مبالاة بمفهوم الكاثوليكية ، المركزي في كل مسيحية ، الذي يرتضي بالتفاوتات الاجتماعية . سوف يتطلب الأمر قرناً من الصراع ، قوة الدولة وربما كذلك ذعر الملاكين الكبار امام التبعات الاجتماعية لمثل هذه الحركة حتى يتمكن في النهاية ، مخطط المعركة الفاصلة ، القديس أوغسطين ، قطف ثمار نصره عام ٤١٢ . إلا أنه نصر قصير الأجل طالما أن الفاندال سيستخدمون بعد عام ٤٣٩ إفادة للهرطقة الأريوسية arianiste* ، الأسلحة نفسها التي ركزها الكاثوليك وأن الكنيسة التي ستكون بعد إعادة الفتح البيزنطي ، مسؤولة عنه إلى حد كبير ، تفقد نهائياً استغلالها الذاتي الذي لم تنفك عن المطالبة به منذ كيبريان Cyprien .

من العبث إنكار الخدمات التي قدمتها وما زالت تقدمها دراسة التوثيق المسيحي ، أدبياً كان أم أثرياً ونقوشياً ، لمعرفة الحقبة الممتدة من القرن الثالث إلى السابع . فهو المصدر الوحيد الجاهز فيما يتعلق بالجزء المهمل من قبل ديو فليسيان Diocletieun

(*) في الأصل هرطقة الاريانيين الذين كانوا ينكرون وحدة الجوهرة في الأقانيم الثلاث وادينوا في مجمع Nicée الديني بآسيا الصغرى ، المسكوني الذي عقد بدعوة من قسطنطين عام ٣٢٥ . «المترجم»

(١) ها هنا قيمة تربوية معينة بالنسبة للذين يدرسون آداب علم المقدسات الإسلامية التي صارت تباشر اليوم .

أي النصف الغربي من المغرب . إن قصص الشهداء ، التي توصل النقد الحديث إلى كشف أحابيلها ، تكاد أن تكون الوثائق الوحيدة لالقاء الضوء على حياة عامة الناس ، أولئك الذين يهملهم التاريخ الرسمي .

أيا كان الاستخدام الجاري لهذا الأدب ، سواء أكان في تمجيد الروح [١] أو في البكاء على خيانة الأسقفية للأمل العريض لدى الفقراء [٢] ، يبقى أن ما كانت توحي به إفريقيا من تخوّف على غرار ما كان الحال فيها ، فيما مضى ، من خلال مصالح الإمبراطورية مصحوباً ، بصعوبة إضافية هي التوسط الأيديولوجي ، إنما كان يجري من وجهة نظر الكنيسة ومن جانبها . فعلى من يتمسك باتجاه الاعتّراض الذي يجب منحه لمسيحية القرن الثاني ولدوناتية القرن الرابع ، يستطيع المؤرخ التقليدي أن يرد بالطابع المديني ،البورجوازي ، المرَوْمن Romanisé بالتالي إلى حد بعيد لدى هؤلاء المعارضين المستترين للإمبراطورية ، ومن السهل أن نذكّر ذلك الذي يلتمس في شخص ترتوليان Tertullien وأوغسطين وآخرين مميزات عرق بربري ، بالعجز ونحن في حالتنا الراهنة ، تحديد سلسلة نسب معظم هؤلاء الرجال الذين كانوا إستثناء تحديداً دقيقاً وكذلك الميل إلى تأحد كل ثقافة ذات طابع ديني . وللانتقال من أيديولوجية ترتوليانية أو دوناتية إلى واقع الاعتّراض القومي أو الاجتماعي الايجابي ، ثمة قفزة لا بد منها لا يقبل القيام بها إلا أولئك الذين يكونون قد صاروا مقتنعين بنظرية معينة للأيديولوجيات . على كل حال ، يظل الحدث ، قومياً كان أو اجتماعياً ، يؤخذ بصفة سلبية ، وعلى الرغم منا ، نضع قبل كل شيء تاريخ الكنيسة قبل تاريخ المغرب المسيحي [٣] .

الحاصل أن المقصود دائماً هو التاريخ الإمبراطوري . فان علم العاديات (طرق

---

(١) ج. كاركوبينو ، المصدر السابق ص ٣٠١ .

(٢) ذلك حيث يظل ش. كورتوا مخلصاً لـ. ش – ا. جوليان في عا ١٩٣١ .

(٣) البرهان على ذلك في فارق اللهجة والمحتوى انطلاقاً من التوثيق نفسه بين كتابي ج. ب. بريسون Brisson : « مجد وتعاسة كنيسة إفريقيا » ، ١٩٤٨ وهو مكرس بأكمله لمجد الكنيسة ، و(استقلالية ومسيحية في إفريقيا الرومانية » ، ١٩٥٨ حيث تفيض الأحكام السلبية .

رومانية ، حفائر ، مواقع عسكرية ، نصب الآلاف على الطرق) والمسكوكات (من سكوك بلدية أو إمبراطورية) والنقوش (من مدونات دينيـــة وكتابات تذكارية وعقود) ، تبقى كلها في إطار الاحتلال العسكري لإفريقيا ، ذلك أن ما نعرفه أكثر من أي شيء آخر هو حياة كبار الملاكين العقارين (والوسطاء ورجال الكنيسة والمدن الغاصة بالجنود القدماء وبالعبيد وبالخدم وبالصناع . أما الساكن الأصلي ، فيمكن تخيله في المراعي بأعالي الجبال أو مؤدياً ما عليه من محصول الحول ، ونحس بأنه محاصر في الأوراس أو مطارد فيمـــا وراء الحدود الرومانية Lines ، لكننا لا نراه أبداً . وبلا شك يجب أن نعتبر أنفسنا سعداء لدوام ظل وجوده ولكن يجب علينا أن ننبهر بذلك الثراء الكاذب الذي ينفخ في أوداج التاريخ المغربي بثراء روما .

— ٢ —

إن الوقائع المجملة فيما تقدم يمكن النظر إليها على أنها مكتسبة ومنذ زمن طويل ؛ إلا أن المكتشفات في الآثار وفي النفوس التي تملأ المجلات المتخصصة تضيف إليها إيضاحات تفصيلية ؛ على أن هذه الايضاحات هي التي تدفع القارىء ، في الواقع ، ليطرح هذا السؤال على نفسه : هل تتعلق هذه الوقائع بتاريخ المغرب ؟ وما هي درجة تأثير تلك الاستعمارات الوافدة من جهة البحر في موجات متتالية ، اتساعاً وعمقاً ؟

توسع

لا شك في أن الاتجاه هو في الوقت الحالي إلى الإفراط في تقدير الطابع القرطاجي ، تحت تأثير علم الآثار الفينيقية الذي تقدم منذ الحرب العالمية الثانية تقدماً بعيد المدى . فقد غدا من المألوف التأكيد بأن الفينيقيين ، وإن كانت البراهين ليست حاضرة دائماً ، كانوا يملكون وكالات تجارية منذ الثلث الأخير من الألف الثامن قبل الميلاد ، يجري التردد إليها بانتظام ، من سابراتا Sabratha إلى موغادور Mogador. لقد أثبت

---

(١) م. هورس — ميدان Hours-Miedan قرطاجة طبعة .P.U.F ص. ص ١١٤ — ١١٥ .

أن تأسيس قرطاجة كان في مطلع القرن التاسع قبل الميلاد إلا أنه يؤكد بأن ثمة مؤسسة كانت توجد قبلها بثلاثة قرون في نفس هذا المكان .

بيد أن العنصر الجديد ، على ما نظن ، الذي جرى في القرن السادس هو أن الفينيقيين الذين استقروا نهائياً قد اعترفوا أن قرطاجة هي : الدولـــة الأم . فثمة مدن أكثر أهمية مثل هاردروموت Hardrumette وتيباسا وليكسوس وموغادور ووكالات تجارية أكثر عدداً ، ولكنها أكثر تواضعاً كذلك ، والتي ستصبح فيما بعد من المدن الهامة في العصر الروماني ، قد انساقت إلى الاندماج في إمبراطورية تجارية ستأخذ في النمو ، تحت إدارة قرطاجة ، بصورة فريدة حتى تطوق شمال إفريقيا من سابراتا في طرابلس إلى جزيرة سرنة Cerné في عرض ريودي أورو Riode Oro ، أي في نقطتي التقاء الطرق الصحراوية . فهذه الصورة لإمبراطورية تجارية قرطاجية هي التي نجدها ، مفصلة بحماسة مثيرة للحيرى ، في معظم الكتابات التي تتطرق لهذا الموضوع . وقد كتب أ. هورس ميدان A.Hours-Micdan « كان تصور البونيين التجاري والاستعماري متقدماً آلاف السنين على تصور زمنهم » . فهل تجد هذه الرؤية ما يبررهـــا في الاكتشافات الأثرية الأخيرة ؟ لقد عملت هذه الاكتشافات ، التي أجريت في فينيقيا Phenicie وفي جزر البحر الابيض المتوسط الغربية وسواحله على التقدم في معرفة عالم الفينيقيين الذهني وحياتهم الدينية والخاصة ونطاق حياتهم . وأفضت إلى إقرار الخاصية « الشرقية » لفكرهم وإلى تقليدهم لطرق القدماء في استعمارهم الديني وإلى مظهر عقليتهم المبتذل وإلى قصورهم الجمالي [1] . لكن الاكتشافات القليلة التي عثر عليها في ليكسوس Liocus و Mogadar ، التي يصعب تحديد تاريخها لم تقوض ما كان معروفاً . فان هذه الصورة لإمبراطورية تجارية تبقى كما كانت في زمن جيزل G Self St, متعلقة بالأدب المدون وخاصة بذلك النص الغامض المقتضب ألا وهو رحلة هانون Periqle d'Hannon .

كان الفينيقيون يذهبون إلى غرب الأبيض المتوسط بحثاً عن المعادن ، وهو أمر

---

(١) ج وك. ش — بيبكار الحياة اليومية في قرطاجة .. ص ٦٨ .

كان معروفاً . ولما كان الاتجار بقصديو شبه الجزيرة الإيبيرية أكيداً فقد أريد إعطاءه مقابلاً له في إفريقيا ولذلك فكر بالذهاب . وهذه فرضية محتملة التصديق بالتأكيد ؛ ولكثرة ما قيلت ورددت ، اكتسبت قيمة اليقين وعندما أعطيت شكلها الكامل من قبل ج. كاركوبينو J. Carcopino فان الأشخاص الذين تجاسروا على وضعها موضع الشك بأكملها كانوا عندئذ نادرين [1] ، والحال أنه يكفي قراءة عرض هذا الكاتب التفصيلي للتأكد في الحال من أن وراء تلك الغزارة المرهقة من المعلومات تختفي محاكمة على جانب من الضعف يدعو إلى التساؤل كيف أمكن أخذها على محمل الجد . فاذا ما وضعنا جانباً أراء غزيرة لكنها جميعها لا أهمية لها ، يقدم المجموع مثلا كاملا للبرهان المجرد الفارغ : كل ما يدلل عليه صفحة بعد صفحة ، هو إمكانية التجارة بالذهب وليست حقيقتها الواقعة ، وهو أمر لا يمكن إثباته ، على أي حال إلا باكتشافات أثرية عديدة . فالبرهان على الخدمة التي يمكن أن تؤديها فرضية هذه التجارة لإدراك معنى نص غامض هو من عمل اللغوي لا المؤرخ ، وهو في حاصل الأمر قليل الوزن إذا قيس بالمسألة الحقيقية وهي معرفة ما إذا كان القرطاجيون قد نظموا هذه التجارة على نطاق كاف من الاتساع يستطيع المرء معه الكلام عن سوق بونييه (قرطاجية) للذهب . ولكي يكون هناك سوق ، لا بد من أن توجد الطرق والقوافل والمستودعات والمعاملات التجارية ؛ إلا أن المؤلف لا يذكر لنا عن كل ذلك شيئاً من هذا بل كل شيء كان استدلالا مضاداً لمحاكمته . وتتعقد المسألة عندما نجد آخرين يؤكدون بأن القرطاجيين كانوا عاجزين مدة قرنين على الأقل عن الاستفادة من اختراع اليونانيين للعملة في القرن السادس [2] . ذلك أنه إذا كان لا بد لهذا الذهب الإفريقي من أن ينقل مباشرة إلى قرطاجة وأن يدخر فيها فلسنا نرى كيف يمكننا الكلام عن سوق الذهب في مراكش أو أي مكان آخر . فالتجارة البحرية هي إذن قائمة على الافتراض وتبقى التجارة البرية . وفيها يعتمد على بعض النصوص ،

---

(١) ج. كاركوبينو ، المصدر السابق ص. ص ٧٣ — ١٦٣ . من أجل مناقشة حقيقة الرحلة راجع م. روسو ، « هانون في مراكش » ١٩٤٩ ص. ص ١٦١ — ٢٣٢ و ج. جرمان « ما هي رحلة هانون ..» Hesperis ١٩٥٧ ص. ص ٢٠٥ — ٢٤٨ .

(٢) ج. وك. ش — بيكار المصدر السابق ص. ص ١٧٦ — ١٧٧ .

وهي ليست دائماً واضحة ، تتحدث عن حقوق قائمة في المنطقة الطرابلسية والتي كانت تجلب في القرن الثاني ، للخزينة القرطاجية ، تالان Talent * في اليوم ، للاستنتاج من ذلك أن المقصود يعني حقاً التجارة الصحراوية التي كانت تربط بورنو Bornou بموانيء الساحل والذي كان يشرف عليه القرامانتس Garamantes * . وثمة وقائع تالية أخرى تم إبرازها كاحتلال واحة جرما Germa في العام ٧٠ بعد المسيح والحملة التي قادت الجنود الرومان بعد مسيرة أربعة شهور إلى واحة آجيسنبا (Agloymla) التي يُظن بأن تكون السودان . وهنا أيضاً يوجد احتمال للعلاقات التجارية (ريش نعام ، رقيق ؟ ...) إلا أنه لم يقدم أي دليل على أهميتها ولا على انتظامها ولا على الدور الذي يحتله فيها الذهب . وليس من العسير أن نرى (والجزء الثاني من دراسة كاركو بينو يدل على ذلك بوضوح) بأن فرضية وجود أمبريالية تجارية قرطاجية ، بدلا من أن تكون تتويجاً للمكتشفات الأثرية أو غيرها مما لا اعتراض عليه ، كانت مجرد إسقاط في الماضي لأمبريالية معروفة تمام المعرفة هي أمبريالية البرتغاليين في القرن الخامس عشر . فحتى ثبوت العكس تظل قرطاجة بالنسبة لنا « مركبا شارداً من أفريقيا » ، لها بعض التأثير على مؤسسات ساحلية أخرى ولكنها غير منتفعة البتة من ذلك الاشراف ، غير المباشر ولكنه شامل على حياة المغاربة وهي ما يعزى لهم بسهولة .

وماذا عن التوسع البري ؟ يقال لنا أن قرطاجة غدت بدءاً من القرن الخامس دولة برية عندما لم تستطيع الصمود في البحر في وجه الهجوم المعاكس الواسع لليونانيين ، المنتصرين في هيمير Himère وسلامين (٤٨٠ ق. م). وأنها نقضت الاتفاقات التي كانت تربطها بأمراء البربر ، فحطمت مقاومتهم وتم اخضاع شمال تونس الحالية كله . ويقدر بأن الأراضي التي أصبحت بونيه كانت في حدود ثلاثين الف كيلو متر مربع . إلا أن المعطيات الأكيدة المعتمدة للوصول إلى هذا التقدير لا ترقى إلا إلى مطلع القرن الثاني ق. م عندما افتت منازعات الحدود بين قرطاجة

(*) Talent هو وزن يتراوح بين عشرين وسبعة وعشرين كيلوغراماً عند قدماء اليونانيين —المترجم—
(*) Garmantes شعب إفريقيا .

وماسينيسّا Mossıuissa انتباه مجلس الشيوخ الروماني ؛ ليست هناك إذن أية إمكانية لمعرفة تطور هذا الفتح . ومن الممكن تشكيل فكرة عن الجزء الشمالي – الشرقي الذي ينطلق من تاباركا Taqarca إلى رأس بون Bon ويمتد عبر الساحل حتى الموانىء الطرابلسية ؛ ولكن الاكتشافات الأثرية وهي ما يصعب تحديد تاريخها ، لا تسعفنا كثيراً فيما دون هذا الحد الغامض ، كما أن تعيين حدود المقاطعة الرومانية ١٤٦ لا يمكن اعتباره ، أكثر من ذلك بصورة أكيدة على أنه تعيين لحدود المنطقة التي كان يمارس عليها إشراف القرطاجيين المباشر .

لا شك في أن أفريقيا الرومانية معروفة أكثر ولكن ليس إلى الحد الذي لا يسمح فيه بأي شك . ان ش. كورتوا Couıteis يسوق رقم الـ ٣٥٠,٠٠٠ كم٢ من مجموع ٩٠٠,٠٠٠ إذا نحن تغاضينا عن الصحراء الطرابلسية وعن الصحراء . وهذا الرقم وفقاً لعناصر مناقشته نفسها ، يبدو سخياً ، لأن المؤلف يتخذ حدود الليمس في القرن الثاني على أنها الحد المرسوم للملك الروماني ، وهو ما ليس واضحاً ، وإذا طرحنا المناطق الجبلية وأخرى قليلة الصلاح لزراعة الحبوب أو الزيتون ، والتي بالتالي لا تهم روما فإن الرقم ٢٤٠,٠٠٠ كم٢ يكون هو المقترح للعصر التالي لعصر دوكليسيوس Diocletieu (٢٨٤ – ٣٠٥) الذي يجب أن يكون رقم المساحة المستغلة حقيقة من قبل الأمبراطورية الرومانية وهي في أوج قوتها . وهذه المساحة ستنقص إلى النصف تحت حكم الفاندال Vandales وإلى أكثر من النصف تحت حكم البيزنطيين الذين لا يسيطرون إلا على المدن المحصنة وضواحيها [1] . وإذا نحن رفضنا التعميمات الخاطفة التي يسوقها المختصون بتاريخ الرومان الديني واللغوي فإن ما نشاهده هو

---

(١) إن محاولات ش. سومانييه Saumagne وش. كورتوا Courtoiss وج. ش– بيكار Picard على الأخص ، للوصول إلى تقديرات بالأرقام (٣٥٠,٠٠٠ كم٢ بالنسبة لمساحة أفريقيا الرومانية ، ٢٥٠ – ٣٠٠,٠٠٠ بالنسبة لسكانها ، ٩ ملايين قنطار بالنسبة للانتاج ، ٢,٥٠ – ٢,٢٥ h / p قنطار كمردود سنوي ... الخ) لا ينبغي أن تخدعنا لأن في عناصر الحساب نفسها تفضيلات فردية كما يوحد تعميم نسب بين الوقائع الاقتصادية التي لا تكون دائمة بالتأكيد . إلا أن حسابات ش. سومانيه هي أكثرها حذراً .

مد وجزر في مساحة الأرض الإقليمية باتجاه الشمال – الشرقي والجنوب – الغربي : أول انحسار على حساب القرطاجيين الذين كانوا في منتصف القرن الثاني ق. م. على وشك أن يفقدوا الأراضي التي غنموها بدءاً من القرن الخامس ؛ وثاني انحسار ضد الرومان الذين وطدوا من جانبهم ، سيطرتهم طيلة المائة والخمسين عاماً التي تفصل منتصف القرن الأول من نهاية القرن الثاني بعد الميلاد . ففي هذه الرؤية ان ما يبدو أنه الاستثناء في حقبة عشرة قرون من الضغط الأجنبي هما القرن ونصف القرن من الوجود الروماني .

كان عمق الشمال – الشرقي من المغرب أكثر أجزائه سكاناً ؛ وإذا كان التأثير الأجنبي فيه عميقاً أفلا يعوض ذلك ضيق المساحة الأرضية . هذا ما يظنه معظم المؤرخين الاستعماريين الذين ينقسمون إلى معسكرين : مشايعون للبونيين (القرطاجيين) ومشايعون للرومان ؛ فما يكون مرفوضاً لدى البعض يوضع لحساب الآخرين وعليه لا يظهر المغاربة أبداً في الجدل . ولا ينظر إلى ماسّينيسا نفسه إلا كمولى لروما . فهل يدين المغرب للفينيقيين – القرطاجيين ، فضلا عن المعادن ، بالزراعة ، باستعمال العربة والابجدية ، بالتشجير وبالتنظيم المديني ؟ فبعد حقبة من التواري ، عادت من جديد موضة التشيع للبونيين . ومع ذلك فان البراهين اللغوية التي تعرض أخذت تصبح أكثر فأكثر موضع شك لأنها تشير إلى أصل شرقي بدون تخصيص ، وعلى العكس يشهد علم الأثريات على أنه لا القمح ولا الزيتون ولا التين ولا الكرمة هي من مستوردات فينيقية . فان التحضير حالة واقعة سابقة كثيراً على الألف الأول والهيدروليكات بصورة عامة لا تدين للفينيقيين أكثر مما تدين للرومان . وقد أيد كامبس Comps ، بالاعتماد على المراجع المدونة وعلى علم الأثريات وبالتحقق من هذه وتلك ، النتيجة التي توصل إليها قزال وهي أن : « كل شيء يدل حقيقة على أن الزراعة قد نمت في أفريقيا الشمالية في آن واحد مع تنظيم المجتمع البربري » ، ومن دون أن يغفل الإشارة إلى قبلية جميع المتشيعين للبونيين : « فهل يجب أن نتصور إذن بأن أبسط التقنيات الزراعية هي جميعها أجنبية في بلاد البربر وأن هذا الشعب

كان مجرداً تماماً من كل مبادرة ؟ » [1] والخلاصة نفسها صالحة بالنسبة للابجدية وللتمدين اللذين تأثرا بقرطاجة لكنهما لا يعزوان إليها .

لقد جرى الكلام على « عودة إلى الأرض » في قرطاجة القرن الخامس وذلك بذكر اسم ماغون Magon وهو قائد سابق يبدو أنه أراد تشجيع مواطنيه الأرستقراطيين الذين لم يعودوا يجدون منطلقات لهم للعمل في التجارة ، على الالتفات نحو الزراعة . فوضع من أجلهم كتاباً في علم الزراعة ، ترجم فيما بعد إلى اللاتينية بأمر من مجلس الشيوخ وورث أصله ميكيبسا Micipsa بعد ١٤٦ . ولعل هذه « العودة إلى الأرض » كانت مصدر التسمية الزراعية في الشمال الأفريقي . وإذا قبلنا بالفكرة القائلة بأن المقاطعة القرطاجية كانت مؤلفة من ضواحي مدينة (شورا Shura ، ملكية مشتركة) المباشرة حيث تمت غراسة الأشجار بواسطة سكان من العبيد ومن منطقة خلفية حيث أبقي على الليبيين في أراضيهم شرط دفع أتاوات (ربع أو نصف المحصول) تحت إشراف موظفين بونيين ، مكلفين بالعمل على دفع الضرائب وجمع الفرق المساعدة ، فمن الممكن الظن بأن الضغط السياسي هو الذي سبب بصورة غير مباشرة زيادة في إنتاج الحبوب (المسموح به الوحيد حتى نهاية القرن الأول ميلادي) ؛ فعلى الأرجح كذلك أن هذا الخطر القرطاجي هو الذي دفع بالنوميديين Numides المجاورين إلى أن ينتظموا في مملكة ، انطلقت ، بحركة منافسة في إنتاج الحبوب كذلك وباشرت الاتصال بأعداء قرطاجة ، إلى أن أصبح فائض المملكة في ٥٠ ق. م ضعف فائض المنطقة القرطاجية ، قرناً من قبل [2] . ولم يكن إدخال تقنية جديدة وإنما المنافسة السياسية هي التي اضطرت النوميديين إلى زرع مساحة أكبر مأخوذة من المراعي أو من أراضي الجنوب . هذا التطور الذي كان على الأرجح تعجيلا في حركة أكثر منه تجديداً ، هو الذي جعل بوليب Palybe يقول فيما بعد بأن ماسينيسا حضر شعبه وهو اشهاد ظاهر

---

(١) راجع ج. كامبس : في أصول البربرية — ماسينيسا أو بدايات التاريخ ، الجزائر ١٩٦٠ ص ص ٧٠ — ٩٠ . وللمؤلف كذلك أفكاره المسبقة ولما كانت من مستوى آخر فقد أتاحت له النظر في أفكار الآخرين .

(٢) وفقاً لـ ج. و ك. ش... بيكار المصدر السابق ص ١٨٤ .

التلفيق . فان انتفاضات الليبيين العديدة (٣٩٦ ، ٣٧٩ ...) ، حرب المرتزقة في ٢٤٠ والنزاع مع ماسينيسا الذي كان فيما بين ٢٠٧ و ١٤٨ ينشب كل عشر سنين ، هذه الوقائع جميعها تستخدم أحياناً للاقناع (بالتلاعب بما بين كلمتي نوميديين Numides ونوماد Nomades — رحّل — من جناسي وهو أمر انتقد مرات عديدة) بأن المقصود هو معارضة للتحضير الإجباري ؛ وهذه الوقائع نفسها تستطيع تماماً بحق كذلك الإشارة إلى انتفاضة الزراعيين ، المعهودين والمهانين والمستغلين . إن صورة استعمار فينيقي يعمل على تحضير المغرب بالتجارة والتقني الزراعي هي صورة مستندة إلى نصوص ترجع إلى مؤلفين قدماء قليلي الاطلاع كثيراً ما أشير إلى ميلهم إلى الأمور الغريبة والمثيرة ؛ فهي غير مؤسسة على براهين أثرية لا يتطرق إليها الشك . فالتأثير القرطاجي مؤكد بالنسبة للحياة الاجتماعية والدينية ولكن بصورة تدعو إلى الفضول ، طيلة الحقبة الرومانية ؛ والمسألة تبقى أن نعرف لماذا حدث التأثير البوني بتشجيع من روما وتحت سيطرتها وليس ثمة من سبب لابراز نتيجة مباشرة أو غير مباشرة للسياسة الرومانية ترجع إلى زمن بعيد في الحقبة القرطاجية .

وماذا عن روما ؟ يظل المؤرخون ، بصفة عامة ، حذرين في كلامهم على دور الرومان في تطور الحضارة المادية في أفريقيا ؛ فهم بالكاد يتحدثون عن تعميم للأعمال الهيدروليكية التي تسبق كثيراً قدومهم . لقد كتب ألبرتيني Albertini « عمل رومان العصر الأمبريالي بوعي أو بدون وعي على إظهار مزايا العالم بأكمله وعلى تنظيمه وعلى دعوة جميع أجزائه إلى الحياة المتحضرة وإلى الرفاه »[١] . والعمل على تقدير التنظيم أي التطبيق المعمم لاختراعات الآخرين . وقد أرجعت مسألة الرَوْمَنَة (نشر أخلاق وعادات روما القديمة) إلى أنها تمدين والأخذ باللاتينية وأخيراً إلى دور الجيش . فثمة صورة لايبينال Èpinal من أفريقيا أشد لاتينية وأكثر تمدناً وأكثر ازدهاراً من اسبانيا أو الغال ؛ إلا أن القارىء يظل متشككاً لأن رومان أفريقيا أو الأفريقيين المترومنين ليسوا متميزين في أي مكان . ويؤكد أنه كانت هناك في أفريقيا قلة من الرومان ،

---

(١) ا. البرتيني E. Albertini في أفريقيا الرومانية ، الجزائر ١٩٥٥ ص ١٩ .

قلة من الإيطاليين بصورة عامة وأن الغالبية العظمى من سكان المدن ومن أعضاء الجيش كانت من البربر ؛ ويعمل على إبراز دور الأفارقة في حيازة روما السياسية والإدارية والفكرية ، وذلك باعطاء تلك الوقائع كمؤشرات محتملة لرومنة متقدمة ؛ لكن القاريء يود أكثر من العموميات ، شيئاً آخر غير الحالات التي يمكن أن تكون استثنائية [1] . فالجيش حتى بغالبية بربرية ، المقدر بـ ٢٧,٠٠٠ من الرجال بمعدل تناوب بطيء جداً (مما يقرب من عشرين سنة) لم يكن في وسعه أن يملك تأثيراً سريعاً ؛ إن أولئك الذين كانوا بين صفوف الجند يخدمون خارج أفريقيا كانوا بهذا نفسه يفقدون دورهم كعاملين على الرومنة . بالتأكيد أن الخرائب الهائلة التي ينقب فيها علماء الآثار ترمز إلى ثراء المالكين الذين لم يعيشوا ربما كثيراً في أفريقيا .

والمدن ؟ فكم من مستعمرة عسكرية وكم من تكوين اصطناعي وما العدد ذات الأغلبية البربرية تلبية للضرورات الجغرافية ــ الاقتصادية ؟ إن الرقم الذي يسوقه ش. كورتوا وهو ٦٠ بالمائة كمعدل للتمدين ، يدع المرء شارد الذهن [2] . حتى على افتراض بأن مدن الداخل كانت بربرية في معظمها فما هي المكانة الصحيحة للاتينية في الحياة اليومية ؟ إن النقوش الباقية تعرض الصورة الرسمية للحياة الاجتماعية ولم تعرض مطلقاً العلاقة الكمية بين لغات التخاطب . وحاصل القول أن المؤشرات التي يُنظر فيها لا يمكنها أن تكون براهين أكيدة على رومنة أفريقيا لأنه يراد تفسيرها بحسب منطق حقبة لاحقة بعد زمن طويل . ويبقى صحيحاً أن طبقة من البورجوازيين الصغار ومن الفلاحين الميسورين ذوي الأصل الأفريقي ، قد استطاعت في ظل الطبقة الحاكمة الرومانية ، إلى جانب عامة المدن ، أن تكون دعـامة ظاهرة من الروضة . فما

---

(١) إذا كانت هناك قوانين سوسيولوجية لأمكننا حتى أن نستخلص منها النتيجة العكسية . ذلك أن عدداً من الأفراد المترومنيين يستطيعون الوصول إلى أعلى الأقدار في وسط سكان مترومنين قليلا . لنقارن ذلك مع فارس المسلمة في القرنين الثاني والثالث. حيث صار دور أبناء فارس السياسي والإداري والثقافي في الأمبراطورية العباسية لا يقارن بدرجة تعريب البلاد التي كانت تعود منذ القرن الرابع الى لغتها القومية .

(٢) راجع ش. كورتوا في : الفاندال وأفريقيا ص ١١١ . لقد استنجد ، عجباً هو بنفسه . بالجغرافيين الذين يتحدثون عن بلاد بكرقليلة السكان . ولم تكن هذه هي حالة أفريقيا الرومانية . الواقع ان مشكلة معدل التحضير ، نفسها ، في بنية قديمة، تكون مجردة من المعنى لان المرء يصل بصعوبة في ذلك العصر إلى التمييز بين الأوجه القانونية والاقتصادية والسوسيولوجية من الواقع المديني .

هو وزنها العددي ، ذلك أنها فيما دون مستوى معين لا تكون قادرة على ممارسة تأثيرها ، وبخاصة ، في أي نطاق اشبعت طموحاتها في إطار التنفيذ الاجتماعي الروماني ؟ يبدو واضحاً ، على الرغم من الاستثناءات المذكورة أن سهولة الحركة الاجتماعية كانت ضعيفة وأن تلك الطبقة لم تنل رضاها إلا في وقت متأخر جداً ، ربما بعد فوات الأوان . فقد حسب ألبرتيـني نفسه ، مضطراً لمناقشة مناسبة أمر كاركللا (٢١٢) الذي كان يعطي حق المواطنة لجميع الأحرار في الامبراطورية ، وبدلا من أن يكون هذا الإنعام سابقاً لأوانه فإنه كان بلا شك متأخراً ، تالٍ بزمن طويل لاضطرابات المغرب العظيمة وسابق بعشرين عاماً فحسب لاضطرابات الشرق المغربي ، فالبنية البلدية (التدرج بين المدن والتدرج بين جماعات المدن ، المتحضرين) تظهر جيداً هذه الصلابة الاجتماعية في الفترة التي كانت فيها الامبراطورية متينة والرغبة في الاندماج حادة ؛ وعندما أبطلت الدولة هذه الصلابة ، اكتسبت طبقة كبار الملاك ما يكفي من السلطة لجعل الاصلاح أمراً لا قيمة له . وإذ هم أخلوا المدن فان هذه الصلابة انتزعت منهم كل دور في إشاعة النمط الواحد وأن البورجوازية الأفريقية هي التي وجدت نفسها عندئذ مهيضة الجناح . وإذا كانت المسيحية في بادىء الأمر والدوناتية فيما بعد انتشرتا في المقام الأول في صفوف هذه الطبقة ، كما يظن لبعض الأسباب ، أفلا يعني هذا إدانة رومنة جاءت متأخرة أكثر من اللازم ؟ هكذا فان روما لم تكن لتستغل فحسب غالبية السكان البربر ولكنها كذلك خيبت أمل تلك الأقلية الميسورة التي كان يمكن كسبها نهائياً إلى جانب « عبقريتها التنظيمية » .

ليس هذا بالطبع هو رأي المؤرخين الاستعماريين ، الذين كانت المسيحية بالنسبة لهم تتويج الرومنة .

إنهم يؤكدون بأن هذه المسيحية ، البادئة في نحو منتصف القرن الثاني بعد الميلاد ، قد سجلت من النجاحات ما مكن طارطوليان Tertullien من التأكيد ، في حوالى مطلع القرن الثالث ، بأن أتباع الدين الجديد كانوا أغلبية في جميع المدن . وتشهد التعذيبات العظيمة في منتصف القرن الثالث وفي مطلع القرن الرابع بعدد شهدائهـا

الهائل وكذلك بما صاحبها من ردات ، على توسيع الدعاية إن لم يكن على عمق الإيمان . وعلى أي حال ، يحدد صراع القرن الرابـــع الطويل بين الكاثوليكيين والدوناتيين الأهمية الاجتماعية للمسائل الدينية ، وحتى وإن كانت أسباب الاضطراب في موضع آخر . فان المقاومة البطولية للاريوسية الفاندالية ولاسيما طيلة تعذيب أونيريك Huneric (٤٨٢ — ٤٨٤) وغنى الاكتشافات الأثرية والكتابية ، طيلة العصريــن الفاندالي والبيزنطي ، تشهدان بتعميق العاطفة المسيحية لدى السكان البربر . ويبدو إذن أنه يمكننا القول بأن أفريقية كانت أرض المسيحية الممتازة أكثر حتى من اسبانيا أو بلاد الغال من نواحي كثيرة . هذا الانطباع هو مع ذلك كمّي ؛ فما من وسيلة يسهل علينا تناولها للحصول مباشرة على تقدير كمّي . فقد سبق لنا أن أوضحنا فقر المراجع الموجودة في هذا الموضوع . إن أعمال الشهداء والوثائق المجمعية تتيح ، على الأكثر ، الإحاطة جغرافياً (شمال — غربي) ، وسوسيولوجياً (البورجوازية الوسطى في المدن) بالوسط المحابي للمسيحية . وتستطيع بقايا الكنائس دائماً ، فيما دون مستوى معين ، إقامة الدليل على ثراء ملاك تقيّ مقيم بعيداً عن أملاكه ، أكثر منها إثبات الورع أو عدد المؤمنين . على أي حال هذه البقايا هي متأخرة ونادرة كلما ابتعد المرء عن منطقة قرطاجة . إن أعظم عدد من الكنائس الكبيرة ومن الكتابات المسيحية المنقوشة قد تم نبشه في هذه المدينة ؛ كذلك مرة أخرى نجد تقدير المسيحية مرتبطاً بتقدير التمدين . فالقول بأن المسيحية الصامتة في الأرياف ربما كانت أكثر أهمية من مسيحية المدن إنما هو القيام لصالح هذا الدين بمصادرة على المطلوب لا يؤيدها قط تاريخ انتشار الاعتقادات الوحدانية الأخرى . والقول بأن علم الاحصاء البسيط سوف يدعنا نحسب بأنه كان لا بد للبربر من أن يكونوا أكثرية في الطائفة المسيحية وبالتالي يمثلون نسبة عالية من مجموع السكان ، ليس برهاناً موضوعياً . إن سهولة الردة الملاحظة في منتصف القرن الثالث قد تميل إلى الاثبات ، على الأقل في ذلك التاريخ بأن الدعاية كانت نشطة في القطاع الفني أي الروماني . ولسوف يكون الانشقاق الدوناتي عندئذ مؤشراً حاسماً ؟ أجل إذا كنا نصل إلى إقامة الدليل على أن الجناح الريفي (السيركونسلليين Cirrconcellion) كان حقيقة دوناتياً وليس فحسب

حليفاً للمناسبة . يجب علينا إذن ، على الأرجح ، أن نكون حذرين إلى أبعد حد عندما نتكلم عن عدد المسيحيين الأفريقيين . والحال أنهم نادرون أولئك الذين كانوا مسيحيين وعليه فان استخدام علم النقوش المسيحية هو الموجود وراء كثير من الأحكام المغامرة . فثمة أوليات ثلاث هي موضع التناول : إن كل أمير يستخدم مهندساً معمارياً يُعتقد بأنه مسيحي يكون مسيحياً ؛ وإن كل فرد يُظن أنه مسيحي لا يمكنه أن يعيش إلا في طائفة مسيحية ؛ وإن كل عاهل يعتقد بأنه مسيحي لا يمكن أن يكون إلا على رأس مملكة مسيحية . ولسنا نرى لماذا ينبغي أن تكون هذه الأوليات الماثلة وراء تفسيرات جميع الاكتشافات الكتابية ، بديهية . سوف يكفي مثال واحد على هذا المنهج : هذا المثـال هو الدراسة الموسعة التي كرسهاج. كاركوبينو لمسيحية غرب المغرب من القرن الثالث إلى السادس [1] . فقد بدأ بتسجيل واقعتين : بادىء ذي بدء العثور على مزيد من النقوش الكتابية في فولوبيليس Volubilis وفي أورانيا (وهران) ، اللتين كانتا في ذلك التاريخ خارج الامبراطورية ، أكثر من طنجة التي كانت ما تزال تشكل جزءاً منها ، وفي غرب شيليف Chelif أكثر من شرقها مع أنها أقرب إلى قرطاجة ، وأنها ، في المقام الثاني ، جميعها متأخرة (٤٥٠ في أورانيا و ٥٩٩ — ٦٥٥ في فولوبيليس) . وبدلا من أن يستخلص من هذه الوقائع ، المدهشة لأول وهلة ، أدلة حصيفة فإنه يهتف : « يا له من ورع في موريتانيا ! » ويستنتج من ذلك بأن المسيحية قد تمت على الرغم من وهن السلطة الامبراطوريـة . ونقوش فولوبيليس الأربعة تحمل أسماء ثلاثة لجوليوس واسم واحد لجوليا ؛ فهل هي أسماء لبربر أم لأجانب أم لرومان؟ إن المؤلف يَزْعَم كونها لبربر لأن أميراً من الباكات Baquates ، جيران وحماة المدينة اتخذ اسم جيوليوس في أواخر القرن الثالث. وفي حين أن الوثائق المتعلقة بهؤلاء الباكات فقيرة ومتناقضة إلا أن المؤلف يؤكد بأن «باكات فولوبيليس لا يلينون في إخلاصهم تجاه المسيحية (أي مسيحية ؟) التي دخل فيها أجدادهم منذ أربعة قرون خلت » [2] . ولا يقف عند هذا الحد . فاقتنص فرصة

---

(١) سبق ذكره : ص. ص ٢٨٨ — ٣٠١ .

(٢) إنها نفس المحاكة التي يستخدمها المؤرخون الستة عندما يتحدثون عن الأدارسة . وقد سخر =

التنويه بالنقش الكتابي الرابع المؤرخ في ٦٥٥ الذي يذكره عن جوليا روغاتيرا Julia Rogatira التي تم اختيارها من ألتافا ، ليخط لوحة لاتحاد عظيم مفترض بين المدن والقبائل المسيحية من أورانيا إلى المحيط . وما هو الدليل ؟ « الجغرافيا تقتضي ذلك » على حد قوله . فالوقائع اللغوية التي يتعلل بها يمكنها أن تعني فحسب بأن أصل الميت أو صاحب النقش الكتابي من أورانيا وليس من الضروري أن يكون الإقليمان على اتصال دائم . ويستطيع بالتأكيد في النهاية إنشاد تسبيحة في مدح أولئك البربر الذين حافظوا ، وقد تخلت عنهم الإمبراطورية ونسيتهم الكنيسة ، على إيمانهم المسيحي حتى القرن السابع ؛ لكن هذا الأسلوب في استنطاق الوثائق يثبت تماماً فقرها وغموضها . إن الخطابة لا تحل مكان المحاكمة الموضوعية بمحض الصدفة ، وبعد مثال كهذا المثال فإننا نميل إلى الشك حتى في النتائج التي كان يمكنها أن تبدو أكثر جدية كوجود تلك الأسرة المالكة حول تياريت Tiaret في القرنين الخامس والسادس التي كان من المحتمل أن يكون ملوكها مسيحيين إذا نحن حكمنا على ذلك بالقبور (١٣ djedars) التي تعزى إليهم عادة .

إن تاريخ احداث التنصير وبنية المسيحية الأفريقية ، الاجتماعية والعرقية ، وبالتالي التقدير العددي ، لأمور ما زالت إذن باقية خارج متناولنا . وسيكون مع ذلك مما لا مبرر له أن نخلص مباشرة إلى القول بسطحية الظاهرة . فكونها كانت رومانية قبل أن تكون بربرية ، غنية قبل أن تكون فقيرة ، مدينية قبل أن تكون ريفية ، أمر لا يثبت البتة أنها لم تجذب إليها بصورة أو بأخرى ، جموعاً من البؤساء سعياً وراء تبرير تعاستهم .

لم تكن المسائل الدينية لتحتل مكاناً عظيماً إلى هذا الحد في السياسة الإمبراطورية وفي حياة الناس اليومية لو أنها تركت غالبية السكان لا مبالين . ومن هنا تنبثق مسألة

= هـ. تيراس H. Terrasse في كتابه تاريخ مراكش . فهل كان يظهر نفس الضرورة الانتقادية بإزاء زميله كاركوبينو ؟ .

النوعية لهذه المسيحية . هل كان يمكن معرفة عدد مسيحيي أفريقيا ، والذي كان سينبغي كذلك تحديد أية مسيحية هي المقصودة . وأي نوع من الكاثوليكية كانت كاثوليكية القرن الثالث وما هي دوناتية القرن الرابع ؟

فما هو نوع المسيحية التي نمت في أفريقيا التي هجرها ديوقليسيان Diocletien ولم يعد الفاندال والبيزنطيون فتحها ؟ فلا يمكن للمرء أن يحكم بعود جمهور قرطاجة أكثر من نوعية إيمان القديس أوغسطين . وعدم طرح هذه المسألة هو أن يحكم المرء على نفسه فيما بعد أن يطرح مسألة أخرى في موضوع نزع مسيحية المغرب .

– ٣ –

كثير من الأمور تم تثبيتها كحقائق وهي لا تكاد أن تكون ممكنة الحدوث ! وكثير من الكتابات المطولة عن قرطاجة وعن روما وعن الكنيسة تكاد لا تتعرض لشمال أفريقيا ! فكيف ندهش منذئذ من أنه لا يوجد مؤرخ واحد لا يلجأ إلى الفرضيات وإلى إعادة البناء وبالتالي إلى الأحكام السياسية والأخلاقية من أجل إخفاء الفاقة في معارفنا . فالأيديولوجية تكون حيث كان ، وبالطبع تتحدد تلك الايديولاجيات بالمسألة التي يقدر بأنها هي الجوهرية : لماذا منيت الرومانية بالإخفاق النهائي ؟ ووفقاً لما يُصار إلى التركيز على العناصر السياسية أو الاجتماعية ، على الأخطاء المرتكبة بحرية أو التناقضات الضرورية فان الأمر يفضي بنا إلى رؤية استعمارية أو متحررة .

إن الرؤية الاستعمارية هي أوسعها انتشاراً إذ تملك لنفسها تقليداً طويلا والسند العام والحظوة الأكاديمية بل ويمكن القول ، وضوحاً معيناً إذ كيف يستطيع المرء وهو يعيش في مغرب مستعمر ، أن يتخلص من الميل الطبيعي لفهم الماضي من خلال الحاضر ؟ ذلك أنه يُنظر بصورة عفوية إلى جوكورتا Jugurta من خلال عبد القادر وإلى تاكفاريناس Tacfarinas من خلال عبد الكريم وتفهم القوانين الرومانية على

ضوء قوانين ملكية يوليو (تموز) ، والمسلمين شبيهين بالمتعاونين مع موكراني Moqrani فتكاد هذه المقارنات البلاغية ، أن تصبح ، لدى المؤرخين ، بصورة لا إرادية ، اسباباً تفسيرية [1] وعليه تُنسب الحبكة وينسب منطق الحاضر إلى وقائع الماضي لتنظيمها ؛ فيُضفى نوع من البداهة على الأدلة التاريخية ؛ وهكذا يبرز منهج للتفسير. يُراد إفهامنا بأن المغاربة كانوا لا يزالون يعيشون أواخر العصر النيوليتي (عصر الحجر المصقول) الفقير والمتخلف . وهم يدينون للقرطاجيين باتصالهم بمكتسبات الحضارة الشرقية ؛ وهذا التأثير كان بطيئاً ولم يعرف ويحس به إلا في القرن الثالث قبل الميلاد . وقد كان القرطاجيون ، الموهوبون جداً على الصعيد العملي ، متخلفين مع ذلك على الصعيد الجمالي والديني وحضارتهم لا تقارن بحضارة اليونان التي ستأخذ بها روما وتطورها . وعندما وصل الرومان إلى أفريقيا كان المغاربة بعيدين عن اكتساب الأسس الضرورية لاندماج ما بالدولة الرومانية ؛ فكان لا بد من حقبة من التدرب : ان الزعماء التقليديين ، ملوك نوميديا وموريتانيا هم الذين سيتكلفون بذلك طيلة ثلاثة قرون (كان لا بد لهذا التعليم الاعدادي من أن يتم بواسطة الحضارة البونية ، المعتبرة كمدخل إلى الحضارة الوحيدة الحقيقية : اليونانية ـــ الرومانية ؛ والاشارة الرمزية هي : المكتبة البونية المنعم بها على النوميديين بعد تدمير قرطاجة) . يشاهد المرء تحويلا سريعاً للدولة والحياة المدينية والفن والدين والكتابة إلى البونية ... واتصل ماسنيسا باليونان وانتصر ابنه في أعياد أثينا الرسمية (Panathenes) ؛ ولكن من المسلم به بأن التأثير المباشر كان مستحيلا : فان التعليم الإعدادي لم يكن بعد قد تم اكتسابه . إذ جرى في مطلع القرن الأول بعد الميلاد ، حيث تقرر الإلحاق ولكن الالحاق لم يكن يعني الروضة المباشرة . سوف تعمم روما بجيشها وبإدارتها التحضير وتعمر البلاد وتوسع نطاق الزراعة ؛ وداخل هذا الميدان الذي عمه السلام بالتنظيم المديني سوف تؤسس

---

(١) الأمثلة عديدة في ش. ا. جوليان (ش. كورنوا) المصدر السابق . ص. ص ١١٧ ـــ ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٣٢٠ ؛ ج. كاركوبينو ، المصدر السابق ص. ص ٣٦ ، ٢٣٦ ؛ ف. ريتشارد : ملاحظات على ترجمة حرب جوكورتا دي سالوست ، طبعة غارنيه ١٩٦٨ ص ٢١٤ رقم ١٨٧ ... هل يحق لجوليان عندئذ أن يعيب هذه التجديدات على القوميين الجزائريين بما أنهم لم يبدأوها ؟

المهمة الأولى للرومنة . فيتقدم الفرد في سلم الحقوق كلما اكتسب اللغة والعادات والمهارة المدنية في تقليد روما ؛ وعلى توالي الأيام سوف يختصر هذا المقياس حتى لا يبقى بالمرسوم ٢١٢ ، سوى البدو وحدهم المتمردين على حياة الجماعة ، مستبعدين منه . والحروب والثورات ؟ إنها من عناد البربر . وبواعث الرومان ؟ الحس بالواجب والغيرية . فكل شيء سوف يكون إذن غزلياً ، ولم يكن النهاية . إنه لواقع أن الرومانية قد تباطأت ، من القرن الثالث إلى السادس ، في احتضار طويل . وعثر على تفسير لذلك ، بادىء ذي بدء في التحليل النفسي وفي الأخطاء السياسية . « ليس هناك من شعب كانت العبودية أثقل عليه وطأة » : على حد قول جيزل ثم أضاف : « منذ العصور القديمة أبرزوا لنا (البربر) على نحو ما كانوا على الدوام ، قلقين ، غير ثابتين ، مهتاجين ، سريعي الغضب والتمرد »[1] . كذلك فان روما ، على ما يقال ، اقترفت الخطأ السياسي بعدم احتلالها المغرب برمته . ويظن البرتيني Albertini[2] أن روما لم تحتل ما يكفي ولم تعمّر ما يكفي . فإن الحدود الرومانية Limes المصطنعة كانت دائماً عرضة للاختراق فقد ارتكب إنكفاء عام ٢٨٥ ، خطأ ترك البربر ، الذين تحولوا إلى الرومانية ، معرضين لعدوى البربرية . وفيما بعد ظهرت للعيان حركة شك ، انتشرت في بداية أمرها ، انتشار التساؤل ، ثم أخذت صيغة التعبير الواضح : هل كان في وسع روما أن تنجح ؟ فقد كتب جيزل Gsell وهو يفكر في حاضر القرن العشرين ، في خاتمته : « إن احتلال البلاد الأخلاقي يفرض نفسه إذن بضرورة الاحتلال المادي نفسه . ويح لسادة أفريقيا الشمالية الذين لا يسعهم أن يفهموا ذلك » ، يريد بذلك أن الرومان قد منحوا المغاربة حضارة راقية ولكنهم لم يقنعوهم بقيمتها من أجل الفرد . إلا أن ألبرتيني أكثر صراحة : « إن الأزمة الاقتصادية (البؤس) هي التي دفعت الناس للعودة إلى التوحش القديم »[3] أي إن روما جلبت الغنى

---

(١) المصدر السابق مجلد ٦ ص ٢٧٨ : مجلد ٥ ص ١٣٧ .
(٢) المصدر السابق . خاتمة .
(٣) المصدر السابق ص. ص ١٢٠ ، ١٢٦ . يدرك المرء لماذا أمر ج . سوستيل ، وكان عندئذ حاكماً عاماً للجزائر ، باعادة طبع هذا الكتاب في عام ١٩٥٥ وهو مكتوب عام ١٩٢٢ ، فقد كانت الا ستنتاجات تتطابق مع مبادىء سياسته .

للجماعة والبؤس للفرد . فالمعجبون إعجاباً لا يتزعزع مضطرون عندئذ للرجوع عن القاعدة المتبعة في البداية فيأخذون على روما أنها لم تستأصل التأثير القرطاجي . ذلك أن الحضارة البونية ، وقد استمالت إليها النفوس ، في الأرياف خاصة ، وعثرت على شباب جديد مع المسيحية ، وهي دين شرقي ، رفعت سداً لا يمكن اجتيازه في وجه الفكر الغربي متمثلا في روما . كتب ش. بيكار [1] Ch, Picard « يظل عمل قرطاجة في أصل التأثير الجذاب الذي مارسته آسيا على البربر على الرغم من أنهم على مقربة من أوروبا » . كان على روما أن تخفق : فمن لا يرى في ذلك تطور السياسة الاستعمارية الفرنسية : استعمار بلا عقدة اندماج ، تشاؤم عرقي ؟ لقد أوردنا بخاصة عدداً من المعجبين بروما الوثنية ، لم تكن المسيحية بالنسبة لهم إلا أسلوباً جديداً لتحمل أعباء الرومانية . هناك أيضاً أولئك الذين أرادوا رؤية الحوادث من وجهة نظر المغلوبين والذين يميلون إلى اعتبار المسيحية نقداً للأمبريالية الرومانية . فهم يرون جيداً كل ما كان هذا « الجهاز من السلب المنظم » يعنيه من الأثرة والاستقلال . فالثورات المستمرة يعاد بالطبع تفسيرها ؛ إذ لم يعد وجود لانتفاضات تصدر عن بربر لم يُحسن إخضاعهم ، إنها تكتسب قيمة التعبير الوطني أو الاجتماعي .

كل شيء يتغير معناه في هذه الرؤية الثانية . إن حقبة التحول القرطاجي لم تعد تمهيدية ضرورية وإنما هي نتيجة لحساب سياسي : إن روما دمرت قرطاجة لتمنع ماسّينيسّا Massinissa من الاستيلاء عليها ومن أن تصبح قوة في البحر الأبيض المتوسط . كان مجلس الشيوخ الروماني يراقب ، يكيد ، ويوقد نار حروب داخلية ليضعف على الدوام الملوك النوميديين ، ويجعل منهم عملاء طيّعين . وطالما كانت روما لا تحتاج إلا للقمح وكان خلفاء مسّينيسّا يؤمنون التموين فان الاشراف غير المباشر كان أكثر الأنظمة اقتصاداً ؛ وعندما اندلعت نيران الحرب الأهلية ، وهي ذروة التناقضات الاجتماعية التي لم يكن بالامكان التغلب عليها ، احتاج الرومان عندئذ للأرض فتقرر الضم . فالوضع موضع الاستثمار يعني قبل كل شيء نهباً

(١) ج وك. ش – بيكار المصدر السابق ص ٢٥٢ وقد أخذ بفكرة إ. ف. غوتيه .

والليمس إذاً ليس تماماً حداً من حدود الحضارة بقدر ما هو حد متحرك بين الذين نزعت ملكيتهم ، الذين تم دفعهم إلى الصحراء والشغيلة الذين تدعو إليهم الحاجة الماسة ، الذين يسخّرون ويرهقون بالضرائب . وعليه يتحدد المتمردون : فالمور Maures هم الذين نزعت ملكيتهم واختاروا الحرية ؛ والنوميديون هم الفلاحون الاحرار والمزارعون المياومون الذين يثأرون من حين إلى آخر من مستغليهم : احتجاج قومي من جانب واحتجاج اجتماعي من الجانب الآخر . فالتنمية الرومانية لا تستنفد في التحضير الاجباري فهي تعني كذلك استنزاف الأرض ، إتلاف الغابات وخفض الدرجة الاجتماعية . وإذا كانت حرب جوغورتا Jugurtha(١١٢ — ١٠٥) محاولة للاعتراض على وضع اليد الرومانية المباشرة وتقسم بصفة الكفاح القومي فان حرب تاكفاريناس Tacfatinas ، التي جرت بعدها بقرن واحد (٢٤—١٧) هي أول مقاومة لنزع ملكية أراضي المرور [١] . لكن الليمس استمر ولم يستطع المور إجتيازه إلا في الغرب وفي أوقات متقطعة في حين أن النوميديين (أقنان ، عمال زراعيين موسميين ، زارعون Cultores ...) قليلون جداً ومستغلون على أكمل وجه . فكيف الاحتجاج ؟ اعتناق المسيحية ، الدين الجديد الذي يأخذ في هذه الظروف صبغة خاصة من الثأر ، ضد الأغنياء والأمبراطورية . لسوف يدوم الاتجاهان ، الموري والنوميدي حتى نهاية العصر البيزنطي ؛ وبعد عام ٢٨٥ يعود الجزء المهجور مورياً ويبدأ الضغط من جديد ضد الليمس الجديد ؛ وفيما يرون هذا الليمس ، في نطاق أضيق من الأرض يأخذ النوميديون المستغَلّون أكثر فأكثر ، بالتشكل في جماعات دفاعية : السيركونسيليون[٢] Circoncellions ، الذين هم أناس أحرار ، لكنهم يحمون الآخرين ، المستغلين أكثر منهم ، ويهاجمون أسياد الحياة الاقتصادية : وهم على التوالي : الأسياد والملاكون والمرابون domini, possessores, Creditore . فما هي حالتهم الاجتماعية ؟

---

(١) راجع ر.سيم Syme في : «Tacfarinas, the Musulamii and Thubursieum» . inrom. ec. and soc - hist. in hanor of . A. C Johnson, princeton, N-J, 1951 , p. p. 113 et suivant.

(٢) عساسون في بيت المؤن (ش. سومانيه) أو زعماء القديسين (فريند Frend) . م

هل كانوا بربراً أو من أنصاف البربر ، كاثوليكاً أو دوناتيين ؟ ليس هناك من جواب أكيد . إن ما هو ثابت أنهم سيطروا في القرن الرابع على الأرياف الأفريقية قبل عام ٣٤٧ وفيما بين ٣٨٠ ـــ ٤٠٠ وأنهم استخدموا الخصام الديني للعمل عـــلى التقدم بنضالهم هم . فختموا مع الدوناتيين على تحالف تكتيكي ، إلا أن هؤلاء كرهوا أهدافهم البعيدة ؛ وفي النهاية تحالفت الكنيسة مع كبار الملاكين العقاريين والجيش وصفت الدوناتيين والسيركونسليين ، ولكن ليس قبل أن يكون منطق هذه الحركة قد تكشف بوضوح تام ، طيلة حقبة قصيرة . فان جيلدن Gildon الذي كان قد تحالف ، أثناء ثورة أخيه فيرموس Fermus (٣٧١ ـــ ٣٧٥) من الرومان وفيما بعد سمي قائداً لجيش أفريقيا ، ثار بدوره في عام ٣٩٦ فأوقف أسطول التموين ، وصادر الممتلكات الأمبراطورية ووزعها على الكونسليين وجيوشهم [١] . لا شك أنه هزم في عام ٣٩٨ ولكنه ببيعه للقمح المخصص لروما في مكانه وباقتسام الأملاك العقارية الكبرى . قد أبان بوضوح أن هدف تلك الثورات المستمرة كان هذه الاستعادة للأراضي المصادرة التي لم يكن في الوسع أن ينجح فيها طالما بقيت الإمبراطورية الرومانية حقيقة دامغة . في هذه الرؤية لم يكن الفشل فشل الاستقلال الروماني ، المدان على أية حال ، بل فشل الكنيسة التي خانت ، بتحالفها مع الملكية ، آمال الفقراء واقتادت إلى الكارثة النهائية أحسن أوجه الوجود الروماني ؛ يمكن التحسر على ذلك بالنسبة لأفريقيا ، إلا أن المسؤولية لا تقع في ذلك على الأفريقيين . هكذا وضع المزارعون بالتوكيل وكبار الكنيسة موضع الإتهام ، وذهبت هباء آمال الفقراء والمحرومين ؛ هكذا أرضيت كذلك ميول العلمانيين والديموقراطيين من اليسار المعادي للاستعمار . بيد أن المهم بالنسبة لنا هو أن نتبين جيداً الصفة غير المباشرة لكل هذا الاجراء ؛ لقد نظر إلى المغاربة كما ينظر إلى جميع ضحايا الأجهزة التعسفية ؛ ذلك أنه نظر إلى كل شيء

---

(١) راجع ش. كورتوا المصدر السابق ص١٤٤–١٤٦.وفي مقابلة ر.ماك مولين R.Mc. Mullen : Enemies of the Roman Order, Cambr. Mass, 1966 p. 200 - 207

(*) الكولوت culottes هو سروال رجالي يغطي من الخصر حتى الركبتين كان يرتديه رجال الطبقة الأرستقراطية في عصر الثورة الفرنسية وقد أطلق على المتحمسين في الدفاع عن الجمهورية من أعضاء المجلس الوطني وأتباعهم صفة الـ Sausenl atte اي بلا سراويل .

بإرجاعه إلى أساطير التقليد الجمهوري : إلى السيركونسليين والعمال الزراعيين من خلال اليعاقبة والمتطرفين في الدفاع عـن الجمهورية (les Sans culotes) وإلى الدوناتيين والكاثوليك من خلال الطبقة الدنيا والعليا من الإكليروس . وكما أن المغاربة ليسوا إلا التعبير السلبي لجهاز تعسفي فان الثورات لا تدل على وعي قومي ولا وعي إجتماعي . فنيما وراء الحدود الرومانية ، الليمس ، تعني الحرية بربرية بلا مستقبل ؛ وفيما دونها احتجاجاً أعمى على البؤس . فقد رفض ش. ا. جوليان Julien دائماً أن يرى في جوكورتا زعيماً إستقلالياً وكتب ج. ب. بريسّون J.P.Brisson في موضوع الدوناتيين : « كان البربر يشكلون الشريحة الأكثر حرماناً بين سكان أفريقيا الرومانية لا لأنهم كانوا من البربر وإنما لأنهم كانوا يضارون أكثر فأكثر في إقتصادهم الطبيعي بالنسبة للشطر الذي بقي رحلاً منهم ، تتزايد معاناتهم من أزمة العصر العامة بالنسبة لأولئك الذين قبلوا انتقالا تاماً أو غير تام إلى الحضارة في إطار التنمية الكثيفة للبلاد » . ورغب ش. كورتوا ch. Courtois في الاعتراف بأن الدوناتية كانت تندمج مع جميع المعارضين للسلطة الرومانية ، إلا أنه رفض استعمال كلمتي القومية والثورة المغالطتين تاريخياً لما يقصده ، واللتين تصفان مع ذلك تمام الوصف ما يحاول التعبير عنه [1] .

من هذه الزاوية التحررية ، أخفقت روما بسبب تناقضات سياستها ، لا بسبب ردة فعل بربرية . وكان في وسع الكنيسة القيام باختيار أفضل ، إذن لأمكنها إنقاذ المسيحية والرومانية معاً ؛ ولكانت لعبت في الماضي الدور الذي تريد القيام بـه الديمقراطية الاجتماعية في عصرنا الحاضر . وأيا ما كانت الحقائق المستقراة التي تتيحها هذه الرؤية وأيا ماكان طابعها المعادي للاستعمار في بعض النقاط ، يبقى كونها علامة النمي البسيطة للرؤية السابقة القائلة بأن المغربي لم يلعب فيها أي دور إيجابي ؛ إذ أنه دائماً ، سواء أنظر إليه كخطر فيما وراء الحدود الرومانية ، الليمس ، أو كضحية فيما دونها ، كان يُخشى منه من الخارج [2] .

---

(١) ج. ب. بريسون في : « استقلالية ومسيحية في أفريقيا الرومانيـة ... » ص ٢٨ ؛ ش كورتوا : المصدر السابق ص. ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٢) نرى جيداً لماذا يستطيع الانسان الانتقال بسهولة من رؤية إلى أخرى وأن كورتوا يستطيع =

جميـــع النظرات كانت استعمارية ، في الايجاب أم في السلب ، ولم تخترع الأيديولوجية القومية شيئاً على هذا الصعيد . فهل يمكن أن نرد إلى الماضي وزنه ولونه النوعيين ؟ قد يكون سؤالا بلا موضوع ؛ عندئذ يجب الاعتراف بذلك وأن ننقد أيضاً جميع تشويهات الماضي بالحاضر .

— ٤ —

لم يهتم المغاربة المحدثون بتاتاً بالحقبة التي نناقشها ؛ كان ذلك خطأ فادحاً . فقد اكتفوا ، في مواجهة تمجيد روما بالدفاع عن قرطاجة ، وريثة أسطورة المغرب ، موضع النزاع الأبدي بين الشرق والغرب [1] وأصبح الاصرار على الخاصية الشرقية في أصلها للحضارة المغربية ، يزداد سهولة ولكن على شرط الرجوع بذلك إلى الأزمنة القديمة ، إلى ما قبل الفينيقيين ، إلى الحقبة التي كانت فيها كل حضارة في غرب البحر الأبيض المتوسط ذات أصول شرقية ، فان الحجة تفقد من فائدتها . أما الحقبة القرطاجية فمن العسير التأكيد على تماثل الطموحات بين الليبيين والليبيين — الفينيقيين على الرغم مما تلقيناه من أصداء جميع الثورات والصراعات . ومن الممكن بلا ريب أن يضع المرء موضع الشك الوقائع التي نقلها اليونان — الرومان ، الطافحة بالحقد ، ولكن أين هي البراهين الإيجابية في الاتجاه المعاكس ؟ في الحقيقة أن الإشكاليـــة الاستعمارية في جملتها هي المقصود بالرفض ، تلك التي ترى في المغرب متفرجاً غريباً ولا واعياً على تاريخ يُصنع فوق أرضه . فليس ثمة ما يدعو إلى اعتناق وجهة نظر أجنبي ضد آخر ذلك أن اتخاذ نقيض التأكيدات الاستعمارية بصفة مجردة يمنع من أن ينصب الجدل على الأساس ويديم ضعفاً أيديولوجياً وعلمياً في نفس الوقت .

= الالتقاء مع ش. ا. جوليان . ونرى كذلك لماذا تظهر بسيكولوجية البربر كأنها سلبية بصفة جوهرية ؛ إنها المحصلة المنطقية لمنهج . كذلك فاني استخدم (فيما بعد) مفهوم السلبية ولكن بمعنى آخر . ويحسب جوليان أن هذا الرفض كان اختياراً متعمداً ولسوف أحاول أن أثبت بأن الحقبة الرومانية تتحدد أساساً بكونها لم تترك أية حرية في الاختيار للمغاربة .

(١) وخاصة أ. ت. مدني في قرطاجه في أربعة عصور (بالعربية) تونس ١٩٢٧ .

لقد أهملت تقنية بأكملها (علم النقوش ، نقد فقه اللغة ، استخدام نصوص دينية ..) يستطيع المغربي التآلف معها للاستعانة بها فيما بعد؛ وثمة نقد أساسي للآفاق الاستعمارية جُعل عسيراً لنفس السبب . وليس في الوسع أن ننقد بقسوة مفرطة لا مبالاة لا معنى لها إلا عدم النضج الثقافي والقومي .

واقع مؤسف لاسيما أنه يصبح من الممكن أكثر فأكثر تغيير النظرة في تاريخ هذه الحقبة . فماذا يمكن أن نقول مما هو ثابت حقاً في موضوع المغرب في تلك الحقبة ؟ الشيء القليل على وجه الدقة ، وفي هذا الاعتراف يكمن التقدم بالتأكيد فثمة لوحة تنتمي إلى العصور الوسطى تم رسمها طافحة بالخواطر المبهمة وكان يحسب أنه من المستطاع أن نستخلص من دوام التاريخ المغربي ، « تاريخاً من الوحل والدماء » كما كان يقول قزال Gsell [1] ولا بـد من التأكد نهائياً من أن تأكيدات المؤلفين الكلاسيكيين القليلة لا تقدم إلينا إلا أسماء ليست قراءتها أكيدة دائماً ، يحرّف شكلها بالانتقال من الليبية إلى اليونانية ، ومن اليونانية إلى اللاتينية ولا نكون أبداً مستيقنين لا من المضمون السوسيولوجي ولا من تحديد أماكنها الجغرافية . وإذا كان لا يزال من الممكن تحديد جغرافية حرب جوغورتا Jugurhta وهي التي يعتقد أنها معروفة حق المعرفة مع ذلك ، بما أن حكايتها ذات الأصل الروماني من الضروري أن تكون مفهومة ، فماذا نقول عن النصوص الأخرى حيث لا يلتزم المؤلف بأي شاغل من شواغل الدقة (٤٢) . فمن العبث تقديم جغرافية للمغرب القديم ، رسم لوحة إجتماعية له بالاستناد إلى النصوص القديمة ؛ فلن تكون أبداً إلا بياناً إسمياً ؛ ومنذئذ فان الصورة الكلاسيكية عن أفريقيا الشمالية ، تدخل التاريخ نصف متوحشة ، بالكاد تجوب أرجاءها جماعات من الرعاة هي الصورة التي يجب أن ترفض نهائياً . وإذا كان علينا أن نأخذ بعين الجد الأخبار المساقة من القدماء فان الاتجاه وحده هو الذي يجب أن يعتبر ؛ وهذا الاتجاه يبدو جيداً أنه يدل على تبعثر إجتماعي متسارع . أما أن الانتقال يجري من شعوب

---

(١) يمكن وضع جدول بالمحاكات الدورية لدى ستيفان قازال وش. ا. جوليان (كورتوا) و ج.؟ كاركوبينو .. وحتى ج . كامبس : أنظر ماسينيسا ... ، ص ٢٦١ .

لدى هيرودوت وبوليب وسللوست إلى اتحادات لدى سترابون وتاسيت واميان مارسيلّلان ثم إلى قبائل لدى بروكوب وكوريسبوس ، فانه ليس مؤكداً ، لكن التبعثر ليس مشكوكاً فيه . هذا التبعثر هو الواقع الأساسي ولكن ليست المسألة بتاتاً القبول به كواقع دائم ، ذلك أنه ما من أحد حتّى الآن أثبته بصورة موضوعية . كل الناس يؤكدونه منذ قرن ، لكن الحكم المسبق إذا أكد الف مرة يظل حكماً مسبقاً . فما هي الفكرة التي يمكننا تصورها للمجتمع المغربي في إطار هذه الرؤية للتبعثر العارض ؟ إن علم الأثار يكون هنا ذا أهمية عظمى إذ يلوح أنه أخذ يكذب أكثر فأكثر الصورة المستقاة من النصوص القديمة [1] .

إن الفرضية القائلة بأن ثمة شعب ليبي قدم من الشرق بطريق الصحراء التي لم تكن قد جفت بعد ، ففرض باللغة والثقافة وحدة حضارته على الشمال الأفريقي لا يقام الدليل عليها اليوم أكثر من زمن قزال . بيد أنه من الجائز الانطلاق من هذه الوحدة الثقافية ، نتيجة لعمل الصحراء التحضيري ؛ والانتقال من مرحلة ما قبل التاريخ إلى مرحلة ما قبل الكتابة يمكن تعريفه بحلول تنوع معين ناجم عن العلاقات المتصلة مع بلدان البحر الأبيض المتوسط فوق هذه الوحدة العقارية ؛ إلا أنه تنوع نسبي تماماً طالما أن ثقافات تلك البلاد هي نفسها من أصل شرقي . لكن المغرب يكف عن أن يكون طريقاً مسدوداً مفتوحاً فحسب على الجنوب الشرقي . وسوف يبقى هذا التباين بين مغربين أحدهما صحراوي ، ذو شخصية منيلية ، وريثة مباشرة للعصر النيوليتي (الحجر المصقول) ، والآخر بحر أبيض متوسط ، هو السمة السائدة من المرحلة السابقة للكتابة حتّى المرحلة التاريخية ، وتتضح في معارضة الليبيين — المغاربة Libyens — Getules (أرض مراكش حالياً) . فان مغرب البحر الأبيض المتوسط هو الذي يدخل التاريخ في اثناء الثلاثة آلاف سنة السابقة للمسيح ؛ وثمة مجتمع يتطور فيه ، شبيه في

---

(١) ج . كامبس : المصدر السابق . من المؤسف أن هذا المؤلف لا يبدو أنه يرغب في نقد حكم مسبق قديم الا بشرط فرض حكم مسبق جديد .

سماته الأساسية بالمجتمع الذي كان الانسان يجده على ساحل البحر الأبيض المتوسط . ولنذكر بعدج . كامبس بأن كل شيء ، في الآثار ، المنقولات ، التسلح ، الثياب ، الطقوس — التي حفظت لنا الأثار أو فن النحت ذكراها أو بقاياها — تردنا إلى مجتمع حضري من المزارعين ولا شيء ينم عن حياة رعاة رحل . فلا أسلحة عدوانية ولا تزين في الملبس ؛ على العكس ثمة أواني للسوائل ومقابر كبرى تستوجب وجود كثافة في السكان . ويلفت كامبس النظر إلى أنه إذا عثر المرء بسهولة على عظام أبقار ، فقد تم بالمقابل نبش قليل من عظام الخراف أو حيوانات الصيد ، وهو أمر غريب بالنسبة لشعب يزعم أنه من الرحل [1] . فقد مارس هذا المجتمع الثابت الزراعات الأكثر أساسية ، وتجمع في القرى وتاجر مع الضفة الأخرى من البحر المتوسط واخترع أو أنه أعاد ترتيب الأبجدية الليبية . فكيف كان التنظيم الاجتماعي والسياسي لهذا المجتمع ؟ يرى كامبس أننا ، ما دمنا قد عثرنا على الأوجه الرئيسية للأساس الاقتصادي ، نستطيع أن نخلص إلى تقرير استقرار معين وأن نستنتج منه البنية الاجتماعية [2] ، كما نعرفها في التاريخ وأحياناً حتى أيامنا هذه . هذا الاستنباط لم يعد مقبولا اليوم أكثر مما كان في أيام ڤيزل إذ أننا نقع عندئذ في دورانية المحاكمة . ومن الحصافة أكثر أن نستعين ، كصيغة يرجع إليها ، بمجتمعات البحر الأبيض المتوسط السابقة لمرحلة الكتابة مباشرة بدلا من المجتمع البربري التاريخي أن ننقاد عندئذ للجهل . حتى أن الجداول الإحصائية المرتبة بمعونة تركيبات غير ثابتة ليست في النطاق الذي تكون فيه الحركة الإجمالية هي التي تهمنا ، ضرورية [3] .

في هذا المجتمع المقيم لم يعد الاتصال في هذه الرؤية ، بينه وبين البحارة الفينيقيين في أواخر الألف الثانية ، اتصال الحضارة بالبربرية ، وإنما الأصح اتصال تجارة مدينية بمجتمع زراعي ، ستكون نتيجته الأساسية أن تفصل هذا المجتمع عن البحر الأبيض المتوسط الغربي . وعليه ندرك على نحو أفضل تأصّل الفينيقيين ودورهم

---

(١) ج . كامبس : المصدر السابق ص ١١٧ .
(٢) إنه يلتقي بقزال ويصبح غامضاً أكثر فأكثر .
(٣) إن حججاً كهذه الحجج مستمدة من علم العاديات لا يمكنها ابداً أن تكون ولكن يكون

الوسيطي. ولاشك أن تنظيمهم للمدن يأخذ بالتأثير في البربر وفي تجمعاتهم. إلا أن النتيجة الأهم ستكون إنشاء الملكيات، حيث تفصم تيارات قديمة : في شمال مراكش حيث بقايا الأبنية الجنائزية الهامة تؤيد وجود أثر لسلطة قوية ، وفي الشرق حيث تحفظ الأخبار التاريخية أسماء الملوك القدماء . أن تكوين هذه الممالك منذ القرن السادس ق. م لا ينبغي النظر إليه على أنه تتويج لتطور عادي وإنما كرد فعل على الضغط الفينيقي في إطار التنوع التي مر ذكرها . فإن شعار قرطاجة الشهير « العودة إلى الأرض » في القرنين الخامس – الرابع سوف يكون الجهد لتحطيم مملكة الشرق التي باختفائها ، تستبدل بأخرى في الغرب . ففي تكوين هذه الدولة النوميدية حيث تتنازع جماعتان هما (ماسيل Massyle وماسّايسيل Massaeyle ؟) السلطة ، سوف تلعب السياسة القرطاجية دوراً هاماً متناسباً مع إرادة البربر في مقاومة تقدمهم . إلا أن الحركة المضادة للقرطاجيين في جملتها ، المعبر عنها بالمؤسسة الملكية ، سوف تفشل ، لكن ظروف هذا الفشل سوف تكون على جانب عظيم من الأهمية فيما بعد . فان المملكة النوميدية لن تقترب من هدفها (الاندماج بقرطاجة أو تحطيمها) إلا عندما يكون أجنبي آخر قد صار مستعداً ليخلفها . في تاريخ يتدهور نتفادى خطراً مباشراً أكثر باستغلال أجنبي ضد الآخر لأنه لم يعد ممكناً دحر الإثنين معاً في آن واحد إنه لزمن لا ندرك تعويضه ، وازدواجية في الموقف يفرضها الموضع ، وهما أمران سوف يتكرران في التاريخ المغربي .

طوال الـ ٢٥٠ عاماً ، المدة التي تدومها الممالك ، سوف تقف روما ، أرادت ذلك أم لم ترده ، في وجه الحركة الطبيعية للتوحيد . إن مملكة المور في باغا Baga ومملكتي بوخشوس Bocchus تأخذ بالتكامل مع الموانىء القرطاجية وتعاود صلاتها مع آيبيريا ؛ لكن هدف النوميديين القديم ، وهو استرداد قرطاجة ، سوف لا يتحقق ، على العكس تفرض روما أو تشجع اقتسام المملكة النوميدية وتعزف على وتر المعارضة بين النوميديين والمور ، وتحاصر هذه الممالك من كل جانب بمستوطناتها ، وتجارها وجنودها وفي النهاية تضمها إليها الواحدة تلو الأخرى . وإذا كانت قرطاجة قد عمقت الاختلافات بين هذه الممالك فان روما قد فجرتها جميعاً . وغدا شكل التوحيد

على النظام الملكي ، الذي كان الشكل الإيجابي لمقاومة الأجانب ، مُداناً منذئذ ؛ أما وقد أوقفت الحركة فلن تتمكن بعدها من أن تعاود سيرها على نفس القواعد . وطيلة قرنين من السيطرة الرومانية تصبح المعارضة سلبية : بالانعزال في الجبال أو بالهروب إلى الصحراء بادىء ذي بدء وفيما بعد تأخذ شكل انشقاق ديني ؛ تعبيران سلبيان لإرادة وجود معينة . فالنظام العمومي (الخلاصي) الذي سوف تقدمه روما ومن بعدها الكنيسة لسوف يكون عمومية (أو خلاصية) العبودية ؛ ولسوف تكون الحرية إسماً للعودة إلى ما قبل التاريخ . ولم يكن هذا اختياراً مقصوداً ، إنه موقف يـُقبل بوعي وهو كذلك مدخل نوعي للتاريخ المغربي .

بالطبع ما من شيء مؤكد ، من كل هذا ، بصورة قاطعة ؛ ولا حتى سيادة أسرة على الشمال المراكشي من القرن الخامس إلى الأول ق. م ولا أن ماسينيسا قد أراد حقاً فتح قرطاجة ، ولا أن جوغورنا قد أراد التخلص من جميع الرومان ؛ ومع ذلك إذا كان اتجاه معين محتمل التصديق وإنه لكذلك ، فهذا هو الأمر الهام ، إذ يمكننا بصورة أسهل تفسير الحوادث التالية . فما هو هذا الاتجاه ؟ هل هو نحو تقسيم المغرب إلى ثلاثة أجزاء ، ليس بمعنى سياسي ، عمودي وإنما بمعنى إجتماعي — تاريخي ، أفقي ، الأمر الذي ينزع منه أي مغزى جغرافي بأسماء الشعوب أو الممالك . بالنسبة للقرطاجيين كان الليبي — الخاضع يعارض النوميدي غير التابع ؛ وبالنسبة للرومان ، فان الأفريقي ، النوميدي المتحول إلى الرومانية ، يعارض النوميدي — التابع ، المقيم فيما دون منطقة التخوم ، الليمس ، ويعارض هذا وذاك كلاهما الموري le Maure ، سيد نفسه . إذا كان الموري يعني غربياً فان المعنى هو إجتماعي — سياسي ذلك أن مركز العالم هو في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطي هو الجدار الذي يوجد شيء من ورائه ؟ إن الموري هو المتعذر قهره ، الرجل الشيطان ؛ يبدأ بأن يتموضع حول فولوبيليس Volubilis ، ثم نجده في القرن الرابع ق. م في الجزائر الشرقية وفي السادس على أسوار قرطاجة .

حتى قدوم الأجانب كان الفينيقيون والرومان يراكمون فوق وحدة لغوية وثقافية ثنائية في الفعالية الاقتصادية . وأدخل الضغط الأجنبي ثلاثية الحكم ، التي كانت

بداية ، إجتماعية — سياسية ، وما أن تتوطد ثلاثية الحكم هذه حتى تتضح في جميع الوجوه : الاقتصادية والثقافية واللغوية والجغرافية . وسوف يكون التفريق الأول بين المندمج والتابع غير المندمج والمواطن الأصلي الحر ؛ وفيما بعد سوف يصبح تفريقاً جغرافياً (مدن ، أرياف ، صحراء) وإقتصادياً (تجارة ، زراعة ، تربية ماشية في البادية) ويمكن أن يكون لغوياً (لاتينية ، بونية — بربرية ، وبربرية) الخ .. وأكثر من التفريق نفسه فان الميزة الأساسية هي في قلب القيم الذي يرافق الانتقال من صعيد إلى آخر . وفي النطاق الإقتصادي ، يسير التدرج من تربية الماشية المتنقلة في البادية إلى التجارة في المدينة ؛ وعلى عكس ذلك يجري الأمر في النطاق السياسي ؛ فان التطور يرافقه تراجع . فالظاهرة التي ينبغي علينا إدراكها ليست ظاهرة البداوة (مشكلة مؤرخي ما قبـــل الكتابة) بقدر ما هي ظاهرة العودة إلى حياة البداوة ، (مسألة تاريخية بحتة) ؛ إن التأخر ليس بالأمر الذي يصعب على التفسير ، وإنما الإنكفاء ، الذي يكون أحياناً رمزياً . فالإنسان الذي يعود إلى حياة البداوة في الصحراء ، لا يفكر إلا بالعودة وعينه دائماً على منطقة التخوم الرومانية ، الليمس ، وهو يعلم أن الصحراء تبقى ، ضد عدو لم يُقهر ، الملجأ الوحيد . وهكذا نصل إلى مشكلة القبيلة . عندما يقال أن التاريخ المغربي هو « تاريخ قبائل » ، وهي العبارة الأثيرة لدى علم التاريخ الإستعماري كله ، لايكون قد قيل شيء ، إذ يعرف كل إنسان أن ثمة فروقات أساسية تفصل قبيلة البدو العريقين من رعاة الإبل : تنظيم إجتماعي شامل ، الممكن وحده في إطار جغرافي — إقتصادي معين ، عن عشيرة الجبليين ، التوسط الاجتماعي — الاقتصادي لتوازن مقصود ، الرمز التصنيفي للسهول والهضاب الزراعية . إذا انطلق المرء من مفهوم مجرد أو معاد بناؤه للقبيلة كمنظمة أساسية والتي نعثر عليها كما هي في المغرب عبر المراحل السابقة لمرحلة الكتابة أو المراحل التاريخية ، فلا شك أنه سيحلو له تقليص هذه القبيلة إلى مرحلة تاريخية أدنى « مظلمة » كما يقول ش. كورتوا Ch. Courtois لكن هذا المرء يحكم على نفسه في ذات الوقت بأن لا يدرك أبداً ديالكتيك التطور المغربي . فلابد من أن ينظر إلى الظاهرة ، قبل كل شيء ، كـ « عودة إلى الذات » في وضع تاريخي محدد ، وكالنتيجة والتعبير عن تاريخ محاصر ، تعبير متحول إلى مؤسسة،

مجمّد والذي سيؤدي كرد على جميع المحاصرات اللاحقة . لسنا ندري من أين انطلق التاريخ المغربي ، ولكننا نعلم إلى أين لم يستطع الوصول وهذه المسيرة المتوقفة لها اسم هو القبيلة .

ولعدم إدراك هذا الوجه المتناقض نأخذ التقسيم الثلاثي على أنه بناء حقيقي . مور Maures ، نوميديين ، جيتول Getules ، وفيما بعد ، مصموده Masmuda ، صنهاجة Sanhaja وزناتة Zanata ؛ انه لا يفيد شيئاً أن نضعها على الخريطة أو أن نعيد بناءها إنطلاقاً من جماعات أضيق ؛ يجب النظر إلى هذا التقسيم كصياغة أيديولوجية في موضوع حادث ينبغي البحث عنه في مكان آخر .

هل يمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك ومحاولة النظر في التنظيم على المستوى المحلي هل من الجائز أن نستخدم لهذا القصد ما نعرفه من ذلك في العصور اللاحقة ؟ فليس ثمة من يؤكد معرفته بما كانت عليه الحياة الاجتماعية تماماً في منطقة النفوذ القرطاجي أو الروماني وليس هناك من سبب للاعتقاد (كما يُقصد دون إثبات) [1] بأن النظام القبلي قد حطم طيلة السيطرة الأجنبية لكي يعيد بناءه فيما بعد . فان ما نعرفه عن الممالك التي تعاقبت بعد الحكم الأمبراطوري في الأراضي التي تخلت عنها روما لا يوحي البتة بهذا الانطباع . حتى على افتراض أن البنية القبائلية هي الكائنة حول فولوبيليس Volubilis ، في أورانيا Oranie ، في جبال الأوراس ، كما نعرفها من جانب آخر ، تطوق ممالك القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد ، فإنه ما تزال كذلك هي ظاهرة الـ « عودة » إلى النظام ، ينظر إليها كوسيلة للدفاع ، التي يجب تحليلها لا اتخاذها كسلمة .

إن النظام القبائلي ، في جميع وجوهه وبأنماطه المتدنية ، يجب أن يوصف في الوقت الذي ظهر أو عاد إلى الظهور فيه ، في التاريخ ، بعد الفتح الروماني ، وليس يُتخيل

---

(١) نرى جيداً ما هو أصل دورية محاكات قزال وجوليان وكورتوا . إنهم يبدأون بوصف المجتمع الأول بتركيز ذكريات العصور الوسطى فيه حيث يصبح من السهل بعد ذلك أن نرى في كل تطور رجعة إلى النموذج المثالي .

كنظام أساسي ، في أصل التاريخ نفسه . فأهميته المستديمة في ماضي المغرب ليست في أنه كان أساساً لتطور أو لركود ، بل في أنه الرد ، مبتكر أو مأخوذ به من جديد (وهو ما يعتبر في النهاية شيئاً واحداً) الديالكتيكي على محاصرة تاريخية . ومن هنـا يأتي وجهه المزدوج : من الاستدامة ومن الدفاع عن الذات ، تعلق تقليدي وكذلك انتقالي ، حل مصمم في الانتظار لاجتياز التخوم الرومانية Limes (المنطقة المحرمة) مرة أخرى ، فهو يدوم لأن الفترة الإنتقالية تدوم . ولا يمكن أن يفهم إلا بالرجوع إلى بُنى أخرى ذات تطور محاصر ، كتطور السلتيين Celtes مثلا [1] .

ها هنا تكمن بالنسبة للمغاربة المحدثين أهمية الحقبة التي نناقشها ؛ ثمة موقف كان يجب أن يتكرر بنتائج متزايدة الجدية ، ارتبط فيها لأول مرة في وضح التاريخ. فعدم الاهتمام به ، لا انتزاعه من الأيديولوجية الإستعمارية ، يعني الالتزام رغماً عنا بنشر إيهامات تمنعنا من الإدراك ومن العمل .

---

(١) كما هي الحال غالباً أن أعمق الحدوس في هذه المشكلة نجدها لدى بيرك Berque (راجع : « Qu'est - ce qu'une tribu nord - africaine », Hammage a L. Febvre, Armand Colin ed. 1951 p. 261 - 271.)

٣ ــ فاتح يطرد فاتحاً آخر

ــ ١ ــ

بالقرن الخامس وبمجيء الفاندال يبدأ في المغرب عصر الانتظامات الكاذبة ، والاستقرارات الخادعة : النغم القديم ، دورة الأجيال الثلاثة ، حكومة أقلية أجنبية واقعة تحت تسلط الأمبراطورية القرطاجية . وهذا كله فوق معطى دائم هو : أفريقيا الثلاثية .

الوقائع معروفة ، على الأقل من وجهة النظر البيزنطية ولم يضف عليها أي جديد بصفة جوهرية منذ بداية هذا القرن[1]. في أمبراطورية رومانية مقسمة بين مختلف الجماعات الجرمانية ، كان مصير الشمال الأفريقي أن يكون فريسة لمن كان يصل إليه الأول : هذا القادم الأول كان الفاندال الذين كانوا قد استقروا في اسبانيا . اجتازوا مضيق جبل طارق بقيادة جيزيريك Geiseric في عام ٤٢٩ واقتطعوا لأنفسهم مملكة ، بادىء ذي بدء في الوسط ، في نوميديا القديمة ، ثم حول قرطاجة التي تم فتحها في عام ٤٣٩ . وهكذا أعيد بناء أفريقيا قيصر القديمة فاعترف أمبراطور الشرق بالأمر الواقع ، باللجوء كالمعتاد ، إلى مهارة قانونية ، كانت ترتكز على التظاهر بأن هؤلاء الفاتحين لم يكونوا يطلبون سوى الاستضافة . لكن جيزيريك الذي بدأ مغامرته متأخراً ، في

---

(١) يفسر بروكوب procope الوقائع العربية باسهاب في معظم الحالات ، حتى ش. كورتوا ، يقدم من التفسيرات أكثر مما يُقدم من الحوادث الجديدة .

سن الأربعين وعاش إلى عام ٤٧٤ – وهي ظاهرة ، تصبح هي الأخرى دارجة في المغرب فيما بعد – لم يرض بما اعترف له به . ولما كان يرنو على الدوام إلى مركز الأمبراطورية فإنه لسوف يقتنص كل أزمة وينتهي به الأمر إلى تكوين أمبراطورية بحرية : الباليار ، كورسيكا ، ساردينيا ، صقلية . وبعد محاولة مفجعة ، اعترف الأمبراطور البيزنطي ، السيد الوحيد الحقيقي بعد نهب روما عام ٤٥٥ ، نهائياً بالأمر الواقع بمعاهدة عام ٤٧٤ .

كل شيء في مسلك جيزيريك Geiseric يــدل على إرادة وارث للسلطة الأمبراطورية [١] ، إنه لم يتجاوز نطاق أفريقيا الرومانية ولم يغير شيئاً في البُنى القائمة في مكانها . وكوارث فان السيد الفاندالي ورث كذلك مصـــاعب الأمبراطورية المحتضرة . ذلك أنها لم يكن يدعمها في القرن الخامس إلا الملاكون العقاريون وكبار رجال الكنيسة . فنزع جيزيريك ملكيـــة أولئك واكتسب ولاء هؤلاء بهرطقة الآريوسية .

وقد حورب الفاندال ، الوارثون غير الشرعيين ، من الأمبراطورية خارج مجالهم الافريقي في حين اتخذت الأزمة في الداخل شكل مقاومة دينية . كانت أنظار الكنيسة ، وقد أضيرت مصالحها وأبعدت عن وضعها المسيطر ، وشعرت بأنهـــا مضطهدة ، متجهة دائماً إلى بيزنطة ؛ فناورت بانتظار ساعة الأخذ بثأرها . بيد أن الانتقام لن يجري إعداده في الخارج وإنما في داخل المغرب ، إذ أن الفاندال الذي ورث كذلك المنطقة المحرمة عليه ، **منطقة التخوم الرومانية** ، سوف يُهاجم على الدوام كما كان الروماني عرضة للهجوم من قبل وعندما يصبح سقوطه ، بعد عدة هزائم ، وشيك الوقوع بوضوح ، فان الكنيسة عندئذ هي التي ستضغط على الأمبراطور البيزنطي بـــأن يجهز حملة ، واعدة إياه بالمعجزات . ولسوف

---

(١) إن هذا الجانب هو الذي يفسر المنطق الاستدلالي للاتجاه الفاندالي . لكن الكلام على « تصميم » ما لجيزيريك يبدو أنه تفسير معكوس . فان التصميم نفسه يمكن عندئذ ملاحظته لدى الأغالبة . راجع ش. كورتوا : المصدر السابق ص ص ٢٠٥–٢١٤ . ان بسيكولوجية البربري هي بسيكولوجية بدائية قليلا.

يكون ذلك معجزة حقاً إذ أن انتصار جيش جوستنيان Justinien سيذهل العـالم ابتداء من القائد بيليزير Belisaire الذي كان يقوده ولكن ما كان يشهده المرء قبل حملة عام ٥٣٣ بوقت طويل ، هو تحويل الفاندال إلى بيزنطيين ، وكانت إرادة وضع حد لإعادة الفتح الدبلوماسية هذه هي التي سارعت بالأزمة .

الواقع أن المقصود كان « إعادة فتح Reconquiesta » أكثر منه ترميماً : فإن من استرد أملاكه كان ذلك القسم من الطبقة القديمة المـالكة للثروات وعلى رأسها الكنيسة . كان للمالكين الرومان كل الخيار ، في مدة خمس سنوات ، في المطالبة بثرواتهم العائلية التي كانت حيازتها يمكن أن ترجع حتى الجيل الثالث . وكما كان الأمر قبل قرن خلا ، خلف المنتصرون المهزومين في حيـازة أراضيهم ونسائهم وخدمهم . وبدورهم ورث البيزنطيون مع الغنائم ، المصاعب السياسية والعسكرية . وراح الشمال الأفريقي باحتلاله لمكانه في الأمبراطورية ، يقتسم معها مصائبها : الانشقاقات في قلب الكنيسة ، الإنتفاضات في داخل الجيش ، المنافسات والحسد داخل الإدارة. وسن جوستنيان Justinien القوانين كأن شيئاً ما لم يحدث في غضون القرن الخامس ، لكن التغير بعد موته (٥٦٥) كان بديهياً : تواطأ الملاك العقاريون ، سادة أفريقيا الحقيقيين مع كبار الموظفين وضباط الجيش . فالتحصينات حول المدن التي سوف يبقى منها بقايا كثيرة هي رمز سلطة انهارت وتفرقت ورمز استغلال تكشف ورمز مقاومة متزايدة بلا انقطاع بين الحاكمين والمحكومين ، المالكين وغير المالكين . لم يكن هناك أي فارق عن المقاطعات الشرقية من الأمبراطورية : فعندما يخرج جيران هذه الأمبراطورية ، الجنوبيون في منتصف القرن السابق ، بعد أن يتحدوا في دولة ، حول عقيدة ، فإنهم سيتصرفون كذلك كوارثين . لسوف يصلون إلى المغرب ليخلفوا السابقين ، وهذا المنطق في الميراث ، هو الذي سيفرض نفسه مرة أخرى . ويفضي الأمر بهم إلى استخدام المناهج نفسها فيحاكون البيزنطيين ويعانون نفس المصاعب .

من عام ٤٢٩ إلى ٥٣٣ ومن ٥٣٣ إلى ٦٤٩ ومن ٦٤٩ إلى ٧٤١ على التوالي :

الفاندال والبيزنطيون والعرب ؛ انتصارات سهلة على الحكام الأجانب وفتح عسير للمحكومين أهل البلاد الأصليين ؛ سيد يحل محل سيد آخر وفي نهاية المطاف يكتفي بالمجال نفسه الذي كان المغربي مستعداً منذ زمن طويل للاعتراف به للأجنبي . إنتظام مزيف ، استمرارية كاذبة لا شك ، إذ أن الأمر هو ، على كل حال من وجهة نظر أجنبي إلى أجنبي آخر . فكل واحد يدحر السابق عاملا على الاعتقاد بأنه سوف يحرر المواطن الأصلي ، لكن هذا المواطن ماذا يقول ؟ أو على الأصح ماذا يفعل ؟ إن الظاهرة الجوهرية في هذه القرون الثلاثة هي تعزيز التقسيم الثلاثي : ثلاث مناطق ، ثلاثة مستويات تاريخية ، الواحد منها يحدد الآخر .

الصحراء

تأخذ الأطراف الصحراوية أهميتها التاريخية كلها في إطار هذا المغربي الثلاثي ولسوف يكون من الخطأ إغراق مشكلة تسلسل تاريخي محددة (القرن الثاني — إلى السابع) في مشكلة أخرى أوسع منها كثيراً ومن اختصاص الجغرافيا [1] . وثمة نقاط ثلاث تستحق المناقشة في هذه الرؤية للصحراء التاريخية : التنظيم الاقتصادي — الإجتماعي الذي رجح فيها ويرمز إليه بمشكلة الجمل الشهيرة ، والسكان الذين أهلوها وأخيراً دورها بالنسبة للمغرب في جملته . وقد عرض قيزيل Gsell فرضية عضوية تربط سياسة روما الأمبراطورية بفرار المغاربة نحو الصحراء ، عاملين بذلك هم أنفسهم على طرد السود الأحباش أمامهم وقد عززوا بوافد جديد هو الجمل الذي أتاح ، ابتداء من القرن الأول بعد المسيح ، جعل الصحراء بحراً داخلياً واسع الأرجاء. وأراد غوتيه Gautier أن يجعل من مآثر روما ما كان يمكن في الفرضية السابقة أن يبدو على أنه نقد غامض : لعل الروماني أهل المغرب بالناس والحيوانات وبينهـــا للأسف الجمل الذي خلق البدوي المخرب . إلا أن ش. كورتوا ch. Courtois يرفض

---

(١) أنظر ر. كابوت — ري R. Capot - Rey في كتابه : Le Sahara fançais, Paris, Pu F. ed. 1953 كذلك : L. C. Briggs في كتابه : Tribes of the Sahara, Harvard U. P. , 1960 وكذلك : Nomades et Nomadisme on Sahara. منشورات اليونسكو باريس ١٩٦٣ .

التفسيرين ، رافضاً أن يكون الجمل قد غاب ابداً عن الصحراء طيلة العصر التاريخي [١] أو أن يكون الجيتول Getules والأحباش Ethiopicus قد كفوا يوماً ما عن التواجد؛ والحادث الجديد ، وفقاً له، كان إدخال قبائل بدوية (لواته Luwata) إلى منطقة طرابلس ، ابتداء من القرن الثالث ، قادمة من أعلى النيل ، لعلها كانت السبب في الجلاء المقرر من قبل ديوكليسيان [٢] Dioclẻien . هذه الفرضيات الثلاث ، وهي أعمها قبولا مع قليل من الاختلافات ، تتجاوز كثيراً الوقائع الأكيدة التي تتعلق بدورها ، إلى حد بعيد بتفسير الفن المنحوت الصحراوي (ويا له من تفسير خاطىء) . حتى الآن لم نستطع أن نعرف لماذا اختفى الجمل من هذه المنطقة طيلة العصر النيوليتي (العصر الحجري المصقول) (إذا كان حقاً اختفى) ولا في أي تاريخ أعيد إدخاله وبأي عدد ؛ وعلى نفس المنوال يتردد المؤرخون على الدوام فيما يتعلق بمعدل جفاف الصحراء : هل كان حادثاً جرى في قرن أو في عشرة قرون ؟ غير أنه يبدو جيداً أن المسألة تتلخص فيما يلي : من الذي ابتكر الآخر الجمل أم البدوي ؟ لقد افترض جميع المؤلفين المذكورين أن الجمل كان أصل البداوة وأن البدوي لا يمكن أن يكون إلا دخيلا. هذه الحتمية الجغرافية التي كان ا. ف. غوتيهE. F. Gautier الممثل الأشد تأكيداً لها ، تخفي كثيراً من المضامين السياسية لكنها تدل بخاصة على عدم إدراك شامل لثروة القضايا التاريخية . فالجمل يمكن أن يكون قد وجـــد في الأطراف الشمالية للصحراء دون أن يكون بالناس حاجة لاستخدامه حقبة طويلة من الزمن . والبداوة ليست حالة فطرية ولا ميزة ثابتة ، وإنما تنظيم اجتماعي ولا شيء يمنع أن تقوم حركة ذهاب وإياب ، طيلة حقبة كاملة من الزمن ، بين البداوة والرعوية والزراعية : وما من حاجة للافتراض بأن الدخلاء قادمون من الشرق . الحاصل ، كما هي الحال بوجه عام ، يبدو حدس قزال Gsell مقبولا أكثر بما لا يقاس من الفرضيات اللاحقة التي

---

(١) ش. كورتوا : المصدر السابق ص ٩٩ وما يليها . فانه ، وهو ينتقد قازال وغوتيه في هذه النقطة الخاصة ، يضع الطريقة التي تستخدم الأدب القديم ، موضع الاتهام بأكملها . كذلك أنـــظر ا. ديمونجو E · Demongeot في كتابه : le Chameau et l' Afrique du Nord romaine , Annales E . S . C . 2 , 1960 p.p. 209 - 47

(٢) من الملاحظ أنه إذا كان نموذج قازال هو سياسة الاستقرار في الجزائر فان نموذج كورتوا هو الاجتياح الهلالي .

يتزايد اهتمامها بالتبرير الأيديولوجي . وعلى الأرجح أن جزءاً كبيراً من المغاربة ارتدوا إلى البداوة ، وقد طوردوا إلى ما وراء منطقة الحدود ، الليمس ، وإذ ملكوا الشمال الصحراوي عملوا على مضاعفة عدد الجمال الذي كان موجوداً من قبل ولكن بكمية قليلة . ولا شيء يثبت أن تكون قبائل لواته الطرابلسية قد جاءت من الشرق (إلا الفرضية الباطلة بغزوة هلالية أولى) ولا أن يكون السود قد طردوا من الصحراء . فان النصوص الكلاسيكية لا تسمح بالتأكيد على أن الأحباش كانوا حقاً سوداً ولا بأن السود والبربر كانوا دائماً على اتصال وثيق . كذلك لا داعي للافتراض بأن هناك تجارة قد وجدت دائماً عبر الصحراء أفادت القسم الأكبر من المغرب. فالحركة الوحيدة التي تقدم بعض الرجحان هي التي تربط البورنو Bornou بالمتاجر الطرابلسية ؛ لكننا لا نستطيع تحديد أهميتها ولا انتظامها ؟ وفي الواقع هل تتعلق حقيقة بالمغرب ؟ إن تركيبات المؤرخين الغربيين هي جميعها في الأساس إسقاط أوضاع لاحقة [1] على الماضي .

فمشكلة المغرب الصحراوي ليست متعلقة لا بميدان علم الحيوان ولا بميدان علم المناخ ؛ إنها ذات جوهر تاريخي . ذلك أن الصحراء عندما تصبح ملجأ يحتمي به قسم من السكان الأصليين فيزاول من جديد حياة البداوة ، وهو لا يفكر إلا بالعودة لدى أول فرصة سانحة إلى الشمال ، فان هذه الصحراء تأخذ معنى خاصاً ؛ وهذا لا يتحقق إلا مدة حقبة محددة تماماً ، تبدأ بالاستقلال الروماني وتنتهي في الفترة التي تصبح فيها الصحراء حقيقة همزة وصل بين أفريقيا السوداء والمغرب وهو تطور يحدث وفقاً لأي احتمال في الفترة ما بين القرنين الثامن والتاسع وليس قبل ذلك بأربعة قرون . هذه الصحراء ، الملجأ التاريخي الصرف ، هي التي سوف تضغط بكل سلبيتها على التطور المغربي من القرن الثالث إلى السابع . وكل محاولة للبحث عن أسباب في

---

(١) إن الكتاب الذي يحال إليه دائماً : E . W. Bovill , Caravans of the old sahara , londres 1933 (Golden trade ... 1958) هو من نوع خاص ، أقرب إلى الرواية التاريخية منه إلى التاريخ . فالبرهان الذي يساق ألا وهو اكتشاف قطع نقدية رومانية في موريتانيا كان سيحتاج ليكون مؤكدا عشرات المرات من اجل ان ينتزع الاقناع . انظر مونز R . Maunz le periple de la mer , : paris , Soeietés' des Africanistes , 1968 .

عناصر خارجية ، جغرافية ، حيوانية أو بشرية (هجرة) لا تفيد في محصلة الأمر إلا في تعميم الاتجاه : الاتجاه إلى مرحلة ما قبل الكتابة مباشرة ، مرحلة مستعارة، لكنها ليست قط اختياراً .

المغرب المتوسط

هو المغرب التاريخي ، الحر ، مغرب الممالك ، لكنــه مدحور نحو الغرب والجنوب ، المهزوم والخاضع للسيطرة طيلة القرنين الرومانيين وبدأ استرداده ببطء انطلاقاً من القرن الثالث . وكانت نتيجة هذا التراجع التجزئة والانكفاء . ويبدو هذان الوجهان بوضوح عندما نقارن ممالك ما قبل هذه الفترة وإمارات ما بعدها ، في ذروة الاحتلال الروماني .

نملك معلومات طفيفة جداً عن هذه الإمارات على الرغم من التركيبات الإفتراضية التي يحلو لنا مضاعفتها بالاستناد إلى بعض النقوش والآثار [1] ، المتأخرة مع ذلك ومعظمها يرجع إلى نهاية القرن الخامس وأول السادس والتي لا تسمح البتة بالإفضاء إلى استمرارية منذ القرن الثالث . ورغماً عن جهلنا بمراحل إعادة الفتح البربري، فثمة واقعتان تبدوان أكيدتين : تجزئة المجتمعات واحتراس الزعماء المفرط ، رغماً عن الرغبة الظاهرة في الرجوع باتجاه الشمال ــ الشرقي . ففي منهجته للتوضيحات التي ساقها بروكوب Procope وكوريبوس Corippus في أثناء حكاياتهما عن الحروب البيزنطية ، يميز كورتوا Courtois تسع إمارات يطلق عليها أسماء : ممالك فولوبيليس Volubilis (Baquate) وأورانيا [2] Oranie (حول التافا Altava) وأوارسينسي Ouarsenis وهودنا والأوراس Aures ونيمنشا Nemencha وكابسوس Capsus وإنطالاس Antalas (خط القمة التونسية (وكاباءون Caboon (طرابلسية) . وفي رأي المؤلف نفسه ، بينها إمارتان هما كابسوس ونيمنشا ، موضع شك ؛ إلا أن

---

(١) راجع بصورة خاصة ش. كورتوا : المصدر السابق ص ٣٣٤ وما يليها الذي يأخذ بالمسألة كلها .
(٢) تلك هي مملكة ماسونا Masuna الشهيرة الذي تعزى إلى أسرته عادة الآثار الجنائزية المتأثرة بالمسيحية وهي مؤلفة من ١٣ جدار Djedars وكلمة jidar التي تعني حائطاً بالعربية قد وردت في القرآن .

الإمارات الأخرى ليست أقل منهما إذ أن كورتوا Courtois ، عندما يعتمد على علم النقوش يعمم بصورة قابلة للنقد كما كان يفعل كاركوبينو J. Carcopino وعندما يستخدم المعطيات الأدبية فإنه يخاطر بخلط زعماء عصابات مسلحة على حدود منطقة الفاندال أو البيزنطية وزعماء سياسيين حقيقيين . فالإمارتان اللتان تستحقان لفت الانتباه هما إمارتا فولوبيليس وأورانيا ، المستقلتان ، اللتان تحتفظان بعلاقات قليلة مع خلفاء الرومان ، وإمارتا الأوراس والإنطالاس اللتان تجاوران الإمارتين السابقتين وتواصلان سياسة ماسّينيسا القديمة : حكمة بالغة مقترنة بإرادة منع أي شخص من العودة إلى سلوك طريق الغرب . ولم يقف زعماء البربر في وجه انتقال الشمال الشرقي من مالك إلى آخر ، كما كان الأمر حين الفتح الفاندالي ، لكن عندما أراد خليفة جيزيريك Geiseric ، وقد خاب أمله في طموحاته في البحر الأبيض المتوسط ، يوسع سيطرته على المغرب ، فان إمارة الأوراس تمردت ، وطيلة العمليات التي تتبع ذلك (٤٧٧ — ٤٨٤) سوف تحيي الانكسارات التي مني بها الفاندال أمــل الكنيسة الكاثوليكية المضطهدة . والأمر كذلك بعد عام ٥٣٥ ، عندما حسب البيزنطيون المنتصرون أنفسهم قادرين على بعث أفريقيا الرومانية . فانهم اصطدموا بمملكة الأوراس نفسها التي صمد زعيمها يابداس Yabdas مدة أربع سنين قبل أن يلجأ إلى الغرب ثم يعيد الكرة في عام ٥٤٦ . ووقفت المملكة الأخرى ، مملكة انطالاس ، المستوضعة في الشمال الغربي من تونس ، في وجه الفاندال هي كذلك ، وأذن الانكسار الذي منوا به على يدها في عام ٥٣٠ بأفول شمس سلطتهم في أفريقيا إذ أن ذلك الانكسار سيحيي شجاعة الكاثوليك والأمبراطور البيزنطي . وإذ اعترف البيزنطيون بها ساعدتهم في حربهم ضد يابداس وإذ عوملت بغير احترام عندما ظنوا أنهم قادرون على الاستغناء عنها ، تمردت عليهم بدورها فغلبتهم في عام ٥٤٥ قبل أن يغلبها في العام التالي جان تروغليتا Traglita ، وعندما أراد الفاندال والبيزنطيون توسيع أراضيهم نحو الجنوب أو من ناحية إقليم طرابلس ظهرت المعارضة نفسها . بيد أن تفصيل هذه النزاعات ، التي لم تتوقف أبداً تقريباً ، غير معروف ، لكن معناها واضح : إن هؤلاء الزعماء من البربر يقبلون الاعتراف بسيادة نظرية (إقطاعية) لأصحاب الحكم في قرطاجة ،

أياً كانوا ، مع وقوفهم في نفس الوقت في وجه أية رجعة إلى الماضي أي العودة إلى سياسة عدوانية . وهو أمر لم يكن لا بدافع الحقد ولا بدافع الرياء ولا بدافع التغلب ، لكنها سياسة صبورة وعنيدة ، سياسة ماسينيسا نفسها ، مستعملة نفس الطرائق : حصر البيزنطيين في النطاق القارطاجي المعزول وإحاطتهم من الجنوب والشرق . فان الحلقة الأخيرة من التاريخ البيزنطي في المغرب تحمل طابع يأس كبير : أكاذيب ، غدر ، إنتقامات ، هجمات مفاجئة ، جميع خدع المحاصر [1] . وكما كان الحال دائماً فان السادة البيزنطيين إذ لم يعد لديهم الأمل في استغلال طويل المدى ، كثّفوا هذا الاستغلال بلا حدود وبذلك أعدوا لثورات أخرى .

فيما عدا عدد وتنظيم ودرجة الوحدة في تلك الإمارات التي لا يمكننا أن نقول عنها شيئاً أكيداً ، هل نستطيع أن نعرف على الأقل ملامحها العامة ؟ هل دامت فيها اللغة والتنظيم اللاتينيان ؟ وهل حوفظ فيها على المسيحية ؟ كثيرون من المؤرخين مستندين على النقوش ، يجيبون بالإيجاب . ولكن على فرض أن مسيحية هؤلاء الأمراء وشعوبهم يمكن إثباتها فمن أي نوع كانت ؟ إن التمرد المعمم والدائم تقريباً الذي عرفه البيزنطيون ، على أي حال ، يشير إلى تمييز واضح في ذهن البربر بين مسيحية وسلطة أمبراطورية وبالتالي إلى استقلال ذاتي بازاء الكنيسة الكاثوليكية حليفتها . وعندما آل الأمر بالكنيسة الكاثوليكية بعد موت جستنيان بزمن طويل ، إلى الوقوف في وجه الأمبراطور في النزاع حول الطبيعة الواحدة ، لا يحس المرء بأي حماسة شعبية تحل محلها . وقد جرى الكلام في تجديد دوناتي في نحو نهاية القرن السادس ، وجرى كذلك في تبشير بدين يهودي ، بعد أن تفرق اليهود المضطهدون خارج الأرض البيزنطية . وهذا كله ليس له سوى معنى واحد هو أن مسيحية هذا المغرب في العصور الوسطى ، وقد نمت بعيدة عن كل احتكاك مع الكنيسة كانت تأخذ شيئاً فشيئاً شكل الوحدانية المجردة القادرة على التسليم بأي عقيدة . وهذه النقطة هي في الحاصل هامة إذا تذكر

---

(١) على سبيل المثال إعدام الزعماء البربر المغلوبين : إنطالاس ، كوتزيناس ، غارمول – في جميع روايات تلك الحقبة .

المرء أنه في هذا الجزء من المغرب ، المستقل ذاتياً منذ قرنين خليا ، سوف يحاول العرب بادىء ذي بدء إدخال دينهم الجديد .

المغرب المحتل

هو الجزء الذي احتفظ به الرومان إلى نهاية سيطرتهم وتوارثه من بعدهم على التوالي الفانداال والبيزنطيون والعرب : تقلّص في ظل حكم الفاندال [1] إلى مساحة ١٠٠,٠٠٠ كم٢ ، إلى المنطقة الساحلية وإلى ضواحي المدن في ظل البيزنطيين . إلا أن التوسع الإقليمي ليس ذي بال ، إنما المقصود هو بنية تاريخية – إجتماعية . إن الأسياد يتغيرون في العرق ، في الدين ، في اللغة ، لكن البنية نفسها تبقى . والملاكون الكبار في الجنوب يخضعون للدولة ، أي إلى سادة قرطاجة أو إلى سيدها الإقطاعي ، ويخضع الملاكون المتوسطون في الشمال إلى الجنود الفاتحين وإذا كان التقسيم غير عادل فان الجنود الفاتحين سيتمردون وهو أمر بعيد عن أن يكون كارثة على السكان الأصليين . ففي نظر الأرقاء والشغيلة المياومين ومستأجري المزارع الذين يدفعون أتاواتهم للملاكين أو لخزينة الدولة ، ونظر الملاكين الذين يدفعون الفريضة الإقليمية، فان صاحب الأمر والنهي لا أهمية له ؛ إن ما يفلت من أيديهم من محاصيلهم يتزايد فيبلغ درجة يتعذر الوفاء به طيلة النصف الثاني من القرن السادس ، في حكم البيزنطيين . وعلى الرغم مما جرى من دراسات بالاستناد إلى وثائق خاصة أو عامة وصلت إلينا ، وعلى الأخص عقود الحقبة الأخيرة من عهد الفاندال [2] وقانون الاسترداد لجستنيان ، فإننا ما زلنا بعيدين عن الحصول على فكرة جلية عن البنية الإجتماعية حينئذٍ . غير أنه ثمة أمر أكيد هو أن سكان ذلك الجزء ، أغنى أجزاء المغرب الذي كان عليه أن يشكل العمود الفقري لكل بناء إجتماعي ، كانوا الأفقر والمستَغَلّين أكثر . بالنسبة لهم إن المجتمع الذي تمثله الدولة الأمبراطورية أو الكنيسة وترمز إليه قرطاجة يغدو مرادفاً للبؤس وللظلم : فإنهم لن يروا فيه أي نفع ولسوف يعني السلام الشهير الذي يذاع على التوالي

---

(١) أنظر ش. كورتوا : المصدر السابق ص ١٨٤ .

(٢) تسمى دفاتر مذكرات البيرتيني نشرها : ش. كورتوا ، ش. سوماني ، ل. ليشي ، ش بيرات باريس ١٩٢٥ . ويعتقد على وجه العموم أنها كانت قد أخفيت في إحدى هجمات مور إنطالاس .

عن روما والفاندال ، خاصة بالنسبة لهم إمكانية استغلال أكثر شدة . عندما نتكلم عن معنى الدولة الذي كانت روما قد أدخلته إلى المغرب ففقده فيما بعد متكبداً خسارة بالغة فأي محتوى يمكننا أن نعطيه لهذه الكلمة في القرنين الرابع أو السادس ؟ فالدولة هي قبل كل شيء علاقة مُعاشة . والحال أن سلطة الدولة منذ نهاية القرن الثالث ستكون سلطة الملاكين العقاريين الأساقفة ، وهذا التطور لن يتوقف ؛ وما أن تخفّف هذه السلطة حتّى لا يعود أحد يستطيع تركيزها من جديد ؛ فما من أحد سوف يعطيها شرعيتها الكاملة . وسوف يرى المغرب المحتـــل في المناوشات المستمرة في مغرب المتوسط ، ليس سبباً من الفوضى ، وإنما فرصة للتنفس . وفي مطلع القرن السادس سوف يطرد المور ، في انطالاس الملاكين الرومان من الغرب التونسي ، وفي الإمكان تصور تهاليل البربر الذين كانوا مستعبدين لهم . وعندما سيضطر البيزنطيون إلى تحصين المدن وإلى ضرب نطاق حول الأوراس ، عندما سيكون الطرابلسيون تحت أسوار قرطاجة، في بداية عهد حكومة جنّاديوس Gennurduis الأكزخسية (العسكرية) (٥٨٧) ، فليس ما يمنع من التفكير بأن تلك الانتصارات التي أحرزها « المور » Maures ، تدين حقيقة بشيء كثير لمساعدة الأقنان والعمال وصغار الملاك ، إبتهاجاً بتحررهم بعض الوقت من الأتاوات وأعمال السخرة والضرائب . ففي الحدود التي ربطت فيها الكنيسة الكاثوليكية مصيرها بمصير السلطة القائمة ، كيف لا يُظن بأن رابطة المصالح بين البربر « الرومان » والمور كانت تتغلب على الفوارق الثقافية أو حتى اللغوية ؟ غير أن النتيجة الأهم ، على المدى الطويل ، لهذا الـ « بث » للسلطة السياسية كان إعادة تقويم التجمعات المحلية وعلى الأخص تجمعات الأسرة التي كان عليها من أجل القيام بدورها في الدفاع أن تكون على أوسع نطاق ممكن . وعندما تقابـــل الـ « حياة العامة » ، أساس التنظيم الروماني بالـ « حياة الخاصة » التي ستصبح العنصر السائد في العصر الإسلامي ، فلا بد من التذكر جيداً بأن إنحطاط الـ « حياة العامة » قد رافق ضعف الأمبراطورية الرومانية نفسها .

إن هذا اللجوء إلى الحياة الخاصة ، إلى الصُعَالة (الزواج اللحمي endogamie) الأسرية ، بدلا من العثور فيها مرة أخرى على بنية قبلية ثابتة ، بدون تحمل عناء القول

لأنفسنا ما صارت إليه تماماً أيام أوج القوة الرومانية ، فربما آن الوقت لاعتبارها كرد محدد على مشاكل معينة . ذلك أن هذا الحل سوف يكتسب فيما بعد قيمة النموذج بالنسبة لأزمنة السلطة المتفشية ، المعتقد بأنها لاشرعية ، ولكن عندما يصادفها المؤرخ لأول مرة في تقصيه ، يجب أن يعطيها من جديد نضارتها ونوعيتها ، حتى إذا كان تقدم البحث يجب أن يرجعها ذات يوم إلى زمن أبعد في الماضي . وهو بالطبع ليس خاصاً بالطبع بتاتاً في المغرب ؛ ذلك أن ما هو نوعي ، هو العثور على تشابه معين مع المغربين الآخرين في نفس التطور الـ « تقهقري » ؛ وفيما وراء الجغرافية والمـدة الاعتراف بمصير واحد . لكن التشابه لا يعني وحدة . إن النموذج القبلي الأسري ، نموذج الممالك ونموذج بدو الصحراء الرحل لا تقدم الخدمة نفسها للطوائف التي تلجأ إليها ، ولكن ليس ثمة ما يبرر بخلطها في نفس الصيغة لبنية قبلية . فالنموذج الأسري هو أكثر إقليمية مما قيل عنه ؛ مع الأيام يبدل المرء سلسلة النسب والذكريات وهو يغير المكان وتصبح الجماعة تجمعاً من الناس من أصل مختلف موحد في الموضع . كيف عرض هذا الأمر ، المعروف والمعترف به إذا لم ننطلق من المبدأ القائل بأن الجماعة ليست ثمرة التفريغ والتشرد ، وإنما هي نتيجة ميثاق اتحاد ودفاع بين أفراد مختلفين ، يكفل دوامه ، عبر الأجيال ، بالـ « اسم » المختار الذي لا يعود أي فرد منهم يملك الحرية في التبرؤ منه ؟ وفي هذه الحالة ما الجدوى من المحاولات لوضع خريطة تاريخية للقبائل [1] .

إن النموذج المكتشف سوف لا يختفي قط من المشاهد الطبيعية في المغرب طالما لا تحظى مشاكل الاستغلال والسلطة اللاشرعية بسجل لها . ولسوف تنجم عن ذلك عزلة المدن التي تحتمي وراء التحصينات ، وانحطاط الأرياف المحتوم . وتكون سبب ذلك الحروب المستمرة بلا شك ، ولكنه بخاصة عدم اهتمام الأكثرية بازاء ما لا يخصها .

---

(١) مما تجدر مراجعته الأسباب التي يسوقها جاك بيرك في مقاله : « ما هي قبيلة شمال أفريقيا » من أجل رفض النظريات الـ « وضعية » .

مغرب مجزأ إلى ثلاثة متحد في انكفاء دفاعي ؛ مجتمع مفكك المفاصل ومملق : كان ذلك نتيجة لتاريخ — وليس لجغرافية — بدأ عندما حطمت الحركة التي استثيرت قبل ماسّينيسا بزمن طويل . وكان في مستطاع المغاربة جميعاً أن يتساءلوا : « ماذا جلبت لنا روما ؟ » ، إنها لم تكن على قدر كاف من القوة للاشراف على كل شيء ولا ضعيفة إلى حد تخليها عن كل شيء ؛ وثمة توازن مجدب استقر بين أقسام المغرب الثلاثة وبخاصة في داخل المغرب الأوسط حيث لم تكن أية إمارة تستطيع التغلب بدون مساعدة خارجية . وتمت كذلك بسيكولوجية للانتظـــار عززت بدورها البُنى والتوازنات . وعلى هذا النحو يتضح ذلك التكرار الغريب لانتصار يتأخر الحصول عليه : فالمغاربة لا يقتربون من قرطاجة ، هدفهم ، إلا عندما يطرق فاتحون آخرون الأبواب . إن المغرب المتوسط الحبيس بين البحر والرمال يتباطأ وينتظر فرصة مواتية تتأخر . غير أن الهدف لا يتغير : استعادة قرطاجة ، الوصول إلى البحر ، توحيد إمارات الوسط .

في هذه الرؤية ، سوف لا يبتكر الفتح الثالث ، فتح العرب ، شيئاً . بعد الحقبة الأولى حيث بدا أنه قادر على الإفلات من تلك التحديدات ، سوف ينتهي به الأمر إلى الرضوخ لها ؛ وفي منتصف القرن الثامن يعود المغرب بأقسامه الثلاثة إلى التشكل من جديد . لنلقِ نظرة على الحوادث بادىء ذي بدء .

— ٢ —

إن فتح المغرب من قبل الجيوش العربية ، الذي سيدوم خمسين سنة ، ليس معروفاً لنا عملياً إلا من خلال النصوص العربية . وهذه النصوص تميز بين غارات الاستكشاف والفتح المنظم .

في ٦٤٠ — ١٨ فتح عمرو مصر ودفع بجنده نحو الغرب ؛ وبعد سنتين تم الاستيلاء على برقة وسقطت طرابلس بدورها . وفي عهد الخليفة عثمان أعدت حملة بقيادة والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح في عام ٦٤٧ — ٢٦ . فتوغل في منطقة طرابلس ثم دخل بيزاسين Byzacène . كانت أفريقيا البيزنطية تحت سلطة البطريق غريغوار

Gregoire الذي استغل الانشقاقات الدينية بين الكنيسة والأمبراطور ليعلن استقلاله فتقابل مع الجيش العربي المقدر بعشرين ألفاً وجرت المعركة بينهما في سبيتلا Sbeitla (سوفيتولا Sufetula) ، حيث هزم وقتل . عندئذ أخذ العرب يشنون غاراتهم في جميع الاتجاهات ولكنهم بدوا أنهم لا يريدون الهجوم على مدن الشمال فعرض البيزنطيون (ولا بد ، دون شك ، من فهم كبار الملاك الخاصين) أن يدفعوا فدية فبادر العرب إلى قبولها . هل نستخلص من ذلك أن الغنيمة وحدها هي التي كانت في الأصل تغريهم؟ فلا بد من التذكر بأن البلدان التي احتلوها حتى ذلك الحين : سورية ، الفرس ، مصر ، كانت مألوفة جيداً عندهم طوال القرون الثلاثة السابقة ، في حين كان المغرب مجهولا تماماً لديهم . ربما سمعوا شيئاً من أخباره في سورية كمقاطعة بيزنطية غنية . وهذا الجهل هو الذي يفسر نفور الخليفة عمر من الاندفاع في المغامرة ، وما قد يدفعنا إلى الظن بأن الخليفة عثمان بعده قد أعطى توصيات محددة في التكتيك المطلوب اتباعه .

وقعت الغزوة الاستكشافية الثانية في عهد معاوية عام ٦٦٥ — ٨٥ بعد الأزمة الكبرى التي هزت أركان المجتمع الإسلامي على أثر مقتل عثمان . ولم يكن الوضع الداخلي في أفريقية Ifriquya (التسمية المنقولة عن العبارة الرومانية) ، قد كف ، في غضون ذلك ، عن التدهور في الفساد بسبب المنازعات الدينية ، الأمر الذي لم يكن ليجري دون أن يحس به العرب المقيمون في منطقة طرابلس ، الذين أطلقوا عندئذ نداءهم للخليفة الجديد . فاهتمت هذه الغزوة الثانية بقيادة معاوية بن هديج بمدن الشمال . ويقال أن سوسا قد حوصرت وأخذت من قبل عبد الله بن الزبير وجلولاء من قبل عبد الملك بن مروان . وتظهر هذه المرحلة الثانية معرفة أفضل بالبلاد وبتكتيك البيزنطيين. وبات من الممكن تنظيم فتح حقيقي وهو ما سيكون من عمل عقبة بن نافع.

لقد كان عقبة يعرف أفريقية من قبل ؛ إذ سبق أن احتل واحة غدامس في عام ٦٦٢ — ٤٢ واشترك في الغزوة الأولى ؛ أوضح استراتيجيـــة محددة تمام التحديد . وصل إلى جنوب تونس في عام ٦٧٠ بجيش قدر بعشرة آلاف فارس . وإخلاصاً منه للتكتيك الذي سبق أن نصح به عمر الفاتحين العرب اختار نجداً واسعاً في وسط البلاد

فأسس فيه القيروان (٦٧٤ — ٥٥) ... وبعد ذلك بدلا من الصعود شمالا ، تابع سيره في مرتفعات الوسط ، وقد بدت له منطقة مألوفة أكثر من غيرها ، مخالفاً بذلك تقليد الفاتحين الآخرين وهو الانطلاق من الساحل . هذه المنطقة كانت هي التي يوجد فيها قليل من البيزنطيين القادرين على مواجهته بمقاومة مسلحة وبفن حربي متقن ، لكنها كانت كذلك منطقة المغرب الأوسط المستقل ذاتياً منذ عدة قرون خلت . وبعد لأي استبدل في غضونه، بابي المهاجر دينار ، الذي نجح ، بفضل سياسة معتدلة في كسب ثقة الزعماء وعلى الأخص منهم قصيلة Kusayla الذي سوف يقود فيما بعد مقاومة البربر ، عاد عقبة إلى تولي القيادة عازماً على إتمام فتحه . وإذ عاد في عام ٦٨٢ — ٦٢ سلك خط سير لامي Lamis باغايا Bagaiya حتى توهورت Tahart . ومن الممكن أن نعتبر وصوله إلى منطقة تلمسان وبلوغه البحر أمراً مؤكداً ولكن من الصعب القول [١] إلى أي البحرين : الأبيض المتوسط أم الأطلنطي ثم تلقى معلومات عن مراكش الشمال بل ربما دفع ببعض الطلائع الاستكشافية ؛ بيد يعتبر القول بفتح حقيقي للشمال مجازفة . وأكثر صحة أنه وهو في طريق العودة (ربما كان نفس طريق الذهاب) وبعد أن قسم جيوشه ، هوجم من قبل قصيله [٢] وهزم وقتل في تاهودا Tahuda في منطقة بسكرا عام ٦٨٣ — ٦٤ . وقد طرح عمل عقبة للمناقشة ولاسيما استراتيجيته ؛ ربما كان الخطأ في رغبته بالالتفاف حول مدن الشمال وفتح المغرب الأوسط اعتقاداً منه بأن العملية تصبح أكثر سهولة . وعلى كل حال سوف تتبدل هذه السياسة .

عاد العرب إلى التجمع في منطقة طرابلس بانتظار الحل في أزمة ثانية من أزمات الخلافة ، هي أزمة الزبيريين . ولم تحرز أول محاولة لمعاودة الهجوم بقيادة زهير بن قيس البلاوي al - Balawi من النجاح إلا نصفه. إذ قتل قصيله في ممس Mems عام

(١) راجع ر. برونشويغ R. Brunschvig في كتابه : ابن عبد الحكم وفتح أفريقيا الشمالية من قبل العرب حوليات .I. E. O في الجزائر حـ ٦ ص ١٠٨ — ٥٥ ؛ وكذلك ليفي بروفنسال في : « رواية جديدة...» بالعربية ١٩٥٤ ص ١٧ — ٤٣ ؛ وكذلك .Riel(Madrid). Il I954 ص ٢١٥ — ٢٢٤.

(٢) يدور الحديث حول حلفاء بيزنطيين لقصيله : ومن المرجح أن المقصود بذلك جماعات مسلحة تعمل لحسابها منذ أن وهنت السلطة البيزنطية في نهاية القرن السادس .

٦٨٦ – ٦٧ واستردت القيروان ؛ إلا أن هجوماً بربرياً مضاداً أكره زهيراً على إخلائها من جديد . وبعد قليل مات في برقة . وكانت المحاولة الثانية وهي محاولة حسن ابن نعمان أكثر إثماراً . استعاد القيروان عام ٦٩١ – ٧٢ [١] وزحف إلى قرطاجة ، التي استولى عليها عنوة في العام التالي لكن الجيوش البيزنطية أعادت فتحها على الأرجح بعد وقت قليل قبل عام ٦٩٥ ... وتابع حسان القتال محرزاً بعض الانتصارات في مناطق الشمال حول بنزرت . إلا أنه اصطدم عندئذ بمقاومة الجبليين من البربر وقد اتحدوا وقتها تحت سلطة كاهنة الأوراس تساعدهم عسكرياً جماعات مسلحة من البيزنطيين .وهكذا اندحر حسان في منطقة باغاي – تيبسّا Baghai - Tebessa واضطر إلى التراجع إلى منطقة طرابلس أمام قوى التحالف الجديد بانتظار تعزيزات تأتيه من الخليفة . ويبدو أن الملاكين الرومان أو البيزنطيين ، مباشرة بعد هذا النصر ، لم يرغبوا بالاعتراف بسلطة الأوراسيين على منوال ما فعلوه ، قبل قرن عندما أرادوا التخلص من انطالاس بعد أن هزموا يابداس Yabdas . وقد فسرت ، فيما بعد وحدة القيادة التي ارادت الكاهنة واولادها الحفاظ عليها على انها الرغبة في متابعة سياسية احراق الزرع والضرع . وعلى اية حال ؛ فما اطلع حسان على هذه الخلافات حتى عاد إلى الهجوم في عام ٦٩٥ – ٧٦ ، فاحتل قرطاجة وطرد البيزنطيين نهائياً وغلبت الكاهنة في عام ٦٩٨ – ٧٩ . وتم بذلك انهيار المقاومة المسلحة فأفاد من نتيجتها موسى بن نصير .

سمي الوالي الجديد عام ٧٠٤ – ٨٥ وقد منح لأول مرة قيادة مستقلة عن مصر ، فاجتاز المغرب الأوسط حتى بلغ الشمال المراكشي . فقد تبع خط سير عقبة وما دخل طنجة حتى بعث ولديه عبد الله ومروان يستكشفان الجنوب ، وكانت السياسة المتبعة على جانب كبير من الاعتدال ؛ اعتنق الزعماء الدين الجديد وقدموا أولادهم رهائن فأسكنهم موسى في طنجة . هل تجاوز ولدا موسى منطقة فولوبيليس – طنجة ؟ يقودنا الأمر إلى الشك عندما نتأكد بأنه بدأ منذ عام ٧٠٩ – ٩١ باعداد حملة اسبانيا

---

(١٥) راجع رواية وصول حسان إلى القيروان المذكورة ا. ناصري ، استقصاء حـ ١ ص٨٢ « سأل الأفارقة : « من هو أقوى ملوككم » فأجابوه : « إنه سيد قرطاجه » . وكلمة الأفارقة في النص تعني سكان أفريقية من دون أي تخصيص .

التي سيولي أمرها إلى أحد البربر : طارق بن زياد .

تلك هي النقاط التي تبدو ثابتة ، وإن كان الفتح في جملته يشتمل على كثير من النقاط الغامضة . فالمصادر متأخرة وتستند إلى أحاديث شفوية من أصول متنوعة ؛ لكن العيب الرئيسي هو في باطن نوع الوثائق نفسه . ذلك أن كتب المغازي (الفتوحات الإسلامية) كانت غالباً من عمل الفقهاء الذين يريدون تحديد الشروط التي اعتنقت فيها مختلف المقاطعات الإسلام لأن الوضع القانوني للأراضي والأشخاص يتعلق بتلك الشروط . ولما كانوا حريصين أن يدعوا للناس إمكانية المطالبة بالنظام الأكثر تحرراً فإنهم قبلوا أكثر الروايات تناقضاً . ويعجب ا. ف. غوتيه E. F. Gautier الذي لم يكن مستغرباً ، من هذا الأمر ، لكنه لم يدرك بأن الراوي لم يختر بدافع الاهتمام بالتحررية القانونية . تلك الروايات التي لا رابطة بينها دخلت فيما بعد كما هي لدى مؤرخي الوقائع ، ومن هنا هذا التموج بالغ الازعاج في تسلسل الأحداث ؛ ويبدو من المستبعد أن نتمكن ذات يوم من تحسينه حتى وإن كنا نجد نصوصاً عربية أقدم. إن النصوص البيزنطية التي لم تنشر بعد هي وحدها ، أو علم المسكوكات ، يمكنها ، من حيث المبدأ تقديم هذه الخدمة . وقد استخلص المؤرخون الغربيون ، إذ اعتمدوا على هذا التسلسل المشوش إلى حد ما ، نتائج قابلة للاعتراض حول بطء العمليات . ولا بد من أن نأخذ بعين الاعتبار مختلف أزمات الخلافة التي أوقفت الحركة عدة مرات ، وفوق ذلك بعد قاعدة العمليات التي كانت في مصر ، إذ أن منطقة طرابلس لم تكن أبداً إلا محطة . وقد وجد العرب أمامهم أعداء متنوعين ، فالنصوص تتحدث عن الروم (البيزنطيين) ، الافرنج (الرومان) الأفارقة [1] فضلا عن البربر . ويبدو أن أفضل حل يكون في أن نرى فيها تمييزاً إجتماعياً — إقتصادياً : الروم باعتبارهم القابضين على السلطتين العسكرية والإدارية ، وهم بيزنطيون على العموم ، والإفرنج الملاكون العقاريون وهم على العموم من الرومان أو أقل رومنة والأفارقة وهم أهالي أفريقيا سكان المدن وعلى الأرجح مزدوجو اللغة ومتنصرون والبربر وهم السكان

---

(١) إن نظرية غوتيه التي تجعل من الأفاريق بونيين يجب رفضها .

الأصليون الريفيون . ومن المؤكد أن كل جماعة كانت تواجه العرب بتكتيك من المقاومة مختلف الأمر الذي لم يسهل عمل الفاتحين . أما فيما يتعلق بالكلمة التي رواها ابن خلدون عن ارتداد البربر[1] الأثني عشر فإنها بالتأكيد صيغة خطابية ليرمز بها إلى بطء وصعوبة فتح يختلف تمام الاختلاف عن الفتوحات التي أنجزها العرب فيما مضى ؛ وذلك البطء وتلك الصعوبة ترجعان إلى أسباب خارجية بقدر ما ترجعان إلى أسباب داخلية في المغرب ولاسيما إلى الخطأ التكتيكي الذي ارتكز على الالتفاف حول المدن التي كان البيزنطيون يستطيعون انطلاقاً منها ، بسهولة إيقاد نيران الثورات في الخلف .

ثمة نظرية في الفتح العربي يتناقلها جميع مؤرخي المغرب من كتاب إلى كتاب ، تلك هي نظرية ا . ف. غوتيه E. F. Gautier[2] التي تزعم أنها تأخذ بعين الاعتبار في آن واحد التغيرات الطارئة والنتائج في هذا الفتح . ومن ينتقدها مثل و. مارسيه W. Marçais مثلا لم يوضحوا دائماً صفتها المزدوجة : الثقافية والاقتصادية . فعلى صعيد الثقافة ، يميز غوتيه بين سكان المدن معتنقي الرومانية والسكان البونيين ، وعلى الصعيد الاقتصادي بين المقيمين والرحل ، فالأولون متنصرون والآخرون متهودون . معنى القضية أن المقيمين وقفوا في البداية في وجه العرب (قصيله) ، لكن البونيين من بينهم وهم الغالبية كانوا شرقيين ، وبالتالي قابلين للتمثيل ، وكان معتنقو الرومانية غير قابلين للتمثل

---

(١) « يؤكد أبو محمد بن أبي زيد القيرواني بأن البربر ارتدوا إثنـتي عشر مرة من طرابلس إلى طنجه ؛ ولم يصبح اهتداؤهم ثابتاً إلا عندما اجتاز موسى بن نصير المضيق إلى إسبانيا يرافقه عدد كبير من زعماء البربر الذين استقروا هناك ؛ عندئذ انتشر الإسلام نهائياً في المغرب (Apud) . ناصري ، المصدر السابق ج١ ص ٨٩ . هذه الجملة يجب على الأرجح أن تفسر على ضوء الحركية الاجتماعية التي أدخلها العرب والتي تتضمنهـا .

(٢) هذه هي إحدى عباراته المقتطعة من ماضي أفريقيا الشمالية ، باريس ، بايو ، ط ٢ لعام ١٩٣٧ ص ٢٩٧ : « إننا نعثر عبر تاريخ المغرب كله على انجذاب هؤلاء إلى أولئك من الرحل البربر والعرب . فان تشابه أنماط الحياة والمشاعر الأساسية أقوى من اختلاف اللغة . وتبدو أسطورة الكاهنة شاهدة على أن هذا التعاطف الخفي قد أظهر تأثيره . وهذا في الفترة المحددة التي كان فيها المقيمون يقدرون بمفارقة ، مزايا الخلافة ، حكومة منتظمة وإدارة ونظام نسبي ... ، وجميع الأمور التي لن يكون في وسع أي دولة أن تعيش بدونها » .

وبحاجة للنظام ؛ ومنذ إنكسارات البيزنطيين الأولى كان لدى المتحضرين باعثان مختلفان ولكنهما متطابقان لقبول النير الجديد بشرط أن يؤمن النظام من جديد . فالرحل، كانوا ، من جانبهم ، قبلياً ، محبذين للعرب بسبب التماثل في نوع الحياة ومن هنا دخول شطر منهم مباشرة تقريباً في الإسلام ولكن الشرط كان أن يستمروا في الغزو ؛ وعندما اهتّم العرب بالمدن وا ضطروا إلى إعادة شيء من النظام إليها ، انقلبوا عليهم فكانت ثورة الكاهنة اليائسة . وبسبب هذا التناقض المزدوج ، فان أولئك الذين كانوا عاصين على الاندماج ، كانوا نزوعين لقبول النظام الجديد والذين كانوا ضد كل نظام كانوا قابلين للاندماج ، فان كل شيء كان يعمل لصالح الفاتحين . لكن أطروحة غوتيه ، في هذه الصيغة هي تجريد بسيط لحوادث الفتح ، ليس لها أية مزية تفسيرية . والواقع أننا إذا علمنا أن القائدين اللذين نالا من الانتصارات أبقاها ، وهما أبو المهاجر وموسى لتأكدنا مباشرة من أن سياستهما كانت سياسة الفاتحين السابقين أي احتلال المدن وترك الجماهير البربرية مستقلة استقلالا ذاتياً تحت سلطة زعمائها . وربما كانت أكثر تأخيراً للخضوع مما فعلت مصاعب الخلافة . تلك السياسة العكسية تماماً ، ألا وهي سياسة عقبة الطافحة بالحمية . وهذا التفسير يتفق من جانب آخر مع التطورات اللاحقــــة .

بعد عام ٧١١ ـــ ٩٣ أصبح المغرب نظرياً ولاية في الأمبراطورية العربية ؛ يقدم الجند والعبيد ويدفع الخراج لاملاء خزائن خليفة دمشق . وفي القيروان عاصمة الولاية الجديدة تشكلت إدارة منقولة عن تلك الّتي كان قد وضع قواعدها عمر الأول وبخاصة عبد الملك بن مروان ، مع وظيفة للقضاء ودواوين بصفة أساسية ، تسوس تسليم الضرائب والتجنيد . لكن الأمبراطورية الجديدة شيدت على دين ولغة ؛ فكيف كان تأثير هذه اللغة وذلك الدين على الولاية الجديدة ؟ إن الإسلام لا يقر الإكراه في اعتناق الدين وبخاصة فيما يتعلق بأهل الكتاب ، مسيحيين ويهودا ؛ وبالمقابل فان الوثنيين هم مجبرون على الاهتداء بالدين . فكيف كان موقف الفاتحين من البربر ؟ بالنظر إلى التشوش الأيديولوجي الفائق الذي كان يهيمن على أوساط البربر ، يمكننا التخمين بأن العرب قد ترددوا ، على الأخص ، أمام سكان المغرب الأوسط ، المتأثر على

الأرجح في جملته بالوحدانية على شكل أو آخر. فالمسألة كانت منذ البداية سياسية أكثر منها دينية وهذا هو ما قد يفسر ، في آن واحد معاً ، مقاومة السكان المسلحة الوحشية والسهولة الظاهرة في اعتناقهم الدين فيما بعد . إنه لأقرب إلى الاحتمال أن يأخذ اعتناق الدين الجديد شكل الاعترّاف بسيادة شديدة الشبه بتلك التّي رضي بها بيليزير في عام ٥٣٣ . حتّى هذا الاعتراف الشكلي إلى أقصى حد ربما لم يغر جزءاً كبيراً من غرب المغرب . فقد سارت الجولات العسكرية بلا شك في الطرق المعتادة ، تاركة مناطق واسعة لم تطرقها وخاصة في وسط وجنوب مراكش .

فالكلام عن تعريب المغرب في هذه المرحلة يكون كذلك أكثر مخاطرة . بالتأكيد أن القيروان ، العاصمة الجديدة، التّي خلقت من العدم exnihilo كان عليها منذ البداية أن تكون مدينة عربية ، وباستقبالها للسكان الذين فروا من مدنهم المدمرة ، أمكنها أن تلعب دور مركز ثقافي . إلا أنه لا يمكن التأكد ، حتّى إذا أخذنا في اعتبارنا السهولة التّي يغير بها سكان المدن لغتهم لحاجات سياسية – إدارية ، من تعريب سريع ، تناقضه مع ذلك مكتشفات المسكوكات، بما أن الكلام المنقوش ظل يكتب بلغتين زمناً طويلا . وما يجعل المسألة غامضة أحياناً هو أن العربية ، كلغة إدارية حلت بسرعة محل اللاتينية ولكن لعل عجبنا لسرعة اختفاء اللاتينية ناجم ببساطة عن إننا عزونا لها انتشاراً كانت بعيدة عن أن تناله . إن التعريب الحقيقي سوف يستلزم تراجع البربرية وهو أمر لا شك أنه لم يكن قد بدأ في القرن الثامن .

إن الفتح الذي كان في جوهره اعترافاً بالسيادة لم يعن لا دخولا في الاسلام ولا تعريباً [1] . فالتعريب يستوجب الانتظار قروناً أما اعتناق الإسلام فسوف يكون من عمل البربر . وهذا الاعتراف نفسه ألم يكن غامضاً في الحدود التّي اعترف فيها أيضاً بسلطة الزعماء المحليين ؟ أفلم يكن انتصار موسى بن نصير السهل ، وهو يمنح زعماء البربر أن يقتسموا معه المجد ومغانم فتوحات جديدة ، ينطوي على شكل ما محدد من الاستقلال الذاتي ؟

---

(١) كان الوضع في سورية وفي العراق مختلفاً جداً حيث كان التعريب يجري منذ قرنين ماضيين عندما حدث الفتح .

ونحن نذكـّر بهذه الوقائع لا نملك الامتناع عن التساؤل ما هي الجدة في الفتح العربي ؟ ومع ذلك ، كم من مسألة باطلة ! مقاومة طويلة للعرب ؟ إلا أنها لم تكن أقصر ضد البيزنطيين ولا ضد الفاندال عندما كان طموحهم يتعاظم [١] . فشل روما ، نجاح خارق للإسلام ، ردة البربر ... إنها هنا أحكام دارجة تشير إلى قصر نظر تاريخي عجيب . يجري الكلام عن فضيحة تاريخية ، ولا شك أن في ذلك فضيحة إذا اعتبرنا أن المغرب كان مسيحياً كفرنسا في القرن التاسع عشر وأنه أصبح مباشرة : مسلماً كما هو اليوم . وما من شك أن ذلك تقهقر اختياري من الحضارة إلى البربرية إذا كانت الصيغة التي يرجع إليها هي روما أوغسطس وإسلام القرن التاسع عشر . أما إذا تساءلنا : أي نوع من الصيغة اللاتينية ؟ أي شكل من المسيحية ؟ وأي درجة في اعتناق الإسلام ؟ يكون ما نكشف عنه تغيراً دقيقاً جداً ، وليس انفصاماً عنيفاً . فالتضليل هو في تعريف روما دائماً بالمستوى الأعلى من كل تنظيم إجتماعي والإسلام بالمستوى الأدنى ، لكن الفضيحة التي يجري الكلام عليها هي ذاتية صرف ، إذ أن الناس لا ينتقلون من عصر ذهبي مذكور إلى انحطاط سابق لأوانه ، بل على العكس من انحطاط واقعي (انحطاط بيزنطي) إلى الأمل بوجود أفضل . لنغيّر الرؤية فان الاستمرار هو الذي يسترعي انتباهنا .

أما وقد طرحنا مسألة باطلة فاننا نضيع في تفاسير [٢] مزيفة : الصحراء التي تجف ، الجمل الآتي من الشرق ، حياة البداوة التي تنتشر ، البوني الغارق في سباته ، الهمجيّ الغافي أو أن جميع هذه الوحوش معاًالتي تدبر المكائد منذ القرن الأول ق. م لخراب روما وتعد هكذا الفراش للفاتح العربي . فالحقيقة الواقعة هي مع ذلك حقيقة الاستمرار الواقعة . لا يمكن الكلام عن نجاح عربي أو إسلامي إلا على مدى طويل جداً ، ولكن ما من حدث تاريخي ، ابداً وفي أي مكان يخشى منه مباشرة في جميع

---

(١) يمكن التساؤل عما إذا كان التشديد على مقاومة البربر من قبل المؤرخين الاستعماريين لا يخفي الرغبة في الانتقاص من مصاعب الفتح الفرنسي .

(٢) إن الفصل الختامي في كتاب ش. — ا. جوليان (كورنوا) : « من روما إلى الإسلام » ١٩٤٢ ص ٢٤ وما يليها الذي يتناول مقاله الأخير هو مختارات من هذه المسائل الخاطئة .

إشكالاته . إن فتح المغرب الأوسط قد أخفق والفتح الذي نجح حقاً هو فتح هذا المغرب الذي سيطر عليه جميع الفاتحين ، غالباً بأقل النفقات . إذا كان المقصود هو النجاح المباشر فأين هي العناصر الجديدة ؟ وهل يمكن الكلام عن النجاح ؟ وإذا كان المقصود هي العناصر التي ستعمل لصالح اعتناق الاسلام ، فلا شك في أن هناك ما هو موجود منها ، بعضها جديد والأخرى تستخدم منذ زمن طويل . إن إرادة الاستقرار بطريقة ثابتة التي لم تكن دائماً ظاهرة لدى الفينيقيين أو الرومان ، لكنها سبق أن خدمت الفاندال كل الخدمة ، عدد المستوطنين المحصور ، عدم وجود كنيسة مستغلّة ، اختفاء إقطاعية بسرعة نسبياً بازاء سيد بعيد ، كثير من هذه الوقائع لعب دوراً لصالح الفاندال ، الركائز الأفضل من الرومان ، الذين ما أن زالوا حتى تحسر الناس عليهم . الحركية الإجتماعية ؟ لقد كانت بالتأكيد أكثر العناصر فعالية والتي لم توجد أبداً من قبل على هذا النطاق الواسع ، لكنها هنا أيضاً لم تقم بكامل دورها إلا بعد عام ٧١١ ومصحوبة بنكسات عنيفة من تشبثية الطائفة . أهو لوجود الانشقاق القومي ، الخوارجية ؟ كان يمكن للدوناتية أن تلعب نفس الدور لو لم تخمدها الدولة والكنيسة . ليس في هذا الفتح أي شيء شائن ولا خارق انه في خط الفتوح التي سبقته المستقيم .

سوف يكون على العرب أن يكتفوا ، بسرعة فائقة ، بهذا الجزء من المغرب الذي كان يعترف به دائماً للأجانب منذ القرطاجيين . وسوف يستميل الإسلام إليه بوصفه دنيا المغرب الأوسط والصحراء بلا شك ، ولكن في مدى عملية بطيئة ولأسباب يجب أن تدرس محلياً ، في فترة أعظم فعالية لها . فليس ثمة ما يضفي أي امتياز على نجاح الإسلام ولا ما يغضب منه . وليس فيه أيضاً ما يُعزى إلى العرب قدرة في التجديد لم تكن لديهم ، إذ أنهم لم يُدخلوا إلى المغرب إلا طريقة خاصة لعبادة الله ، ليس في وسعنا حتى التأكيد بأن البربر أحسّوا بكل جدتها . كالفاندال وكالبيزنطيين كان العرب الوارثين وحل الاستمرار المزعوم الذي كانوا صانعيه ما هو إلا دفعٌ بالغيبة لأحكام غير قائمة على أساس .

(١) أساساً بواسطة الولاء المعروف عند العرب كأنه مؤسسة أو نظام أتيح لكثير من أمراء البربر أن يندمجوا بالأرستقراطية العربية .

٤ ـ استعادة الاستقلال الذاتي

من تاريخ القرن الثامن (٧٠٠ ـ ٨٠٠ / ٨١ ـ ١٨٤ هـ) كما يقرأ في الحوليات العربية ، نستطيع التقاط النقاط التالية :

المقصود أنه قرن الانتفاضات البربرية، لا يختلف في ذلك قط عن القرنين السابقين. لم يحل الفتح العسكري شيئاً ؛ إلا أنه يجب أن نلاحظ بأن أيّا من تلك الانتفاضات لم يحدث باسم المسيحية ، إلا إذا افترضنا أن التقاليد الإسلامية اللاحقة قد محت هذا الوجه من المسألة وهو أمر يبدو قليل الاحتمال .

لقد اهتم مدونو الأخبار بالمعارك خاصة . على ان هذه المعارك دارت في معظم الحالات في الشرق وفي منطقتي تلمسان وطنجة اللتين صارتا تمثلان المحور الأكبر للفتح . هل المقصود طريق مواصلات كبير كان على جيش الاحتلال السيطرة عليه بالضرورة ؟ هل المقصود بالأحرى خط مقاومة أقل بالمقارنة مع الهضاب العليا والمناطق الجبلية ؟ أو أننا نتعرف هنا بكل بساطة على ما أطلقنا عليه اسم المغرب الأوسط ، اذ من الملاحظ أن أكبر عدد من امارات القرنين الخامس والسادس يوجد في هذه المنطقة . ذلك انه ها هنا ما كان يجد فيه السكان البربر تنظيماً مجرباً من قبل قادراً على قيادتهم . تبدو المدن الساحلية أنها كانت هادئة والمغرب الصحراوي خارج اهتمامات العرب .

إن معلوماتنا قليلة عن السكان والبنى السياسية وطرائق القتال ، فيما عدا الوسائل وطرق الحرب التي نستطيع إعادة تمثيلها من خلال الرواية نفسها . هذه التخمينات

التي جازف كثيرون من مؤرخي الغرب بصنعها يجب أن يحكم عليها بما تستحقه : إنها فرضيات جريئة .

إذا بقيت الحوادث غامضة لأننا نجهل حالة المجتمع المغربي الداخلية ، فإننا نستطيع توضيحها إلى حد ما بحوادث المشرق العربي [1] . فطيلة القرن الثامن كان شمال أفريقيا جزءاً من أمبراطورية دمشق وعانى عواقب ما جرى فيها . لكن حوادث الشرق تلك نفسها ليست واضحة : منازعات العصبيات العربية ، مضريين وقيسيين ، ضخمتها الخصومات في موضوع الخلافة بين العصبيات القرشية ، أمويين ضد هاشميين ثم بين الهاشميين أنفسهم : بين العباسيين والعلويين . وقد جلب الجنود الذين جاءوا يقاتلون في المغرب معهم الأيديولوجيات التي تفيد في تبرير تلك الخصومات . ومن المحقق أن تاريخ الأمبراطورية العربية هذا يساعدنا على فهم بعض الوقائع المغربية أفضل مما كان يتيحه لنا تاريخ بيزنطة الداخلي في حالة مماثلة ، لأن التأثير العربي كان يتجاوز كثيراً تأثير البيزنطيين ويستأنف تأثير الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثالث . إلا أنه يكون من الخطأ الاعتقاد بأننا نستطيع تفسير كل شيء في المغرب بالتطور الداخلي للإسلام . فثمة وقائع تبقى وربما سوف تبقى غامضة دائماً .

— ١ —

لنذكر بادىء ذي بدء بضعف تنظيم الدولة المركزي : كانت الدولة العربية قد نمت أسرع كثيراً من أن تتمكن من تنظيم نفسها بصورة مرضية ؛ لم يكن هناك ضرائب منتظمة على المسلمين (فالزكاة هي صدقة شرعية) ، إذن كانت الدولة تعيش على الجزية (ضريبة الأعناق) وعلى الخراج (الضريبة العقارية) على غير المسلمين وتتعلق كذلك ماليتها بغنيمة الحرب . فكان المركز يغتني على حساب الاقاليم ، ولم يكن المغرب ، الولاية البعيدة ، يستطيع تنظيم نفسه في هذه الظروف على قاعدة ثابتة .

---

(١) تلك كانت إحدى مزايا مؤلف ج. مارسيه .Le Berberie musulmane ; G. Marçais
et l'orient am moyen - Age Paris, Aubier,ed. 1947 وهو أحسن كتاب في هذه الحقبة .

وابتداء من اللحظة التي استنفدت فيها حركة التوسع قواها كان من الطبيعي أن تظهر أزمة في الدولة . ومن قبل كان هذا الانتقال من إمارة أوليغارشيه إلى أمبراطورية عالمية قد طرح مسائل جسيمة من الاصلاح ، منعكسة في أزمة ضمير ، تبعه صراع على السلطة ، كان أبطالها الشخصيات الثلاثة : عثمان وعلي ومعاوية [1] . فكان ينبغي إما بناء دولة منظمة على غرار الامبراطوريات العالمية الأخرى وعندها تأسيس نظام ضريبي وهو ما سيكون بالضرورة تجديداً (بدعة) : وهذه هي السياسة التي اتبعها في نهاية المطاف بنو أمية ، ممثلو الأرستقراطية التجارية ؛ وأما مواصلة النظام الأوليغارشي القديم النزاع إلى المساواة وهو ما كان مستحيلا على المدى الطويل ؛ من هنا الخاصية اليائسة لتلك السياسة التي كانت ترمز لها حركة الخوارج والحركة الشيعية في بداياتها . وانتهت الحقيقة الواقعة ، مع ذلك بفرض نفسها ، فاقتدت الامبراطورية في البداية ببيزنطة وفيما بعد بالفرس. وبذلك نفسه أعدت مصاعب جسيمة في ولاياتها البعيدة . فكيف انعقدت الأزمة في المغرب . ؟

لقد لعبت فيها الدعوة إلى الدين دوراً عظيماً جداً . يقال غالباً إن الإسلام كان متسامحاً بالنسبة للأسباب الضريبية ، ولكنا ننسى أن الدعوة إليه كانت ضرورية له كذلك . أما أن هذه الدعوة إلى الدين كانت ضد مصالح الدولة الأموية ، فتلك ليست هي المرة الأولى التي تصطدم فيها حركة توسع بتناقضاتها الداخلية الخاصة . والحال أنه بين العرب الذين كانوا يعملون على إدخال البربر في الإسلام لم يكن إلا أناس مؤيدون للاسرة الحاكمة ؛ وعلى العكس كان معظم الفقهاء معادين لها . ثانياً ، في الصراع بين الأمويين والعلويين قاتل الخوارج العلويين ، اصدقاءهم القدامى بحمية أكبر من قتالهم للأمويين ، ونشاهد على طول القرن الأول الهجري تقارباً بينهم وبين سادة دمشق ؛ ولكن لما كانوا عنصر اقلاق ونزاع مستمرين ، فإن الخلفاء كانوا يميلون إلى إرسالهم للجهاد باسم الله في الولايات . فجاءوا بكثرة إلى المغرب : تقاة ، متشددون ، مضطرمون ، وعلى الأخص ان أصلهم من المناطق

---

(١) أنظر طه حسين في مقدمة كتابه الفتنة الكبرى : عثمان ، القاهرة ١٩٤٧ .

الصحراوية ، مفعمون بالحقد على ثراء المدن [1] .

وأخيراً كانت ضرورات الدولة في دمشق وفي القيروان معاً تدفع الأمراء الى تنظيم الولاية المغربية ، إعادة الناس إلى العمل وجعلهم يدفعون ضريبة اقليمية [2] . إن جميع الاجراءات التي يعتبرها المؤرخون العرب وآخرون اقتفوا أثرهم ، اجراءات جائرة ، تبدو لنا الآن على العكس ضرورية لتكوين دولة بنيوية . والتمرد الذي نجم يفسر بأن جزءاً لا بأس به من السكان انسحب من كل سلطة مركزية منذ بداية القرن الخامس ، إن لم يكن قبل ذلك . والمنازعات الطويلة التي ستدوم نصف قرن كانت في الواقع استمراراً لنزاعات القرنين الخامس والسادس الموجهة ضد كل سلطة مركزية منظمة وليست بربرية وعلى الأخص إذا تطلعت إلى تجاوز الاطار التقليدي للشمال – الشرقي . ولنضف إلى هذا أن الأمويين كانوا قد أيقظوا من جديد العنجهية العصبية القديمة لدى العرب ليجعلوا منها قوة للحكم . في عهد عمر الأول كانت هناك بلا شك ارستقراطية ولكنها كانت بالاستناد إلى قدم الدخوم في الإسلام اما في عهد الأمويين فكانت عودة تلك التضامنات القديمة قوية والجيش الذي منح البربر وسيلة سهلة للصعود الاجتماعي لم يعد يقوم بهذا الدور . فكل شيء كان يعيدهم إذن إلى ما كانوا عليه في عهد البيزنطيين ، ومن جانبهم أحس البربر بذلك قبل أن يُرمز إلى تلك البزنطة بتكون حرس دكتاتوري من قبل الحاكم يزيد .

من الضروري ، في البحث عن الأسباب أن نفرق بين بواعث التمرد وبواعث تبني مذهب الخوارج كايديولوجية مبررة ، وها هنا هو المجال الذي تطابقت فيه التحديدات الخارجية والداخلية في المغرب .

---

(١) كان من المفيد أن يقارن محتوى ولهجة كتاب مثل كتاب كومودیان Commodien بالآثار الأدبية الخوارجية لو كان من الممكن التأكد من أن كومودیان كان دوناتيا أفريقيا : راجع ج. ب. بريسون ، المصدر السابق .

(٢) في مسألة الخراج في تاريخ الإسلام العام أنظر : R. Levy, The Social Structure of Islam, Cambridge 1962 P. 310 .

٢

عين الخلفاء الأمويون طيلة عهدهم ثمانية ولاة بعد موسى . تابع الأوائل منهم القتال والقيام بشؤون الدعوة إلى الدين ولاسيما ثانيهم ، اسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر ، الذي سمي في عام ٧١٨ / ١٠٠ من قبل عمر الثاني . وكثيراً ما قرأنا في كتب المؤرخين العرب ، عبارة : كان اعتناق الإسلام تاماً ؛ ولا بد ان نفهم من ذلك أنه إسلام الزعماء .

في عام ٧٢٠ — ١٠٢ أراد الوالي يزيد بن أبي مسلم عودة الأهالي إلى مباشرة العمل وجعلهم يدفعون ضرائب وشكل حرساً شخصياً على غرار الحكام البيزنطيين . كان قد اعتاد على هذه الطرائق في الحكم تحت إمارة استاذه الحجاج في العراق . فقتل . ولم يكن مقتله بعد سوى مؤشر .

التمرد الحقيقي بدأ في المغرب في الشمال المراكشي . ففي عام ٧٣٤ — ١١٦ عين عبيد الله بن الحبحاب والياً وكان قد أثبت جدارته في مصر فعهد في سلطاته إلى نوابه ؛ وكان بينهم عمر بن عبيد الله المرادي الذي بعث به على عجل إلى طنجة . ومما تجدر ملاحظته أن المقصود تلك الحقبة التي واصل فيها التوسع الإسلامي سيره في البحر الأبيض المتوسط وفي السوس Sus [١] وكانت قواعد الانطلاق (أفريقية Ifriqiya والشمال المراكشي) هامة ولا بد من أن تكون القبضة محكمة عليها . ويقال أن المرادي أراد جباية ضريبة الخمس من البربر الذين دخل قسم كبير منهم في الاسلام [٤] . فقتل عام ٧٤٠ — ١٢٣ . وكان التمرد بقيادة ميسرة الذي كان ساقياً في القيروان . ويجب أن نفهم أنه كان رجلا عظيم التقى وليس وضيع الأصل . كان ميسرة صفّرياً (من الخوارج المتشددين) وكان التمرد متزامناً مع أعمال تمرد أخرى تفجرت في بلاد العرب واليمن والعراق آذنت بنهاية الأسرة الأموية . فهل يجب أن نرى في هذا التوافق أثراً للصدفة أو نتيجة لدعاية محكمة التنسيق ؟

---

(١) طيلة هذه الحقبة كلها تعني سوس Sus مراكش Maroc إلى الجنوب من سبو Sebou .

(٢) ربما لم يكونوا على أفضل من ذلك . الأمر الذي يبرر وجهات نظر هؤلاء وأولئك .

كان المتمردون هم المنتصرين ؛ وبعودتهم إلى طنجة دخلوا مباشرة في دائرة الانشقاقات الداخلية العامة في جماعات الخوارج كافة ، فاغتيل ميسرة وحل محله خالد بن حميد . سيّر والي القيروان جيشاً مؤلفاً من جند مستقدم من اسبانيا وصقلية : فدارت معركة النبلاء على الشليف ومني فيها الجيش الأمبراطوري بهزيمة ساحقة . وبانتشار هذا النبأ ثار الشرق بدوره . وفي نفس العام أبيد جيش ثان على وادي سبو Oued Sebou من (١٢,٠٠٠ ؟ ٧٠,٠٠٠ رجل ؟) سيّر من دمشق هذه المرة في ركاب الوالي الجديد كلثوم بن إياد ، ولحق الناجون بأسبانيا . وبعد هاتين المعركتين أفلت الشمال الأفريقي تماماً من اسار سلطة الخلافة . وفي أسبانيا كان البربر قد تمردوا في نفس الوقت لكنهم دحروا . وراحت المعارك بعد هذا التاريخ تدور في الجنوب القسطنطيني ، في مطالع أفريقية Ifriqiya. إلا أن الأسرة الأموية كان لديها الوقت ، قبل زوالها الآن تثأر لنفسها ثأراً صغيراً . إذ التقى جيش الأمبراطورية بقيادة حنظلة بن صفوان بخوارج أفريقية في معركتين (القرن والأصنام) وألحق بهم هزيمة فادحة (٧٤١ — ١٢٤) .

بعد هذا التاريخ يمكن القول بأن المغرب قد كسب استقلاله الذاتي ؛ بالفعل كان قد استعاد وضعه في أيام الفاندال والبيزنطيين ، لكنه في هذه المرة تحت شعار الانشقاق الإسلامي .. وهذا الاختيار يجب أن يفسر بالتأكيد كاختيار زعماء البربر الذين كانوا يريدون تأسيس أو استرداد إماراتهم من المغرب الأوسط .

في سلسلة الحوادث التي ترويها الوقائع ولم تعد تهم إلا المغروب الشرقي واسبانيا ، نتأكد بوضوح من رغبة بعض الشخصيات الأرستقراطية العربية في أن يقتطعوا لأنفسهم إمارات ؛ وهذا يعني بجلاء أن العلاقات كانت بمركز الأمبراطورية منحلة إلى حد بعيد . فبادىء ذي بدء جرب بنو عقبة بن نافع حظهم في ذلك خارج أية شرعية . فأقام الأول عبد الرحمن بن حبيب (٧٤٥ — ٧٥٥ / ١٢٧ — ١٣٧) في القيروان ، لكن المحاولة أخفقت بسبب نزاعات عائلية وقوة الخوارج على الحدود الطرابلسية وكذلك لتدخل الخليفة العباسي المنصور . وكانت المحاولة الثانية ، بموافقة الخلافة هذه

المرة ، هي محاولة خلف المهلب بن أبي صفرة القائد الشهير الذي حارب الخوارج في العراق : عمر بن حفص (٧٦٨ – ٧٧١) ويزيد بن حاتم (٧٧١ – ٧٨٨ – ١٥٦ – ١٧٣) . كتقدم الأول معتقداً أنه قد أعاد السلام إلى الجنوب التونسي ، في إقليم طبنه Tobna ؛ فطوق بتحالف عام من الخوارج ولم يفز بنجاته إلا بفضل الخلافات الطارئة في صفوف محاصريه . بيد أن خلفاءه جنوا مكاسب عمله ، لكنهم اعترفوا بعدم جدوى الرغبة في الذهاب إلى ما وراء أفريقية . وعقد أحدهم وهو روح بن حاتم (٧٨٧ – ٧٩٠) إتفاقاً مع أحد زعماء الخوارج ، ابن رستم .

كان في وسع أسرة المهلب تكوين إمارة لها في أفريقية ، إلا أن أسرة أخرى هي أسرة الأغالبة التي كان رجالها نواب بني المهلب في الأقاليم هي التي نجحت . فقد دافع الأغلب بن سليم التميمي الذي قدم عام ٧٥٩ – ١٤٢ ، عن الزاب ضد الخوارج وأصبح والياً مدة سنتين (٧٦٥ – ٧٦٧) ؛ وحصل إبنه إبراهيم بن الأغلب في عام ٨٠٠ – ١٨٤ على لقب امير وورثه إلى أولاده . كان ذلك أن ما وصل إليه الشرق المغربي هو أيضاً من استغلال ذاتي كان إذن بالاتفاق مع الخلافة . خارج الانشقاق الخارجي بلا شك ، ولكن بفضله .

٣

يمكن تلخيص الاتجاه العام لكفاحات الخوارج في نقطتين : رفض دولة تقوم على الاستغلال واللامساواة وفق النموذج البيزنطي ، وتعذّر تكوين دولة مضادة على أساس تنمية عضوية للمؤسسات الموجودة من قبل . وهو ما سبق أن كان عليه الوضع قبل قدوم العرب ، لكن تسلسل تلك الكفاحات نفسه ، بعيداً فيما وراء الدائرة القرطاجية المصغرة ، ربما كان يدين نهائياً تجارب المغرب الأوسط . ذلك أن الاطار

(١) هذه الأطروحة التي يقدمها غوتيه : « حركة الخوارج هي زناتية أي حركة بدوي مدمر » ما تزال أضعف من تلك الأطروحة المتعلقة بالفتح ، لا سيما عندما يعترف المؤلف نفسه بأن نتيجة هذا التمرد كانت تأسيس مملكتي تاهرت وفاس (وهو أمر خاطىء مع ذلك) وإنها أظهرت قيمة واحات الأطراف الصحراوية .

الذي كان على المغاربة أن ينظموا أنفسهم منذ ئذٍ فيه هو الإسلام نفسه ؛ كان مذهب الخوارج يبدو أنه يقدر أن يقود إلى الهدف المرجو ؛ فتم تبنيه ، لكن بالتجربة ظهر على أنه حل مرحلي لأنه كان نقداً متصلاً لنظام ، عليه إذن أن يحافظ على نفسه لكي تكون المعارضة دائماً خصبة . وإلا فإنه ينقلب ضد نفسه وينهشها . ففي نهاية القرن الثامن كان عندئذٍ قد قام بدوره الذي تمثل في التأكيد على استقلال المغرب الذاتي ، لكنه لم يقدم إلى هذا المغرب الدولة القومية التي كان يأمل بها .

فيما وراء هذا التميّز الداخلي لايديولوجية الخوارج هل يمكننا أن نربط هذه الايديولوجية ببنية اقتصادية ـ اجتماعية محددة ؟ صحيح أن أشد مشايعيّ مذهب الخوارج حماساً أصلهم من أقل الأجزاء تمدناً في الامبراطورية الأموية (الجزيرة ، اليمامة ، اليمن ...) ولكن من هنا مبعث العمل على أن يجعل منها ايديولوجية بدوية مثلى ، كما زعم غوتيه Gautier ؟ هناك خطوة لا يمكن أن نخطوها بخفة ؛ ذلك أن المرء يستطيع أخيراً ، إذا ما نظر إلى تقشف هذا المذهب وبساطته في المأكل وديموقراطيته ولاسيما ما صار عليه فيما بعد في طوائف المزاب Mzab ، أن يؤكد كذلك على حد سواء أنه مدينيا بصورة نموذجية ، شبيهاً إلى حد غريب بنوع من الكالفانية . وصحيح أننا نستطيع افتراض انحطاط حضري وإفقار في المغرب الأوسط طيلة القرن الثامن ، ولكن لماذا ترك المجال للاعتقاد بأن حرب الخوارج وحده كان مدمراً ؟ على أي حال إن ما نملكه من المعلومات عن الحالة الاقتصادية ضئيل إلى حد أن الأجدر معه هو الامتناع عن أي حكم .

بيد أننا نستطيع التحقق من أن مذهب الخوارج قد وسع النطاق الإسلامي بديناميكيته الداخلية الخاصة وخاصية النزاعة إلى التعارض . وقد أفاد كشعار لاستقلال البربر الذاتي ، لكنه كان يحمل في طياته بذور التنازع الذي لا نهاية له : فقد لا ينقطع ، عزل الخلفاء ، اغتيالات ، مناقشات لاهوتية ؛ وقائع مخربة للاستقرار الضروري لتنظيم دولة عظيمة . وقد تشكلت على أساس هذه الايديولوجية دويلات لا نعرف من تاريخها الداخلي إلا قليلاً : البارغواتا في المراكش الغربي والمدراريين في سبلجماسه (٧٥٧ / ١٤٠) والرساتمه في تاهارت Tahart (٧٦١ / ١٤٤) .

أكانت رجعة إلى الوضع البيزنطي ؟ أجل ، بمعنى من المعاني ، ولكن في ظروف مختلفة ، فالمغرب المحتل قد كسب هو كذلك استقلاله الذاتي ، محتفظاً لنفسه بالجزء الأكبر من الثروات التي كانت فيما مضى تأخذ طريقها إلى المشرق . ومع ذلك صار للمغرب الأوسط الذي كان منقسماً دائماً إلى إمارات ، ايديولوجية معارضة تنكر أية شرعية على السلطة المقامة في الشمال ــ الشرقي . ولم يعد المغرب الصحراوي عزلة تاريخية ، فقد انفتح على فعالية تجارية للمغرب الأوسط . فها هنا هي ، على نحو ما ، الملامح الإيجابية لكل من الحقب السابقة ، إلا أنها لم يكن في مكنتها أبداً أن تجتمع ولا أن تُكتسب نهائياً . كان الانشقاق الدوناتي قد اندحر ولم يشأ الفاندال الاقامة في افريقية ولا أراد البيزنطيون أن يقطعوا صلاتهم بالعاصمة الأم . وفي نهاية القرن الثامن ثبتت عناصر الاستقلال الذاتي ولعل سبب اعتناق المغرب للإسلام نهائياً يوجد ها هنا .

هكذا انتهى الجزء الأول من تاريخ المغرب حيث عبر عن نفسه هذا التاريخ على الدوام بصورة سلبية . وإذا ما نظر إليه من الخارج كان من السهل أن نجعل منه تاريخ الأجانب على الأرض المغربية [1] . وهو إذا نظر إليه من الداخل ، سلسلة متواصلة من الأشكال السلبية ؛ على الصعيد الاجتماعي (تقهقر مقصود ومعاد تقديره) ، وعلى الصعيد السياسي (إعادة تكوين الممالك المنحلة) وعلى الصعيد الديني (انشقاقات) وعلى الصعيد الجغرافي نفسه (إعادة سكنى المجال الصحراوي الضيق). وهذا الجانب كان على الأرجح الجانب الأساسي الأكثر في كل تلك الحقبة . فجميع التحديدات هي بالتأكيد معقولة لأنها تعكس جميعها وضعاً جمّده التاريخ في بنية ؛ لكن التحديد الحقيقي ربما هو أن المغرب كان « حداً فاصلاً » ، طريقاً مسدوداً حيث تنتهي الجماعات البشرية إلى التوقف والانعزال لأنها لا تستطيع المضيّ إلى أبعد . وانطلاقاً من هذا الوضع التاريخي الذي دام زمناً طويلاً كاف لكي تصبح الحلول العارضة عوامل دائمة ، من السهل بذل كل ما في الوسع من الحتميات :

---

(١) ج . كامبس ، طقوس وأثار جنائزية ، المصدر السابق .

حتمية العامل العرقي [١] ، البسيكولوجي [٢] ، الاجتماعي [٣] ، الجغرافي ، لكن ذلك لا يكون في كل مرة ، إلا واجهة يميزها المرء في عداد المسوغات ؛ فالمستوى البنيوي الذي يكون التعبير عن التطور الديالكتيكي للعناصر الداخلية والخارجية ، يصبح عملاً دائماً يفسر كل شيء ، قناعاً صقيلاً تنزلق فوقه اسهامات الحضارات الأجنبية .

كأن المؤرخين غير المغاربة يطرحون أسئلة مشروعة : يتساءل مؤرخو ما قبل التاريخ : من هم البربر ؟ كيف انتقلوا من البربرية إلى الحضارة ؟ ويتساءل مؤرخو حقبة ما قبل الكتابة والتصنيفيين . ويتساءل مؤرخو العصور الوسطى لماذا اعتنقوا الإسلام . في حين يخفون وراء هذه الأسئلة أسئلة أخرى أقل براءة منها بكثير : هل فاتهم عصر المعادن [٤] ؟ هل أخذوا الزراعة عن الفينيقيين ؟ هل استخفّوا بتنظيم روما السياسي [٥] ؟ انها في الواقع تأكيدات لا تكاد تكون مقنعة ويختفي في أساسها دائماً التعجب المروّع القديم : أية فضيحة هو اعتناق الإسلام [٦] ! فطوال عصر الاستعمار المظفر ، كان يُظن أن الأمر كان يعني مجرد خطأ سهل اصلاحه ؛ وعندما رفض البربر اسلاس انقيادهم للاقتناع بأنهم أضاعوا فرصتهم مع الرومان وأنه لا ينبغي أن يكرروا نفس الخطأ مع الاستعمار الحديث فإن فكرة البربري المتباطىء في عالم البحر الأبيض المتوسط ، المتخلف دائماً عن تطور [٧] ما هي التي غدت شائعة بين فكرة عدم الاصالة ، إلى فكرة البربري غير المؤمن دائماً بنفسه . فيقال ان مغرب

---

(١) ج وك. ش. بيكار ، مصدر سابق ص ١١٦ « ليس من الممنوع أن نفكر بأن الانسان الأفريقي هو بالطبيعة متمرد على الفعالية التكنيكية » .

(٢) ستيفان قازال المصدر السابق ص. ص ٢٧٤ — ٢٨٥ .

(٣) ستيفان قازال : المصدر المذكور نفسه .

(٤) ش.— ا. جوليان (كورتوا) المصدر السابق ص ٤٤ ؛ م. فورون M. Furon : وجيز في التاريخ القديم العام ، طبعة باتو ، ١٩٦٦ ص ٤٥٨ .

(٥) « لسوف يكون هذا نكبة بالنسبة لأفريقيا (...) هي التي كانت تعيد شيئاً فشيئاً السكان الأصليين المترومنين إلى الحضارة الابتدائية التي انتزعتهم منها ، في الوقت المناسب أنانية القياصرة الطموحة » . (ش. كورتوا : المصدر السابق ص ٢١٤) .

(٦) ش. كورتوا : المصدر نفسه . ص. ص ٦٤ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

(٧) ستيفان قازال : المصدر نفسه ص. ص ٢٣٦ ، ٢٧٤ .

ماسّينيسّا كانت له في القرن الأول ق. م. امكانية أن يكون هو نفسه ففضل أن يكون بونياً ، معتقداً أنه أحسن عملاً [١] ، وكان ذلك هو الخطأ الذي لا يُغتفر؛ وهناك ما يؤكد كثيراً على أن هذه الفكرة تكسب اشياعا عديدين ، حتّى بين المغاربة .

لكن هذه الفكرة من عدم الرغبة في أن يكون هو ذاته لم تعد مما يمكن اثباته أكثر من فكرة تخلف متباطئ كلعنة منذ العصر النيوليثي (الحجر المصقول) . فهناك استمرار منذ القرن الأول ق. م حتّى الثامن ب. م ، في الإرادة الجليّة لإعادة بناء امارات العصر القرطاجي وبهذا المعنى فان الحركة قد توّجت بالنجاح ؛ ان المسألة التي تبقى مطروحة والهامة بلا شك ، هي مسألة المدة . فإعادة البناء تطلب زمناً طويلاً وقد ترسخت البُنى الظاهرية ، العارضة ، إلى حد فقدت فيه كل مرونة. وعليه تستحق فرضية ج. كامبس [٢] G. Camps أن تؤخذ بعين الاعتبار وشرط أن نقيم وزناً للملاحظتين التاليتين : قبل كل شيء لم يكن ماسّينيسّا هو الذي اختار أن يصبح بونياً فان الوضع هو الذي فرض عليه ذلك ولذلك الوضع اسم هو روما ، اننا نقرأ في ش ــ أ . جوليان (كورتوا) Ch - A Julien (courtois) « لو لم تكن الخرائب المكومة من اجتياح العرب الهلاليين الذين لازموا أذهاننا لتملكنا اعجاب أكثر اعتدالاً بآثار روما [٣] . وسواس ذاتي كله ، إذ أن مغاربة القرن السابع لم يقرأوا في المستقبل ؛ فالهلاليون كانوا حتماً من طينة سهلة الاستخدام ويبررون على التوالي بوجو Bugeaud والقناصل الرومان . في المقام الثاني إن إعادة بناء التاريخ ، كما لم يحدث تكون بلا جدوى دائماً ، إذ حتّى إذا كـــــان ما سّينيسّا قد نمّى حضارة بربرية أصيلة فهل كان لروما أن تراعيها من أجل ذلك ؟ فثمة شعوب أخرى ذات حضارة أصيلة ، كان قد صار عمرها ألف سنة في مطلع التاريخ المسيحي ، لم تنج من أجل ذلك من ضغط روما الذي كان يجري بلا تفريق .

---

(١) « مثل غريب للقومية البربرية ، فان مسينيسا عميل روما صار طليعة الحضارة البونية » ج. كامبس، ماسـينيا ... ص ٣٠١

(٢) ج. كامبس ، المصدر السابق ص ٢٧٤ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٢٣٢ .

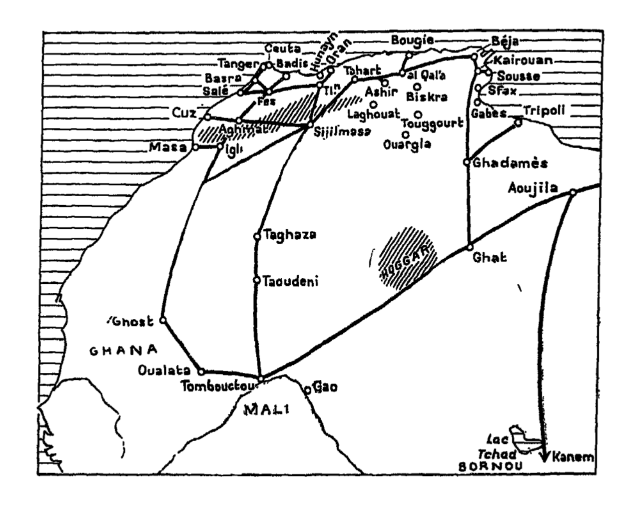
وراء جميع تلك الفرضيات اللامعة فإن ما يعود هو نفس الزعم دائماً : وهو أن المغربي لم يعرف أبداً أين كانت فائدته : وهو في مواجهة روما ، استدار إلى قرطاجة ، عدوته بالأمس ؛ وهو تحت سيطرة العرب التجأ إلى الاسلام ؛ وهو محتل من فرنسا انقلب إلى العروبة . ويذكّر هذا الطفل الأبدي اللعوب دائماً بأن عليه أن يختار نهائياً الاختيار الحسن وهو بالطبع اختيار مجتمع البحر الأبيض المتوسط . وباتباع هذا المنطق فإننا لن ننتهي ابداً من تقريع شعوب الأرض إذ أن كلا منها ، على هذا النحو أو ذاك ، قام باختيار سيء . لو أن مغربياً تجرأ على أن يعيد كتابة تاريخ فرنسا او انجلترا من وجهة نظر السلتيين ، مظهراً سلبيتهما وعدم أصالتهما لهزىء منه ، ومع ذلك فان هذا هو ما يفعله في صفحات طويلة وبحجة الصداقة ، بحّاثون بارعون . فهذا هو الـ « تاريخ المستَعْمَر » : أن يقال بلا انقطاع لبعض الشعوب ماذا كان يجب أن تكون أفعالها في الماضي .

إن المعطى الطبيعي غير القابل للتغيّر الذي يجب الانطلاق منه ، بتفكيك الديالكتيك فيه مع ذلك هو الرفض الذي يتزايد عنفه لاستغلال أجنبي والإرادة الحازمة باستئناف المسيرة التي توقفت بالفتح الروماني ؛ هذا الهدف قد تم بلوغه في القرن الثامن تحت راية الانشقاق الإسلامي . إخفاق روما ، نجاح الإسلام ، هذان هما حكمان أخلاقيان هنا أو تقديران ذاتيان ؛ فالحدث هو آلية يُطلب تحليلها : صدمة التوقف العنيفة لتطور طبيعي للمغرب الذي احدثتها روما والانتظار الطويل ، الطويل جداً ، لاستئناف الحركة ؛ انتظار كرس بنية هي نفسها نتيجة لتاريخ مقرر . هذه البنية الموطدة كان لها ما للدوام من مميزات ، بما أن كل توقف لاحق كان يعطيها مرة أخرى شباباً جديداً . فلم يكن ذلك لاعنة ولا تطوراً محتماً : كانت روما تستطيع السيطرة على أفريقية حتى نهر النيجر ، وكانت ستستطيع كذلك التخلي عن المغرب أسرع كثيراً مما فعلت ، كل شيء كان مختلفاً . هذا لم يحدث واضطر المغاربة إلى قرون من الانتظار لاستئناف

---

(١) « انفتحت قلوبهم (البربر) لنداء الإسلام لأنهم رأوا فيه وسيلة للتحرر القومي والاستقلال الإقليمي وفي الوقت نفسه ضمانة للروح والقلب ضد كل عبودية » علال الفاسي : حركات الاستقلال .. المقدمة) .

سيرهم المتوقف : هاهنا الحدث الجوهري وما من شيء يفيد في البحث في مكان آخر عن سبب الظواهر اللاحقة ، برغبة خفية في تبرئة روما دائماً . فاذا ما قبلنا بهذه الحقيقة فاننا نعثر على النهج الذي اعتبر المغاربة به ، في التاريخ إسلامهم كأنه إنجاز وليس كأنه جحود . وهكذا نتخلص من هوس دائم في طرح المسائل عير المجدية والمتعذر حلها على حد سواء .



٢

المغرب الامبراطوري

تشكل الحقبة الممتدة من القرن التاسع إلى الثالث عشر وحدة أحس بها ، بشيء من الغموض تقريباً ، جميع المؤرخين ، قدماء أو محدثين ، بصورة جوهرية لأن إرادة أمبراطورية ظهرت للوجود ولأن المغرب بعد تجارب عديدة اتحد لأول مرة . هذه الوحدة لم تدم ، إلا أنه ليس علينا أن نخلص إلى القول استدلالياً aposteriori بحتمية الفشل . وستبقى مدة قرنين آخرين الهدف الذي يواصل بلوغه أمراء عديدون . قد نستطيع كذلك تماماً تسمية هذه الحقبة بحقبة المغرب المسيطر في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي ، على الأقل طيلة قرن ونصف . ومع ذلك ، من وجهة النظر التي نرى منها ، فان حقبة انبثاق شخصية مغربية ، على النحو الذي يكشف لنا عنها عمل المؤرخين ، إن الأمر الجوهري المطلوب استرعاء الانتباه إليه في هذه الحقبة هو أن ذلك التوحيد قد جرى باسم فكرة دينية . ولنذكر بأنه لم يكن هناك بعد في العصر مذهب مستقيم الصحة ، محدد [1] بوضوح ؛ لقد جُرِّبت المذاهب الإسلامية جميعها ، الواحد بعد الآخر ، بعد مذهب الخوارج ، الزيدي والشيعي ، والجهاد المالكي والموحّدي ؛ فلم يتغلب صحة المعتقد نهائياً ، وقد تكونت أخيراً ، إلا في مطلع القرن الثامن . إذن يجري تصور المغرب . في هذا الجزء من تاريخه ، عبر هذه السلسلة المتوالية من حركات الأيديولوجية الدينية ؛ ولزمن ما يختلط مصيره بمصير كل من

---

(١) نقطة جوهرية لم توضح أبداً في نتاج المؤرخين الاسلامي وقد أفضى تجاهلها إلى عدم فهم شامل للحركات السياسية — الدينية فيما قبل القرن الخامس الهجري (أنظر هـ. لاوست H . laoust في كتابه إنقسامات الإسلام ، باريس ، مايو ١٩٦٦) .

الانشقاقات المتعاقبة . هل يجب أن نعمم فنقول ان كل فعل سياسي في المغرب هو من جوهر ديني [1] ؟ سيكون من السذاجة تقليص هذه الحركات إلى بعدها الديني ؛ الأحرى أن نرى فيها هدفاً مزدوجاً ، دينياً وسياسياً ، ووعياً متزامناً من الشعور الانقسامي والمغربي . إن عنصر التوسط يكون هاماً بالتأكيد ، لكننا لا نستطيع تقليص الهدف السياسي المتابع إلى حد الضآلة ، حتّى إذا كان لا يمكن أن يكون بالنسبة لنا إلا مستنبطاً .

غير أن الحوافز في سياسة ما ، الشروط العامة التي تستعمل بها ، حتّى إذا كانت معروفة بدقة ، لا تنبؤنا بشيء عن وسائل النجاح وها هنا المجال الذي تنقصنا فيه معرفة أكيدة . نعي جيداً أن جميع تلك الحركات تتعلق في جزء كبير منها بالطرق التجارية ، الصحراوية منها بصفة أساسية (ومن المهم التذكير أن الاتجار عبر الصحراء لم يكتسب أهمية قاطعة بالنسبة للمغرب إلا ابتداء من القرن التاسع) ، لكن هناك مدى بعيداً بين هذه الفرضيات والبرهان الموضح . ومن دون أن نخدع إلى حد نسيان خط التحديد الحقيقي ، فاننا مضطرون بالتأكيد ، لفترة على الأقل ، إلى أن نميّز المستوى السياسي – الديني ، لأنه هو المستوى ، في الوقت الحالي ، الذي يمكن أن يحظى بدراسة أفضل بالوثائق المهيأة ، علماً بأن هذه الدراسة لن تقدم ، على أحسن وجه ، إلا نصف الحقيقة [2] .

---

(١) إنها وجهة نظر المستعربين بصفة عامة . ومع ذلك فان ابن خلدون الذي يحلو لهم الاستشهاد بـه يقول العكس تماماً في المقدمة ، بأن العقيدة الدينية هي ضرورية للعمل السياسي وإنما كشرط النجـاح أي كوسيلة وليست كغاية .

(٢) بحجة أن التاريخ الاقتصادي وحده هو المفسر ، وهو أمر صحيح لكنه يكاد يكون متعذر التحقيق في الوقت الحالي ، يجري إهمال التاريخ الأيديولوجي الذي يمكن أن يكون مصنوعاً . فليس هناك كتاب واحد في تكوين المالكية في أفريقيا الشمالية . وكتاب ج. دراغ (اسم مستعار) G . srague وهو : Fsquisse d,une histoire religieuse du Maroc , Paris , 1951 لا قيمة له تذكر .

٥ ـ الاسلام وتجارة : القرن التاسع

القرن التاسع هو قرن نشر الإسلام ؛ إن العملية نفسها لم تدرس بالتفصيل ؛ ويبدو من الثابت مع ذلك أن الصلات بين نشر الإسلام والتجارة كانت وثيقة إلى أقصى حد . إن المستعمرات التجارية، المقامة على ملتقى الطرق، هي التي ، في عالم غير متجانس معها ، ستقدم نموذجاً من الحياة العامة والخاصة ـ ولما كانت التجارة هي في الغالب ذات مدى بعيد للعمل فان ما نشاهده [١] هو استثمار حقيقي بالإسلام للمجال المغربي . هذه التجارة لا تأخذ في تحديد محتوى الـ « دول » التي سوف تتكون فحسب ، بل تحدد كذلك العلاقات التي تربط بعضها بالبعض الآخر ؛ حتى مذهب الخوارج ، الايديولوجية المعارضة ، ستأخذ بها من جديد طائفة تجارية . لتلقِ نظرة باديء ذي بدء على الخارطة السياسية في مطلع القرن التاسع ، التي تقدم لنا نموذجية لتنظيمات الدول .

١ ـ إن غرب المغرب هو أقل أجزائه لدينا معرفة ؛ فالمعلومات القليلة الجاهزة هي من زمن متأخر وهو أمر يفسر بسهولة بما أن الشمال المراكشي ، بعد معركة سيبو Sebou قد أفلت تماماً من قبضة الخلافة .

البارغواتا Les Barghwata [٢]

إلى الجنوب من سيبو Sebou، في السهول الأطلسية ، شكلت نواة دولة ؛ دعي

(١) يمكن تكوين فكرة عن هذه العملية بالمقارنة مع ما جرى في أفريقيا السوداء في حقبة أقرب عهداً . أنظر مقاله ذات إيحاء لـ. ن. لفتزيون N . levtzion بعنوان : « Qommerce erislom heg les dagam ba du nord - ghana « , Annales E.S.C.N'U, 1968, p.p 723 - 743

(٢) إن المقارنة التي غالباً ما تتم بين البارغواتا والباكات Baquates من العصور الرومانية هي افتراضية .

مؤسسها صالح بن طارف Tarif ويقع تأسيسها في نحو السنة ٧٤٤ / ١٢٧ . وبالطبع كان النموذج هو تكوين الإسلام نفسه . وأعلن صالح نفسه نبياً فكتب (؟) قرآنه بالبربرية وسنّ الصوم وعدداً من الصلوات وتحريمات لعدد من الأطعمة ... فماذا كان ينبغي ، في هذه الطقوس ، أن يكون منها نصيب التقاليد المحلية وأنصبة الأديان التوحيدية الأخرى وبالتالي نصيب الإسلام ؟ نجهل ذلك . بيد أن هذه الدولة ستعمّر طويلاً ، حتى إلى ما بعد منتصف القرن الحادي عشر وستعرف لدى الأندلسيين (وعلى الأخص من قبل البكري المتوفى ١٠٩٤ / ٤٨٧) ، أي أنها تقيم علاقة في القرن العاشر مع الخليفة الأموي .

لقد نسب ما يتعلق بنبوءة صالح إلى أثر بقايا مسيحية سابقة ؛ لكنه يعزى على الأرجح بكل بساطة إلى الايديولوجية الشيعية ، إذ ما من شيء يقيم الدليل على أن مذهب الخوارج هو وحده في ذلك العصر الذي كان يعمل به في المغرب . والأمر ذو المغزى مع ذلك هو افساد النقوش القرآنية . إن الرغبة في استيعاب البربرية للإسلام هي ظاهرة وهي أمر مسلم به ، طالما يكون متماشياً مع الماضي ، لكن حادث التعديل نفسه ، لا النبذ كليةً ، هو اعتراف بقيمة الإسلام التحضيرية . والمسألة التي تبقى معلقة هي : لماذا هذا الإسلام البربري لم يمتد لا إلى الشمال ولا إلى الجنوب ، حيث لم تكن هناك مع ذلك أية عقبة تحول بينه وبين ذلك ؟

فيما عدا هذه الدولة البارغواتية لا نعرف شيئاً محدداً عن الجنوب المراكشي . إن أصحاب الحوليات من العرب يستخدمون عبارة سوس Sus للإشارة إلى هذه المنطقة باختلافات في المعنى كثيرة التواتر [1] . فالمعلومات القليلة التي نملكها تتعلق بمنطقة الريف . وفي إقليم غومارا Ghomara جنوبي تطوان ثمة نبيّ يدعى حميم Hamim بمساعدة عمته تانجيت Tangit قد أقام إسلاماً بربرياً آخر .

---

(١) أنظر ا. ناصري ، المصدر السابق حـ١ ص ١٣٩ حيث يعمل وهو يستشهد بابن أبي الزرع على المطابقة بين عبارتي سوس Sus ومراكش Maroc بما أنه يتحدث عن سوس قريبة تبدأ مباشرة إلى الشرق من مولويا Maulauya .

على أن السلطتين السياسيتين المستقلتين اللتين نشأتا في ميناءين على البحر الأبيض المتوسط : إحداهما أسسها في ناكور Nakkùr (على مقربة من ملّيلا Mellila) شخص يدعى صالح بن منصور وهو مهاجر عربي قاتل الخوارج ، واعترف به الأمير الأموي في اسبانيا ، الوليد ، ودام حكمه من ٨٠٩ إلى ٩١٧ ؛ الثانية نظمها في سوتا بنو عصام Isam ، أسرة بربرية امتد حكمها حتّى عام ٩٣١ ، ولا تبدو هاتان السلطتان أنهما أفسدتا الرسالة الإسلامية بصورة محسوسة .

ربما وجدت سلطات أخرى أسرع زوالا ؛ ولدى قراءة أصحاب الحوليات يظل الانطباع بأن الظروف الاقتصادية العامة لم تكن ناضجة لتأسيس دولة ذات بنية حقيقة . فالبلاد في جملتها كانت مشجرة ، يسكنها (ربما بقلة) مزارعون حضريون ، قليلو التمدن نسبياً ، اللهم إلا في الأطراف الشمالية . كان الإسلام يباشر فتح البلاد وعبر المدن الّتي كان يؤسسها أو يجددها يهيء الطريق إلى توحيد ؛ فحتّى تزويرات الطوائف الحضرية الّتي ماتزال ضعيفة التأثر بالفعالية التجارية ، لهذا الإسلام ، كانت تعمل في نفس الاتجاه . أما القفزة النوعية فسوف تحدث بقيادة الأدارسة .

الادارسة

من الصعب كتابة تاريخ هذه الأسرة الحاكمة ، بصفة جوهرية لأن مدينة فاس الّتي تعزى إليها سوف تنال أهمية متعاظمة إلى أن تنعم بتفوق سياسي شامل في القرن الرابع عشر ، حيث يحيل المؤرخون الرسميون ، وهم في معظمهم من هذه المدينة ، الوان الفخامة في عاصمة زمنهم ، إلى الماضي . ومن هنا التحريفات ، الّتي يصعب تقييمها بصورة موضوعية . ولسوف يمنهج ابن خلدون الذي كان يعرف المغرب الأوسط أكثر من غرب هذا المغرب ، عمل أولئك المؤرخون الرسميين بتدعيمه بتأثيره العظيم . فالمنهج الأكثر فطنة هو تفضيل رواية المؤرخين الأندلسيين السابقين للقرن الرابع عشر قبل أن تأخذ الأسطورة شكلها .

مثل كثيرين آخرين قبله فرّ أحد ذرية علي ، من الفرع الحسني ، من الطغيان

العباسي وجاء إلى المغرب باحثاً عن ملاذ . فبدا له شمال مراكش هو المكان المطلوب.
وعلى عكس ما نقرأ في رويات الأخبار يعلمنا الأشعري في تاريخه عن الانشقاقات أن ادريس بن عبدالله قد أرسل إلى المغرب من قبل أخيه محمد بن عبدالله ، الذي ثار على المنصور (توفي ٧٧٥) ، قبل معركة الفخ Fakh (٧٨٦ / ١٦٩) بزمن طويل ، وهي المعركة التي يؤكد على وجه العموم بأنها كانت سبب رحيل ادريس . كذلك نقرأ في هذا التاريخ أن أخا آخر هو ابراهيم الذي ثار كذلك في البصرة على المنصور ، محاطة بجماعة من المعتزلة والزيدية [١] . ويمكن التفكير في أن المذهب الشيعي كان يحاول هو الآخر في نهاية القرن الثامن تنظيم دعايته في المغرب بالتنافس مع المذهب الخارجي . لكن المذهب الشيعي ، في ذلك الوقت ، كان قد صار منقسماً إلى عدة اتجاهات ، والأشعري يتحدث عن الزيدية ، أي عن أكثر المدارس اعتدالاً ، الوثيقة الارتباط بالمعتزلة (بفضل الصلات بين واصل بن عطاء وزيد بن علي) والتي كثير من قضاياها الاعتقادية امتزجت فيما بعد في مذهب الاعتقاد الصحيح . وفي نصوص المؤرخين القديمة يشار بالتحديد إلى أن ادريس كان معتزلياً وشيعياً ؛ وفيما بعد يقال بأنه صحيح المعتقد لأن مدلول التشيع في أثناء ذلك قد تغيّر [٢] . ويمكن الظن بأن ادريس كان ذا ميل للزيدية ثابتاً تقريباً . وأنه قبل أن يلحق بغرب المغرب ، كان المذهب قد أوفد إليه رسلاً على غرار ما فعل في اليمن وفي أمكنة أخرى . وهذه النقطة المسلم بها تتيح فهماً أفضل لأوجه سياسة الأدارسة التي بقيت غامضة حتى الآن .

وبعد أن تمهد الوضع وصل ادريس عام ٧٨٨ / ١٧٢ في امارة روح بن حاتم واستقر في أوليلي Oulili (فولوبيليس Volubilis) . وبدت المنطقة ، المتمدنة نسبياً بالمقارنة مع سائر البلاد ، قد تحولت إلى الإسلام ، لكن الجوار لم يكن كذلك وهو أمر يطرح للتساؤل أهمية جولات عقبة إن لم يكن وجودها ، ولا سيما الطابع الخوارجي لثورة عام ٧٤٠ . فمن المرجح ان ميسرة كان حقيقة ، ولكن ماذا بشأن

---

(١) الأشعري : مقالات الإسلاميين ، القاهرة ١٩٥٠ ـ ١ ص ١٤٥ .
(٢) هذه النقطة هي التي لم يفهمها هـ. تيرس H. terrassc ؛ ومن هنا الخاصية الجدلية الواردة في غير محلها في فصله عن الأدارسة . (تاريخ مراكش ـ ١ ص. ص ، ١٠٧ ـ ١٩٩) .

جيوشه ؟ ... إذ من الصعب الافتراض بأن ادريساً قد أخفى عواطفه في وسط من الخوارج . وإذا افترضنا على العكس أن شمال مراكش كان بالكاد متأثراً بالإسلام لأدركنا بأنه أغرى الرسل الزيديين المعروفين بالدعوة إلى الدين . أن وجود رسول (ولعل المعني هو رشيد) على درجة من المعقولية إلى حد أننا نتبين منذ بدايات الدولة الادريسية ، بعد نظر سياسي عظيم . ذلك أن لقب الإمام النموذجي الذي منحه ادريس لنفسه ، وكذلك أمر اغتياله الذي يعزى على وجه العموم إلى زيدي معروف هو سليمان بن جرير ، يمكن اعتبارهما كمؤشرين متممين .

يبدو أنه كان يساور ادريس هاجسان : تأسيس عاصمة والتبشير بالدعوة ؛ وقد وضع ابنه وخليفته ادريس الثاني وهو من أم بربرية البرنامج المرسوم موضع التنفيذ . فتم إقامة مدينة فاس التي كابت أبقى نتيجة في سياسة الأسرة ، على مراحل عديدة قبل عام ٨٠٨ وهو التاريخ المسلم به على وجه العموم . فالمدينة التي كانت دائماً مزدوجة الاسم (فاس والعالية) نمت بسرعة واستقبلت تدعيم موجات عديدة من المهاجرين العرب ، بداية من قرطبة عام ٨١٤ إثر التمرد المدعو بالربض Rabad ضد الحكم الأول وفيما بعد من القيروان . وتفسّر الهجرات سياسياً بمعارضة العلويين للأمويين وللعباسيين في آن واحد . وتأكد ضرب عملة ادريسية منذ عام ٨٠١ . وما أن غدت هذه القاعدة السياسية ثابتة حتى أخذ يعد ادريس الأول ومن بعده ادريس الثاني غزوات في البداية نحو تلمسان (وقد هوجمت لأول مرة في عام ٧٩٠) ، ثم نحو الجنوب حيث تم الاستيلاء على شيلاّ Chella على حدود البارغواتا وأخيراً نحو السوس Sus حيث تم احتلال مدينة (؟) نفيس Nfis في عام ٨١٢ . وقد كان لتلك المواقع الثلاث أهمية سياسية واقتصادية بخاصة : كانت تسيطر على الطرق التجارية المتجهة من الصحراء إلى الشمال وإلى الشرق . وهنا نهتدي إلى مسألة السهولة ، المذهلة لأول نظرة ، التي دعت البارغواتا إلى إسلاس أمرهم في تطويقهم من قبل الأسرة الحاكمة الجديدة . صحيح إذن ، على نحو ما أكده فيما بعد مؤرخو وقائع الحقبة المارينية ، أن الأدارسة قد ضموا إلى الإسلام الشطر الأعظم من البلاد ؛ وعلى كل حال انهم هم الذين وضعوا السكان البربر على احتكاك بالتبشير الإسلامي

في المناطق التي لم يفعل جند عقبة على الأرجح إلا أنهم اجتازوها عابرين :

كانت دولة الأدارسة ابتدائية إلى أقصى حد ، تقتصر على جيش مجند محلياً ، يُجزى من أسلاب الحرب ومن الفرائض على غير المسلمين . وكان ادريس الأول يخضع تمام الخضوع لأولئك الذين تبنوه (الأوربة les Auriba) وعندما أدخل ادريس الثاني في خدمته خمسمائة عربي مهاجرين من الأندلس ومن افريقية وألف لنفسه حرساً شخصياً ، أدى هذا التصرف إلى أزمة سياسية عام ٨٠٨ سرعان ما وصفت حداً لتلك النيّة في مصادرة السلطة [١] . وعليه يعطى ادريس الثاني الانطباع بأنه تصرف كرئيس ديني (إمام) أكثر منه كزعيم سياسي حقيقي . وبعد موته (٨٢٨ / ٢١٣) قسّم محمد ابنه الأكبر الأقاليم المحتلة بين إخوته الستة ولم يحتفظ لنفسه إلا بلقب الإمام وادارة العاصمة . وهو قرار يصعب تفسيره : هل كان عادة بربرية كما يظن الكتاب العرب ؟ (نسبوا الاقتراح إلى الجدة كنزة Kanza) أم هل كان ذلك لأسباب جغرافية ، إذ لم تكن المناطق متشابهة ؟ ولعل السبب ببساطة أنه كان ينظر للأدارسة قبل كل شيء على أنهم رؤساء دينيون وان واجبهم الأساسي كان القيام بالدعوة ، الأمر الذي يتفق من جهة أخرى مع تعليم الزيدية . أما وقد تم اتخاذ القرار فقد أدى بالطبع إلى صراعات مستمرة بين الذرية . ومع أن وقائع العلمليات العسكرية غنية إلا أنها كثيراً ما تبرز فجوات ، إذ أن مدينة فاس وحدها أثارت اهتمام المؤرخين الذين لا يذكرون أبناء ادريس إلا عندما يستحوذون على العاصمة . وبالمقابل كانت النتيجة واضحة : اعتناق المناطق الواقعة تحت السيطرة للإسلام بسرعة ؛ أما التعريب فأمره أقل ثبوتاً بكثير إذ أننا عندما نتعرف في القرن الحادي عشر على أفراد من فروع ادريس البعيدة ، وقد صاروا شيعة على نحو واضح ، في السباق إلى السلطة في الأندلس بعد سقوط الخلافة في قرطبة ، فإنهم سيكونون قد تبربروا [٢] . فحتى قدوم الشيعة في مطلع القرن العاشر ، فإن ورثة ادريس الثاني

---

(١) إلى أي حد لا يكون هذا الجزء من حكاية رواة الوقائع مجرد إسقاط للعلاقات بين الأنصار والرسول ؟ فاننا هنا ندخل في عصر التكرار .

(٢) راجع عبد الله عنان : الدولة العامرية ، القاهرة ١٩٥٨ ص ١٦٠ .

العديدين والمنتشرين على نطاق واسع سوف يواصلون المهمة الأساسية لأسرتهم ونعني بها اعتناق غرب المغرب للإسلام ، وعلى نحو مستقل إنما أقل تخصصية من المهمة التي حاولها البارغواتا [1] .

امارات الخوارج

هناك محاولات ثلاث لتأسيس دولة حدثت فيما كان مجالا للخوارج من Moulouya مولويا إلى الزاب . بادىء ذي بدء جرت محاولة أبو قرّة Abou , Qurra في تلمسان التي أدت خاصة دور مركز للتجمع بالنسبة لكافة الخوارج الذين كانوا يقاتلون الجيوش العربية القادمة من افريقية . وكان أبو قرة ، بصفة أساسية ، قائداً عسكرياً ، ذا دور بالغ الأهمية في عهد الولاة الثلاثة التالين : عبد الرحمن بن حبيب ومحمد ابن الأشعث وعمر بن حفص . واستطاع أن يوحد في نفس العمل العسكري سكان المغرب الأوسط جميعهم حتى منطقة طبنه Tobna . ومنذ أن توقفت جيوش الخلفاء عن تجاوز الزاب يبدو أنه لم يعد يثير اهتمام رواة الأخبار . وغالب الظن أن محاولته أخفقت بسبب قرب دولة — مدينة أخرى هي تاهرت وأسقط سلطتها على كل حال الماغراوا les Maghrawa من جماعة محمد بن خضير الذين استولوا على تلمسان في عام ٧٨٦ / ١٧٠ قبل الفتح الإدريسي .

وبعيداً إلى الجنوب ، شرق الأطلس أسس أورمم جماعة من البربر الصفّريين ، وعلى رأسهم عيسى بن يزيد الأسود (أحد موالي العرب كما يقال) مدينة سيجيلماسا في عام ٧٥٧ / ١٤٠ . والمقصود وفق كل احتمال أحد الخوارج الأغراب لكن الرئيس الحقيقي هو من يدعى أبو القاسم بن سمكو ، الذي سوف يؤسس السلالة المدرارية باسم الأمير الرابع مدرارين اليسع al - yase ولسوف تحكم الأسرة مدة تزيد على قرنين من الزمان ، وقد قص ابن خلدون أخبارها في خطوطها العريضة . لنلفت النظر

---

(١) هذه هي كيفية تصور المؤرخ الاستعماري للحكم التاريخي : « إن الأدارسة بخلقهم وبتطويرهم المركز العظيم لنشر الإسلام وحضارته ذات النمط الشرقي ولغته ، قد أناخوا بثقل كبير على تاريخ مراكش» (هـ. تيراس ، المصدر السابق ١ ص ١٣٤) .

فحسب إلى بعض الوقائع : صراع مستمر بين اتجاهات الخوارج ولا سيما الصفرية والعباذية ؛ وإذ كانت العبادية معتدلة ، ومنتصرة فقد مهدت الطريق إلى اعتناق الرأي المستقيم في منتصف القرن الرابع الهجري (نهاية العاشر) في عهد الأمير محمد ابن الفتح بن ميمون ؛ وفي نفس الوقت تحدثنا الحولية عن العملة الذهبية ، رائعة المنظر التي ضربت فيها . ولعل التلازم بين الحدثين لم يكن راجعاً للصدفة : وعلى هذا النحو كان اختيار الموقع وكذلك التطور إلى اخلاقية أقل تقشفية كلما كانت الطائفة تغتني . وعلى ما يقال لنا كان أبو منصور اليسع Abu Mansur I - yasur (المتوفى عام ٨٢٣ / ٢٠٨) ، قبل ذلك التاريخ بزمن طويل يحبي رسم الـ (١/٥) على استغلال مناجم درا Dra [١] .

كانت السلطة الثالثة وهي الأهم والمعروفة أكثر هي سلطة تاهارات [٢] التي يُعزى تأسيسها إلى رجل من أصل فارسي هو عبد الرحمن بن رستم الذي يبدو أنه قد نشّيء في القيروان . فعندما أخفقت محاولة بني عقبة في اقتطاع إمارة لهم وسقطت المدينة في أيدي الخوارج من البربر (٧٥٨ / ٧٦١) جاء خارجي آخر ، إلا أنه هذه المرة عباديّ ومن أصل عربي ، من اقليم طرابلس ، فخلّصها من المتطرفين وخلف والياً عليها نيابة عنه ابن رستم . وعندما أعاد جيش الخليفة فتح القيروان في عام ٧٦١ / ١٤٤ فر ابن رستم لاجئاً إلى البربر الذين كان يربطه بهم حلف فأسسوا معاً مدينة تاهارت (على مسافة تسع كيلومترات من مدينة تياريت الحالية) . وبعد خمسة عشر عاماً من اقامته رقّي إلى مقام الخليفة الخوارجي وسيظل هذا اللقب في أسرته حتى عام ٩٠٨ / ٢٩٦ .

ينجم من المعلومات القليلة التي نملكها بأن دولة المدينة قد مثلت المثال السياسي

---

(١) لا يحمل أمراء سيجيلماسا هؤلاء لقب الإمام . فهل هذا نتيجة نسيان رواة الوقائع من السنة او يجب الاعتقاد أن الامام الوحيد كان امير تاهارت م لنلاحظ بأن اليسع قد زوج إبنه بابنة ابن رستم .

(٢) لدينا نصان عن أئمة تاهارت . أخبار أبو زكريا (الترجمة الثانية ، ر. لوثورنو ور. إدريس في R. A., 1960 - 5) ووقائع ابن صغر (طبع وترجمة موتيلينسكي Motyliaski ، ١٩٠٨) . مختصرة في ش. بكري : حركة الخوارج البربرية ... في حوليات I. E, O.(الجزائر) ١٥ ، ١٩٥٧، ٥٥ — ١٠٩ .

ـ الديني للخوارج المعتدلين (عُقد الصلح مع القيروان عام ٧٨٧ / ١٧١ . وقد سكنها أناس غير خوارج ، بل ومن المحتمل أن يكون بينهم مسيحيون ، كانوا سيشاركون إلى حد ما في الحياة السياسية . ومن حيث المبدأ كان الإمام بالانتخاب وينبغي أن تتوفر فيه الشروط الشرعية من العلم والشجاعة والتقوى . سلطته بالغة المدى ، لكنها كانت مراقبة من قبل الطائفة بدقة . كانت الحياة السياسية تتمفصل حول المسائل اللاهوتية وكثيراً ما كانت المناقشات تنتهي إلى انشقاقات (انشقاق النكّارية في عهد الإمام الثاني) والمنازعات بين الأسر (كالصراع الذي كان بين أبي حاتم ويعقوب عام ٨٩١ / ٢٨١) . ولكن فضلاً عن هذه الحياة السياسية ـ الدينية التي يفوتنا جزء كبير منها ، فان ما يستحق أن يذكر هو دور الاتصال الذي أدته هذه المدينة : في بداية الأمر مع الشرق (علماء خوارج يأتون لمشاهدة نتيجة تطبيق عقيدتهم ويجلبون معهم أفكاراً جديدة كآراء المعتزليّ واصل بن عطاء) . وفيما بعد مع الأمويين في اسبانيا (اذ ذهب اثنان من أبناء رستم إلى قرطبة) . والأهم هو ذلك الدور كذلك في لملمة جميع خوارج المغرب من نفوسة في ليبيا إلى سدراتا Sadrata في الصحراء . إلا أن هذا التأثير كان ايديولوجياً صرفاً . ولما لم يكن لدى أئمة تاهارت وكل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأن موقع المدينة قد أتاح لها حياة اقتصادية مزدهرة ؛ فإن وجود تجار أغنياء من الفرس والمسيحيين يشير إلى علاقات تجارية واسعة النطاق مع الشرق من جهة ومع الأندلس من الجهة الأخرى [١] ؛ ولا يبدو أدنى شك كذلك في وجود العلاقات في اللاهوت على المذهب العبادي ، يواجه في الجنوب (هي سادراتا) قبل أن ينتقلوا إلى المزاب حيث بقيت هذه الفرقـة حتى أيامنا هذه .

هكذا نجد في النصف الغربي من المغرب دول ـ مدن طوال القرن التاسع ، إلا أن أنظمة هذه بالنسبة للأرياف المجاورة كانت بالغة التغيّر . وقد أعطانا عـالم

---

(١) أنظر : ج. مارسيه المصدر السابق هامش ١١١ . ومع ذلك فان المقصود هو انطباع وليست براهين ملموسة . ت. لويكي T. Lewicki في : دولة تاهرت في أفريقية الشمالية وعلاقاتها مع السودان Cah. d'el - aqic, 8'535 - 315 .(2691)

الجغرافيا الجوّالة اليعقوبي فكرة عن الوضع الحقيقي عندما وصف عدة طوائف لم تخضع لأية سلطة خارجية ولم تدفع بالتالي أية ضريبة . ولم يكن الأمر على هذا المنوال في النصف الشرقي .

٢ — افريقية الاغالبة :

إن معرفتنا بسلالة بني الأغلب (٨٠١ — ٩٠٩ / ١٨٥ — ٢٩٦) أفضل منها بتلك السلالات التي حكمت في المغرب في القرن التاسع ، بصفة أساسية لأنها كانت في طاعة العباسيين ؛ لقد بحث في شؤونها طويلاً جميع المؤرخين العرب المشارقة في حديثهم عن الامبراطورية ، لاسيما أن المقصود أكثر الحقب في حضارة بغداد تألقاً . فالعلاقات كانت ثابتة بين العراق العباسي وافريقية الأغلبية ومن هنا وجود توازن بين مصائر السلالتين الحاكمتين ؛ ففي نفس الفترة تقريباً اختفت إحداهما تحت ضربات الفاطميين الشيعيين وسقطت الأخرى تحت حماية الديلم نصف الشيعيين (٩٤٥) . تقرّر استقلال افريقية الذاتي بالاتفاق مع الخليفة فكان ذلك أول خطوة نحو التقسيم السياسي — الإداري للامبراطورية سرعان ما تبعتها خراسان ثم مصر . وفيما بعد وضعت نظرية تلك الامتيازات بالتفريق بين الوالي الذي كان في الوسع عزله وفي أي وقت ومتى أريد ذلك والأمير المستقل الذي كان حراً في ترتيب من يخلفه كما كان بينهم ذلك . وكان يرمز إلى سيادة الخليفة بالخطبة (في صلاة الجمعة) التي تلقى باسمه وبدفع خراج سنوي (مقداره ٨٠٠,٠٠٠ درهم عن افريقية بحساب ابن الأثير في حين قدرها ابن خلدون بثلاثة عشر مليون درهم ومائة وعشرين سجادة)[١] . ومن المحتمل أن تكون هذه الأتاوة قد تباينت ولكنها لم تلغ قط إذ كان الأمير يحتاج دائماً إلى قوة الخليفة أو إلى نفوذه . ولم تكن البلاد الممنوحة إلى بني الأغلب محددة؛ نظرياً كل المغرب ، ابتداء من سيرينايك Cyrenaique ،

---

(١) يقدم ر. ليفي في المصدر السابق ص ٣٢٠ زخررقم نقلا عن الجهشياري ، الذي كان على الأرجح المصدر المستخدم من قبل ابن خلدون .

ولما كان المقصود هو حكم الرشيد ، اذن في الوقت الذي كان الأغالبة يسعون إلى الاعتراف بهم ، فلا بد من التفكير سريعاً جداً بأن الرقم الحقيقي اقترب من رقم ابن الأثير .

اعترف له به وإذا كان يقوم بفتوحات جديدة فإن الحق فيها يؤول إليه . وكان دوره قتال أعداء مولاه (أمويين وعلويين) ، إلا أن التجربة جعلت صاحب القيروان حكيماً فاكتفى بولاية تغطي ساحتها تقريباً أفريقية قيصر القديمة : في الشرق طرابلس كانت تسيطر على الطريق الذي يربط المنطقة المستقلة بمركز الامبراطورية ؛ وفي الغرب قلاع (غالباً من العصر البيزنطي لكنها محددة) ، في الهدنة Le Hadna والزاب تقوم بالحراسة من جهة الأوراس ، وأخرى في اقليم بون ، تقف في مواجهة القبائل . لم ينظر الأغالبة باتجاه الغرب أكثر مما فصل الفاندال والبيزنطيون قبلهم . وبالطبع أقيمت دولة الأغالبة على غرار دولة بغداد . الأمراء لا يثقون في الجيش المؤلف من مهاجرين عرب ، والذي تعزز في أثناء حروبه ضد الخوارج ؛ فاتخذوا حرساً شخصياً من العبيد السود كما أدخل العباسيون الترك في خدمتهم ؛ وكأسيادهم كذلك لجأوا ، لاغناء الوظيفة العامة ، إلى الموالي أو إلى السكان الأصليين (الأفارقة) الذين بقي كثيرون منهم على مسيحيتهم . ونعثر على نفس موظف بغداد لديهم : وزير وحاجب وصاحب البريد والأخبار وعدد من الكتاب في دواوين مختلفة ، من بيت المال والجند ، والمسكوكات والمراسلات الرسمية ... الخ . وكان القضاء ، وهو مرة أخرى على منوال بغداد يبقى في أيدي المهاجرين العرب . هذا الهيكل الإداري ، الأقل فروقاً بكثير من نموذجه في بغداد ، كان مضافاً إلى مجتمع غالبيته العظمى من البربر . فإن رقم مئة ألف هو ما يغلب ذكره لتقدير عدد المهاجرين العرب [1] الذين كانوا يتمركزون في الجيش وفي المدن ، في القيروان بصفة أساسية . معظمهم لم يكن قادماً من شبه الجزيرة العربية وإنما من سورية ومن العراق أي من المناطق التي شاركت منذ الأبد بدفع قوى في الهجرة إلى المغرب . وكثير من الروم (البيزنطيين) ظلوا ، في هذه الشروط ، في المدن ، وبالأحرى الافاريق (وهم على الأرجح السكان الأصليون الذين يتكلمون لغتين) ؛ كما كان كثيرون من الفرس

---

(١) انظر : و. مارسيه W. Morcois في : « Art. eteanf ...paris ».أن الرقم المطلوب تقريبة من الثمانين الف فاندالي له نفس المعقولية ، فقد كانت الهجرة ال « عربية » مع ذلك متنوعة اكثر كثيرا .

قد قدموا مع مختلف الجيوش العربية . تلك الجماعات المتنوعة كانت تدور حول السلطة السياسية ؛ وهو ما لم يكن الحال بالنسبة لمعظم البربر الداخلين في الإسلام الذين كان ينظر إليهم ، بسبب ميولهم إلى الخوارج والصلات التي يحافظون عليها مع مواطنيهم في الأرياف ، بحذر كبير . ان السكان القرويين ، سواء كانوا لا يزالون مسيحيين في الشمال ، كما تدعو بعض الأمور إلى الظن ، أم خوارج في الوسط وفي الجنوب ، لم تكن تربطهم بالسلطة المركزية علاقة دائمة ، فكل شيء ، في هذه البيئة، البسيطة ومتعددة الفئات في آن واحد، يذكّر ببنية العصر الفاندالي – البيزنطي ؛ حتى ليمكن القول بأنها لا تفعل إلا أنها تتممها وتديمها . إلا أنها مع ذلك ليست فقط الاستمرار الوحيدة مع الماضي .

لقد هيمنت على الحياة السياسية في الدولة الأغلبية سلسلتان من الحوادث كانت احداهما مع ذلك نتيجة الأخرى . في بداية الأمر كان على الأمراء مكافحة عدة عصابات في الجيش ، كان الاهتياج فيها عظيماً إلى حد جرى فيها تحاشي خطر الخوارج والبربر . كان الجند العرب القادمون من الشرق يضيق عليهم الخناق في افريقية الصغيرة ، وكما يحدث في مثل هذه الحالات فإن الصراعات الحزبية تنتهي بعصابات خطيرة غالباً ، لا سيما في عهد الأمراء الأوائل الذين لم يكونوا في أعين زعماء الجيش إلا قادة محظوظين . ففي عام ٨٠٢ / ١٨٦ ثار قريش (حمديس) الكندي إمام تونس ؛ وما كاد يهزم حتى ثار القائد الذي قهره ، عمران بن مجالد ، بدوره واحتل القيروان ؛ لكن أخطر تلك الثورات جميعها كانت هي التي نشبت في عام ٨٢٤ / ٢٠٩ في عهد ثاني أولاد ابراهيم ، زيادة الله الأول ، لأن الأمير كان يريد ارجاع عنصر الجيش إلى الحق المشترك . وهكذا قاد الجيش كله رجل شجاع وذو نفوذ هو منصور بن نصر التنبودهي at - Tunbudh ، فسيطر على افريقية بكاملها وسك النقود . ولم ينقذ الأغلبي سلطانه ، وقد تقهقر إلى الجزء الجنوبي ما بين سوس وطرابلس ، إلا بالاستعانة ببربر جريد الخوارجي . أما وقد عاد السلام فإنه دام تقريباً إلى نهاية عهد الأسرة ، عندما أثارت فظاظات أمير متقلّب المزاج هو ابراهيم الثاني ، عصياناً آخر عاماً في عام ٨٩٣ / ٢٨٠ لكن الجيش

الأسود هو الذي وضع حداً له هذه المرة .

إن التمردات الأولى هي التي دفعت الأغالبة ، جزئياً على الأقل إلى مباشرة فتح صقلية ؛ وقد تحقق الهدف المطلوب ما دام السلام الداخلي توطد على هذا النحو مدة طويلة . كذلك لم يدعهم مثال العباسيين في الشرق والأمويين في الغرب غير مبالين . فالفتح كان قد أعد منذ زمن طويل ؛ ان تمرد الخوارج في القرن الثامن وحده ، وليس تعزيز الدفاعات البيزنطية ، قد أخّره . فمنذ السنوات الأولى لفتح أفريقية جرت غارات عديدة في عهد معاوية وعقبة (٦٦٦ و ٦٦٩) وكذلك في عهد موسى ابن نصير عام ٧٠٥ ؛ إلا أن معركة بحرية كبيرة في عام ٧٣٤ / ١١٦ بدت أنها تفتح الطريق إلى الفتح لكنها لم يتبعها أي عمل بعد تمرد الخوارج . فاقتضى الأمر إذن الانتظار حتى عام ٨٢٧ / ٢١٢ حتى يقوم زيادة الله بتنظيم حملة فغادرت سوس بقيادة رجل دين هو القاضي أسد بن الفرات . ولا بد من الاعتقاد بأن الأسرة كانت بحاجة حقيقة إلى توطيد دعائم شرعيتها باعطاء المشروع طابعاً دينياً جلياً . وجرى الفتح نظامياً (سقطت باليرمو عام ٨٣١ ومسينا عام ٨٤٣) ومن صقلية انتقل الجيش إلى جنوب إيطاليا ومضى حتى روما في عام ٨٤٦ . ذلك هو العصر الذي كان فيه البحر الأبيض المتوسط تحت سيطرة العرب [١] بأكمله . وعلى الرغم من ضعف الامبراطورين : امبراطور الشرق وامبراطور الغرب صمدت عدة أماكن ولم ينته الفتح إلا في الفترة التي كانت فيها الأسرة الأغلبية على وشك الزوال. (تم الاستيلاء على تاؤرمينا Toermina في عام ٩٠٢ /٢٩٠ [٢] .

ان المجتمع الافريقيوي ، وخاصة القيرواني ، الذي في وسعنا العثور على بعض ملامحه بفضل المؤلفات في التراجم وفي علم المقدسات والقديسين وذات المغزى الاقتصادي [٣] هو المجتمع الأول من نوعه في المغرب وسوف يفيد كنموذج

(١) تجديد المصلحة بالنسبة لهذه الحقبة في فجر القومية التونسية والمغربية بصورة عامة .
(٢) ثمة نص هام في تنظيم الجزيرة ولاسيما في التشريع المالي والعقاري كان قد نشره هـ. هـ. عبد الوهاب وف. دشراوي في : Etudes d'orieatalisme qidius à Levi - Provençal باريس ١٩٦٢ حـ٢ ص. ص ٤٠٥ — ٤٢٧ .
(٣) مثل كتيب يحي بن عمر (توفي ٢٩٩/٩٠٢) : أحكام السوق ، درسه هـ. هـ. عبد الوهاب ؛ =

للعصور اللاحقة . فهو مجتمع تجاري للغاية ، شديد الاهتمام في سياسته وحقه بل وفي آدابه بالتجارة وبالأسعار وبالموازين والمكاييل . كان عيار العملة الجيد الشاغل الثابت للحكـــام والفقهاء : فالدينار الذهبي (٤,٢٠ غرام) لم ينقص إلا في أواخر عهد الأسرة حيث نفّذ ابراهيم الثاني إصلاحاً نقدياً للعمل على ازالة قطع النقد ذات العيار السيء . وكانت القيروان بصفة أساسية ملتقى الطرق والمواصلات ومستودعاً للحبوب والزيوت في الساحل وللعبيد من السودان الذين يأخذون خاصة طريقهم إلى الشرق (الاسكندرية) . وقد أفضى هذا النمو التجاري إلى التوسيع والتجميل الحضريين (الأقنية الشهيرة التي ترقى إلى عهد الأمير السادس أبو ابراهيم أحمد) . ولسوف تعطي هذه الحياة المتمحورة حول التجارة ، على الصعيد الثقافي ، النمطين المعروفين جداً بين رجال القانون (الفقيه) والتقي (العابد) ذو المسحة التصوفية ، المعني كثيراً بالأحاديث وأحياناً بنتاج المؤرخين ، وليس ثمة أفضل من الثقافة في القيروان من أيام الأغالبة يشير إلى تفاعل بتأثير خارجي (العراق العباسي) وخاصية محلية تعزى إلى مستوى النمو الاجتماعي — الاقتصادي ففي نهاية القرن الثالث الهجري (التاسع مسيحي) تكون في بغداد عنصر بالغ الأهمية في الايديولوجية الإسلامية الصحيحة في صراع مستميت ضد المعتزلة . وصدى هذا التطور المذهبي نلقاه في افريقية لدى كتاب التراجم [1] الذين يحدثوننا عن علماء قدموا من الشرق يبحثون عن الثروة في المغرب وعن مقارنة ذهبوا إلى الشرق للقاء مشاهير الأسماء في العلوم الإسلامية . وقد وجدت نظرية المعتزلة في اللاهوت مشايعين ، ويبدو ان زيادة الله الأول انتمى إليها اقتداءً بسيده المأمون . لكن علوم الفقه هي التي أيقظت المواهب الحقيقية . كان المذهبان الحنفي والمالكي ممثلين . في البداية كانت الحنفية هي المتغلّبة، بتأثير بغداد لا شك ، لكن المالكية هي التي في نهاية المطاف تفوقت عليها . وقد تكشف هذا التطور عن مشكلة عظيمة التعقيد ما زالت لم تدرس بعد بتعمق . فلا

= راجع كذلك ورقات المؤلف نفسه حـ١ ص ١٢٧ . ونصاً في Riei (مدريد) حـ ٤ ، ١ — ٢ (١٩٥٦) ، ١٠٣ — ١٤٣ .

(١) ابو العرب التميمي : طبقات علماء أفريقيا ، ط بنشنيب Benchèneb ، ١٩١٥ ؛ كذلك المالكي : رياض النفوس ، ط. هـ. مؤنس ، القاهرة ١٩٦٠ .

شك بأن هاجس الاستقلال الذاتي الثقافي ، والرغبة في تأسيس تقليد ، هما اللذان لعبا دوراً ، لكن لعل خاصية المجتمع الافريقيوي ، المتأخر كثيراً في النمو هو أفضل مفسر لتراجع الحنفية الناشئة في وسط ، من الجليّ أنه أكثر تنوعاً . وعلى كل حال ستكون المحصلة بالغة الأهمية إذ ستوحد القيروان ايديولوجياً المجتمع المغربي بأكمله ولا سيما الحضري . وكان القاضي أسد بن الفرات (٧٥٩ – ٨٢٩ / ١٤٢ – ٢١٤) واضح الميل إلى الحنفية . وقد أعطى تلميذه سحنون (عبد السلام) بن سعيد (٧٧٦ – ٨٥٤ // ١٦٠ – ٢٤٠) في مدوَّنته الترجمة اللاتينية للمالكية في الشمال – الافريقي ومعظم الـ « علماء » الذين نحفظ ذكرهم لم يُعنوا بالفنون الأخرى المزدهرة في العراق ؛ الأمر الذي يدل رغم كل شيء على تعريب متقدم بعض الشيء . وإلى جانب الفقيه نجد التقي ، حزيناً ودائم الاستعداد لذرف الدموع على تعاسة البشر على غرار حسن البصري . كان قدوتهم النموذجي بوهلول بن رشيد Buhlul (المتوفى ٧٩٩ / ١٨٣) الذي كان يستخف بالمال ورفض وظيفة قاضي القضاة . هؤلاء الثقاة كانوا يمثلون باستقلالهم ونفوذهم قوة سياسية . فبانتقادهم للأمراء وخاصة في ميداني الضرائب والتجارة ، يصبحون موضوعياً الناطقين باسم سكان المدن وتكاد وظيفتهم أن تكون قد تحولت إلى نوع من المؤسسة ؛ وبالمناسبة نفسها يواصلون ويعمقون حركة اعتناق الإسلام .

وثمة معايشة شبيهة بين التأثير الخارجي والتقليد المحلي ، تلاحظ في النتاج الفني لعصر الأغالبة. فقد ميّز ج. مارسيه . G. Marçais بعناية وهويدرس الجوامع وقصور الأمراء والمباني العسكرية ، مختلف المكوّنات لفن رائع حفظت لنا آثاره [1] جوامع قيروان وسوسه وقصر رقادة Raqqada (أو ما بقي منه) وقلاع بيليزما Belezma وباغاي Baghai ، والرُبُط في سوسه ومونـاستير Monastir . فإن القيروان مدينة المغرب الإسلامي في بداياته المسلمة للغاية تصبح فيما بعد نموذجاً للمركز التجاري

---

(١) أنظر خاتمته في : البربر والشرق : المذكـور سابقاً ص. ص ١٠٠ – ١٠١ و أ. ليزين A. LEZINE في كتابه : فن العمارة في أفريقية . تنقيبات في آثار الأغالبة ، باريس Klincksiek ١٩٦٨ .

والعاصمة الثقافية والهندسة المعمارية المدينية ، وإذا ما قرأنا الأوصاف التي وصفت لها لاستطعنا أن نكوّن فكرة سابقة عما ستصير عليه فاس وتلمسان أو بوجي [1] Bougie .

— ٢ —

كثيراً ما جرى الحديث عن أزمة اقتصادية طويلة كانت قد عاثت فساداً في المغرب من القرنين الثالث إلى الثامن . واذ بدأت من قبل في عهد الرومان مع تكوين الأملاك الكبرى وندرة التبادلات وثورات البربر المتواصلة ، كانت ستستمر في عهد الفاندال الذين بهدمهم لأسوار المدن كانوا سيتركونها بلا دفاع ضد الـ « مور » وفي عهد البيزنطيين الذين لم يكن لديهم الوقت لترميمها . وفي هذه الظروف لم يكن الفتح العربي وحروب الخوارج لتستطيع إلا أن تزيد الوضع سوءاً . والمقصود هنا ، بالطبع ، انطباعات مستنبطة من الحوادث السياسية وليست نتائج مستمدة من الوثائق الاقتصادية التي ، هي لا وجود لها . ويبدو جيداً ، من خلال هذا الشكل ، ان الوصف المقدم مبالغ فيه إلى حد بعيد : فالعصر الفاندالي كان أقل سلبية كثيراً مما قيل وخاصة بأن التحققات لا تصلح إلا من أجل أفريقيا الرومانية ، أي للشمال الشرقي أساساً ؛ وفي غيرها ، فان تأخر اقتصاد نقدي لا يعني بالضرورة سقوطاً في الانتاج وبؤساً ؛ بل لكان يسوّل لنا أن نستخلص من ذلك النتيجة العكسية . وعلى أية حال فإن المؤرخين الاستعماريين أنفسهم يوافقون على أن القرن التاسع كان عصر عودة الازدهار الذي لم يتح للدول ولدول المدن المحافظة على بنيتها فحسب وإنما تكديس ثروات كذلك سهلت ، فيما بعد ، لسلالات أكثر طموحاً ، مواصلة سياستها في التوسع .

للحصول على فكرة عن هذا الوضع الاقتصادي ، خارج مسلسلات المسكوكات

---

(١) هـ. هـ. عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بأفريقيا ، مجلدان ، تونس ١٩٦٥ جمع فيه عدداً كبيراً من دراساته عن أفريقية الأغلبية وبخاصة عن القيروان وما جاورها ، سوس والحياة الاقتصادية والحياة الثقافية ، الخ ..

النادرة رغم كل شيء وفي غياب الوثائق الأكثر وضوحاً ، نستطيع الاستعانة بالجغرافيين العرب . إلا أن شهاداتهم يجب أن تفسّر اذ أنهم في غالبيتهم موظفون أو مسافرون مهتمون أساساً بالمدن وخطوط السير ، ولكن يمكننا أن نستخلص من ملاحظاتهم بيانات من النوع الاقتصادي . وبالنسبة للحقبة ، موضوع البحث ، يمكن الاستفادة من ابن جرداذبه Khurdadhbah (المتوفى ٨٨٥) ومن اليعقوبي (المتوفى ٨٩١) وابن حوقل (المتوفى ٩٧٧) . فالثاني منهم كان قد استخدمه ج. مارسيه Marçais في رسم لوحة للمغرب الشرقي والأوسط واستخدم الثالث ا. ليفي بروفنسال من أجل شمال مراكش (من حيث هو منطقة تأثير أندلسي من جهة أخرى [1] . وأولئك المؤلفون كانوا من الشيعة أي غير مؤيدين ، قبلياً ، للأغالبة وللخوارج ؛ فالآراء الايجابية التي كانوا يساقون إلى ابدائها في السياسة التجارية أو الاقتصادية لهؤلاء أو أولئك لا يمكنها أن تكون مبالغاً فيها بالنتيجة .

لقد تأثر اليعقوبي وهو يدخل إلى افريقية بمنظر البلاد المخضوضر ؛ فوصف البساتين الممتدة على ساحل البحر من قامودا Qamuda إلى سيدي بوزيد على مدى مئة وخمسين كيلومتراً ، وبساتين الزيتون في السهل الساحلي ، ومزارع الكرمة في رأس بون cap Bon المعروفة بنبيذها وبساتين قفصا Gafsa وحقول النخيل في الجريد. وفي سهل القيروان وبخاصة حول بيجا Béjá فإن انتاج النباتات الموسمية (حنطة وشعير ... الخ) هو الذي أثر فيه . واهتم المؤلف كذلك بالمناجم فذكر مجّانة Majjanat المعادن (على بعد أربعين كيلومتراً في شمال الشمال ــ الشرقي من تيبيسه Tebessa) حيث يستخرج الفضة والانتيمون (الكحل) والحديد والرصاص . هذه المعادن كانت تستخدم في الترسانات البحرية وخاصة في سوسه . وفي المدن كانت تجتذبه بالطبع الفعاليات الحرفية : بصفة أساسية صناعة السجاد والخزفيات والفخاريات

---

(1) راجع م. حاج صدوق : تعريف بمغرب القرن التاسع ، طبع وترجمة نصوص ابن خلدون وابن الفقيه وابن رسته ، الجزائر ١٩٤٩ .

والزجاجيات ؛ كذلك كانت مشاغل تيراز لنسيج الأقمشة الفاخرة ، منشطة جداً . الطرق مرتادة ومعتنى بها ومتجهة جميعها إلى القيروان . وبالدخول إلى نوميديا القديمة يتغير المنظر ؛ يحس القادم بوضوح ان البلاد ، وإن كانت ذات احراج ، إلا أنها أقل تمدناً عندئذ ؛ والمقصود القرى أكثر من المدن ، التي يعسر جداً تحديد مواضعها حالياً ولم تكن ترعى علاقات متصلة بحاضرة . فإن الجماعات التي يحدثنا عنها هي بنوبرذل Banu Barzal كتامه ونفوسه ، وهم مزارعون وأهل نَعَم ، كأنهم كانوا مستقلين لا يدفعون ضرائب لأحد . بيد أن الوضع يختلف عندما يقترب من تاهارت التي يصف تنظيمها السياسي – الديني وصلاتها التجارية بالسكان المجاورين . ومن هناك ينطلق نحو سيجيلماسا بطريق يقع تحت سيطرة زناته . وهو في هذا الاقليم الجنوبي يتأثر بمساحات النخيل وبالثروة المعدنية. فحول تامادلت Tamaddalt ، على سفح الأطلس الشرقي يؤكد بأن المرء يجد الذهب والفضة بسهولة وبوفرة كبيرة كما لو أنه كان يقصد الحصول على الاعشاب. وإلى الجنوب من سيجيلماسا وعلى مدى خمسين مرحلة كان الطريق حتى غوست Ghost تحت سيطرة قبائل صنهاجة الملثمين وفي الشمال الغربي وعلى ساحل المحيط الاطلنطي يقوم ميناء ماسا Masa الذي كان في نفس الوقت رباطاً حيث ترسو السفن التي تحمل قمحاً كتلك التي كانت « من الأبلّة (في العراق) تذهب إلى الصين » . ويبدو أن اليعقوبي لم يرتحل إلى مراكش ؛ وما قاله عن الأدارسة يمكن أن يكون سمعه في تلمسان ؛ ويمكننا اكمال هذا النقص بالاستعانة بابن حوقل وان كان يأتي بعده بقرن ونصف من الزمان إذ من الصعب أن نتخيل بأن الوضع تغير أساساً في ردح قصير إلى هذا الحد من الوقت .

يمكننا أن نميز تبعاً لوصف ابن حوقل ، اربع مناطق إلى الغرب من مولويا Moulouya : ساحل البحر الأبيض المتوسط ، كثيف الاحراج ، منتجاً لجميع أنواع الاشجار المثمرة بل ولقصب السكر حول سوتا ؛ ومنطقة سيبو حول فاس وميناثها بصرة Basra حيث يزرع القمح خاصة والشعير وحتى القطن وحيث يجد المرء ابتداءً من سفرو Sefrou اشجاراً مثمرة وكروم العنب ؛ والسوس Sus الأقصى وهي منطقة من القرى الصغيرة المحاطة بالبساتين وبيارات البرتقال ومساحات واسعة من شجر

الجوز وكذلك من قصب السكر ، وعلى حد قوله هي الجزء الأغنى في المغرب الأقصى ؛ وأخير سهول الاطلنطي التي لا يصفها ، لأنها كانت بلاد الملاحدة ، لكنه يؤكد بأنها تنتج القمح لأن البارغواتا يؤمون ساله Salé وسيجيلماسا [1] وسوس Sus ليبيعوا المنتجات الزراعية والماشية . كذلك يذكر استغلالات منجمية عديدة : الأمينت في منطقة درا Dra ، والأثمد (الكحل) في منطقة مولويا ، الفضة في تارودانت Taroudant وتامادالت والذهب في تازا Taza وتارودانت وسيجيلماسا ، والنحاس في أغلي Igli في الأطلس . ولا يبدو ، بحسب وصف ابن حوقل أنه يمكن الكلام عن حرفية مدينية في ذلك العصر ، فالمقصود اذن بلاد زراعية تصدر بخاصة أنواع الحبوب والأصواف والجلود .

ان الانطباع العام الذي نستخلصه من الأدب الجغرافي هو ذلك الانطباع الذي تتركه مقاطعة حيث تكون فيها غراسة الأشجار وبدرجة أقل الزراعة ، نامية ، وحيث تكون المناجم وخاصة في المناطق الجبلية ، في تمام النشاط وحيث تكون الصناعات الدقيقة بعامل التأثير الشرقي ، قد بدأت تتأصل (وبالنسبة إلى بعض المناطق تعود إلى ما كانت عليه من الاصالة) ، تستعمل فنوناً واضحة التحسن . هذه المنتجات تمد تجارة متصلة داخلية وخارجية في آن واحد . تجارة بين المناطق تصل بين مزارعي الأشجار ومربي الماشية والمزارعين في مراكز نشطة مثل ساليه Salé واغمات Aghmat وتاهارت Tahart والقيروان ؛ وتجارة خارجية مع اسبانيا والشرق الإسلامي ، في آن واحد ، بطريق البر من سيجيلماسا إلى طرابلس مروراً بتاهارت والقيروان وبطريق البحر ، انطلاقاً من سلسلة كاملة من الموانىء تمضي من ماسا Masa في الجنوب الغربي إلى سوسه مروراً ببصرة وسوته وتينيس Tenes وبون . والتجارة الأكثر ربحاً ، ان لم تكن الأهم ، من حيث الكم ، كانت تجارة الصحراء التي يقع مركز الشغل في سيجيلماسا التي استفادت من انحطاط الطريق الشرقي الذي ينطلق مباشرة إلى مصر أو

(١) يسوق ابن حوقل سبب ازدهار سيجيلماسا . فإن الطريق المباشر من مملكة غانا إلى مصر كان قد أهمل بسبب العواصف الرملية وقطاع الطرق . فرأت المدينة عندئذ عدداً من التجار يفدون إليها من أماكن قاصية مثل الكوفة والبصرة .

يتشعب إلى واحة غدامس . ومع ذلك فان هذه الصورة معروفة جيداً ؛ الا ان الأمر الأساسي فيها هو تحديد تاريخها وهو الأمر الصعب بالتأكيد إذ أن الجغرافيين لا يساعدوننا فيه ؛ على أنه يمكن حصر حدود الشك ؛ فليس من الممكن ارجاعها إلى العصر الروماني ولا حتّى إلى العصر الفاندالي — البيزنطي اذ ان الصورة التي لدينا عن المغرب قبل القرن السادس تختلف اختلافاً واضحاً : لو ان المناجم استغلت لكننا عرفنا ذلك بالضرورة . ونرى قزال st. Gsele مضطراً إلى الموافقة على ذلك فقد كتب يقول : «سأكون مهيئاً للاعتقاد بأن أنشط عصر في صناعة المناجم في بلاد البربر كان العصر الوسيط وليس القديم» . (Hesperis. Vlll, 192 8 P. 16) . ولم تكن الصلات التجارية ، على أي وجه ، واسعة إلى هذا الحد حتّى اذا كانت في وسعها من حيث الكم أن تكون أهم في الجزء الشمالي — الشرقي . وليس من الممكن كذلك أن نجعل من هذه الصورة التعبير عن حقيقة واقعة صحيحة حتّى القرن الخامس عشر ، إذ لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأنه قد حدث تحول في الكثافة بل وتغير في خطوط سير هذه التجارة بخاصة ، في غضون القرون التالية . كما لا نستطيع اعتبار هذا النمو الاقتصادي والتجاري بفضل الفاتحين العرب الذين كانت لهم مشاغلهم الأخرى ولا بد ان نستخلص من ذلك بأن نسبته تعود إلى جماعات البربر المنظمة في امارات المغرب الأوسط . فان حروب الفتح العربي لم يكن لها من نتيجة أخرى غير وضع تلك الجماعات نحو الجنوب فكانت محصلة ذلك تكامل الصحراء الاقتصادي مع المغرب الشمالي . ذلك ان الحادث الجوهري للقرن التاسع هو ما يكمن هنا على الأرجح .

٣

عن هذا القرن الهام إلى هذا الحد بالنسبة للمغرب ماذا يقـول المؤرخون الاستعماريون ؟ بعضهم ، اذ يسيء تفسير رواة الأخبار للعرب يعزل ثلاث دول : الأغلبية ، الرستمية (تاهارت) ، الادريسية ، ويتكلم عن تقسيم منذ ذلك الحين : تونس — الجزائر — مراكش . وللأسف ان المغاربة يتبعونهم أحياناً في هذا الضلال . فقد كتب هـ. تيّراس H. Terrasse مستسلماً لجزعه المرضي : «لا شك في أن

الإسلام بعوامل الفتنة فيه قد جلب لسكان وثنيين فيما مضى قواعد حياة اخلاقية ، أشد صلابة ؛ غير ان المدائح التي يطري بها الجغرافيون العرب السكان الصالحين والوديعين تتجه خاصة إلى مدن وقبائل من مراكش الرومانية القديمة حيث بقي حتّى الفتح الإسلامي نظام لاتيني ومسيحي » . ويفسر ا. ف. غوتيه E. F. Gautier ، متمسكاً بهوى عدائه للبداوة ، حركة الخوارج في تاهرت واللاخوارج في فاس والقيروان بغريزة التدمير لدى البدو : « في زاوية قاصية من المغرب أفضت حركة الخوارج إلى عكسها ، حكومة منتظمة ذات أساس حضري » . أما ج. مارسيه . G. Marcais ، الاكثر الماماً بنتاج المؤرخين العرب ، فإنه يتحدث بحق عن تجديد القرن التاسع ويقدم على ذلك براهين ؛ لكنه يحس بالحاجة إلى وصف الدولة الأغلبية كمنظمة أجنبية « حيث كان البربر في آن واحد محتقرين ومبعث خشية » ، غافلاً تماماً عن ابراز الواقع (لا ما تقول سير القديسين عنه) بان البهلول بن رشيد ، أكثر رجال زمانه نفوذاً في القيروان ، كان بربرياً ؛ الأمر الذي يشير على الأقل إلى حركية اجتماعية عظيمة ، أدخلها وضمنها الإسلام [1] . فعيب جميع المؤرخين الاستعماريين الأساسي هو خلطهم اطراف هزيلة مع مجموع المغرب : حتّى على افتراض ان الحقبة الإسلامية كانت تراجعاً نسبياً بالنسبة لافريقيا القديمة وللشريط الساحلي (وهو ما لم يقدم الدليل عليه مع ذلك) ، الا انها بالمقابل قد مثلت خطوة عظيمة إلى الأمام بالنسبة للبلدان الشاسعة في الغرب وفي الجنوب المغربيين .

فالأمر الهام المطلوب استرعاء الانتباه إليه في القرن التاسع هو الثنائية الاقتصادية : الزراعة والتجارة ؛ فالمعارض الاقتصادية الاجتماعية في ذلك العصر لم تكن بين البداوة (حياة الترحال) والزراعة كما ظن غوتيه وإنما بين التجارة والغراسة (أو الزراعة اذ ليست الواحدة إلا الشكل المتأخر للأخرى) ؛ ونرى هنا مثلاً آخر من الهوس الاستعماري في الاسقاط على الماضي بنية لاحقة بعد زمن طويل . لقد عاشت جميع المنظمات السياسية في القرن التاسع على نوعين من الضرائب : بعضها على الزراعة

---

(١) ه. تيراس : المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٨ : إ. ف. غوتيه : المصدر السابق ص ٣١٦ ؛ ج. مارسيه : المصدر السابق ص ٥٧ — ١٠١ .

والغراسة والأخرى وهي الأهم كثيراً على التجارة ؛ وكانت نموذجية هذه المنظمات محددة بمصادر دخولها . فالزراعة ـ الغراسة وحدها دعمت التنظيم الباوغواتي وتنظيمات شرقي الجزائر التي يصفها اليعقوبي ؛ والتجارة وحدها دعمت مختلف تجمعات الخوارج ، النفوسيين في الشرق وجماعات الزناتيين الثلاث في الغرب ؛ وحينما أخيراً صارت التجارة والزراعة كلاهما خاضعتين للضريبة ، وبحسب درجة نمو العنصر الزراعي ، تكونت لدينا السلطة المنظمة في فاس وتاهرت والقيروان . وعندما تستخدم عبارة « دولة » سواء للتأكيد على وجودها في القرن التاسع أم من أجل انكارها كما يفعل غوتيه Gautier وتيرّاس Terrasse فإننا نستخدم كلمة فارغة لا سيما عندما تكون لنا في ذهننا فكرة معينة في تنظيم الدولة ، كبنية مستقرة للمجتمعات البشرية . ذلك ان المقصود هو منظمات (بنيات) سياسية وكل واحدة منها تتعلق بالطبع ، بالأساس الإقتصادي ؟ فقد عرف المغرب من هذه المنظمات ضروباً في القرن التاسع بحيث يكون من الضروري احصاؤها دون أي حكم سبقي . اننا لا نملك الوثائق اللازمة للقيام بذلك في الوقت الحالي لكن هذا الاتجاه هو ما يجب توجيه الابحاث فيه .

ان ثلاثية حكم المغرب بقيت في القرن التاسع ولكن في ظروف جديدة . ففي افريقية الأغالبة تشكلت « دولة » على غرار الدولة الإسلامية المركزية ، وهي بدورها سوف تفيد كنموذج . وهذه الدولة كانت عربية ـ بربربة (الشكل عربي والأساس بربري) وسيعمم هذا التطور فيما بعد ، ولكن كخطوة أولى اذ غالباً ما تختفي الكوادر العربية عندما يدخل البربر في الإسلام ، فالاتصال بالماضي جليّ ؛ وفي وسعنا القول مع ذلك بأن الأغالبة نجحوا حيث اخفق الفاندال لان الفاندال سلكوا مسلك الـ « ورثة » لروما ولم يرغبوا أبداً في خدمة اغراض البربر ؛ وقد رفضوا ، وهم مستغلون ، أعداد الاستقلال الذاتي للافارقة . أما أن يكون أمراء بني الأغلب قد أرادوا ذلك ام لم يريدوه ، فان المنطق الايديولوجي للإسلام الذي لم يكن في مقدورهم اجهاضه تماماً ، قد وحد المجتمع الافريقي وهيأ تبني المذهب المالكي على المدى الطويل الاستقلال الذاتي والوحدة المعنوية لكل الشمال الافريقي . وكان المغرب

الأوسط من جهته ، دائماً منطقة دول المدن الا أنه اتسع نحو الشمال اتساعاً هائلاً حتى البحر الأبيض المتوسط وإلى الجنوب حتّى وادي درا . ويمكن الظن اننا في حالات كثيرة ، نشهد ميلاداً جديداً للامارات التي كانت في القرون الممتدة من الثالث إلى السادس ، التي تصدعت فترة ما بحروب الفتح ؛ وبهذا المعنى فانه لنمو فريد ، تجاري ومنجمي وثقافي في آن واحد ذلك الذي ينجم . فها هنا تكذيب مبين لأطروحة ش. كورتوا . ch Ceurtois : لا توجد حضارة خارج الفلك الروماني . وأخيراً فان المغرب الصحراوي امتد هو كذلك امتداداً هائلاً حتّى قلب الصحراء الحالية ؛ فقد أصبح أساساً مغرب التجارة . خاضعاً في نقطتي الوصول والانطلاق لجماعات الزناتية والصنهاجية الملثمة . ان الانفتاح الحقيقي للصحراء يرجع تاريخه إلى ذلك العصر ؛ فقد أصبح سكان هذا الجزء حراس تجارة في قوافل الابل ؛ وثمة بنية اجتماعية (ليست بنية متعلقة بالدولة اذا شئنا) خاصة تنتج عن ذلك؛ لكن الظاهرة الأساسية والقاطعة تبقى هي التجارة وليست تلك البنية المحددة . وهكذا يرى المرء جيداً كيف يمكن بسهولة تغيير اتجاه جميع التطورات والسيرورات اللاحقة باستبدال التحديد الاقتصادي بتحديد البنية الاجتماعية أو بنية العرق ، بمعارض زناته (المغرب الأوسط) بصناجة (جبليين في بلاد القبائل وموغلين في البداوة والترحال في الصحراء في آن واحد) وبالمصموديين سكان سهول الأطلنطي . هذا الاستبدال يمكن أن يبدو مجرد تغيير في الرؤية؛ الواقع انه حكم بتفاهة السيرورة التاريخية ، حتّى وان استظلينا بنفوذ ابن خلدون .

ان الأمر الجديد بالنسبة للقرنين الخامس والسادس هو توكيد استقلال ذاتي وانفتاح الصحراء التي لم تعد « عزلة » ، احتياطاً ، فالتناقض المعقود من جراء العصر الروماني والمتفاقم في عهد الفاندال والبيزنطيين قد انحل على نحو ما ، وان هذا الانفكاك قد حدث بتأثير الإسلام وها هنا بلا شك السر في اعتناق الإسلام الذي كان بطيئاً بالتأكيد ولكنه لا رجوع فيه كذلك .

علي) الذي ينتظر في السلمية بسورية ، سالكاً الطريق إلى الغرب في عام ٩٠٢ ، المألوف منذ زمن طويل لدى جميع الفارين من الشرق (الاسكندرية ، طرابلس ، كاستيليا Castilya في الجريد Jarid) . وقد وصل إلى سيجيلماسا على الأرجح لأنه كان له اتباع في هذه المدينة لكن الأمير المدراري وضعه في السجن . فأنطلق الداي في طلبه ، واحتل تاهرت (آب ــ أغسطس ٩٠٩) في الطريق ووصل إلى سيجيلماسا فأطلق سراح سيده . وبعودته إلى رقادة كشف هذا السيد (وكان يشتبه في حقيقة الاسم الذي اتخذه ، عبيدالله ، بقدر ما يشتبه في حقيقة اسم مولاه) صفته كمهدي ، واتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين (٩١٠ / ٢٩٧) . وكان المهدي يجد حكومة سبق أن نظمت بدواوينها وعمالها وقضاتها وجيشها ... وقد استبدل هذا الجيش بالطبع بدفعة من أوائل الأنصار (القطاميين) السلطة الجديدة . والضرائب التي انقصت لأسباب الدعاية لفترة ما ، زيدت بسرعة لتمويل هذا الجيش . وظل الخليفة الفاطمي ، زعيم طائفة ، مرتبطاً بكل التنظيم السري المنتشر في طول الأمبراطورية الإسلامية وعرضها : فسياسته كانت اذن كلها مرسومة . وبقيت ايدلويوجيته على تشددها كما كانت قبل انتصاراته العسكرية : فسمي قاضياً شيعياً وغير عبارات الأذان والألوان الرسمية ... ففي هذا الاطار يجب ارجاع حادث أبو عبدالله إلى مكانه ؛ لقد طرحت المشكلة نفسها في الفترة التي كانت الأمبراطورية العباسية تتكون فيها (تعارض المنصور وابو مسلم) ؛ انه يعبّر دائماً عن التناقضات بين الضرورات الايديولوجية لدى طائفة والضرورات الأكثر تسامحاً لدى الدولة . الا اننا لا ندرك دائماً في هذه الأزمات من يكون الايديولوجي المتشدد ومن هو السياسي المعتدل . وعلى أية حال فقد أعدم أبو عبدالله وأخوه أبو العباس في يوليو (تموز) ٩١١ . وسجل أبو عبيدالله بسرعة فائقة ارادته في اخضاع الأمبراطورية بأكملها ، فهدفه هو أن يكوّن لنفسه جيشاً قوياً وخزينة حرب ويستأنف بأسرع ما يمكن طريقه إلى الشرق . وكرمز لهذه السياسة ، أقيمت عاصمة بحرية (المهدية) بين سوس وصفاقس ؛ وفي عام ٩٢١ انتهت الأعمال التي بدأت عام ٩١٢ . ونظمت ثلاث حملات ووجهت ضد الاسكندرية (٩١٣ ، ٩١٩ ، ٩٢٥) : ولم تنجح واحدة منها ، فلم يكن الوضع قد نضج بعد .

هذه السياسة الموالية علناً أفضت إلى سلسلة من الثورات ، أعدها معنوياً الفقهاء والتقاة المالكيون [1] ، وأيدها جميع من كانوا ضحايا نظام ضرائبي ثقيل ، وقادها قدماء المنتفعين بتجارة القوافل الكبرى التي غـدت عندئذ تحت سيطرة الجيش الفاطمي . فالقطاميون ، أصدقاء أبو عبدالله عبروا عن استيائهم في عام ٩١١ على اثر اعدامه . وثارت تاهرت العام نفسه وطرابلس في العام التالي وصقلية في عام ٩١٥ / ٣٠٣ بقيادة أمير من بني الأغلب . لكن أخطر تلك الثورات بدأت في نحو عام ٩٣٥ / ٣٢٤ في الأوراس لتصبح عامة في عام ٩٤٣ / ٣٣٢ بقيادة أحد الخوارج أبو يزيد . فقد نجحت في توحيد الساخطين حولها وراحت طيلة سنوات تحرز نصراً تلو النصر . واذ استولى على بيجه وتونس والقيروان حاصر الخليفة الثاني ، القائم في المهدية في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ٩٤٤ . الا أن الحصار دام طويلاً وانقذت الأسرة الفاطمية بفضل الهجوم المضاد الذي قامت به جيوش زيري بن مناد Ziri. b. Manad ، المخلصة للعبيديين . ودخل الخليفة الثالث ، اسماعيل القيروان ، وهزم جيش أبو يزيد ٩٤٦/٣٣٥ ، ولاحقه إلى الهودنة Hodna وانتهى إلى أن تخلص منه في العام التالي [2] .

وهذه المصاعب المتجددة بلا انقطاع كانت تبرهن على أنه كان على الفاطميين أن يختاروا : إما البقاء في البلاد وتنظيمها وربما استمالتها إلى قضيتهم واما مغادرتها نهائياً وبسرعة . ادراكاً منه ، على الأرجح ، باستحالة القيام بالمهمة الأولى على أكمل وجه ، قرر المعز الرحيل . وفي عام ٩٦٩ ــ ٣٥٨ بعث بأفضل قادته جوهر الرومي لفتح مصر التي احتلها بسهولة هذه المرة ، ودخل إلى الفسطاط وارسى القواعد الأولى

---

(١) يصف م. مؤنس بدقة عزلة الأقلية الشيعية بين السكان الأفريقيين . ويستشهد بمقطع من رسالة للمعز الى جوهر كاتم أسراره : «لو لم يكن الفساد متأصلا في قلوب هؤلاء الأراذل من البربر ، لما كان نور الله الذي يتمتع به تقاته قد آل إلى التلاشي ، على حين كان أفلك أعداء الله ينتشر ويستشري » . وهذا الفشل السياسي الأيديولوجي لم يكن واضحاً مع ذلك إلا بازاء سكان القيروان . Etudesd'orientalisme, (dédiées à Levi - Provençal I, P.217)

(٢) إن الطريقة التي يعامل بها جثة خصمه (إذ يحشوها بالقش ويعلقها على باب المهدية) تظهر جيداً الخوف الذي يتوجسه منها .

الادارسة . فأعدت حملة ثانية عام ٩٢١ / ٣٠٩ فطرد الادارسة عندئذ من تلمسان ومن موانيء البحر الأبيض المتوسط وأخفقت المحاولة الادريسية (٩٢٥ / ٣١٣) لارجاع الحجّام (بعد اسقاط يحيى الرابع) . لكن المغراوا عندئذ ، الذين كانوا في ساقة مكناسة ، ثاروا مدفوعين بمصلحتهم وبدسائس الأمويين وقتلوا مصالة . فأرسل الفاطميون جيشاً بقيادة ابن المهدي (أبو القاسم) عاقب المغراوا وطردهم من بلادهم ؛ ثم تقدم الجيش حتى تلمسان (٩٢٧ -٩٢٨ / ٣١٥) . لكن موسى بن أبي العافية ، الذي أصبح مقرباً جداً من الأمويين حينئذ بدأ من عام ٩٢٩ / ٣١٧ ، التفكير بقلب التحالف ؛ الأمر الذي يدل على أن مكناسة قاتلت لحساب الفاطميين من باب الحاجة لا من باب الاقتناع . وفي عام ٩٣١ / ٩٣٣ كانت القطيعة تمت ، وبأمر من الخليفة الفاطمي راحت مكناسة تاهرت بقيادة حميد بن يسليطان Yslitan حفيد مصالة فقاتل موسى وطرده من فاس . بيد أن عبيدالله مات عام ٩٣٤ / ٣٢٢ فاسترد موسى عندئذ فاس وعاد المغراوا إلى وسط المغرب . لقد بات من الضروري اذن توجيه حملة مباشرة . وهكذا جهزت عام ٩٣٥ | ٣٢٢ بقيادة ميسور الخصي ؛ وبدافع الضرورة تحالف الأدارسة الذين اسقطوا وغلبهم موسى عدة مرات ، مع الجيش الفاطمي (كان وضع الأدارسة يائساً من جميع الوجوه ، اذ لم يكن لهم الخيار الا بين أن يفقدوا السلطة ويصيروا حكاماً لهذا الطرف أو ذاك من المحركين الأساسيين ؛ فسمى أحدهم وهو القاسم جنّون والياً .

أعادت ثورة أبو يزيد طرح كل شيء على بساط البحث . فأعاد موسى فتح الشمال المراكشي وطرد الأدارسة وحتى مكناسة تاهرت قدرت الوقت حان لاعلان الاستقلال . الا أن مصاعب الفاطميين لم تطل . فبعد سقوط أبو يزيد بن زيري بن مناد Zirib . Manad ، منقذ الأسرة ، هو الذي أرسل إلى الغرب بجيش قوي جداً ؛ استرد تاهرت (٩٤٧ / ٣٣٦) وأخضع مغراوا والافرانيين . وبعد ذلك بعشر سنوات ان حملة جوهر العظيمة هي التي أعادت فتح فاس وسيجيلماسا (٩٥٨ / ٩٦٠ / ٣٤٧ / ٣٤٩) . وكــان رحيل عبيدالله إلى مصر فتح صفحـــة جديدة لأعداء الفاطميين لكن جيوش بلكين بن زيري (٩٧٢ / ٤٦٢) سحقت المغراو

نهائياً والافرانيين ؛ فكان على مكناسة والأدارسة أن ينضم بعضهم إلى بعض .

ان الوقائع التي فرغنا من تليخصها كما رواها أصحاب الحوليات العرب وتبعهم في ذلك المؤرخون الاستعماريون تبدو وكأنها على جانب كبير من الارتباك . فالتحليل صعب بلا شك شأنه في جميع الحالات التي تدار فيها الحروب من قبل مرتزقة يضيفون تطلعاتهم الخاصة إلى تطلعات أسيادهم . لكن تعقد الدوافع (الذي كان وحده يثير اهتمام ابن خلدون وجميع المؤرخين اللاحقين الذين أخذوا عنه)[1] يمكنه تماماً أن يتضافر مع عدد قليل جداً من الأسباب الواقعية . فجميع المعارك كان غرضها السيطرة على المدن : تاهرت ، سيجيلماسا ، تلمسان ، فاس وموانىء البحر الأبيض المتوسط الشواخص على خط سير الاتجار الصحراوي . وفي وسعنا الافتراض أنه كانت لمدن ــ الدول في المغرب الأوسط اتفاقات ضمنية تقريباً مع الجماعات الزناتية التي كانت تهيمن على هذا الاتجار وان هذا التوازن السياسي ــ الاقتصادي بين سادة المدن وسادة الطرق هو الذي كان قد أخل في القرن العاشر بنظام سلطة الفاطميين الجديدة ، ولما كان الفاطميون بحاجة إلى ماليــة حرب لمتابعة سياستهم الهجومية على الشرق فإنهم أرادوا سياسياً واقتصادياً اخضاع هذا الجزء من المغرب الذي كان فيما مضى موطن الخوارج . حول هذا الأمر انقسم السكان ؛ بعضهم انضم إلى السادة الجدد لمحاولة انقاذ امتيازاتهم في حين ثار الآخرون وربطوا مصيرهم بأعداء الفاطميين . فكانت نتيجة هذه الصراعات الطويلة الانحطاط الاقتصادي والضعف الديموغرافي للمغرب الأوسط الذي هجره سكانه إلى المغرب الغربي حيث حاولوا هناك اقتطاع امارات لأنفسهم على حساب خلفاء ادريس . في حرب تدوم، تتراكم العقبات بالطبع وتتخذ شتى أنواع الاشكال ؛ وعلى المدى الطويل قد يلوح ان المقصود مجرد صراع عرقي بين صنهاجه وزناتة ولكن يجب الاعتراف بأن هذا التفسير هنا انما هو تفسير يصدر عن فلسفة عرقية للتاريخ وليس من المعنى الذي

---

(١) تحمل الطريقة التي يوضح بها ابن خلدون هذه الصراعات طابع الحــوادث اللاحقة بزمن بعيد (منازعات بين المارينيين والزيانيين) ؛ فلسنا مكرهين على قبول ما يتطابق إلى حد بعيد مــع النظريات الخلدونية وأحكام غوتيه المسبقة ، كحقائق تاريخية .

ابن حماد ، الذين فازوا باستقلالهم الذاتي أسرع من الزيريين أنفسهم . وقد اختار حماد بن بلكين عاصمة جديدة ، القلعة عام ١٠٠٧ – ١٠٠٨ على سفوح جبـل معديد Ma'did وأسكنها أهالي مصيلة Msila التي أخلاها بالقوة ؛ ممّا يقيم الدليل اما على الضعف الديموغرافي واما على انحطاط التقاليد الحضرية في هذه المنطقة اثر حروب القرن العاشر الكبرى . فيما بعد ان لاجئي مدن افريقية هم الذين سوف يضمنون لها فعالية ما . فان الأمير الزيري باديس وكان بعد شاباً ، هو الذي شجع ميول عمه حماد إلى الاستقلال الذاتي بتفويضه بقيادة حروبه في الغرب ، وبافساح المجال له على هذا النحو لكسب نفوذ متزايد يوماً بعد يوم . وعندما سمى باديس في عام ١٠١٤/ ٤٠٥ ، بموافقة الخليفة الفاطمي ابنه المنصور ولياً للعهد واقطعه قسطنطينة التي كانت جزءاً من منطقة نفوذ حماد شق حماد عصى الطاعة ، وقطع صلاته بالسلطة الفاطمية واعترف بالخليفة العباسي . فجاء باديس يحاصر القلعة معتمداً على امدادات سيده ؛ لكن السيد الفاطمي لم يول المسألة عناية خاصة ؛ واذ توفي باديس وولده ، اعترف خليفته بالأمر الواقع في عام ١٠١٧ | ٤٠٨ .

ولما لم يعد على الأمويين ، في غرب المغرب ، أن يجابهوا مجموع القوى الفاطمية ، عزموا على التدخل مباشرة . وعليه أرسل الحكم الثاني (٩٦١ – ٩٧٦ (أفضل قائد لديه ، غالب (٩٧٣ / ٣٦٢) الذي أخضع فاس وبارصا Barsa وضرب الحصار حول حجر النصر Hajar an Nasr التي كان الأدارسة قد اتخذوها ملجأً منيعاً . والحقيقة ان الجيش الأموي سيواجه كثيراً من الصعوبات للوصول إلى مرامه ؛ وفي النهاية يستسلم حسن بن جنّون وينفي الأدارسة جميعهم [1] . عندئذ يصبح الشمال المراكشي مباشرة تحت ادارة الأمويين . الا أن بلكين يقوم بهجوم مضاد في عام ٩٧٩ / ٣٦٩ ويحتل فاس من جديد ، ويحارب البارغواتا وبالطبع حسن بن جنون الذي كان ، في غضون ذلك ، قد غادر اسبانيا متجهاً إلى الشرق ، وظهر من

---

(١) يسترسل هـ. تيراس إلى أن يكتب ما يلي : « هكذا انتهت بعملية بوليس أول أسرة شريفية في مراكش » . (المصدر السابق ج١ ص ١٨٠) .

جديد في فاس ، في اثره . لكن بلكين يموت عام ٩٨٤ فيعد الأمويون هجوماً كبيراً ، هو هجوم اسكالاجا Askalaja [١] : فيحتلون من جديد عاصمة الشمال بصعوبة بالغة ولكنهم ينتهون إلى التخلص من الادريس ، المطالب بالحكم . ويتجمع الافرانيون ، ويحكم المغراوا بقيادة زيري بن عطبة الشمال المراكشي [٢] . ومع ذلك فان زيري على غرار ما كان موسى بن أبي العافية قد أكد بعد زمن استقلاله الذاتي قبل الفاطميين ، ثار كذلك على وطأة الأمويين الثقيلة . فرأى هؤلاء أنفسهم مضطرين عندئذ إلى بعث جيش لعقابه عام ٩٩٦ / ٣٨٦ واستبداله بولاة اندلسيين . وفيما بعد استرد ابن زيري ، المعز حظوته واستعاد الحكم ولكن تحت اشراف قرطبة المحكم . وابتداء من ٩٨٥ اعترف زيريّو افريقية باستحالة الحفاظ على الشمال المراكشي طالما توجد في اسبانيا المجاورة سلطة قوية ؛ وقد استأنف الحمّاديون أحياناً الطريق إلى الشرق ، ولكن من دون كبير اقتناع في الظاهر . ولنلاحظ أخيراً بأن اللقاءات العسكرية حدثت في زمن الفاطميين في المغرب الأوسط في حين أنها جرت في عهد الزيريين– الحماديين في الشمال المراكشي ؛ ولا شك في أن محور تلمسان – تاهرت – سيجيلماسا قد سبق تدميره ، وان هذا الخراب هو ما سيجعل منه وطن البداوة ، وليس العكس .

٢

أية صورة يمكننا أن نصوغها عن المغرب في منتصف القرن الحادي عشر (نهاية الخامس الهجري) ؟ ان ما يلفت النظر قبل كل شيء هو الاختلاف الكبير على صعيد

---

(١) من اسمه أبو الحكم عمرو بن عبد الله بن أبي عامر اذن هو ابن عم الحاجب الشهير المنصور بن أبي عامر .

(٢) إن الخشية بوضوح من التعارض بين المغراوا المستغلين وسكان المدن المستغلين كانت في تلك الفترة ؛ فقد كتب ابن أبي الزرع : « في أيامهم ، حفر سكان فاس أهراء ضخمة اعتادوا على طحن حبوبهم وطهو طعامهم فيها لئلا تسمع العناصر الفقيرة من المغراوا صوت الرحى لديهم فتأتي لنهب مؤوناتهم » . (الأنيس ... ، الرباط ١٩٣٦ ح١ ص ١٧٧) . ويقتضي مع ذلك الا ننسى بأن هؤلاء المغراوا كانوا قد أصبحوا نوعاً من المرتزقة يدفع أجرهم الأمويون ، وإنهم عندما كانت الأعمال العدوانية تتوقف ، كانوا يجدون أنفسهم وقد أصبحوا في عوز تام .

واليعقوبي نشاهد تطوراً في السكان باتجاه تجانس أكبر : اذ لم يعد الروم والفاس واضحي الهوية في قلاع الجريد وفي الاقليم القسطنطيني ، لكثرة ما تخالطت ذرياتهم .
ولم يعد الافاريق الا في حدود عدد قليل في مدن : القيروان وتونس وفاس ومونستير ؛ وما يزال بعض المسيحيين يعيشون في القلعة وفي بوجي ، باغراء من الأمراء الحماديين لا شك . ولم يكن المهاجرون العرب بالمقابل عديدين في المــدن فحسب ، لكنهم امتزجوا في سكان الضواحي . ومن وجهة النظر الدينية ظلت الغالبية العظمى متمسكة بالمذهب المالكي وفقدت الأقلية الشيعية شيئاً فشيئاً امتيازاتها وتجمعت في المدن الساحلية وخاصة في المهدية ، بينما لم تحافظ حركة الخوارج على نفسها الا في التخوم الجنوبية من المنطقة الطرابلسية وفي هدنة وما نستخلصه من ذلك الوصف هو الاحساس بوجود تجانس سكاني ، موسوم بقوة باللغة العربية ؛ فالحالة هي على هذا النحو مختلفة عما كانت عليه في عهد الأغالبة .

لم يعثر المؤرخون وخاصة رجال الأدب على كلمات معبرة تعبيراً كافياً لوصف غنى الأمراء الزيديين وجودهم . وقد الح الرحالة الجغرافيون على ازدهار البلاد العظيم . ان محاصيل افريقية الأساسية والمألوفة : قمح ، زيتون (زيت) ، تمور ، كانت تجنى بوفرة بالغة ؛ وكانت بيجه Béjer السوق الكبير للحبوب ، على نفس النمط الذي كانت عليه صفاقس Sfax في وسط غابة حقيقة من أشجار الزيتون تمتد حتى أبواب القيروان وتموّن معاصر مزدهرة . وكانت توزور Tozeur في وسط الجريد ، سوق التمور الكبير . وفي الجزء الشمالي حول تونس وقرطاجة امتدت بساتين شاسعة من أشجار البرتقال والتين والموز ؛ كذلك نوه الجغرافيون – الرحالة بزراعة قصب السكر في الجريد وفي فاس وبالقطن في مصيليه Msilir وحول قرطاجة[1] . وفي قابس وسوس وسفاكس كانت صناعة النسيج بادية التقدم إلى حد كبير ، حيث

---

(١) من الصعب جداً بالطبع معرفة ما إذا كان المؤلف يذكر نباتاً أو محصولا لأنه وافر أو لأنه غير متوقع وجوده في المنطقة الموصوفة ، وهوما يبدو في حال الموز والزعفران وحال القطن حول قرطاجه؛ والملاحظة نفسها تصلح بالنسبة للقطن وقصب السكر في سوتا . ولذلك فان الانطباع العام الذي تتركه قراءة هذا ما يجب بقاؤه في الذهن .

تصنع ، على ما قيل ، أجواخ أحسن من الأجواخ التي تصنع في الاسكندرية ووفقاً لنفس فن الصنع (وهو أمر لم يكن ثناء طفيفاً بالنسبة للعصر) . وحمت القيروان الصناعات الدقيقة في النحاس والمنصورية وتونس الصناعات الخزفية ؛ وصنعت المنصورية والقلعة وفيما بعد بوجي الزجاج . وانتقل المركز التجاري الرئيسي من القيروان إلى ضاحيتها سابرا Sabra التي تم اختيارها باسم المنصورية ، في عام ٩٤٨ ٣٣٧ كعاصمة للفاطميين . ومن هناك كانت الطرق إلى القلعة وسيجيلماسا وإلى طرابلس والشرق وإلى ميناء سفاكس الذي كان يربط افريقية بالأندلس وصقلية بمصر .

كان هذا النشاط يدعم بيسر سياق حياة الأمراء الزيريين والحماديين ؛ وقد أعطى البكري رقماً للعاصمة الزيرية ؛ اذ كانت عائدات الميناء ليوم واحد ، ترتفع إلى ٢٦,٠٠٠ درهم [١] . وحافظ الأمراء الزيريون على النظام الضرائبي الفاطمي ، المبني أساساً على الرسوم الجمركية ورسم الدخول والرسوم على المراعي والقوافل وعائدات الأملاك الكبرى . فان القسم الأكبر من عائدات الدولة ، كما قد يُرى ، كان ينشأ من التجارة اذ أن الرسوم على المراعي نفسها لم يكن في الوسع دفعها الا اذا كان السكان يستطيعون الإسهام في التجارة ولا سيما التجارة الصحراوية . وكان الفاطميون قد وضعوا ضريبة عقارية (وتبريرها لا شك في أن من هم غير شيعة لم يكونوا في نظرهم مسلمين حقيقيين) ، ونصح المعز لبلكين بأن لا يبطلها أبداً ؛ على أنه لاجل كسب اعتبارات السكان ورمز للتعبير عن القطيعة مع المذهب الشيعي على وجه الدقة انقص الخراج في بداية الأمر ثم الغاه باديس في عام ٩٩١ / ٣٨١ تماماً . فالدولة كانت تتوقف أساساً على الرسوم على التجارة ، وها هنا المجال الذي كانت توجد فيه في معارضة تامة مع مصالح أولئك الذين سيطروا على التجارة منذ زمن طويل ونعني بهم الزناتيين ذوي الميول لمذهب الخوارج . وكـان الأمراء الزيريون ، على كل حال أغنياء ، وإذ لم يكن لهم سياسة هجومية كبرى ، كان

---

(١) ويقدر بـ ١٣,٠٠٠ فرنك ذهب . المسالك ، ط. دى سلان Deslena ص ٢٥ . ترجمة ص ٥٨ .

يمكنهم أن يظهروا في مظاهر البذخ . وشيئاً فشيئاً تمرنوا على الامارة : فلم يكن بلكين يأتي إلى أفريقية الا نادراً ، وكان يترك ادارتها لاحد امراء بني الأغلب ؛ وأقام ابنه المنصور في بداية الأمر في رقّادة ، في قصر بني الأغلب القديم ثم استقر نهائياً في المنصورية حيث أعطى المثل بسرعة على حياة مترفة وجميع الفرص كانت متاحة للتباهي في الثراء : مناسبات الزواج ، الأعياد ، استقبالات السفراء القادمين من القاهرة [1] . وحاول الأمراء الحمّاديون ، وان كانوا أقل ثراء ، مباراة ابناء عمومتهم من الزيريين . ومهما أمكننا التفكير في قيمة شهادات كتاب الحوليات فان التنقيبات القليلة في مكان قلعة بني حمّاد تبدو أقرب إلى تثبيت أقوالهم وغنى زيريّ افريقية الفاحش يصبح للوهلة الأولى مستشاغاً أكثر . وعلى كل حال فان هؤلاء وأولئك أعدوا المناخ لأول مرة وبصورة محسوسة ودائمة لحياة البلاط تلك التي ستنردهر فيما بعد ، حتى عندما يكون الوضع السياسي العام لا يبررها — حياة البلاط تلك ، النموذجية إلى هذا الحد في تاريخ الإسلام الكلاسيكي والتي كانت الوسط الذي لا غنى عنه لنشوء ونمو أدب عربي مكتوب . فقبل هذب التاريخ وفيما عدا الفقهاء المالكيين كان جميع رجال الأدب من الأجانب ؛ لقد اشتهر في عهد الزيريين اثنان من السكان الأصليين : ابن شرف (المتوفي ١٠٦٨) وهو شاعر وناقد أدبي ومؤرخ ندين له بتاريخ الزيريين الذي كان مصدر جميع المؤرخين اللاحقين وابن رشيق (المتوفي ١٠٦٤) ، شاعر وصاحب مختارات والذي ظل كتابه « كتاب العمدة » حتى أيامنا هذه أثراً نموذجياً للنقد الأدبي . وثمة أسماء أخرى يمكن ايرادها ، لكن هذين الاسمين اللذين اخترناهما كانا معروفين فيما وراء افريقية واظهرا بأن افريقية كانت قد أصبحت مركز استقلال ذاتي للثقافة العربية [2] .

اذا قارنا شطري المغرب في منتصف القرن الحادي عشر (نهاية الخامس الهجري) لتحققنا من نفس الازدهار الزراعي ونفس النشاط التجاري ، باستثناء الجزء الغربي

---

(١) هذه البيانات كانت كلها لاحقة لانحطاط الأسرة المالكة ، بعد الاجتياح الهلالي ؛ فانه يتفحص فيها اذن كثير من الحنين إلى الماضي .

(٢) من أجل الجانب الفني في الحقبة الزيرية ، راجع هـ. هـ. عبد الوهاب في ورقات ... حـ٢ ص. ص ٢٠٧ — ٢٢٤ .

من المغرب الأوسط (حول محور سيجيلماسا ـ تاهرت ـ تلمسان) الذي يبدو انه عانى من الحروب بين الفاطميين والأمويين . وكأن الحصيلة الكبرى لتلك الحروب لم تكن هجرة السكان الزناتيين باتجاه الغرب بقدر ما كانت انتقال هذا المحور للطرق التجارية [1] الكبرى إلى الشرق وإلى الغرب . وعلى هذا الأساس الاقتصادي تكونت بنيتان سياسيتان مختلفتان . في الشرق ، كيانان متحدان ، أحدهما متحضر ، ومعرب ، بلغ مستوى ثقافياً يتيح له انتاج أعمال ذات قيمة ، والآخر قاسى جهداً شديداً في التمدن . وفي الغرب ، تفرق للسلطة السياسية واصل التقليد الادريسي لكن هذه اللامركزية كانت كذلك إشارة على التمدن ووسيلة للتعريب ؛ الا ان نموذج الحضارة العربية كان بعيداً عن النفاذ إلى مجتمع الغرب المغربي الذي ظل معظمه من الفلاحين لم يألفوا الصناعات الدقيقة أو الثقافة المدنية . وجميع هذه الدول أو المدن ـ الدول دامت بفصل الرسوم المرفوعة عن تجـــارة مزدهرة مع السودان والأندلس ومصر وصقلية . وكأن المسألة المطروحة عندئذ كانت : من ذا الذي سيوحد المغرب الغربي ؟ لا شك في ان مملكتي الشرق تستطيعان ذلك : لقد حاول الزيريون ثم حذا حذوهم الحمّاديون (يرجع آخر تدخل في فاس لبلكين الحمّادي إلى عام ١٠٦٤ / ٤٥٤) . ولكن فضلاً عن ضعفهما وعن وضعهما غير المستقر الواحدة بازاء الأخرى وكلاهما بازاء العاهل الفاطمي ، فان معارضة الأندلس الغربية هي التي حالت بينهما وبين ذلك . ولا جرم ان الخليفة الأموي كان أكثر حظاً كذلك في توحيد المغرب ولكنه لم يكن يهتم الا بالشمال المراكشي وفي الوقت الذي كان يستطيع فيه بلوغ أغراضه ، دخل ، عام ١٠٠٩ / ٣٩٩ ، في عصر أزمة سوف تحكم عليه بالزوال . وبدلاً من ان توحد الامارات المغربية فان الأندلس هي التي تقسمت إلى إمارات عديدة . وبعد اربعين عاماً ، وهو ما كان يمكن أن يكون بداية سياسة عظيمة في المغرب ، واعني به استقلال امارتي الشرق بازاء الخلافة الفاطمية ، كان على العكس السبب العضال في ضعفهما ؛ وكان الطريق فسيحاً أمام منافس لم

---

(١) لا ننسى أن الطريق التجاري في ذلك كان أمراً إنسانياً وليس مادياً وكانت التغيرات في خطوط سير الرحلات سهلة وبالتالي مألوفة .

يكن على البال هم المرابطون القادمون من الجنوب المراكشي . فإذا لم تأخذ مأخذ الجد شبح الزناتي الفوضوي ، الشرس ، الغالي لدى ا . ف. غوتيه E, F. Gautier ولدي من جاء بعده فان فشل المحاولة الامبريالية انطلاقاً من الشرق يجب أن تُعزى إلى توازن القوتين : الفاطمية والأموية ، اللتين كانتـــا من بعيد تؤثران على سياسة المغرب ؛ وعندما آلت شمس هاتين القوتين إلى الأفول ، كانت الفرص قد فاتت وكانت افريقية اقتصادياً لا أمل فيها .

٣

عشية فتح المرابطين شاهدنا انهيار الدول المنظمة في الغرب الإسلامي ؛ ان خلافة قرطبة اختفت الأولى . وأيا ما كانت الأسباب البعيدة فقد بدا ان انتقال جميع المهزومين في الحروب المغربية : الأدارسة الافرانيون والمغراوا ، إلى شبه الجزيرة لعب دور المسرِّع . فالذين كانوا يسيطرون على التجارة الصحراوية ، كانوا يبحثون وقد صاروا جنوداً أثرياء ، عن اكتساب سلطة سياسية . وقد جرى سقوط الأمويين في زمنين : ١٠٠٨ – ١٠١٦ / ٣٩٩ – ٤٠٧ حيث كان لا يزال للأزمة مظهر صراع أهلي بين أعضاء أسرة الخلافة ، و ١٠١٦ – ١٠٣١ / ٤٠٧ – ٤٢٢ وهي الفترة التي خاض في أثنائها الأدارسة – الحموديون الحرب . ففي عام ١٠٣١ / ٤٢٢ طرد الأمويون من قرطبة وأصبحت قرطبة مدينة اوليفارشين . وفي غضون هذه السنوات كلها من الاضطراب التي تنتهي بتقسيم اسبانيا الإسلامية إلى خمس عشرة امارة ، لعب البربر دوراً فاصلاً وكان الحقد الذي يفصلهم عن سكان المدن وعن الصقالبة عنصراً حاسماً في تطور الوضع ؛ فقد نجحوا منذ عام ١٠١٣ – ١٠١٤ / ٤٠٤ في اقتطاع امارات لانفسهم : زيري في غرناطة (وألفيرا) والمرية والمغراوة في الشمال وبنو عفران في جاعن Jaen وبنو دمر في سيدونيا ... كان ذلك بمعنى ما انتقاماً للمغرب الغربي من الأمويين الذين لم يستطيعوا لا توحيده بأنفسهم ولا ترك هذه المهمة لافريقية .

غير ان افريقية هذه لم تتأخر نفسها عن ان تتجزأ تحت وطأة الهلاليين . وعندما

أعلن المعز استقلاله عن الخليفة الفاطمي (المستنصر (بعد سنين طويلة من الاعداد ، قرر هذا الخليفة بتحريض من وزيره اليازوري (al - Yazuri اعادة فتح افريقية بصورة غير مباشرة . وكانت هناك ، في الشمال الشرقي من البلاد العربية قبائل بني هلال وبني سليم العربية ، شاركت في ثورة القرامطة ضد العباسيين لكن الحوادث اتخذت وجهاً بحيث القت الخطأ على الدعاية الشيعية ؛ وكان الفاطميون قبل استقرارهم في القاهرة وبعده ، يقلقون دائماً من نشاطها . ومن أجل مراقبة أحكم نقلوها إلى منطقة أعالي النيل ؛ وعندما واتت الفرص تخلصوا منها بارسالها إلى المغرب [1] . وقاموا بتوزيع الاقطاعات على زعمائها : ولم يكن عدد الهلاليين على الأرجح يتجاوز المئتي ألف . وعندما وصلوا إلى افريقية تجدد نفس سياق الأمور التي لوحظت في نهاية الامبراطورية الرومانية أو في الامبراطورية العباسية مع الجرمان والأتراك على التوالي . حاول العاهل التفاهم معهم بادماجهم في جيشه ، ثم ظهر ان التفاهم مستحيل فتراخت السلطة وفي النهاية فاز كل زعيم لنفسه بامارة . وفي عام ١٠٥٢ / ٤٤٣ [2] أبيد الجيش الزيري في حيدران Hazdaran بين قابس وسفاكس؛ واحتلت المدن الواحدة تلو الأخرى . غير ان القيروان صمدت حتى عام ١٠٥٧ / ٤٩٩ ومن ثم أخذت ونهبت . فانسحب المعز إلى المهدية التي حمتها اسوار متينة ضد هجمات الهلاليين . واذ تقوضت السلطة المركزية على هذا النحو فان سكان المدن أسلموا أمرهم إلى أسياد جدد، » فأقام بنو خراسان في تونس وبنو جامي Jami في قابس وبنو مليل Malil في صفاقس وبنو الورد في بنزرت ... وكثيرون منهم ضربوا النقود بأسمائهم) ، بدأ سكان الأرياف يدفعون الخراج إليهم ، إلى هؤلاء السادة الجدد ؛ فتوطدت بذلك هذه السلطات الجديدة .

---

(١) هذه هي الرواية العقلانية التي قدمها المؤرخون اللاحقون للحدث ؛ فلسنا مضطرين لقولها حتى ولو كانت ترضي العقل ؛ ومن الصعب جداً اذن أن نميز ما كان صدفة أو ضرورة موضوعية مما كان سياسياً مراداً في هذه المسألة. لذلك ليس هناك اتفاق في الآراء حول تاريخ وصول الهلاليين إلى أفريقية. ومن المحتمل أن يكونوا بلغوها قبل ١٠٤٨ وإنه لم تكن هناك علاقةمباشرة بين قرار المعز النبوي وهجرة هؤلاء البدوالإجبارية.

(٢) هناك تاريخ آخر للأحداث يساق أحياناً ويجعل بدء القطيعة بين الزيريين والفاطميين قبل عام ١٠٤٨ بزمن طويل ؛ فيكون تاريخ حيدران الذي لم يكن مع ذلك حدثاً حاسماً البته ، عندئذ أسبق من ذلك ، أنظر هـ. ر. إدريس : البربر الشرقيون في حكم الزيريين ، باريس ١٩٦٧ ص. ص ٢١٣ — ٢١٤ .

وقد حسب الحمّاديون أنهم قادرون على الاستفادة من صعوبات أبناء عمومتهم، ولا سيما لعبة التأرجح التي كانت تتيح لهم تأكيد استقلالهم الذاتي . عندما قطع المعز علاقاته بالخليفة في القاهرة ، عاد القائد إلى الطاعة ولم تمس منطقة نفوذه . لكن أحد خلفائه ، الناصر أسلس انقياده في خصومة بين الهلاليين ، فهزم وأكره على ترك الأشباج يستقرون في منطقة قسطنطينة ؛ وعندئذ بنى مدينة على الساحل هي الناصرية (بوجي Bogie) ، التي تصبح في عام ١١٠٤ / ٤٩٨ عاصمة الأخيرين من بني حمّاد . وعلى هذا أخلى جنوب اقليم القسطنطينة كله اذن للهلاليين الذين دعّموا أنفسهم عاماً بعد عام بقادمين جدد . وتوغل الأخيرون منهم المعقل Ma'qil مزيداً نحو الغرب وصعد قسم منهم إلى الشمال بينما اتجه القسم الآخر نحو تافيلالت Tofılalet . واعتمد آخر الحماديين على زناتي اورانيا (وهران) لايقاف الهلاليين في سيرهم نحو الغرب (تغريبهم) .

ان رواية الوقائع التي فرغنا من تلخيصها ، هي طريقة القش التي يمكن تسميتها بالكلاسيكية وان كانت تعرض عدداً من الشكوك . ويوجد تفسير مسلّم به كذلك للمغامرة الهلالية ، قدمها معاصرون مثل ابن شرف ، ومثلها ابن الادهري Idhari ، ثم منهجها ابن خلدون ورواها بأمانة ج. مارسيه G. Marçais واستخدمها ا. ف. غوتيه E. F. Gautıer ، وفي نهاية الأمر كررها بالنص تقريباً ر. إدريس [1] ، الذي جعل من قدوم الهلالية نقطة انقطاع في تاريخ المغرب ، وقد اهتم هذا التفسير خاصة بنتائج الحدث التي وصفت على النحو التالي : على الصعيد الإنساني ، على ما يقال ، بالنظر إلى ان منطقة المراعي لم تكن محدودة ، فان زناتييّ المغرب الأوسط قد دفعوا نحوالغرب ، إلى ما وراء مولويا Mouloyer واتسعت الحياة الرعوية على حساب الحياة الزراعية في جنوبي تونس وفي منطقة التل وفي مراكش الشرقي . وتناقصت الحياة المدنية بسبب النهب والاملاق الناجم عن الحرب في الريف المحيط ؛ فان المدن الكبرى (القيروان ، القلعة ، تاهرت ، سيجيلماسا) التي كانت انشاء الفتح العربي

---

(١) هـ. ر. إدريس : المصدر السابق وبخاصة أنظر الخاتمة .

الأول ، سوف تدمر بهذا الفتح الثاني ؟ وسوف تلوذ هذه الحياة المدنية بالسواحل ؛ وتعاني الحياة الاقتصادية من استقلال منظم : كان على المزارعين وأصحاب الاشجار المثمرة أن يقدموا جزءاً من محاصيلهم : قمحاً أو تموراً أو زيتوناً ، وكانت التجارة ألعوبة بيد الهلاليين فإما أنهم تولوها بأنفسهم أو سيطروا عليها . فالمدن ، كبيرة كانت أم صغيرة تدفع أتاوات للزعماء الهلاليين مقابل حماية لم تكن دائماً حقيقية ؛ ولم تعد طرق الاتجار الكبرى التي وصفها البكري مطروقة اذا أخذنا في ذلك بوصف الادريسي اللاحق (المتوفي عام ١١٦٥ / ٥٦٠) ؛ وأخيراً توزعت السلطة السياسية بين عدد كبير من الزعماء ، لم يتمتع بينهم الأمراء الزيريون الاخيرون ، المعتصمون بالمهدية ولا الحماديون في بوجي بأي امتياز خاص ؛ وكان هؤلاء الأمراء العديدون في تنازع دائم ، بعضهم ضد بعض ، الأمر الذي لم يفد الا في زيادة وطأة الهلاليين السياسية . وعملت هذه الحالة لصالح قادمين جدد إلى البحر الأبيض المتوسط هم النورمانديون الذين يحتلون بسكون صقلية التي كان الفاطميون قد حولوها إلى ولاية تحكمها أسرة حسن بن علي الكلبي والتي ، اذ كانت عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، لم تستطع الاعتماد على عون المعز الغارق في صراعه مع الهلاليين ؛ حتى ان النورمانديين والجنويين وقد شجعتهم انتصاراتهم ، هاجموا الموانيء الافريقية نفسها (أخذت المهدية في عام ١٠٨٧ / ٤٨٠ وكان على الأمير تميم أن يدفع فدية كبيرة حتى أخلى المهاجمون المدينة) . وجاءت افريقية تبرزوجه الأندلس بعد سقوط الخلافة في قرطبة قبلها بخمسين سنة .

هذا الوصف لانحلال الدولة أمر لا يمكن الجدال فيه ؛ لكن الانتقال منه يجري سريعاً جداً إلى حكم على المسؤوليات . فبالعزف على الجناس بين عبارتي عرب ، اعراب ، كما كان يعزف مؤرخو العصور القديمة على الجناس بين كلمتي نوماد ونوميد (عرب رحل Nomade وسكان افريقية القديمة Numides) فان المؤرخين الاستعماريين منذ دي سلان De Slane أطلقوا العنان لهواهم المعادي للعرب ؛ بالطبع لم يكن في وسع أصحاب الحوليات العرب وابن خلدون نفسه السقوط في خطأ فظيع

إلى هذا الحد ، وهم الذين كانوا يتعلمون منذ الصغر ، في القرآن اجراء التفريق بين العبارتين . الا انه لم يكن في المقدور الابقاء على الالتباس طويلاً فكان هوى معاد للبداوة هو الذي أخذ مكانه (مع اخفاء كثير مع ذلك) من الحكم السبقي ضد العرب .

كان من السهل والحال هذه اظهار إلى اي مدى كانت هذه الرؤية التقليدية أحادية الجانب [1] . فان أوصاف الجلال الزيري كانت عمل ممالقين أو ذوي حنين للوطن، فهو يعرض اذن عامل مبالغة ؛ والانتقادات اللاذعة للهلالية صدرت جميعها عن رجال قانون أو عن مؤرخين قديسين ينتمون إلى بورجوازية تجارية ، معارضة في آن واحد للسلطة الزيرية وللقادمين الجدد ؛ ومن هذا الاصطناع نفسه يمكن مع ذلك الانتهاء إلى وجود أزمة خطيرة سياسية (خاصة مالية) ودينية (المسألة الشيعية) قبل قدوم الهلاليين بوقت طويل . الحقيقة ان الثالبين للرؤية التقليدية ، الذين لا ينكرون تبعات نزوح الهلاليين يبحثون عن ابراز الظروف التي جعلت هذه التبعات السلبية ممكنة ؛ انهم يكررون ، بقصد أم بغير قصد الحجج التي تستخدم عادة لعقلنة كل فتح . وهذا ما سعى إليه ش. كورتوا ch. Caurtois لصالح الفاندال وما يفعله كثير من الكتاب العرب المعاصرين لصالح الفاتحين العرب الأوائل : فكل فتح ينجح يتطلب بُنى استقبال لذلك يجب أن يكون هذا التفسير الثاني عاماً ويقود إلى اصدار حكم سلبي على جميع الدول التي كانت قد احتلت (افريقيا الرومانية ، البيزنطية ، الأغلبية ، الزيرية ، الاندلس الأمويين ...) بتبيان في كل مرة أنه كان يقصد دولة مستقلة ، أجنبية أو أقلية ضئيلة جداً ؛ والفاتحون لا يدخلون لا أكثر من الجور ولا أكثر من التخريب لأن الدولة المستغلّة كانت ، بتثبيطها للهمم في الانتاج بنظامها الضرائبي الثقيل، والاحتكارات أو بنهب موظفيها، قد تدمر الاقتصاد [2] من قبل .

---

(١) أنظر : ٢ .ك . سهلي : المصدر السابق ص. ص ٧٣– ٨٦ . ي. لاكوست y· Laeoste في ابن خلدون ، باريس ط . ماسبيرو ١٩٦٦ ص. ص ٨٧ – ١٠٥ ؛ ج . بونسيه : « أسطوره الكارثة الهلالي » في : Annailes لعام ٢٢ رقم ٥ صادرة في ١٩٦٧ ص. ص ١٠٩٩ – ١١٢٠ .

(٢) لكي تكون هذه النظرية منطقية يجب أن تكون عامة ؛ ولأنها ليست كذلك فـان برهنة ش.

في الحقيقة ان هذين التفسيرين هما مجردان كلاهما على حد سواء اذ أنهما يستخدمان نفس المصادر القانونية والتاريخية أو تاريخ القديسين ، التي كما سبق قوله يشكل أدباً معادياً في آن واحد للسلطة للزيرية لأسباب ضرائبية ودينية وللسلطة الجديدة لأسباب ضرائبية كذلك وسياسية ؛ وهو في جملته انعكاس للحالة في مجتمع حضري معين يستطيع تقديم حجج بلا تمييز بين هؤلاء وأولئك : ويمكن للمناقشة على هذا النحو أن تدوم طويلاً . والواقع أنه لا يمكن غض النظر لا عن العوامل ذات المنشأ الخارجي ولا عن العوامل ذات المنشأ الداخلي ؛ وقبل كل شيء علاقات القوة في البحر الأبيض المتوسط : فان انحطاط غرب وشرق المغرب الأسلامي المتعاصر فيهما الاثنان تقريباً ، أعني في شطري الغرب الأكثر تحضراً ، الأكثر تعريباً ومن أجل ذلك الأكثر ارتباطاً بمصير الإسلام العام ، يتطابق مع انحطاط عام للخلفاء الفاطميين والعباسيين ، الذي سوف تكون رمز التعبير عنه انتصارات الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٧ — ١٠٩٩) ؛ ولا بد من أن ينظر إلى الانكسارات في الأندلس وفي الشرق في اطار عـــام لصراع كان الرهان فيه السيادة على البحر المتوسط . والحال ، إننا ، حتى الآن لا نفعل الا أن نتحقق من هذا الاختلال في التوازن بين اوربا غربية آخذة في التوسع وعالم اسلامي واقع في أزمة . ولا شك في أنه يمكن التفكير في أسباب احصائية بشرية — التي يمكن أن تكون أكثر العوامل حسماً في ذلك العصر — ، وفي أسباب اقتصادية ، مؤشرة في التجارة البحرية وبردة الفعل تجارة الصحراء وأخيراً في أسباب سياسية — دينية (اتجاه توحيدي للبابوية من جهة ، معارضات مذهبية من جهة أخرى (؛ لكن جميع هذه الأمور وانعكاساتها على الوضع المغربي قد اعتراها الغموض بالأولوية المعطاة للظواهر الداخلية ، التي تصل إلى حد إنكار تأثير الحوادث التي تجري في أجزاء أخرى من العالم الإسلامي ؛ فلم تدمج حقيقة بتطور المغرب

= كورتوا (الذي يتمسك بايجاد فارق بين الفاندال والهلاليين) تبدو ضعيفة .

التاريخي لا الأزمة الاسماعيلية ولا التجديد العباسي باشكالاته الواسعة . صحيح ان تلك الحوادث ذات الآفاق الشاملة ما زالت بعد بعيدة عن أن تفهم أو تشرح وفضلا عن ذلك ليست تلك هنا مهمة المؤرخ المغربي ؛ ولكن هل يجب علينا ، من أجل ذلك ، أن ننسى أنه طالما لا نملك تفسيراً مرضياً لهذه الأمور ، بأن أية فرضية في تاريخ المغرب تكون بالتعريف نفسه غير كاملة ؟

بالإضافة إلى ذلك ان العامل نفسه ، المتأتي من الداخل ، لم يكن معزولاً ومحللاً بصورة مرضية ؛ ففي كل مناقشة بهذا الصدد نشاهد غموضاً في الأوجه الاجتماعية (قبائلية) والأوجه الاقتصادية (نوع الحياة الرعوية) وأوجه حياة البداوة الحربية والسياسية ، في حين ان المقصود من الدور التاريخي الذي يلعبه البدوي بالنسبة لبنية عامة معطاة وفي ظرف محدد ؛ فالخلط بين دور المسلمين في القرن الأول وقبائل لوته في الثالث وزناتة في الثامن والتاسع والهلاليين في الحادي عشر معناه الالتزام بتقديم تفسيرات لا تفسر في الواقع شيئاً ، ونجد مصدر هذا الالتباس عالم الجغرافيا أ . ف. غوتيه .

لقد سبق لنا ان رأينا ما يمكن الاعتقاد بالبدوي — المرغم على بدواته ، المدفوع إلى وراء الليمس وبالـ « زناتي » الذي صار حارساً للقوافل ومسيطراً على الاتجار الصحراوي ؛ ولنا في الهلالي نموذج ثالث مختلف تمام الاختلاف عن الأولين . فالمحاولة هي بالتأكيد عظيمة ، وينجو منها بصعوبة ، لمماثلة دور الزناتي في الأندلس بدور الهلاليين في افريقية [1] . والمماثلة هي مع ذلك خطأ ؛ هناك حقيقة صلة بين

---

(١) إنها قضية كلاسيكية ، على عكس ما يوحي بالتفكير فيه هـ. ر. إدريس ، « في الحقيقة الواقعة للكارثة الهلالية » ، في : Amales E' S. C. ، عدد – مارس ابريل ١٩٦٨ ص ٣٩٥ ، فهو يتحدث بعد آخرين عن فتنة بربرية ، لكنه هنا وجب عليه ان يحسب حسابه على انه يحصل اجتياج بربرى و يفسر اختلفت هذه الفتنة البربرية عن فتنة الفتيان الصقالية .

الهجرتين ، ان لم يكن الا على الصعيد الديموغرافي البسيط ، إذ أن اقفار المغرب الأوسط من السكان ، حتى نسبياً ، هو ما دعا في آن واحد القادمين الجدد وعمل فيما بعد حقولاً لزراعة المراعي (لم تكن قابلة للتكيُّف مباشرة لعدم وجود سلطة سياسية متينة) . ومـــع ذلك يبقى بين هؤلاء الـ « مهاجرين » اختلاف كبير جـــداً : ان لزناتيين ، سيحاولون ، وقد حرروا من امتيازاتهم ومن أرباحهم في تجارة المغرب الأوسط ، استعادة نفس الامتيازات بعيداً في الغرب ؛ واذ لم يعودوا قادرين على لسيطرة على الطريق فإنهم سيسيطرون على المدينة نفسها وعندما لا يستطيعون ذلك يمضون إلى اسبانيا كجند ، يحاولون بوصفهم كذلك ، الإسهام في السلطة السياسية . وكانت روابطهم بالمدينة (بصفة أساسية كمحطة وسوق) أقرب عهداً من أنهم لا يندمجون فيها بسهولة ، وهذا هو بالضبط ما حدث بصورة جلية (الا في غضون سنيّ القحط) في مراكش وفي الأندلس ؛ ولسنا نرى في مسلكهم أي فارق عن مسلك الادارسة أو الصقالبة . أما الهلالي فهو يقدم طرازاً جديداً إذ يأتي وله صفة المالك (مستند اقطاع) ؛ وأياً ما كان ، فضلاً عن ذلك المدلول القانوني الذي نريد اعطاءه لهذه العبارة ، فان المعنى السياسي منها واضح : فالهلالي يأتي بوصفه وريثاً لمسلطة السياسية . اننا نكاد لا نعرف شيئاً عن تاريخ هؤلاء الهلاليين (ربما كانوا ، في الأصل ، ضحايا نفس ما تعرض له الزناتيون من انحطاط درجتهم الحضارية ، إذ لا ننسى بعد كل شيء ان الفتوحات العربية الكبرى في القرن السابع قد انتهت بصورة غير متوقعة إلى افقار شبه الجزيرة العربية وإلى انتقال طرق المواصلات الكبرى في العالم القديم) ، لكنهم ظلوا قروناً في هذه الحالة من خفض الدرجة الحضارية ؛ فقد تجمّدت البنية الاجتماعية (القبائلية) وأصبحت عنصراً محدداً ، « رأس مال » ، والتفوق السياسي الذي يولده ، يوفر ثروات . هذا السبب لا شك في أنه غير كاف ، إذ أن الهلالي ، اذا أصبح صاحب منطقة ذات تجارة مزدهرة ، يستطيع بسهولة أن

يعود إلى وضعه السابق ولكنه إذا لم يجدها (وهذه هي هنا النقطة الهامة) ، فإنه يستمر في القيام بدوره كزعيم سياسي ، أي كطفيلي عامل على اللامركزية . بالطبع ان الأمور لا تظهر البتة بهذه البساطة ، ولكن يبدو جيداً ان هناك فارقاً رئيسياً بين حوادث غرب وشرق المغرب الإسلامي . في الغرب ، ثمة تيار تجاري متصل يتيح للزناتيين استعادة وضعهم السابق بسرعة (وفيما بعد يتيح للمارينيين وللزيانيين تأسيس دول مركزية نسبياً) ، على حين ان الحركة التجاربة في الشرق قد تحولت عند نقطة انطلاقها وتكاد أن تكون محاصرة عند نقطة وصولها (الخطر النورماندي) ؛ وسوف يحافظ على وضع الهلاليين في دورهم كجند أثرياء يسعون إلى وراثة سياسية . وعلى هذا النحو تكون رؤيتنا أفضل لمعنى ولدينامية التناقض بين سكان حضريين وهلاليين ، اذ المقصود هو تنافس تتزايد حدته بقصد الاستئثار بأرباح (أحياناً المتراكمة) تجارة آيلة للكساد ، وهذا التناقض ينشأ من وضع خاص يختلف أشد الاختلاف عن الوضع الذي كان موجوداً في الدول ـ المدن مثل تاهرت وسيجيلماسا وتلمسان وأغمات ... الخ . حيث كانت أرباح تجارة نشطة ترضي في آن واحد أسياد الطرق وسادة المدن . أما في الوضع الجديد حيث تنشأ الإمارات من دولة متصدعة فان السلطة السياسية الشاغرة التي تتنازع عليها الارستقراطية الحضرية والهلاليون هي بديلة لتجارة تتضاءل ، وكلما أصبح الرهان طفيفاً كلما كان الصراع عنيفاً . ان الهلالي لا يقدم معنى تاريخياً جديداً لحياة البداوة فحسب ولكنه يخلق كذلك نموذجاً للامارة مختلفاً على حد سواء عن دولة الأغالبة والزيريين المركزية وعن المدن ـ الدول في القرنين الثامن والتاسع . فإذا لم نميز المعنى التاريخي ، في مختلف الظروف المتلابسة ، لمختلف نماذج البدوي اذن نلتزم بأن نجعل من بنية اجتماعية مجردة السبب في تطورات متنوعة جداً في الوقت الذي نجد انقسامية أمام تناقضات لا يمكن التغلب عليها مثل تحوّل البدوي ، غير المفهوم من بدوي هدام للامبراطوريات (الزناتيون والهلاليون) إلى بدوي مؤسس للامبراطوريات (المرابطون والمارينيون والزيانيون)

وبالتحليل الأخير ان ما يمكن أن يرجح بصورة قاطعة رأي اشياع التفسيرين المتقدم ذكرهما هو برهان محسوس عن تطور التجارة ذات المدى الكبير . والحال أنه لذو مغزى أن تشهد الوثائق الوحيدة المحققة عن التجارة الافريقية (وثائق جنيزة Geniza في القاهرة التي درسها س. د. غواتان [1] S. D· Goitein) في صالح الفرضية الثانية ، ألا وهي التي تعتبر حياة البداوة (بالمعنى الاجتماعي – السياسي) كظاهرة محرّض عليها أكثر كثاً منها كسباً موجباً .

---

(١) راجع س. د. غواتين S, C. Goi Tein في مقالات مختلفة أعيدت في : Studies in islamie Histery, Leidenet, ch. X IV وكذلك في Mediterranean Soeiety ..., t. I, u. of cal. P., 1768 ولقد كتب في مقاله المنشور في : دراسات في الاستشراق مهداة إلى ليفي – بروفنسال ، ١٩٦٢ ـ٢ ص. ص ٥٥٩ – ٥٧٩ ، ما يلي : « أفكر (...) في تلك المقاطع من رسائل القيروان التي تبكي سقوط الغرب الإسلامي العام في ثلاثينات وأربعينات القرن الحادي عشر قبل اجتياح الأقوام البدوية الـ « حجازية » بزمن طويل على حين نستطيع في مطلع القرن الحادي عشر قراءة ملاحظات فخورة عن حالة القيروانيين المزدهرة ». (ص ٥٦٩) .

٧ – وحدة تنطلق من الغرب

محاولة المرابطين

في الفترة التي تجزأ فيها الشرق المغربي ، أخذ الغرب (الغرب المغربي) الذي بقي حتى ذلك الحين منطقة المدن – الدول ، يتحد على النموذج الامبريالي . ما زال لدينا قليل من المعطيات المحددة عن التطورات الاجتماعية – الاقتصادية ، بنوع خاص عن تأثير التجارة المنظمة لمسافات بعيدة جداً وعن درجة انتشار العملة . وما يبدو محتملاً هو ان الوحدات الاجتماعية البربرية (وهو ما سميناه بالنموذج القبلي الاسروي) قد فقدت بعض الشيء من تماسكها بما يرافق التجارة والعملة والايديولوجية الدينية من تأثير ، في الحدود نفسها التي كانت فيها حاجات الدفاع التي كونت لها بناها ، تفقد من حدتها . وسوف يترك عصر المدن – الدول مكانه لعصر الامبراطوريات تماماً بسبب التجانس النسبي للتنظيم الاجتماعي وفي نفس الوقت للضعف الذي ما يزال ظاهراً في العلاقات بين الجماعات والاقاليم . وفي القرن الحادي عشر كان المسرح المغربي خالياً : انحلت الدولتان ، الاموية والزيدية الى امارات فاقدة القوة ، وكان الشرق البيزنطي والاسلامي آخذاً في الانحطاط . واوربا في مطلع نهضتها . هذه الظروف الداخلية والخارجية سوف تعطى للمغرب الغربي فرصه : اذ أنه سوف يستطيع طيلة قرنين ونصف من الزمان ان يلعب دوراً فعالاً ، تماماً الزمن الذي استدركت فيه اوربا الغربية تأخرها . ولسوف يكون اول تعبير عن هذا العمل الايجابي ملحمة المرابطين . ولدراسة سلالة المرابطين اولى السلالات المراكشية ذات الاهمية لشمال افريقية واوربا ، نملك مصادر مكتوبة كافية ، لكنها جميعها مركزة على الدور الذي لعبته في الاندلس في الصراع ضد القشتاليين ، على نحو تبدو فيه سريعاً

جداً بأنها اندلسية أكثر منها مغربية ، على الأقل في النصوص . والحاصل أن أصولها وسقوطها ، التي نجد أسبابها العميقة في المغرب تبقى مجهولة بعض الشيء عندنا بسبب نواقص التوثيق . وما يمكن ذات يوم ان يقلب معارفنا عن المرابطين قد يكون عدد كبير من المكتشفات الاثرية في موريتانيا وفي الجنوب المراكشي . اذن، فيما يتعلق بالمغرب ، ليست هذه الحقبة ، في النهاية ، معروفة في العمق أكثر من الحقب السابقة على الرغم من المعنى الظاهر في المصادر وعدد الدراسات التي كرست لها .

١ — ظروف الظهور :

لقد ظهر المرابطون [١] في الصحراء الغربية . وفي الصفحات السابقة اشير في مناسبات عديدة الى حقيقة ان الفتح العربي ، اذ جرى على مدخل **الصحراء** قد فتح او اعاد فتح تلك المساحات المقفرة للفعالية المغربية . وبعد بناء مدينة سيجيلماسا (٧٥٧ | ١٤٠) أصبحت الاهمية الاقتصادية لهذا الاقليم واضحة بسرعة فائقة . كان يسكن هذا الجزء من الصحراء بدو موغلون بالترحال من أهل الأبل يدعون بالصنهاجيين [٢] . وكانوا قد اتصلوا بالسود فدفعوهم الى الجنوب شيئاً فشيئاً وبعد أن فازوا بالسيادة على مناجم الملح بادلوا هذا المحصول الاساسي بالتبر . ولا ندري بالطبع في أي تاريخ على وجه الدقة وفي أية ظروف أقيمت هذه التجارة . وقد تألف على أساس هذه التجارة اتحاد صنهاجي متسلطة على مملكة غانا السوداء وبنى لنفسه عاصمة هي اوداغوست Awdaghost. وفرض كما يحدث غالباً في مثل هذه الحالات فان الاتحاد يضع ويتفكك على اثر تنافسات مستعرة على السلطة ، وقد عرض الصراع ضد السود فترات متقطعة من الانتصارات والانكسارات . هذا هو ما جرى على الارجح في القرنين التاسع والعاشر . الا ان ثمة عدد من الاسئلة

---

(١) المعروف أن كلمة المرابطون العربية تعني سكان الرباط وهو نوع من الصومعة . ومن حيث هي مؤسسة يبدو تكوين هؤلاء « الرهبان — الجنود » كأنه رد على « الدعاة » الشيعة .

(٢) الذين يعتقدن مثل ا. ف. غوتيه بمدلول موضوعي لكلمتي صنهاجه وزناته يفترضون حدوث اجتياح زناتي قادم من منطقة طرابلس قسم الكتله الصنهاجية إلى فرعين ، لاذ أحدهما بجبال القبائل ، هم المستقرون ، ولاذ الآخر بالصحراء وأخلد إلى البداوة .

يبقى مطروحاً اذ إن النصوص ليست متطابقة تماماً : ليس من المؤكد انه كان هناك اتحاد واحد ، ولا طريق تجاري واحد ، فمن الممكن انه كان هناك اتحادان وان التنافس بين الاتحادين والطريقين هو الذي يفسر الانكسارات التي لحقت بهما ضد سود غانا . كذلك لم يكن انتظام العلاقات مع الشمال أكيداً حتماً .

يمكن الظن بأن هذه التجارة لم تكن تجري مباشرة (اذ كانت المرحلة الاخيرة في أيدي الزناتيين) وان حروب القرن العاشر الكبرى قد أتاحت لصنهاجيي الجنوب الوصول الى اسواق الشمال ، مستفيدين من انتقال الزناتيين الى مراكش . ويمكن الظن كذلك بأن دمار سيجيلماسا وتاهرت ، مغبة الحروب المستمرة في المغرب الاوسط ، اعطى من جديد اهمية لطريق غربي (ادرار موريتانيا) (Adrar Mauritanien) . منذ زمن طويل تحت سيطرة اللانتونا Lantuna والقودالا Guddala الذين اتصلوا حينئذ بمدن الوسط المراكشي (تامادالت Tamaddalt ونفيس Nfis وتادلا Tadla وسالة Salé وجميعها امارات ادريسية أو إفرانيه Yfranies) . وهي افتراضات بالطبع ، تستند الى تفصيلات بسيطة سجلتها الاخبار التاريخية ، لكنها تلقي اضواء على الحوادث التي سوف تبقى بدونها مليئة بالالغاز [1] .

ربما كان هذا الغياب الطويل ، هذا النقص في الاحتكاك بالشمال هو الذي يفسر العودة الى اعتناق الاسلام . ان اسلام الفتح الاول ، السريع ، السياسي المحض ، لعله كان أكثر تخصيصاً كذلك بالاحتكاك بالسود ، ثم ها هم الصنهاجيون في القرن العاشر يجدون من جديد جنوباً مراكشياً احسن اعتناقاً للاسلام بفضل عمل الادارسة وبفضل التجارة مع الاندلس . ومن هنا كانت الضرورة لاهتداء ثانٍ ، يرمز له بالتأكيد بحج يحيى بن ابراهيم زعيم الاتحاد الغربي . والحال أن ردة الفعل الكبيرة ضد المذهب الشيعي ، بدأت في مطلع القرن الحادي عشر وهي التي ستولد حركة ايديولوجية

---

(١) لقد أبرز هذا الجانب الاقتصادي : ر. أوليفيه R. Olivier و ج. د. فاج J.D.Fage في : A short history of Africa, Penguin Books. 1962, p.p. 81 — 83. وفصله ووضع النقاط فيه على الحروف ب. ـ ف. دي مورايس فارياس P.F. de Moraes Farias في كتابه : The Almoravids Bifam XXIX B, 1967, p.p. 794—878.

تضع ما سيكون المعتقد السني الصحيح في شكله الطبيعي. ولسوف تتبارى في ذلك مذاهب ثلاثة . على مستويات مختلفة : الحنبلي على صعيد العقيدة ، وقد لقي تجاوباً عظيماً بين الطبقة الدنيا في المدن . والشيعي ، على صعيد المنهجية الفقهية ، مستميلاً بخاصة ارستقراطية الاوساط التجارية الكبرى والمالكي ، على صعيد التنظيم الفقهي- الاجتماعي . متغلباً بصورة خاصة في المجتمعات المميّزة قليلاً . وقد تشكلت دعاية مضادة . لم تستخدم الدعاة كالشيعة وانما النساك ، العباد ، الذين يجعلون من المثل نوعاً من الدعاية بالفعل والذين سيهتمون خاصة بمن هم غير فرس إذ كان ينظر للايرانيين على أنهم خالصون نهائياً للمذهب الشيعي : الترك ، مثلاً ، انه عصر فتوحات محمود الغزنوي الكبرى ، ليس ما يمنع اذن من التفكير بأن المرابطين ظهروا بصفة نظراء غربيين للسلاجقة في الشرق [1] ، في محاولة لتطويق المذهب الشيعي من الجناحين بنفس الاسلوب الذي طوق به الفاطميون الامبراطورية العباسية من جناحيها باستمالة الفرس وافريقية . وعلى حين كانت الاشعرية الجديدة في الشرق هي التي مهدت الطريق للسلجوقيين فان هذا الدور في الغرب آل الى المذهب المالكي كما اتخذ شكله في القيروان . وليس مستحيلاً أن يكون الفقهاء المالكيون هم الذين عرضوا على يحيى بن ابراهيم أن يمدوهم بالمرشد الروحي وعندئذ فان سلسلة أبي عمران الفاسي الوجاج - عبد الله بن ياسين تكون سلسلة من الدعاة المالكيين- العباسيين[2] .

عاد يحيى بن ابراهيم الى بلاده يصحبه مُصْلِحهُ ، عبدالله : (ان ما حدث فيما بعد : فشل اعمال التبشير الاولى ، الهجرة الى جزيرة وبناء رباط (صومعة) ، انضمام جماعة قليلة من الرجال الاكفاء ببطء حول عبد الله والزعيم الجديد يحيى ابن عمر ، سوف يشكلون نواة الدولة المقبلة ... كل ذلك كان نسخة مطابقة لدولة المدينة ، ولكنها نسخة مرادة ، اذ إن ذلك هو معنى السنة ، أي الخضوع الواعي لصورة هادية . وليس ثمة من سبب للشك في هذه الوقائع ، لكن حقيقة هذه الوقائع

---

(١) الدور الأساسي في هذه السياسة للباقلاني (متوفي ١٠١٣ / ٤٠٤) الذي كان استاذاً لأبو عمران الفاسي (متوفي ١٠٣٨ / ٤٣٠) .

(٢) إن مسائل أبو عمران المطروحة على يحيى ، كما تنقلها إلينا الوقائع ، تدع مجالا للتخمين بمقاصد خفية . أنظر ا. ناصري ، المصدر السابق ج ٢ ص ٥ - ٦ .

توجد بالضبط في هذا التطابق مع الصورة التي نكونها للماضي [1] . وقد أخذ هذا التطابق مع رجل ، عن الشيعة بقصد الاجادة في محاربتهم . كما سوف يؤخذ الزهد ، الشدة (التكفير بالكبائر) عن الخوارج . بجميع هذه السمات دخلت حركة المرابطين الاطار العام للهجوم المضاد المشترك (السني) الذي سوف ينتهي ، بعد اخفاقات عديدة ، إلى الانتصار في عهد السلاجقة .

٢ — انشاء السلالة

يمكننا تمييز ثلاث مراحل في تأسيس امبراطورية المرابطين . قبل كل شيء تكوين قاعدة انطلاق في الصحراء الغربية : أعيد بناء الاتحاد الامتوني . ولدينا في ذلك ما يذكرنا بخضوع قريش في بادرة النبيّ ، بما ان اللامتونيين سوف يكونون فيما بعد أساس دولة المرابطين . ثم هاجمت السكان الذين كانوا يسيطرون على منافذ التجارة الصحراوية في الجنوب والشمال — ووجه الوجّاج الذي كان يعيش في سيجيلماسا ، نداء الى الزعماء الجدد ، وهذا النداء سيكون له كذلك قيمه السابقة ؛ كان يشجع رغبة المرابطين في التوسع وفي نفس الوقت يبرر فتح امارة على المذهب المالكي حسب الظاهر لكنها لم تكن تقدم أية ضمانة من وجهة نظر الايديولوجية الجديدة . واحتلت المدينة عام ١٠٥٣ / ٤٤٥ في عهد آخر أمراء المغراوة وقفل المرابطون مباشرة عائدين باتجاه الجنوب فأعادوا احتلال اوداغوست التي كانت قد سقطت في أيدي سود غانا عام ١٠٤٠ / ٤٣٢ . وهكذا تمت السيطرة على التجارة الصحراوية من جديد . وكانت المرحلة الثانية فتح مراكش. واستولي ثانية عام ١٠٥٦/ ٤٤٨ على سيجيلماسا التي تمردت أثناء ذلك ثم احتل الجيش بقيادة أبي بكر بن عمر ، يعاونه ابن اخيه يوسف بن تاشفين تارودانت وماسا وتفيس وأغمانت والتادلا على التوالي . وفي أغمات حيث كان يحكم امير من المغراوة ، ورث ابو بكر ، مع

---

(١) ان هـ. تيراس ، الذي يدعوها الأسطورة الذهبية (المصدر السابق ص ٢١٦) ، لا يدرك المعنى العميق لهذا التطابق ، فان ما يجب تفسيرها به هو بالنسبة المهدية لدى الشيعة . وان المعادين للشيعة راحوا يشددون على أن مهديهم هو النبي الذي يجب أن يعيش المرء حياته من جديد لحظة بلحظة (الاقتداء به في السنة) وكل حركة سياسية يجب أن تحيا من جديد بالطبع بدايات النبوة المحمدية .

المدينة . زوجة ذلك الامير . زينب الشهيرة التي تزوجها والتي سوف تلعب دوراً سياسياً عظيماً جداً بفضل معرفتها بالوسط المراكشي . وفي عام ١٠٦٨ / ٤٥٠ بدأ الهجوم ضد البارغواتا . الذين دافعوا عن أنفسهم بضراوة على عكس غيرهم من السكان الذين سبق ان فعلت فيهم الدعاية المالكية . الا ان عبدالله بن ياسين ، ايديولوجي الحركة قتل ؛ وأحل محله سليمان بن حدو Haddu . الذي قتل بدوره ولم يحل محله احد . وامام هذه المقاومة صعد جيش المرابطين باتجاه الشمال بالطريق الذي يقود بمحاذاة اطراف الاطلس نحو سفرو وفاس . ولنلاحظ بأن اتجاه العمليات قد حددته الطرق التجارية كما وصفها لنا البكري . أما وقد تم احتلال الجنوب المراكشي فإن وقفة عارضة برزت الامر الذي أتاح لبلكين الحمّادي القيام بغارة على الشمال المراكشي ضد امراء المغراوة . عندئذ قفل أبوبكر راجعاً الى الصحراء وترك يوسف بصحبة زينب . وهو حادث من الصعب تفسيره . هل كان ذلك اقتساماً ؟ هل كان ذهابه لاقرار النظام في المؤخرة ؟ هل تزوج يوسف زينب مباشرة ؟ إنه لأمر لا نعرفه على وجه الدقة . وعلى أية حال فان الزعيم الجديد نظم المنطقة المحتلة . وفي عام ١٠٦٢ / ٤٥٤ بنى مراكش ليجعل منها قلعة عسكرية ؛ وسوف تحل المدينة الجديدة الواقعة في ملتقى طرق المواصلات محل سيجيلماسا كسوق كبير للذهب ؛ ولسوف يتركز سك النقود ، المبعثر حتى ذلك الحين في امارات عديدة من الجنوب ، في مراكش . كذلك اعاد تنظيم الجيش الذي عزز بفرقة من رماة السهام وبقيادته . بصفته زعيماً سياسياً ودينياً في آن واحد بدأت المرحلة الثالثة ألا وهي فتح الشمال والشرق المراكشيين . وفشل اول هجوم على فاس ١٠٦٣ / ٤٥٥ ؛ فحاصرها عندئذ شيئاً فشيئاً بالسيطرة على مدن الشمال وبافساح الوقت للفقهاء لاعداد اذهان السكان ؛ وفي عام ١٠٦٩ / ٤٦٢ استسلمت المدينة . ثم فتح جيش المرابطين بين عامي ١٠٧٠/ ٤٦٣ و ١٠٨٠ / ٤٧٣ المغرب الاوسط بادئاً بتازا Taza وغرسف Guercif واوجدا Oujda وتلمسان واوران (وهران) Oran ولم يتوقف الا في الجزائر (جزائر ابن مازغانّا Mazghanna) . ويزعم هـ. تيراس [1] H.Terrasse . مستظلاً

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢٦ .

بنفوذ ابن خلدون، بأنه توقف في الجزائر لأنه كان لديه إحساس بالتضامن العرقي مع صنهاجة الشرق ، من حماديين وزيريين ؛ على نحو يصير فتح المرابطين عملية موجهة أساساً ضد الزناتيين . الا أنه من الصعب البرهان على ان البلاد الواقعة غربي الجزائر لم تكن تحت سيادة الحماديين ما دام ان بلكين كان قد وصل بعد سنوات الى فاس . فالسبب الاكثر قبولا وقد سبق ان قدمه رواة الاخبار هو استغاثة أمراء الاندلس بيوسف . لقد بات هذا الامر هو المعضلة التي سوف نجدها تطرح على كل سلطة جديدة في مراكش الا وهو الاختيار بين الشرق والشمال ، ولم يكن في وسع المرابطين الا ان يختاروا الشمال .

٣ — دولة المرابطين

في نهاية القرن الحادي عشر (نهاية الخامس الهجري) كان المغرب الغربي ، لأول مرة ، من الصحراء الى البحر الأبيض المتوسط في ظل سلطة سياسية واحدة . وكانت هذه السلطة ذات وجهين : عسكري وديني . فالجيش الذي كان اصل الدولة ، كان مشكلا من سوقات ، او وحدات متنوعة الاصول ، وذات قيمة ومراكز أدبية غير متساوية ؛ وظل الاساس متكوناً من ممثلي جماعة الاتحاد الصحراوي (لامتونا ، غودّالا ولامتا) الحقت بهم فرق مساعدة أخذت من سكان مراكش الجنوبية جازولا ومصمودا وما كان متبقياً من جيوش الأمراء الزناتيين المهزومين ؛ وفيما بعد سوف تدعم بجنود مرتزقة من الترك (الغز) وحتى من المسيحيين على نحو يصوّر التعداد الذي نقرأه في ابن خلدون مثلاً (مئة الف فارس من قبائل صنهاجة ، جازولا ، مصمودا ، زناتة ، الغز ورماة السهام) ، في آن واحد نظام تعاقب عملية التكامل الجماعات المختلفة في جيش المرابطين وربما كذلك التنظيم الحقيقي لهذا الجيش ؛ الا ان هذه النقطة الاخيرة ليست أكيدة . فان القادة في ساحات المعركة كانوا هم رؤساء الوحدات التقليديين ، على انه كان بعض من يتميزون بشجاعة خاصة يسمون قادة دون أن يؤخذ بعين الاعتبار انتسابهم لهذه الجماعة او تلك . لو كنا نستطيع معرفة البنية الاولية لهذا الجيش بدقة وكيف تطور لامكن بلا شك توضيح نقاط غامضة كثيرة في تاريخ المرابطين في المغرب وفي

اسبانيا . ان المؤرخين الاستعماريين يسمونه جيشاً قبائلياً ويعتقدون انهم بذلك قد عرفوه . ولكن جميع الجيوش ذات البنية القبائلية كانت لا تتشابه ابداً ؛ بل ان هذه التسمية لا تبدو . وفقاً للنصوص . مطابقة تمام المطابقة . وعلى أية حال كان المرابطون كلما تقدموا نحو الشمال . كلما حسنوا تسليحهم وتكتيكهم . وكلما تم احتلال مدينه . سمى يوسف عليها والياً وترك له حامية تعيش في عزلة تامة عن السكان .

كانت السلطة الدينية متمثلة في هيئة الفقهاء (علاّمون في الفقه المالكي) ؛ الذين كانوا يتقاضون مرتبات ويشاركون في مجلس مستشاري الامير ، ويرافقونه الى الاقاليم والذين يقيمون منهم في مدن الاقاليم يمارسون حق الرقابة على محاضر الاحكام الصادرة عن القضاة المحليين . فدور الفقهاء كان اذن في آن واحد ارشاد الامير في سياسته العامة والسهر على تطبيق العدل المالكي . وحيث اننا لا نملك أية معلومات عن اسلوب اختيار هؤلاء الفقهاء فنستطيع الظن ان المقصود بهم أولئك الذين ساعدوا المرابطين في مختلف المدن على الاستيلاء على السلطة . وعلى أي نحو كانت سياسة هؤلاء العلماء المالكيين ؟ يجب ان نميّز فيها ثلاثة عناصر : جانب الارشاد والاصلاح الاخلاقي . والزهد الذي كان المبرر بحد ذاته لحركتهم ووسيلتهم للدعاية ؛ يأتي بعده الجانب العقائدي ، القائم على الرضاء المشترك ضد الايديولوجيات شديدة التعصب القاصرة على أصحابها ؛ وأخيراً الجانب الفقهي — السياسي ، الخاص بتنظيم الحياة السياسية . هذه الجوانب الثلاثة لا تتطابق ولم يكن لها خاصة تأثير متساو . وكان من جراء اتخاذ الموقف العقائدي توجيه ضربة قاتلة للانشقاقات : الشيعية والخوارجية والبارغواتية [1] . وفي مجال تنظيم الدولة كان الامر عودة لسياسة دولة المدينة (الامر الذي يعني بالتعريف استقامة المعتقد) . فجميع الضرائب المفروضة المبتدعة وصمت باللاشرعية وأبطلت . وفيما عدا الزكاة التي حدد رصدها فلا ينبغي للدولة أن تعيش شرعياً الا من عائدات الجزية ومن الخراج على أهل الذمة وخمس غنيمة الحرب . ويبدو جيداً أن الدولة ، في أيام يوسف قد اكتفت فعلاً بهذه العائدات .

---

(١) الذين كانوا أبعد من أن يختفوا من مراكش : الرافضية في تارودانت ، البارغواتيه في بلاد النومارا . أنظر مسألة الحاجب سغوت البارغواتي في ا. ناصري ج ٢ ص ٢٨ .

هذا الاصلاح الضريبي ، الذي صار دائماً أول فعل للسادة الجدد في كل مدينة يتم احتلالها ، كان دعاية حسنة ، اذ كان وسيلة لتشجيع التجارة التي لم تعد تدفع رسماً وتساعد على ازدهار المدن ، لكنه كان كذلك اصلاحاً تستطيع تطبيقه وحدها دولة آخذة في توسع مستمر أي امبراطورية ما زالت بعد في طور الانشاء. أن يعيش المرء من جديد عصر الرسول أمر كان يعني اذن أن يعيش من جديد اذن كذلك صعوبات واضطرابات الامبراطورية العربية عينها كذلك ، ويبدو جيداً (إذ إن معظم رواة الاخبار الموالين للمرابطين لا يتكلمون عن ذلك) ان الامير الثاني علي بن يوسف ؛ رأى نفسه مضطراً الى أن يدخل من جديد رسوماً على الاسواق (qabalat) (قبالات) .

٤ — السياسة الاندلسية

هذه السياسة تشكل في الحقيقة جزءاً من السياسة الدينية إذ أن كل شيء يسمح بالتفكير في أنه لم يكن في برنامج يوسف الاولي فتح الاندلس . والحال ان الاندلس كانت في ذلك الحين تجتاز أزمة اجتماعية وسياسية خطيرة . أزمة اجتماعية ترجع في جوهرها الى نظام ضرائبي تزداد اعباؤه شيئاً فشيئاً : لم يكن سكان الارياف الذين بقي أكثر من نصفهم على الارجح نصارى في الشمال ، يملكون الا ان يتمنوا اضعاف السلطة الاسلامية.وكان سكان المدن ، العرب او المستعربون يجدون في الفقهاء وفي النساك دعاة مؤثرين . وكان سبب هذه السياسة الضرائبية ضعفاً عسكرياً مرده ضيق الامارات القائمة ، الذي كان يضعها في تبعية الممالك المسيحية المجاورة ، المدعمة بالنهضة الغربية وبالروح الصليبية وتكوين اقطاع محارب ؛ ومن هنا ظاهرة المرتزقة المسيحية التي كانت في الواقع اعادة فتح مقنّع . وقد انطلق الملوك المسيحيون ، مستفيدين من تشتت القوى والضيق الاجتماعي والضعف العسكري ، في جولات تخريبية كبرى (ردود على جولات المنصور العامري في القرن العاشر) لا يمكن تفسيرها الا بانهيار السلطة السياسية في الارياف التي بقي بعضها على مسيحيته . وكان على جميع الامراء الاندلسيين حينئذ أن يدفعوا جزية للملوك المسيحيين ، كما كان هؤلاء يدفعونها فيما مضى لخليفة قرطبة . وهكذا نشأت حلقة مفرغة حيث أدى الضعف

العسكري الى نظام ضرائبي منهك . أضعف بدوره السلطة. وفي عام ١٠٨٢ / ٤٧٥ وصل احد جيوش المسيحية هو جيش الفونس السادس ملك قشتالة حتى طارفه Tarifa . وفي عام ١٠٨٥ سقطت طليطلة دون قتال . وقد أضناها مجرد نمو التناقضات بين سكانها وأميرها . العاجز والطاغية . فتشكل عندئذ حزب مالكي مناصر للمرابطين يعبر في آن واحد عن الاستياء الاجتماعي وعن الجزع أمام التهديد المسيحي . وتحت ضغط هذه الحركة المتعاظم ذهب ثلاثة أمراء (امير اشبيلية وغرناطة وباداجوز Badajoz) لمقابلة يوسف الذي وجد لزاماً عليه ، وفقاً لايديولوجيته الخاصة ، مساعدتهم ، بدلاً من الاستمرار في محاربة امراء مسلمين آخرين : إن شرعيته الخاصة هي التي كانت تجد نفسها موضع الخلاف . فذهب الى الاندلس اربع مرات : عدّلت الحملتان الاوليتان لوقت ما الوضع العسكري في شبه الجزيرة . ففي عام ١٠٨٦ / ٤٧٩ فاز المرابطون بنصر عظيم في زلاّقة . لكن النصر أفلت من يدهم بعد عامين ، بفارق قليل بسبب اختلافات طرأت مع الامراء الاندلسيين (اخلى العدو قلعة اليدو Aledo ولم تؤخذ عنوة) . وبدءاً من عام ١٠٩٠ / ٤٨٣ كرس الامير وقته لشؤون مسلمي اسبانيا أكثر منه للمسيحيين ؛ كانت معارضة الامراء على اختلافهم من القوة بحيث كان الرأي العام يفضل عليهم سلطة المرابطين ؛ فسوغت فتوى فقهية أقرها علماء المشرق والمغرب (وعلى الاخص الغزالي) اسقاط جميع أمراء الاندلس باستثناء أمير ساراكوزة الذي كان في وسعه تلقي العون من القشتاليين بسهولة . وصارت عاقبة ذلك أنه غدا منذ ذلك الحين لامبراطورية المرابطين جزآن مختلفان أشد الاختلاف : أحدهما اوربي والآخر مغربي . وعاصمتان هما : مراكش واشبيلية . أما وقد حصل على هذا القدر من النتائج الباهرة كان يوسف يستطيع الطموح إلى لقب امبراطور يعبر عن هذا النجاح : كان لقب أمير المؤمنين قد خفض من قبل الخوارج والشيعة ؛ ولم يكن في وسعه اتخاذ لقب الخلافة ولا الاكتفاء بسلطنة بسيطة ؛ فوجد الفقهاء حلاً وسطاً : اذ ابتكروا له لقب امير المسلمين وهذا الابتكار يظهر تأثير النظريات الدستورية الجديدة (نظريات البغدادي والموردي) الرامية إلى تعزيز مشترك .

٥ ـ امبراطورية المرابطين

كانت تتألف من ثلاثة أجزاء منفصلة تماماً : الصحراء الغربية قبل كل شيء ؛ ويبدو جيداً ان هذا الجزء قد استعاد استقلاله الذاتي ابتداء من عام ١٠٦٢ / ٤٥٩ ، بالاتحاد اللامتوني تحت اشراف أبي بكر المتوفي عام ١٠٨٦ / ٤٧٩ واستمر في محاربة سود غانا . والحال ألم تكن هناك منذ الانطلاق خطيئة لا تغتفر ما لبثت آثارها ان ظهرت للعيان ؟ ثم المغرب الغربي بتقسيماته الثلاثة : جنوب وشمال وشرق : والجزءان الاخيران كانا قد صارا منهكين بحروب القرن العاشر ؛ واخيراً الأندلس ، وقد دانت بأكملها بعد أن احتلت فالنسيا (١١٠٢/ ٤٩٥) وساراكوزة (١١١٠ / ٥٠٤) تمزقه دائماً مشاكلها الاجتماعية والسياسية . وكانت لهذه الامبراطورية غير المتجانسة من جميع الوجوه عاصمة نظرية هي مراكش حيث كان الامير مقيماً ، محاطـاً بفقهائه . وكان يعهد في سلطاته الى حكام حقيقيين : سيد بن ابي بكر في اشبيلية وولده تميم المقيم في غرناطة . وقد ورث جميع الولاة اللامتونيين الحكومات المحلية. من حجاب وكتاب اداريين وشعراء بلاط ... ، ولما كان الاندلسيون عديدين في المكاتب ولا يجدون حرية واسعة في شبه الجزيرة فانهم وفدوا بأعداد متزايدة الى المغرب . حقيقة ان هذه الحركة كانت قد بدأت في القرن العاشر اذ كان الاندلسيون يترددون على بلاط الزيريين والحماديين ؛ لكن هذا المزيج بين الاندلسيين والمغاربة لم يعط في البيئة العامة لامبراطورية المرابطين ، نتائج طيبة ، لانعدام الترابط .

كان على أسرة المرابطين بالنظر الى الايديولوجية التي كانت تنطلق منها ، ان تستن لنفسها سياسة دفاعية وهجومية ، فعالة ؛ كان محكوماً عليها أن تكون دائماً عادلة وقوية ، خشية السقوط فريسة لنقد دعاتها هي نفسها . والحال أن الاندلس كانت دائماً في خطر وأصبح الحرب ضد المسيحيين هو النقطة الاساسية لسياسـة المرابطين ؛ مما أوجب اذن ، في آن واحد ، التمكن من المغرب والدفاع عن الاندلس. وعليه بنيت اذن سلسلة من القلاع أو اعيد بناؤها في النقاط الستراتيجية . ومع ذلك فان العنصر العسكري صار نادراً طالما أنه خضع بأكمله لتجنيد المرابطين ؛ فلا الاندلسيون

ولا المغاربة كانوا جنوداً احتياطيين . وسرعان ما عاد الامر في ذلك الى استخدام المرتزقة المسيحيين الذين كانوا في خدمة امراء الاندلس ولما كان لا يمكن استخدامهم في اسبانيا ضد مسيحيين آخرين فأنزلوا في قلاع بالمغرب . وفي نفس الوقت احيا هذا العبء العسكري حاجات للمال لان حروب اسبانيا لم تعد حروب فتح مربحة وإنما حروب دفاع ؛ فأعيد في ذلك فرض ضرائب لم يقرها القرآن ، وكانت قد قدرت بأنها لا تحتمل الى حد أنها الغيت تماماً . ولم يكن نظام المرابطين ، على النحو الذي آل الامر بالضرورات السياسية الى فرضه في النهاية ، في مقدوره الدوام الا اذا كان الوضع في اسبانيا يمكنه ان يتحسن بالتأكيد ؛ غير ان الممالك المسيحية كانت تعضّد من قبل اوربا كلها التي كانت تستيقظ ، فرافقت الحرب ، التي دامت ، تغيرات مفاجئة متعددة . لئن كانت مملكة البرتغال محاصرة في الغرب ولئن كانت ليون ، مؤقتاً ، في حالة غير قادرة فيها على العمل ، فان ارغونا Aragon تابعت سياستها الهجومية واستولت على ساراكوزة عام ١١١٧ . وفضلا عن هذا الخطر الخارجي فان المشكلة الكبرى في حكم المرابطين كانت في عدم تقديم ايديولوجية لسكان الامبراطورية خليقة بتوحيدهم . فقد فقد المذهب المالكي ، اذ أصبح مؤسسة تدعمها الدولة ، قدرته في التعبير عن تظلمات الطبقة الدنيا في المدن .

كانت الايديولوجية المالكية في آن واحد ، مذهباً فقهياً بتنظيم اجتماعي ، واف بمجتمع لم يصبح بعد مميّزاً ، ونظرية لاهوتية هدفها تأسيس معتقد صحيح ، اي منظومة من الافكار ترفض أي تشبث في الرأي . والحال ان هذا الجانب الاخير امكنه ان يبلغ في المشرق تمام نضجه بالتكامل مع الكلام الاشعري ، لكن التقليد القيرواني الذي كان يمثله في الغرب الاسلامي المذهب المالكي التقليدي قد حافظ على اصالته من حيث هو مذهب فقهي متشدد . فلم يكن هناك اذن اغناء حقيقي للمذهب المالكي في عهد المرابطين ولو أنه جرى في الاندلس قبل ذلك بحث عقائدي بالغ النشاط كان على رأس شهودها إعمال ابن حزم (توفي ١٠٦٤) الغنية والاصيلة . الا ان الامراء المرابطين لم يستمدوا من ذلك أي كسب ، ولم تتمكن الاسرة بالتالي من العمل على توحيد العلماء من حولها كما تمكن من ذلك السلجوقيين في الشرق . وكان

الحزب الموالي للمرابطين أقلية دائماً وتصرف كأقلية ؛ وشن الحرب على الآخرين وخاصة على الشافعيين وهذا ما يفسر تحريم اعمال الغزالي في عام ١١٠٩ / ٥٠٣ ؛ وهكذا جرى التنكر لسياسة التسامح المشتركة التي ستكون اساس استقامة المعتقد السني . كذلك لم تسو المشكلة الاجتماعية وهكذا استطاعت العائلات الحاكمة القديمة معاودة دسائسها وأخذ المرابطون يسلكون أكثر فأكثر كأنهم جند مرتزقة أي جنود يحتقرون ويحسدون اولئك الذين يدافعون عنهم ؛ ومن هنا ذلك التمييز الذي رمز اليه بمنع الاندلسيين من استعمال اللثام ، علامة النبل الحربي .

في هذه الامبراطورية بالغة المهابة في الظاهر ، لم تحل لا المشكلة العسكرية ولا مشكلة تنظيم الدولة ولا مشكلة ايجاد ايديولوجية موحّدة . الا أنه من السهل ان نرى ان المقصود هنا في الواقع مشاكل اندلسية وانه لو بقي المرابطون مغاربة ، ربما كان عليهم ان يواجهوا مصاعب أقل قسوة بكثير .

٦ — ضعف الاسرة الحاكمة

في عام ١١٢٤ / ٥١٨ في عهد علي بن يوسف انطلقت حركة الموحدين التي سوف تقرع انغام الحزن على نهاية الاسرة . وحالما بدأت انتصارات الموحدين الكبرى ثارت الاندلس في عام ١١١٤ / ٥٣٩ سواء بتأثير الذين نزعت منهم اماراتهم من الامراء القدامى مدفوعين ومدعمين من المسيحيين (بنو هود) والذين لم يتأخروا في أن يستدعوا إليهم ممثلي السلطة الجديدة ، او بقيادة النساك في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة . واذ لم تنجح الاسرة الحاكمة في القضاء على الثورة التي اندلعت في قلب الامبراطورية نفسها وهي في المهد فانها لم تتمكن أبداً من تمالك نفسها . ولكن لماذا بالضبط في مراكش على حين كان الأحرى ان نتوقعه في الاندلس ؟ ان التفسير الكلاسيكي يتلمسه في استرخاء اولئك المحاربين الصحراويين في ظل بساتين قرطبة[٢]

---

(١) إن رسائل النصيحة التي تلقاها يوسف من الغزالي ومن الطرطوشي تدل كذلك على توافق الحركتين المناصرتين للمرابطين والسلجوقيين .

(٢) تناولها ج. مارسيه : المصدر السابق ص. ص ٢٣٧ — ٢٥١ وكذلك ش. — أ. جوليان (.ر. لوتورنو) المصدر السابق ص. ص ٧٦ — ٩٢ .

الوارقة . لكن هذا التفسير يجب ان يُفسر إذ إنه يميّز النتيجة المرئية لاسباب عميقة مختلفة . ولم يبد ان التجارة الصحراوية قد آلت الى الانحدار أو أنها غيرت خط سيرها ؛ وعندما اتخذ يوسف لقب امير المسلمين ، جدد سك قطعه الذهبية التي ظلت زمناً طويلاً العملة السائدة في حوض البحر الابيض المتوسط الغربي ومن المفيد ان نشير الى أن فتح الموحدين سيكون هو أيضاً موجهاً بوسواس السيطرة على الطريق التجاري الذي يربط الاطلس بالبحر المتوسط . ففي التوضيح الكلاسيكي تحيل الصفة الصحراوية الى الفروقات البنيوية للامبراطورية والاسترخاء ، الى ضرورة حرب دفاعية ضد القشتاليين والترف الاندلسي الى دوام المشكلة الاجتماعية التي تقتضي نظاماً ضرائبياً ضعيفاً ، إذن عيشة متواضعة جداً بالنسبة للامير وبلاطه . وبارجاعه الى اسناده فان هذا التوضيح يطرح ثلاث مشاكل : مشكلة الامداد بالرجال قبل كل شيء . هل كان قطع كل صلة بالصحراء الغربية خطأ أو أن هذه الصحراء قد قدمت للاسرة الحاكمة كل ما كانت تستطيع تقديمه من الرجال ؟ ان هذه المسألة الديموغرافية لمن الاهمية بمكان ، إذ هناك ميل إلى اغفال ان المستوى الديموغرافي ، في بنى معينة ، امر أساسي أكثر حتى من المستوى الاقتصادي . والحال اننا إذا ما نظرنا إلى السهولة التي سوف يقطن بها عرب المعقل Ma'qil هذا الاقليم بعد قرن من الزمان ، لاستطعنا ان نتصور الى أي مدى انهكته ملحمة المرابطين . وبناء عليه فقد كان على المرابطين ، وقد قاموا بوظيفة الجند المرتزقة في الاندلس ، إما أن يقتصروا على هذا الدور واما ان يجندوا مرتزقة آخرين ، في حال ما كان عليهم ان يأخذوا على عاتقهم السياسة الاندلسية ، الامر الذي كان يعني انشاء نظام ضرائبي جديد وهذه هي المشكلة الثانية . لكنهم ما كانوا ليستطيعوا ، في نفس الوقت ، ان يكونوا امراء وجنوداً مرتزقة . بالطبع كانوا يستطيعون تطويع مغاربة واندلسيين من أجل عمل دفاعي مشترك ، وحينئذ فان المشكلة الثالثة تكون قد طرحت نفسها بجدة ، ألا وهي ايجاد ايديولوجية مشتركة . وقد أصبحت هذه المسألة الايديولوجية شيئاً فشيئاً رئيسية ولهذا السبب فان ثورة الموحدين سوف تكون في أصلها ايديولوجية بصفة أساسية (ان مسألة شروط النجاح كانت ذات طبيعة أخرى) . وبدلا من أن

تكون الافصاح عن ارادة « قومية مصمودية » [1] ، فانها كانت جهداً لاعطاء المغرب الاسلامي الايديولوجية الموحدة التي كانت تنقصه . وكان ضعف المرابطين الاساسي انهم لم يدركوا ان مالكيتهم قليلة التحضر لم تكن تعجب الاندلس بل وربما مراكش ، وقد يقال إن الحرب منعتهم من ذلك لكنهم ، من هنا كانوا يحكمون على أنفسهم بأن يحاربوا وحدهم وفي النهاية بان يخسروها . ومن الطبيعي ان لا تكون هذه المحاكمة صحيحة الا اذا لم نرتكب خطأ رواة الاخبار التقليديين الذين يرون في مالكية المرابطين التعبير التام عن استقامة المعتقد السني ، الا انه لم يكن في ذلك الا الشكل الأولي ، قليل الاعداد جداً : فها هو اثر القاضي عباد للبرهان على ذلك اذا رغبنا في قراءته تاريخياً . ولأن المؤرخين العرب لا يفعلون ذلك يجدون أنفسهم معسرين في حكمهم على المرابطين : انهم يحاربونهم في آن واحد بسبب سياستهم المالكية ودفاعهم عن الاندلس وغير مؤيدين لهم بسبب اتجاههم المعادي للصوفية ؛ ولان المالكية والصوفية تقاربتا فيما بعد فلم نعد نتخيل انه يمكنهما ان تكونا متباعدتين [2] .

نرى جيداً أن المسألة الايديولوجية كانت قد غدت اساسية لانها كانت التعبير المركز عن جميع المشاكل الاخرى : مشكلة حرب لانهاية لها في اسبانيا ؛ مشكلة دولة باهظة التكاليف (يقتضيها سكان المدن) ؛ واخيراً مشكلة تثبيت طائفة سياسية كانت تتكون انطلاقاً من المدن – الدول ومن التجمعات المحلية ؛ واذا لم تكن هذه الطائفة مدعمة يومياً بايديولوجية معدّة فان القوى المحلية توشك ان تضعف فعاليتها . ولقد كانت هذه الاشكالية من قبل بذوراً في افريقية الزيرية لكنها في عهد المرابطين أصبحت أكثر وضوحاً كذلك لانها ظهرت في اطار اوسع ولا سيما تحت الحاحية حرب مستمرة ولا مفر منها ؛ وسوف تكون اشكالية المغرب طيلة حقبة طويلة .

---

(١) هـ. تيراس ، المصدر السابق جـ ١ ص. ص ٢٣٩ – ٢٩١ . من الغريب التأكد من أن هذا المؤلف الذي يرفض إعطاء قيمة قومية للكفاح ضد البرتغاليين في القرن السادس عشر وحتّى لكفاح المراكشيين ضد الفرنسيين في القرن العشرين ، يعترف بها لمصمودة في القرن الثاني عشر لأن المرابطين كانوا من البدو الرحل القادمين من الصحراء ؛ ولكن كان عليه أن يفسر لماذا تتمرد مصمودة على « الزناتيين » القادمين من الشرق . فان تناقضات عديدة لا تفسر إلا بأحكام مسبقة سياسية .

(٢) ومن هنا تفسير سقوط المرابطين بسبب اللعنة المزعومة التي أطلقها ضدهم الغزالي .

لكي نتخيل جيداً مصير المرابطين لنفكر بشعب آخر ، جديد هو كذلك ، على مسرح البحر الابيض المتوسط : الاتراك السلجوقيون ؛ فان نصر مانزيكرت Man-zikert (١٠٧١) يمكن مقارنته بنصر زلاّقة (١٠٨٦) . وصار قدر الامبراطوريتين مع ذلك مختلفاً ، ليس فحسب لان المرابطين كانوا يوجدون في الغرب حيث كانت شعوب الغرب المسيحية في تمام يقظتها وليس في الشرق حيث كانت بيزنطة تعاني احتضاراً بطيئاً ، ولكن كذلك لان السلجوقيين كانوا يملكون ظهيراً لهم هو الاحتياطي الكبير من الشعوب التركية التي كانت تستطيع دائماً امدادهم بالجنود ، وكذلك بفضل الحركة التقليدية الكبرى التي استمالت الرأي العام الى جانب المدافعين الجدد عن الاسلام . ويمكن ان نطلق مع رواة الاخبار أحكاماً افتراضية ؛ فحركة المرابطين كانت ستتمكن من أن تفضي إلى نتائج أكثر حسماً ودواماً لو أن المرابطة بالجنوب ظلت مصانة أو لو أمكن تشكيل مذهب مالكي جديد أو كذلك لو أنها اكتفت بتوحيد المغرب ؛ الا أن هذه الاحكام لا تخدم اعادة كتابة الماضي لجعله معقولاً بقدر ما تخدم بالاحرى فهم ما سيحدث فيما بعد : رد فعل الموحدين .

٨ — وحدة تنطلق من الغرب :

محاولة الموحدين

اثناء زمن طويل كان الاعتماد في كتابة تاريخ الموحدين على نصوص لاحقة للحوادث بعد لأي طويل ، ومعادية في أحيان كثيرة . وقد بُدِئَ الآن في نشر روايات معاصرة او صادرة عن أشخاص كانوا يؤمنون بالحركة وبأهدافها ؛ وقد أصبحت هذه النصوص ، التي استخدم معظمها كمخطوطات ا. ليفي — بروفنسال ، جاهزة ولو أنها في شكل غير كامل وغير مرض [١] دائماً . وقد بُدِئَ مع ذلك بالنظر إلى حركة الموحدين من الداخل ؛ ولم يعد من المستحيل كتابة تاريخ ديني وسياسي للاسرة . وبالمقابل هناك نقطتان معتمتان في الصورة : اولا وكما هو الامر دائماً ، يشكل التوثيق الموجود ، الوجه الحسن من حروب وشؤون اسبانيا ، على حين ان القاعدة نفسها للحركة (مراكش) يسدل من دونها الستار . ثانياً ان الاضواء التي تلقى على الوضع الاقتصادي قليلة جداً : فتطور الزراعة وتطور التجارة وعلى الاخص التجارة الصحراوية والوضع النقدي امور لا يمكن ، في أحسن الحالات الا ان تخمّن تخميناً . ان الاحكام التي نستطيع اصدارها ، في هذه الشروط ، عن تنظيم امبراطورية الموحدين وتفكيكها تبقى محل شبهة [٢] .

---

(١) بصفة أساسية ابن القطاني : نظم الجمان ، محمود علي مكي ، تطوان ؛ ابن أدهري : البيان المغرب القسم الثالث ط ٢ بقلم ا. حويسي ميراندا ومعاونة محمد بن طاويط ومحمد إبراهيم الكتاني ، تطوان ، ١٩٦٠ ، وابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، عبد الهادي التازي ، ط بيروت ، ١٩٦٤ .

(٢) ومع ذلك فان هـ. تيراس ، المصدر السابق ، لا يتعب من تكديس الأحكام المسبقة العرقيـة (جـ١ ص. ص ٣١٤ — ٣١٦) ؛ وهي أحكام يأخذ بها كما هي ش. — ا. جوليان (لوتورنو) المصدر السابق ص. ص ١١٠ — ١٢٩ .

١ — ابن تومارت وايديولوجية الموحدين

لايمكن فهم تكوين الايديولوجية التي طرحها ابن تومارت على الغرب الاسلامي الا اذا تذكرنا بأن الدعاية الشيعية الباطنية كانت ما تزال في عصره قوية بعد ، على الرغم من ضعف الفاطميين السياسي في مصر وان حركة التوحيد المشتركة البطيئة ، كانت بالمقابل ما تزال مبعثرة بعد الى حد كاف . وكانت هذه الحركة تنمو في ثلاثة اتجاهات متميزة بعد : سعي الى التطهّر النسكيّ مبني على دراسة الحديث . ومنهجة فقهية وحركة لاهوتية عاملة على تهذيب قضايا الاشعري . وفي نهاية القرن الحادي عشر لم تكن هذه الاتجاهات بعد قد صهرت في قالب مذهب واحد ، وثمة تركيبات جزئية وبالتالي شخصية كانت لا تزال ممكنة : فقد نسّق الباقلاني (المتوفي ١٠١٣ / ٤٠٣) لاهوتاً وفقهاً وابن حزم (متوفى ١٠٦٤ / ٤٥٦) حديثاً وفقهاً والغزالي (متوفى ١١١١ / ٥٠٥) لاهوتاً ونسكاً ولكنها لم تكن بعد الا قضايا ما يزال الاجماع بعيداً عن ان تنعقد أموره عليها . وهكذا سوف يعد ابن تومارت تركيباً شخصياً مخصصاً للطائفة التي هو منها . فحادت حركة الموحدين (النسكية إذن) عن أهدافها الأولى واذ هي تجمدت في اطار فقه مجدب ، حاربت الاتجاهين الآخرين اللذين سوف يشكلان فيما بعد جزءاً متمماً من المذهب المشترك اي اللاهوت والتصوف ومن هنا احراق مؤلفات الغزالي التي كانت تعرض بالضبط تركيباً بين الاثنين . اما بسيكولوجية ابن تومارت وممارسته ومسلكه وعنفه السياسي فلا بد ، قبل ارجاعها الى ميزة بربرية ، من تذكر الاثر العميق جداً واللاشعوري غالباً لا « سياسة الباطنية » حتى على أولئك الذين يحاربونها ؛ فقد صارت نزعة العنف السياسي في مطلع القرن السادس الهجري خاصية العصر . ان سيرة حياته تقدم لنا عناصر التركيب التومرتي ، مميّزة جيداً ليس منطقياً وانما وفقاً لتعاقب مراحل ارتحال عبر عالم الاسلام . وبعد ان خرج من سوس مسقط رأسه (في بلاد الهارغه des Hargha ، على السفح الشمالي لجبال الأطلس الداخلية) ، فهب الى قرطبة حيث يقال انه تشبع بتعاليم ابن حزم ، ثم مضى الى العراق حيث التقى بالغزالي ؛ ولعلنا يجب أن ندرك بأنه تآلف مع تعاليم هذين الاستاذين . وفي نحو عام ١١١٦ / ٥١٠ سلك طريقه عائداً ، ماراً

بالاسكندرية وتونس وبوجي وتلمسان وفاس ومكناس ليستقر مؤقتاً في مراكش . (ولا بد من ان نلاحظ الفارق بين خط سيره هذا المحاذي للساحل وخط السير الوسط الذي كان يتبعه حتى ذلك الحين معظم مؤسسي الدول) . وفي رحلة عودته تلك الطويلة لم تكن بلا شك ايديولوجيته الدينية هي التي تكونت بقدر ما تكونت « سياسته » التي كانت التعبير الزمني عنها . على أي حال اتبع عمله التبشيري منحى صاعداً : بداية ، مراقب للاخلاق (وهذا حق قابل للنزاع تعبر في بلاد الاسلام) ، فرض نفسه كعالم لاهوت (مجادلات مع فقهاء مرّاكش) ، ثم أكد نفسه كزعيم مدرسة في اغمات ومن ثم كزعيم حزب مرشح للسلطة في متينمال في قلب الجبال . ولكل مرحلة من هذه المراحل عنصر من المذهب المقبل يقابلها . فالرقابة الاخلاقية التي لم تكن فحسب نصحاً للفرد بل وفقداً للسلطة العامة ، اوقعت الفقهاء دائماً في ارباك ؛ مؤقتاً لتحديدنا لها بتنظيمها اولا نصنف أنفسنا في عداد المحافظين أو الثوريين. لقد ألح الفقهاء دائماً على ضرورة المحافظة على السلام الاجتماعي بالاعتراف للسلطة بحق تحديد شروط استعمال هذه الرقابة (وهذا ما أعطى المجال لانشاء وظيفة المحتسب) ؛ وبالمقابل فان كل حركة جديدة قد رفضت دائماً بالضرورة اي حد لحق النقد والتغت هكذا بالتركة المضادة لحكومية الخوارج ؛ لقد لجأ ، في الماضي المذهبان الاخوان العدوان : المعتزلة والحنبلية الى التبرير النظري نفسه ، عندما وجدا نفسيهما في فترتين مختلفتين ، في وضع متشابه ؛ ولا شك في ان ابن تومرت يجب ان يوضع في عداد المعتزلة ، أما اللاهوت ، العامل الثاني في التركيب التومرتي فهو من جوهر أشعري مبني على تمثل عقلاني لتعريف الله وصفاته باستخدام الاستدلال القياسي والتفسير المجازي للقرآن ؛ ولكن يمكن الاعتقاد بأن ابن تومرت قد وجد نفسه في الحقيقة في منتصف الطريق بين الاشعرية والمعتزلة ، الأمر الذي سوف يجعل اختيار اسم « الموحّد » أقرب إلى الفهم ، اذ أن المعتزلة كانوا يطلقون على أنفسهم تسمية « أهل العدل والتوحيد » . وفي المقام الثالث كان على ابن تومرت لكي يكون زعيم مذهب ، أن يبرز حقه في التفسير الشخصي وان لا يقبل ، كنصوص أساسية ، غير القرآن ، وفي شروط معينة الحديث ، باستثناء اي شرح أو تعليق ، وها هنا كانت

زاهرية ابن حزم مفيدة له . ذلك انه على عكس ما يمكن اعتقاده فان حرفية ابن حزم كانت محصلة وشرطاً لاختيار عقلاني ؛ وكثيراً ما يعارض في هذه النقطة ابن تومرت بالغزالي ومع ذلك فان الفارق بينهما لا يقوم الا على حالة فعلية ؛ فقد كان الغزالي ايديولوجي الدولة السلجوقية ولم يكن يفكر بالعمل من أجل نفسه ، ولكنه اخرج الى حيز الوجود سياسة من الدعاية ومن التمذهب ، وعلم تربية تقدمي وسيبويه من الحقيقة بحسب القدرات الفعلية للمستمعين . ولسوف يستخدم ابن تومرت نفس المسعى ولكن لصالحه الخاص . ولما كان عليه ان يعمل في وسط مراتبي ، قليل الثقافة ، كانت الدعاية الشيعية من القرن الثامن إلى العاشر قد جعلته يألف فكرة المهدي ، فلم يساوره اي تردد في أن يدمج هذه الفكرة في مذهبه . ولما كان ينبغي لهذا المهدي أن يكون من ذرية فاطمية ، فإنه اصطنع لنفسه او اصطنعت له شجرة نسب تمت به إلى علي ، الحقته بالاسرة الادريسية في الجنوب المراكشي[1] . وثمة عنصر أخير ، شوهد من قبل في حالة ابن ياسين كان التكرار الواعي والدقة لسيرة الرسول . فالتركيب التومارتي كما نتحقق منه ، كان احتمالاً بين احتمالات أخرى ؛ والعنصر الوحيد الذي سوف لا يقبل فيما بعد هو عنصر المهدية ، ولكن ابن تومرت بوصفه مؤسس امبراطورية كان على الارجح بحاجة اليه . هل يكتفي بأن يكون مجرد زعيم مذهب ما كان بلا شك ليأخذه على عاتقه . الا انه لا يكفي أن ندرس ايديولوجية الموحدين بذاتها ، الاعجاب بوضوح عقلانيتها ، دون أي تساهل للعواطفية الصوفية ، ويجب كذلك ارجاعها الى مكانها في الحركة العامة لعلم اللاهوت الاسلامي ؛ عندئذ يظهر ان ما كان يضع قوته في المغرب ، ونعني بذلك اخلاصه لاتجاهات قديمة معينة ، والتي كانت تتضح من قبل في حركة الجوارج والبارغواتية ، سوف يحكم عليها الى مدى طويل ؛ بالنسبة للعمومية الـ « سنية » التي ستتفوق عليها ، كانت لها خاصية مطلقة واقليمية واضحة ؛ ولسوف تتكشف كذلك

---

(١) في هذا المضمون ، ليس المسألة الاخلاص من معنى كبير ؛ إذ أن الحجة الموضوعية الوحيدة للمهدي حتى بأزاء ضميره الخاص ، هي النجاح السياسي . ويكفي للاقتناع بذلك أن نقرأ في ابن الكتاني المصدر السابق ص ٥٠ رسالة أبو عبد الرحمن بن طاهر إلى عبد المؤمن .

عن أنها أقل قدرة من مالكية المرابطين في أن تكون ايديولوجية جمع مشترك . وبالمقابل فانها بدت بالغة التأثير لترسيخ جماعة الموحدين .

بين عامي ١١٢١ - ١١٢٤ / ٥١٥ - ٥١٨ أعطى ابن تومرت لمذهبه شكله النهائي ؛ بدأ بالاستقرار في مسقط رأسه وتلقب بالامام ليظهر بأنه كان مهيأ للسلطة . وازداد عدد أنصاره بسرعة وفي عام ١١٢٤ / ٥١٨ اختار كمقر عام مكاناً في وسط الجبل ، لا يمكن اقتحامه عملياً هو تينمال . ونظم عندئذ حزباً مقاتلاً ببنية معقدة إلى حد ما لكنها كانت تدمج بين تجمعين : أحدهما مغلق جداً كـان يمثل نخبة الحركة ، مكونة تكويناً خاصاً من أجل مهمة دعائية وكفاح ايديولوجي . وآخر أكثر اتساعاً ، كان هدفه بصفة أساسية اعداد مختلف الوحدات للعمل المشترك بقصد استلام السلطة . كانت المراتب على النحو التالي : **أهل الدار** الذين كانوا في صحبة المهدي ؛ يأتي بعدهم العشرة. (**أهل العشرة**) الذين كانوا المريدين الاوائل الذين تبعوه في رحلة العودة [1] ؛ كان أخطرهم شأناً عبد المؤمن بن عـلي (الخليفة المقبل) ، وقد التقى به لدى خروجه من بوجي بينما كان يسلك طريقه الى المشرق وعبد الله الونشاريسي المعروف باسم البشير وهو كذلك من المغرب الاوسط ، ، ولعب دوراً هاماً في تأصيل الحركة السياسي ؛ وقد عاجلته المنية في وقت مبكر جداً ١١٢٨ / ٥٢٣ ؛ وابو حفص عمر الهنتاتي (هل كان هذا اسمه الحقيقي ؟) الذي كان ، هو ، زعيماً محلياً والذي يدين لصفته هذه بتأثير لا مثيل له . هؤلاء العشرة ظلوا طيلة الشطر الاول باكمله من تاريخ الموحدين رؤساء الحركة الحقيقيين . وإلى جانب هذه النواة كا ن يوجد مجلس الرؤساء المحليين ، الخمسين (**أهل الخمسين**) ، الذين كانوا يناقشون أهم المسائل العسكرية والسياسية ومجلس اوسع مفتوح لافراد أقل أهمية (**السبعون**) او لعله حتى لجميع الناس (**أهل الساقة**) . انه بالطبع لامر بالغ الصعوبة أن نميز في هذا التنظيم ما كان تجديداً من ابن تومرت وما كان تقليداً محلياً وكذلك ما كان نظرياً وما كان عملياً قد مورس من قبل . ولما كنا نجهل بدايات

---

(١) أنظر ابن الكتاني ، المصدر السابق ص ٧٧ .

شخص كادريس الاول بين الأوربا Awriba او كأبي عبد الله بين الكتاميين فقد يكون لدينا ميل الى المبالغة في تقدير عبقرية التجديد في ابن تومرت ، ولكن الى أن يثبت العكس يظهر ابن تومرت بين جميـــع مؤسسي الدولة في المغرب بمثابـــة الذهن الأكثر منهجية ، والابلغ فعالية ؛ وكانت الحركـــة بحاجة الى دعاة والى مناضلين ؛ فاهتّم المهدي شخصياً بتكوين الطلبة : الايديولوجيون الحقيقيون للنظام في حالة المخاض ؛ والحفّاظ الذين كانوا يتلقون في آن واحد تربية دينية وتكويناً عسكرياً . ولهذا كتب ابن تومرت كتيّبات في العربية وفي البربرية ، لدينا منها ، مجاهرة بالعقيدة ومقالة ورسائل توجيه [1] . وقد بقيت الحياة السياسية في حقبة تينمال غامضة ، لكنها كما تتراءى لنا لدى رواة الاخبار تبدو كأنها إجابة واعية لحقبة حياة الرسول في المدينة ، ويجب الحكم عليها بما هي كذلك . وقد وضعت العصمة موضع الشك على نفس المنوال الذي تعرضت له رسالة محمد ؛ وعلى هذا وجدت في السيرتين جماعة المتشككين (المنافقين) من كبار المعاندين ؛ ورؤي من الضروري القيام بتطهير (تمييز) في تينمال وكان صاحبه المحفص ، البشير هـــو الذي تولى ذلك . واستطاعت الطائفة بعد ان تطهرت على هذا النحو الانطلاق الى غزو السلطة . الا ان الحملة الاولى كانت فشلاً لانها هاجمت دفعة واحدة العاصمة مرّاكش ؛ فقد كبد جيش المرابطين الذي كان ما يزال قوياً ، الموحدين هزيمة مؤلمة في عام ١١٢٨ / ٥٢٢ ؛ ولقي البشير فيها حتفه وجرح عبد المؤمن جرحاً بليغاً ؛ ومات ابن تومرت بعد هذه الهزيمة بزمن قليل عام (١١٣٠ / ٥٢٤) لكنه كان يترك في الحقيقة تنظيماً مستعداً لكل احتمال . وكالرسول فانه لم يعين وريثاً وقد سويت الخلافة بصورة نستطيع فحسب تخمينها : بمساومات بين عبد المؤمن وابو حفص عمر [2] . ودام الفصل في الامر سنتين فلم يتم الاعتراف بالاول خليفة الا في عـــام ١١٣٢ | ٥٢٦ .

---

(١) عقيدة ابن تومرت ، ترجمة هـ. ماسيه ١٩٢٨ من الكتاب الذي يحمل عنوان : أعز ما يطلب ، ط أ — لوسياني مع مقدمة لـ. إ. غولدزيهر ، الجزائر ١٩٠٣ ؛ ا. ليفي — بروفنسال : وثائق غير منشورة من تاريخ الموحدين ، باريس ١٩٢٨ ،وله كذلك : **رسائل رسمية للموحدين** ،الرباط ١٩٤١ .

(٢) هل أفاد عبد المؤمن من كونه لم يكن ينتمي لأية عشيرة من مصمودة ؟ ولكن هذا السبب هو نفسه الذي قدم لتفسير إنتخاب أبي بكر بعد موت الرسول ؛ وهو أمر ليس بلا شك سوى تسويغ عقلي لاحق الحديث .

٢ – عبد المؤمن وتأسيس امبراطورية الموحدين

لقد جرى فتح المغرب في ثلاث مراحل ؛ قبل كل شيء مرحلة مراكش التي تمت في زمنين : بعد هزيمة عام ١١٢٨ / ٥٢٢ تخلى جيش الموحدين عن السهول وتبع طريق القمم (وهو في الحقيقة طريق تجاري معروف كان يربط سيجيلماسا بفاس مروراً بسفرو) . ووقع اللقاء الفاصل في الاورينتال بين تازا وتلمسان ؛ انضم السكان المحليون الى الموحدين ولم يظهر جيش المرابطين وحدة صامدة لكل امتحان [1] ؛ وكان انتصار الموحدين شاملاً (١١٣٩ / ٥٣٤) فلم يبق ما يعترض سبيل الاستيلاء على تلمسان (١١٤٤) وفاس (١١٤٥) وأخيراً سقطت مراكش نفسها في عام ١١٤٦ | ٥٤١ . ومنذ الانتصارات الاولى بدلت مدن مراكشية واندلسية كثيرة انحيازها وارسلت كتاب بيعتها ولا سيما عندما لقي حتفه آخر امير من المرابطين اسماعيل بن علي عند سقوط العاصمة . وانضمت جريش منذ عام ١١٤٤ / ٥٣٩ . واستسلمت قرطبة ، بعد ان طوقها القشتاليون ، كذلك عام ١١٤٨ / ٥٤٣ في نفس العام الذي سقطت فيه مكناس . لكن هذا الخضوع بدا رغم كل شيء ظاهرياً أكثر منه حقيقياً ولم يشبه في شيء فتح المرابطين الصاعق الذي كان قد أعده الفقهاء في كل مكان . فما ان كانت المدينة تجد زعيماً حتى تثور بالسلطة الجديدة ، كما فعلت ماسا في الجنوب عام ١١٤٧ / ٥٤٢ بقيادة محمد بن هود وسوتا بتأثير القاضي اياد الشهير ومكناس كذلك . وما بدا الهدوء انه عاد يسود في كل مكان الا في عام ١١٥١ / ٥٤٦ واستقبل عبد المؤمن في سالي وفداً قادماً من الاندلس يرجوه عبور المضيق لقتال القشتاليين ؛ وقد فضل النظر باتجاه الشرق ذلك انه في افريقية كذلك كان يوجد خطر مسيحي هو خطر النورمان . ففي عام ١١٥١ – ١١٥٢ وهذه هي المرحلة الثانية في تكوين الامبراطورية ، احتل المغرب الاوسط ، واضعاً نقطة النهاية في تاريخ امارة الحمّاديين . وكان الاخيرون منهم (المنصور والعزيز

---

(١) إن المعرفة ببنية جيش الموحدين كانت هنا ستساعدنا على أن نفهم لماذا انفصلت وحدات مصوفا عن لمتونا . راجع هذه التفاصيل في ا. مراد : عبد المؤمن في فتح أفريقيا الشمالية ، وذلك في : Annales I.E.O (Alger) XV (1957) p.p. 110 — 163.

ويحيى) ، المقيمون في بوجي ، قد توصلوا الى تسوية مرضية Madus vivendi مع الهلاليين . سادة المرتفعات الجدد ونموًّا التجارة والسباق ثم بدأوا ، مستفيدين من صعوبات أبناء عمومتهم الزيريين ، نهوضاً حقيقياً . واعد عبد المؤمن حملته بعناية . متظاهراً بأنها كانت مخصصة للعبور الى الاندلس ثم جعلها تأخذ فجأة طريقها الى الشرق وبسير حثيث وصلت أمام بوجي وبدون صعوبة استولت عليها (وفر يحيى الى قسطنطينة) ، في حين راحت مفرزة تحتل العاصمة القديمة ، القلعة . الا ان السلطة الحقيقية كانت في أيدي الهلاليين فواجههم جيش الموحدين وسحقهم في معركة صطيف عام ١١٥٣ / ٥٤٨ . وبعد سنوات خمس ، اعد عبد المؤمن بعناية الحملة التي كانت ستنهي فتح المغرب ولاول مرة ، توحده في ظل سلطة واحدة . كانت افريقية مقسمة بين النورمان والزيريين الاخيرين والامراء الهلاليين ؛ فلم يكن في وسعها الصمود في وجه جيش منظم والاسطول الضخم الذي ابحر من الشمال المراكشي في مطلع عام ١١٥٩ / ٥٥٤ ؛ فتحت تونس من قبل علي بن احمد بن خراسان وحوصرت المهدية وتم الاستيلاء عليها من النورمان الذين كانوا احتلوها قبل اثني عشر عاماً ؛ واستطاع آخر الزيريين حسن بن علي ، الذي اضاع كل سلطة والتمس بنفسه من الخليفة الجديد التدخل ، للاقامة فيها ولكن مجرد والي تحت عين ساهرة لمراقب من الموحدين . وفي عام ١١٦١ / ٥٥٦ قفل عبد المؤمن راجعاً إلى مرّاكش بعد ان تم له الاستيلاء على سفاكس وسوس وقابس وطرابلس ونجح حيث فشل جميع سابقيه . كان يقدر انه ، وقد اسند ظهره على هذا النحو الى مغرب موحد يستطيع التدخل في الاندلس حيث كانت علاقة القوى دائماً لصالح الممالك المسيحية ؛ وكان منصرفاً بكليته إلى تنظيم حملة عظيمة الى الاندلس عندما فاجأته المنية في سالي عام ١١٦٣ / ٥٥٨ .

بصدد هذا الفتح الذي أجري على نحو منهجي حيث يتبيّن الانسان مزايا تنظيمية عظيمة ومعرفة بالبلاد وعلم عسكري أكيد ، يمكننا ان نلاحظ مع ذلك استحالة أن تدار افريقية والاندلس في نفس الوقت ؛ وهي المشكلة التي ستكون ثابتة في سياسة الموحدين وكذلك التضييق الجغرافي للمغرب ؛ ذلك أن الوقائع لم تحدثنا أبداً

لا عن الجنوب ، من حيث غادر المرابطون ولا عن التل Telle الجزائري الذي كان مسرح المجابهات الكبرى في القرن العاشر ؛ واذا كان الحكم الجديد لم يهتم بتلك الاقاليم فلربما لانه لم يكن فيها لا رجال ولا ثروات لاجتذابه .

عند وفاة عبد المؤمن كان قد صار للامبراطورية وجهها الذي احتفظت به حتى نهايتها . اننا نجهل في أي تاريخ على وجه الدقة تلقب عبد المؤمن بلقب الخلافة ، امير المؤمنين ، قد يكون منذ عام ١١٣٠ / ٥٢٨ ؛ ذلك كان على أية حال تاريخ القطيعة مع الفقهاء ، ولو قُدّر بان استنكار رؤية بربري يجرؤ على اتخاذ لقب ، مقصور حتى ذلك الحين على القرشيين ، قد بولغ فيه فيما بعد من أجل احتياجات القضية التقليدية بيد أن الامر الهام لم يكن على الارجح هنا ، ولكن على الاصح في أن لقبا كهذا يحمل في ذاته برنامجاً سياسياً هو اعادة فتح ملك الاسلام الواسع كله : ان الاكتفاء في الحقيقة بولاية بسيطة ، مع الادعاء في نفس الوقت نظرياً بلقب امير جميع المؤمنين كان يعني الحكم بالظهور تماماً كاحد الخوارج ، أي مفرّق للجماعة . فقد شوّهت البنية السياسية التي لمسها المهدي وأحلت الديموقراطية الثيوقراطية (حكومة رجال الدين) مكانها الملكية وراثية . ولا يمكننا ان نكون على يقين مما كان سيفعله ابن تومرت لو انه أصبح صاحب امبراطورية ، ولكن كلما كانت فتوحات الموحدين تتوالى بعضها تلو بعض فان المساواة النظرية بين الرفاق والاوائل لم تعد جائزة ؛ كان عبد المؤمن يحرص على توطيد مركزه الشخصي في الجيش وفي تنظيم الموحدين ؛ فاعتمد بداية على مواطنيه من المغرب الاوسط (الغوميّة Gumiya) : اذ قيل انه استقدم منهم اربعين ألفاً في حوالي عام ١١٦١ | ٥٥٧ ؛ ثم على عناصر ليست من مراكش ، الهلاليين ، الذين دحروا في صطيف فأصطحبهم معه وأدمجهم في جيشه النظامي[1] . فانه بواسطة هؤلاء الزعماء البدو عمل على اقتراح تعيين ابنه البكر في عام ١١٥٤ / ٥٤٩ كوريث محتمل . قبل مجلس العشرة ، لكن أخوي المهدي ، عبد العزيز وعيسى ثارا على ذلك ، فغلبا ، واعدما . ولم يقوض تنظيم الانصار لكنه فقد أهميته شيئاً

---

(١) هذه النقطة ينبغي مراقبتها بعناية لنرى ما إذا لم تكن مبالغة من ابن خلدون لكي تتطابق مع نظريته العامة في العضبية لأنها تبدو موضع شك كبير .

فشيئاً . وما تبقى منه صار الى التفريق ، الذي حوفظ عليه ، بين جماعتين من الطبقة الحاكمة : اعضاء اسرة الخليفة الذين اتخذوا لقب السادة والموحدين وخاصة اسرة ابو حفص الذين اعطوا لقب الشيوخ بيد ان الموحدين كانوا قد ورثوا هيكلاً ادارياً سوف يندمج بالتنظيم الباقي عن المهدي . وكانت هذه الحكومة مؤلفة ،على المستوى المركزي ، من وزير ، مستشار أول ، يؤخذ غالباً من طبقة الشيوخ وكاتب أو عدة كتاب يؤخذون على الاغلب من الاندلسيين أو من المغاربة المدربين في الأندلس ، ويكلفون بالمراسلة الرسمية ومن حاجب ، إلا أن دوره تلاشى نسبياً ، ومن قاضي وكان يستطيع في حالات معينة القيام كذلك بوظيفة الخطيب (في صلاة الجمعة) وأخيراً صاحب الاشغال (بمثابة وزير المالية ، المولج بالجيوش) ومن المرجح انه كان أكثر الشخصيات نفوذاً لدى العاهل وأ كثرها مسؤولية . وعلى المستوى الاقليمي نجد هذه الصورة للادارة المركزية ، ولكن على مقياس أضيق . ففي عام ١١٥٤ / ٥٤٩ سمى عبد المؤمن وهو عائد من غزو المغرب الأوسط ، اولاده على الولايات الرئيسية يلازم كلا منهم شيخ لارشاده ولمراقبته في آن واحد . وفيما بعد صار اخوة الخلفاء واعمامهم واحياناً الحفصيون هم الذين كانوا يسمون ولاة ؛ لكن العاهل كان يراسل الطلبة ، المريدين ، مباشرة ، الذين كانوا يطلعونه على تصرفات الموظفين المعزولين حينئذٍ وغالباً ما يكونون مجردين من املا كهم . وكان هذا التنظيم المميّز كثيراً جداً عن تنظيم المرابطين ، ممولاً بنظام ضرائبي جديد . فقد روي ان عبد المؤمن ، لدى عودته من افريقية عام ١١٦٠ | ٥٥٥ ، عمل على اجراء مسح (تكسير) لكل الشمال الافريقي من برقة في اقليم طرابلس إلى نول في الجنوب المرا كشي : طرح منه الثلث كجبال واراضٍ غير منتجة ثم اخضع الباقي لضريبة عقارية هي (الخراج) يدفع نقداً وعيناً . وليس لدينا أي تقدير للايراد المالي لكنه من اليسير علينا ان نتخيل انه ما من حاكم للمغرب قبله ، منذ العصر الروماني كان له هذا المقدار من الموارد . وقد بُررت هذه الضريبة نظرياً بلا شك بأنه ، بالنظر الى كون السكان ليسوا موحدين حقيقيين كان من الممكن ادماجهم بغير المسلمين ؛ لكن من المرجح أن الهلاليين عملياً كانوا قد أسسوا ضريبة مماثلة في المغرب الشرقي وان عبد المؤمن لم

يفعل إلا أن عممها باستخدام هؤلاء الهلاليين أنفسهم لجبايتها . وهكذا كانت تتضح ملامح الدور الذي سيلعبه البدو في الدولة بوصفهم جنوداً ومحصّلي ضرائب [1] .

وكان هذا الرسم أحياناً يطال حتى الابنية . وعليه عندما استولى عاهل الموحدين على تونس ترك السكان في منازلهم ولكنه جعلهم يدفعون ايجاراً . فكل شيء اذن كان يعتقد صالحاً لامداد خزانة الدولة . ولقد ابقيت الضرائب التقليدية كالزكاة والخمس لكن معلوماتنا قليلة عن الرسوم المضروبة على التجارة الداخلية . وكان للموحدين عملة بالغة الرسوخ (الدينار اليوسفي ، باسم الخليفة الثاني ، كان معروفاً في أسواق البحر الابيض المتوسط) [2] . ولقد اتاح هذا النظام الضرائبي تمويل جيش وبحرية هامين .

أما جيش الموحدين فلم يكن موحداً ابداً ؛ بحسب كشف (الديوان) في المواكب وفي ساحة المعركة ، كانت الوحدات تتتابع أو كانت منظمة وفقاً لترتيب دقيق : حرس الخلافة ، الموحدون ، العرب الهلاليون ، الزناتيون ، المرتزقة ، المتطوعون . ان اعتبارات كثيرة سياسية وتكتيكية كانت بلا شك تدخل في اعداد هذا الترتيب . غير ان القيمة الحربية لهذا الجيش تناقصت مع الزمن لان المشاة تخلوا عن مكانهم للفرسان الذين كانت قتاليتهم تتعلق بدرجة تآلف مختلف الجماعات التي يتشكلون منها .

وكان للموحدين بحرية قوية جداً ، على الارجح أنها كانت الاولى في ذلك العصر ، في غرب البحر الابيض المتوسط ، ورثوها عن أمراء الاندلس وعن المرابطين . ففي عام ١١٥٩ في حملة افريقية استخدم عبد المؤمن سبعين عمارة . وفي عام ١١٦٣ جمع من أجل الحملة التي كان ينوي القيام بها على اسبانيا اربعمائة وحدة في الموانىء المختلفة : معمورة وطنجة وباديس وحنين وأوران (وهران) . تلك البحرية ، بقيادة بحار قديم ، دي روجيه الثاني de Roger II من صقلية ، وأحياناً بقيادة اندلسيين مثل غانم بن مردانيش Mardanish ، الذي قاوم الموحدين طويلا في المشرق ، انتصرت في المهدية عام ١١٦٠ / ٥٥٥ وفي ليشبونة عام ١١٧٧ / ٥٧٣

---

(١) ا. ناصري ، المصدر السابق ، ج٢ ص ١٥٣ .

(٢) عملوا على ضرب نقد فضي ، الدرهم المربع ، لتحقيق نبوءة قديمة كما يقال . ومن المحتمل أن الناس كانوا يتكلمون فعلياً عن اليوم الذي سوف يرون فيه الدرهم المربع كما يتكلم آخرون اليوم عن اليوم الذي سوف يصبح فيه للدجاج اسنان . لكن دعاة الموحدين رأوا الفائدة التي كانت الأسرة الحاكمة تستطيع استخلاصها من تحقيق افتراض كان بعيد الاحتمال ولكنه غير مستحيل .

وهذا ما يفسر الاستغاثة التي وجهها صلاح الدين الأيوبي الى يعقوب الخليفة الثالث .

لاول مرة اذن كان للمغرب قدرة أهلية (مختلفة في ذلك عن فاطميّي افريقية) نظمت دولة لا تخضع أساساً للتجارة ولغنائم الحرب ؛ فما ان انتهت الفتوح حتى كان الهيكل الاداري يستطيع أن ينمو بتدعيم نفسه بنفسه . لكن هذا النمو لم يكن ممكناً الا اداة « تهدئة للأذهان» معينة أصبحت أمراً مقرراً . والحال ان ايديولوجية الموحدين ، المفرطة في خصوصيتها ، كانت تحمل في ذاتها بذور الانقسام وبالتقاء معارضة داخلية وخطر خارجي وجدت دولة الموحدين نفسها في استحالة ان تتوطد .

لقد عرفت امبراطورية الموحدين اذ نظمت على هذا النحو حقبتين : الاولى على جانب من الاستقرار النسبي دامت من ١١٦٣ / ٥٥٨ الى ١٢١٣ / ٦١٠ ؛ والثانية وقد اتسمت بفقد توازن عميق دامت من ١٢١٣ إلى ١٢٦٩ / ٦٦٩ .

٣ – التوازن الموحدي

ثلاثة خلفاء سيعيشون في غضون هذه الحقبة : هم يوسف ويعقوب ومحمد الناصر والمؤثر في وضع المغرب في نهاية القرن الثاني عشر هو انه في الوقت الذي عرف فيه لاول مرة دولة موحدة بدا الاشراق السياسي الذي نجم عنها انه كان ثابتاً على الرغم من انحطاط اقتصادي . وللتأكد من ذلك يكفي مقارنة الوصف الذي يقدمه الادريس (متوفي ١١٦٦ / ٥٦٠) للبلاد بالاوصاف التي يقدمها الجغرافيون السابقون . ففيما يتعلق بالمغرب الاقصى (Le Maroc) ، يخرج المرء بانطباع عن انحطاط منطقة الشمال : فان موانىء سوتا والقصر وطنجة كانت وحدها ما تزال منشطة ؛ وظلت المنطقة الوسطى ، منطقة البارغواتا المفتوحة ، قليلة التحضر جداً وقليلة السكان على الرغم من وجود موانىء صغيرة في فيدالا وآنفا ؛ كذلك كانت المنطقة الشرقية في انحطاط واجتازت مدينة تازا حقبة سيئة . حقيقة ان الصناعة الحرفية نمت في الداخل . وان المراكز القديمة حول مدينتي فاس ومرّاكش وهي أغمات ونفيس ونول استمرت

في ازدهارها وبقيت الثروات المنجمية تُستغَل دائماً[1] واستمرت اشجار الزيتون ولوز البربرتري اقليم الاطلس الداخلي ولكن لا يمكننا ان نملك الا ان نلاحظ انكماشاً حقيقياً في المدى الاقتصادي المراكشي ؛ فالحياة بدت كأنها محبوسة بين منطقتين من الساحل الاطلنطي ، لا تظهران عامرتين كثيراً بالسكان . ولم تعد الصحراء الغربية تجذب فضول الرحالة الجغرافيين الممتزج بالاعجاب . فهل يجب الاعتقاد بتبدل جديد لخط سير التجارة الصحراوية لحساب الطريق الذي يمر من عند انعطاف النيجر ، يورقله Ouargla ويفضي الى بوجي ؟ على أية حال فقدت سيجيلماسا أهميتها . والملاحظة نفسها تصلح بالنسبة للمغرب الاوسط والشرقي الذي تمركزت فعاليته الاقتصادية البالغة في أطراف الساحل حول موانيء بوجي وتونس وسوس Sousse وطرابلس ، وكانت علامة هذا التغيير في الاتجاه ظهور تجارة جديدة لم تكن لا تجارة تاهرت الداخلية والقلعة او القيروان ولا تجارة الاندلس والشرق ، وانما تجارة مرفئية خاضعة للايطاليين : البيزانيين والجنويين . وفي عام ١١٥٣ / ٥٤٨ وقّع عبد المؤمن مع الجنويين معاهدة جددت في عام ١١٦١ / ٥٥٦ ؛ وقد حصل البيزانيون من يوسف على صك امتياز مدته عشرون سنة في عام ١١٦٨ / ٥٦٣ جدده المنصور في عام ١١٨٦ / ٥٨٢ والناصر في عام ١٢١١ . وشيئاً فشيئاً جعل الجنويون من أنفسهم اسياد تجارة المغرب على غرار ما كان الفينسيون (البنادقة) يسيطرون على تجارة الشرق الاسلامي . هذه المعاهدات التي كانت تكفل أمن التجار وتنظم العمليات التجارية نفسها بتحديد النسب العامة بالنسبة لرسوم الاستيراد والتصدير ، كانت ابتكارات في حياة دول المغرب الاقتصادية ، المعاصرة لانحطاط الزيريين والحماديين. والخلفاء الموحدين ورثة هاتين الامارتين في الشرق ورثوا كذلك آثارهما التي تقاذفتها الامواج . ولو ان هذه التجارة كانت فاقدة التوازن ، قيمةً ووزناً ، وعلى الارجح لصالح المغرب ، فان التحويل النقدي الذي كان ينجم عن ذلك والمثبوت بسك

---

(١) ذهب الخليفة يوسف عام ١١٨٢ / ٥٧٨ إلى وسط الأطلس يبني قلعة للدفاع عن حقوق استثمار عام لمنجم (من الفضة) كان أشخاص عاديون يريدون اتخاذه لحسابهم . (أنظر : ا. ناصري المصدر السابق . ج٢ ص ١٣٧) .

عملات مزيفة ونقوش عربية ، في مشاغل مرسيليا ومونبلييه، أظهر انعطافاً في تاريخ النقد في البحر الابيض المتوسط . هذه التجارة الّتي يحلو لنا النظر اليها كرمز وشرط للازدهار ، كانت دائماً مرتبطة في تاريخ المغرب بضعف السلطة السياسية .

كانت تضاف الى هذا الموضع الاقتصادي غير الملائم ، لا استقرارية في الهيئة السياسية ، كانت تغذيها منازعات مستمرة في أسرة الخلافة وفي الادارة المركزية والاقليمية . فقد اضطر عبد المؤمن من قبل الى التخلص من اسرة ابن تومرت ، وإسليتين d'yslitin في عام ١١٥٣ / ٥٤٨ ، أحد الاقارب ، واخويه في العام التالي . وفي عام ١١٥٨ / ٥٥٣ اعدم الاخوين ابني عطية ، اللذين كانا وزيرين لدى المرابطين ثم استخدمهما ، واحدهما وهو جعفر كان قد أصبح سكرتيراً في ديوان الختم ثم مستشاراً ؛ واحل محله عبد السلام الغومي al-Gumi الذي أضاع بعد سنتين ثقة العاهل وحياته معاً . وفي ١١٧٧ / ٥٧٣ تخلص يوسف من وزرائه الذين كانوا ينتسبون الى أسرة ابن جامي الّتي كان مشايخ الموحدين يمقتونها . وفي عام ١١٨٨ / ٥٨٤ سجن يعقوب أخاه عمر والي مرسيه ثم أمر بقتله وقتل عمه سليمان والي تادلا وفي عام ١٢٠٩ بينما كان الناصر في طريقه الى الاندلس مغامراً بمصيره فتش أعمال ولاة فاس وسوتة واذ لم تعجبه ادارتهما للامور امر بقتلهما [1] . عبر هذه التغيرات الفجائية الّتي قلما توقف لتفسيرها رواة الاخبار لكثرة ما بدت لهم عادية ، نستطيع ان نستشف تنافساً صامتاً وعنيفاً بين بنية الموحدين وهيئة الحكومة الجديدة الّتي كان يربطها اخلاص محصور بشخص العاهل ؛ وكان اعضاء اسرة عبد المؤمن يتورطون في حبائل المسائل ويفقدون فيها حياتهم . وهكذا تبدو ادارة الموحدين كأنها كانت في نفس الوقت قاسية وغير مستقرة .

أخطر من ذلك أيضاً ، أن ما كان السبب في قوة الموحدين ، الايديولوجية التومرتية قد تبدلت بسرعة الى عامل اضعاف . كانت العلة الرئيسية في ذلك استحالة التوفيق بين بنية الحركة الاوليغرشية الاستشارية والملكية الاستبدادية المطلقة ،

---

(١) وصف بليغ للغاية لهذه الرحلة في ابن عذارى المصدر السابق القسم الثالث ص ٢٣٧ .

الضروري للمحافظة على الامبراطورية . لقد سمى عبد المؤمن ابنه البكر محمد خليفة له ؛ لكنه سرعان ما خلع ، اذ اظهر عجزه ، دون أن يحل محله احد . وبموت الخليفة اضطر ابنه يوسف ان يعاني امتحاناً اختبارياً مدة سنتين قبل أن يعترف بـه المشايخ وعلى الاخص ابو حفص . ولكن المؤكد انهم ، بارتقاء يعقوب سدة الخلافة، فقدوا كثيراً من تأثيرهم الى حد أن الخليفة الجديد فكر ، ربما ، في تحديد موقفه من عقيدة الموحدين : لقد لفت الانتباه ، بمناسبة ادانة جديدة صادرة عن تفسيرات مذهبية ، عبّر عنها بقرار احراق كتب الفروع (القانون المطبق) ، إلا أن ما يجب النظر اليهما كنصوص اساسية استثناء من اي كتاب آخر ، هما القرآن والحديث ، مشيراً بذلك على الارجح الى كتاب وحديث المهدي نفسه. انه لأمر ثابت في الحركات الايديولوجية في الاسلام ان تعمل الاسرة التي تؤسس حكمها بفضل مساعدتها ، كل ما في وسعها للتخلص منها على أمل اكتساب شرعية الا أنها لا تحصل عليها ابداً . ففي عام ١٢٢٩ / ٦٢٦ سوف يؤكد المأمون ان المنصور كان يريد من قبل الانفصال عن الموحدين ، ولسوف تكون اتهامات المشايخ العنيفة للوزير ابن جامي في عهد الناصر احد اسباب انكسار عام ١٢١٢. وشأن الفاطميين قبلهم أراد افراد اسرة عبدالمؤمن، لا شك، الابتعاد عن التطرف التومرتي ، لكن السلالة الحاكمة لم تكن لتتماسك الا بكوادرها الايديولوجية وباضعاف هذه الكوادر كانت توجه لنفسها ضربة قاتلة . بيد ان هذه الايديولوجية نفسها كانت مصدر ضعف وهو ما أظهرته بوضوح ثورات المغرب والمصاعب في الاندلس . فالثورات السبع الهامة في مراكش التي تذكرها الوقائع من عام ١١٩٧ / ٥٤٢ إلى عام ١٢١٣ / ٦١٠ كانت جميعها محصورة في الجنوب ، في منطقة ماسا وفي الشمال في جبال غومارا وهما ، منطقتان صنهاجيتان كما يقال . في الحقيقة انهما مكانان ازدهرت فيهما بصورة خاصة الايديولوجية المهدية دائماً ؛ إن ما غذى الامل مهما كان ضعيفاً ، في كل مغامر نجح في اكتساب بعض الاتباع هو اذن احد عناصر مذهب الموحدين . الا أن اخطر الثورات كانت تلك التي وجدت في افريقية دعم جهابذة المذهب المالكي . فمنذ عام

١١٧٨ / ٥٧٤ . ثارت مدينة قفصا Gafsa بتحريض أحد افراد ابن روند ، احد فروع الزيريين البعيدة ، الذي نجح في اقتطاع امارة لنفسه بعد الغزو الهلالي . وبسرعة فائقة فازت الثورة بدعم الجريد كله مما اضطر الخليفة يوسف الى المجيء بنفسه لقيادة العمليات حتى تمكن بعد مضي سنتين من وضع حد لها . ولم تلزم افريقية ، حتى من أجل هذا الهدوء . ذلك ان احد اعقاب مرابطي اسبانيا ، المعروف باسم ابن غانية [1] كان جده والياً على جزر الباليار ، فان علياً بن غانية هذا . بدلا ان يخضع للحكم الجديد شأن جميع زعماء المرابطين الآخرين وكما كان اخوه الاكبر نفسه قد أسس قيادة ، هاجم بوجي عام ١١٨٤ / ٥٨١ مباشرة بعد تسلم يعقوب سدة الامبراطورية ، وسيطر بسهولة كثيرة على المغرب الاوسط بأكمله ؛ ووجد حلفاء في افريقية ، في الهلاليين الذين لم يقبلوا بهزيمتهم وفي مرتزق تركماني ، كراكوش (او قراقوس) الذي احتل طرابلس بمساعدة صلاح الدين . ومن الصعب ان لا نرى في هذا التحالف الواسع ردة فعل مالكي ضد الموحدين الهراطقة . ولم يتوصل ابن عم الخليفة ، عبد الرحمن بن حفص ، الى قمع التمرد حتى اضطر يعقوب إلى الانتقال بنفسه . فطورد علي الى الصحراء حيث وافته المنية عام ١١٨٩ / ٥٨٥ ، لكن أخاه يحيى خلفه ومنذ ذلك التاريخ حدثت حركة كرّ وفرّ محققة : عندما يكون الخليفة في اسبانيا كان يحيى يعود الى الظهور في افريقية ؛ ولدى اقتراب جيوش الموحدين كان ينسحب معتصماً بالجريد بانتظار لحظة أكثر ملاءمة . وفي عام ١١٩٥ / ٥٩١ اضطر يعقوب الى مغادرة اسبانيا وتوقيع هدنة من خمس سنين مع القشتاليين دون أن يكون قد استفاد الفائدة كلها من غزوته المظفرة بسبب الدمار الذي كان يرتكبه ابن غانية في افريقية . بعد ذلك بأربع سنوات نجح يحيى في عهد الخليفة الناصر في فتح المهدية وطرابلس ودخل الى تونس في عام ١٢٠٣ / ٦٠٠ : فأعترفت تونس كلها من جديد بالسيادة العباسية . وفي الوقت الذي كانت فيه الاندلس تجد نفسها مهددة تهديداً خطراً من قبل القشتاليين ، اضطر الخليفة الى اعداد حملة هامة والقدوم بنفسه

(١) ابن غانيه هو محمد بن علي بن يحيى الصوفي ، سمي من قبل علي بن يوسف حاكماً على الباليار (الجزر الاسبانية في غرب البحر الأبيض المتوسط) .

لاعادة فتح افريقية وذلك ما فعله في عام ١٢٠٦ / ٦٠٣ . الا أن يحيى تمكن من الافلات . واذ تأكد حينئذ من أن هذه الولاية لم يكن من الممكن الدفاع عنها من مراكش ، قرر الناصر تسمية نائب له فيها وفكر بالطبع بأحد اولاد الشيخ ابو حفص، عبد الواحد (وربما كان له في هذا الاختيار قصد سياسي خفي) . وبعد كثير من التردد قبل عبدالواحد ولكن بشروط كانت تكفل له استقلالاً ذاتياً حقيقياً . ولا يمكن فهم مقاومة يحيى بن غانية الطويلة والعنيدة في أيام قوة الموحدين الأولى ، الا بالدعم الفعال من قبل الرأي العام في المدن ، المتأثر بعلماء المذهب المالكي ، الذين كانوا يفضلون بدو جيش ابن غانية على الموحدين تماماً كما فضلوا خوارج أبو يزيد على الفاطميين . والملاحظة نفسها تنطبق على الاندلس . فعلى حين كانت تجد نفسها في وضع أكثر خطورة أيضاً منه في نهاية القرن الحادي عشر فان سلطة الموحدين لم تكن أبداً متينة بمقدار ما كانت سلطة المرابطين ولا يمكن تعليل هذه الصعوبة الا بتعارضات مذهبية . ذلك ان الموحدين قد حاربوا دائماً على جبهتين في اسبانيا نفسها . فلمدة طويلة تشبث ابن مردانيش بعناد بفالنسيا ومرسيا وتحالف مع القشتاليين وارسل من معقله هجمات كانت مظفرة أحياناً (كارمونا)، وخطرة غالباً (قرطبة) . ولم يتوصل عبد المؤمن الى التخلص منه ؛ واضطر يوسف الى توقيع هدنة مع القشتاليين للقدوم لمحاصرته . ولم يرجع ابناؤه امر الليفانت Levante الى الخليفة الا بوفاته في عام ١١٧١ / ٥٦٧ ، فقابل قيادات عليا في جيوش الموحدين وبعد عدة سنوات اضطرم مركز آخر للمقاومة في الباليار Baleares : بعد نجاح الهجوم على بوجي إذ أبحر عبد الله احد اخوة علي بن غانية ، عام ١١٨٧ واستولى على ماجوركا Majorka ؛ ولم تسترد الجزر الا بعد انكسارات عديدة ، استعادها عام ١٢٠٧ / ٦٠٤ عم الناصر . كذلك نادراً ما دلت الحروب ضد الممالك المسيحية على وجود مشاركة روحية حقيقية بين الاندلسيين والموحدين ؛ فان ما منع يوسف من احراز نصر يبدو مؤكداً في سانتاريم Santarem على الفونس التاسع دي ليون عام ١١٨٤ / ٥٨٠ ، كان انعداماً في التنسيق ؛ كذلك فان ما كان مسؤولا جزئياً عن الانكسار الخطير في عام ١٢١٢ / ٦٠٩ هو عدم الثقة بين الاندلسيين والموحدين .

وعلى العكس ، عزي الجانب الاكبر من انتصار الاركوس Alarcos في عام ١١٩٥ / ٥٩٥ إلى التنسيق بين اعمال الموحدين واعمال الاندلسيين يديرها قائد حرب ممتاز هو ابن صناديد . وعندما نتصور الضغط الذي مارسه علماء المالكيين على امراء الاندلس لمنعهم من تدبير المكائد مع الملوك المسيحيين وارغامهم على الانضمام الى أهداف وطرق المرابطين ، لا يمكننا ان نفهم ميوعة الوضع الذي كان على الموحدين ان يواجهوه الا بفشلهم في استمالة الرؤساء الدينيين الى مذهبهم . ففي نظر هؤلاء الرؤساء الدينيين لم تكن الخدمات التي كان في وسع الموحدين تقديمها ضد النورمان لتعوض ما كان يلحقه مذهبهم المفرط في خصوصيته من خطر بالمجتمع .

ومع ذلك فان بهاء حكم الموحدين ، على الرغم من اقتصاد غير مؤات وحكومة غير مستقرة وايديولوجية منكرة ، كان حقيقياً ، اننا نشاهد ، بعد مضي قرنين من الزمان ولكن على نطاق أوسع ، في المغرب الاقصى ، ذلك التبني ، من البربر لنموذج من الحضارة العربية سبق ان لاحظناه في افريقية الزيرية ؛ لقد كانت حكومة الموحدين بربرية أكثر من حكومة المرابطين ؛ فثمة بربر ينتسبون الى جميع أجزاء المغرب صاروا مستشارين وكتاباً وحجابا وشعراء واطباء ملحقين بالبلاط ووزراء مالية وليس فحسب ولاة وقادة حرب كما في عهد المرابطين . وفي زمن هذا التعريب نفسه كان يجري لاول مرة في العمر ، نشر حقيقي للاسلام بتأثير حركة صوفية نمت في بداية الامر خفية عن مذهب الموحدين لكي تدمره فيما بعد ، ثم تعيش بعده . هذه الحركة التي قدمت لاول مرة الى المغرب ايديولوجية شعبية حقيقة سوف ترسم الملامح الجوهرية لاسلام الغرب وتتكشف في ساعة الخطر عن قوة وعن صلابة غير مشكوك فيهما . ولاول مرة كذلك تجد نفسها عاصمة مغربية هي مرّاكش على مستوى مراكز الثقافة العربية الكبرى : بغداد والقاهرة وقرطبة . عاشت ووافتها المنية فيها اسماء عظيمة في الفكر والعلم العربيين. واخيراً ، فيما وراء المؤشرات الاكيدة ، ولا مفر منها في ثقافة ذات نزعة عمومية ، فان الفن المغربي قد بلغ في عهد الموحدين ، كما ترمز اليه الكوتوبيا Koutoubia ، شأواً وانسجاماً لن تجدهما فيما بعد ابداً ؛ لقد نجح في الافصاح ، مثل النثر الطافح بالعنف لابن تومرت ، عن دقة ورزانة

وحشمة ، ورفض للتسويات وهو ما يمكن بصورة ما ان نعزوه الى بسيكولوجية البربر كما صاغتها عصور من السيطرة قوتلت بضراوة . ويمكن القول مع ذلك انه بنفس النهج الذي كان قد اقتضى خراب تاهرت لعمار اشير ونهب القيروان لكي تنتعش القلعة والحكم على القلعة بالدمار لكي تزدهر بوجي فانه لزم من أجل ان تصبح مرّاكش Marrakech عاصمة انحطاط افريقية وهجر الاندلس . فان اثر الموحدين اذا ما نظر اليه من المغرب الاقصى بدا بالتأكيد انه قمة واذا ما نظر اليه من مكان آخر كان تفتحاً في نهاية الخريف . وما غذى ازدهار الموحدين لم يكن الاقتصاد المغربي في القرن الثاني عشر وانما ثروات الزيريين والمرابطين المتراكمة ، وقبل هؤلاء امراء الاندلس . وكما كانت حركة الموحدين تجيء متأخرة جداً في عالم اسلامي تعب من الحركات التشبيثية ، وكان معداً من قبل لنزعة الاستقامة في المعتقد فان اشراق الموحدين كان استهلاكاً لثمرة لم ينتجوها هم . لذلك كان الانحطاط سريعاً جداً والنهضة عسيرة جداً .

٤ ـ تجزيء الأمبراطورية (١٢١٣ ـ ١٢٦٩ / ٦١٠ ـ ٦٦٨)

بعد هزيمة عام ١٢١٢ التي سماها المسلمون معركة العقاب وسماها المسيحيون لاس نافاس دي تولوزا قفل الخليفة الناصر على اعقابه راجعاً بسرعة إلى مرّاكش فسمى ابنه يوسف (المنتصر) خليفة له وعاش منعزلا في قصره حتى مات في عام ١٢١٣ / ٦١٠ . كان ذلك بلا شك لانه أدرك جسامة الازمة . فبقراءة الاعداد الطويل للحملة كما سرده ابن اظهري Ibn Idhari نفهم بسهولة الاسباب العميقة للهزيمة : من انحطاط اقتصادي (غلاء المعيشة التي يلح عليها المؤلف كثيراً ، المشايخ الموحدين ومستشاري الخليفة) . كانت السنوات العشر لحكم المنتصر الذي كان في السادسة عشرة تقريباً عندما تولاه ، سنوات انتظار ، ذلك ان كل واحد من خصوم الامبراطورية كان يريد التأكد قبل كل شيء من أنه اذا كان لا يزال في وسعه ان يتمالك ام لا . وانطلاقاً من عام ١٢١٣ / ٦١٠ تتسارع الحوادث في اتجاه انحطاط عضال فنشاهد حينئذ نفس التغيرات الفجائية ، المملة والباخسة التي عرفتها قرطبة

والقاهرة قبل سقوط الخلفاء الامويين والفاطميين النهائي . فمن العاهلين الثمانية الموحدين الاخيرين اثنان سوف يظهران مقدرة معينة : التاسع ادريس المأمون ١٢٢٧ — ١٢٣٢ / ٦٢٥ — ٦٣٠ وابنه علي السعيد (١٢٤٢ — ١٢٤٨ / ٦٤٠ — ٦٤٦ لكن محاولات الانهاض تلك كانت على الرغم من مزايا أصحابها ، لا تستطيع النجاح بالنظر الى أن اسباب الانحطاط كانت عديدة وعميقة .

كان السبب الاوضح والاشد خطورة هو الوهن العسكري ، ذلك أن بنية الجيش كانت هي نفسها بنية الدولة . فقد تحدث رواة الاخبار عن ستمائة ألف جندي كانوا رافقوا الناصر الى اسبانيا ؛ وايا ما كانت صحة هذا الرقم ، الذي لاينبغي ان يكون موصوماً بالمبالغة بما ان المقصود هزيمة اسلامية كانت مصلحة رواة الاخبار تخفيضها الى حدها الادنى بالتقليل من عدد المحاربين . فان الامر الذي يجب الاخذ به هو ان هذا الجيش كان تقريباً مجتمعاً معباً . فالتنافسات التي سوف يولدها الانحدار داخل الجيش سوف تكون منافسات المجتمع بأكمله . وكانت القدرة المالية واستقرار اسرة الحكم السياسي متماشيتين مع قوتها العسكرية . والحال ان الضعف العسكري ، في حالة الموحدين ، كان مرتبطاً بعلاقة قوى لا تخضع لهم . فقد لعبت الانتصارات الاسلامية في المشرق دوراً ضد الاسلام في الغرب ، اذ ان كثيراً من الصليبيين جاءوا يقاتلون في اسبانيا وفي الوقت الذي كانت فيه جيوش المسيحية تزداد عدداً وموحدة ، كان الموحدون متآكلين يضنيهم عجزهم عن فرض نفسهم عقائدياً والعداء المستحكم بين المؤمنين والمشايخ الموحدين . ولسوف تتعمق هذه الازمة الداخلية على وجه الدقة بعد عام ١٢٢٣ / ٦٢٠ : استغل المشايخ الوضع لاستعادة السلطة والثأر من الوزراء كابن جامي ، لكنهم لم يبق لهم قادة مسلم بهم مثل زمن ابي حفص (توفي ١١٧٥ / ٥٧١) واولاده . فحاول المأمون من جانبه التخلص من هذه الارستقراطية المعوقة : فأعلن تخليه رسمياً عام ١٢٢٩ / ٦٢٦ في جامع مراكش الكبير عن مذهب الموحدين وعمل على اعتقال جميع المشايخ (يقال اربعة آلاف) وعمل على قتلهم ؛ وكان هذا الامر هو الحكم بالموت على سلالة الحكم لانها كانت تفقد به كل شرعية ؛ واراد المأمون الاعتماد فقط على الجند المرتزقة من المسيحيين الذين استعارهم من ملك قشتالة

بشروط شاذة وعلى العرب الهلاليين . وعندما وافاه الاجل عام ١٢٣٢ / ٦٣٠ كان عمر ابنه عبد الواحد الرشيد يكاد لا يبلغ الرابعة عشرة ؛ فاستغل المشايخ صغر سنه ليدفعوا به الى العدول عن عمل والده واسترداد السلطة لكنهم لم يعودوا الا جماعة من أصحاب الامتياز متشبثين بسلطة غير شرعية .

كان ذلك يعني أن السلطة أصبحت شاغرة وبالطبع فان اللعبة سوف تجري بين عناصر الجيش . والحال انه ، طيلة أيام شباب الامبراطورية ، كلما كانت الحروب تطول في اسبانيا وفي افريقية كلما كانت الدولة في حاجة للرجال. فقد استنجد الخلفاء الموحدون بجماعتين فيهما نزوع للقتال : هلاليو المغرب الاوسط الذين انزلهم يعقوب وقد انكسروا في عامي ١١٥٢ و ١١٨٧ في سهول الاطلنطي (الرياحون في الهبت والجيوشاميون في التامسنا) والمارينيون في شرق المغرب الاقصى الذين ، منذ البداية شاركوا أسرة الحكم مصالحها . كانت الجماعتان تمدان جيش الموحدين بالفرسان . ان مؤرخي الاستعمار يعطون أهمية كبرى الى واقعة ان الهلاليين والمارينيين كانوا بدواً رحلاً ، الا أنهم ، مرة أخرى ، لم يكن الدور الكبير الذي لعبوه في تفكيك الامبراطورية بوصفهم بدواً رحلاً وانما بوصفهم جنوداً مرتزقة [1] ، فأيا ما كان نوع حياتهم في الاصل ، كانوا سيتصرفون بنفس الاسلوب بوصفهم عناصر في الجيش . في بداية الأمر اصطفوا وراء أعضاء اسرة عبد المؤمن أنفسهم ، وشيئاً فشيئاً بدلا من القتال من أجل المرشحين الموحدين اظهروا هم أنفسهم سلطتم في الترشيح . فان اللاشرعية التي تدنست بها سلطة الموحدين هي التي جعلت منهم الورثة في حكم شاغر وليس عملهم هو الذي خلق ذلك الشغور .

ان افريقية هي التي انسلخت في بداية الامر عن الامبراطورية ويمكننا القول بأن مقاومة يحيى بن غانية الطويلة هي التي أتاحت لذرية أبي حفص تأسيس حكم لهم فيها . ففي عام ١٢٠٦ / ٦٠٣ كان عبد الواحد آل حفص قد حصل على شروط

---

(١) هـ. تيراس يذهب حتى الحديث عن خيانة عبد المؤمن ويعقوب لجنسهما (المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٢٠ ، ٣٣٥ .

معادلة للاستقلال الذاتي الفعلي . وعندما توفي في عام ١٢٢١ / ٦١٨ قبل ان يحصل على استسلام يحيى ، انتخب موحّدو افريقية ابنه عبد الرحمن ليخلفه ؛ وحاول الخليفة المنتصر معارضة هذا التطور بارسال شقيق جده ادريس بن يوسف ليحل مكانه غير انه لا ادريس هذا ولا ابنه وخليفته عبد الرحمن احرزا نصراً حاسماً على ابن غانية فصمم الخليفة العادل تعيين احد آ ل حفص والياً على قابس(١٢٢٣/٦٢٠) هو عبد الله بن عبد الواحد ، الذي استعان بأخيه ابو زكريا . وكان ابو زكريا هذا هو الذي تولى الحكم في عام ١٢٢٨ / ٦٢٥ بمساعدة الموحدين وتوصل أخيراً في عام ١٢٣٣ / ٦٣١ الى القاء القبض على ابن غانية واعدمه . وعندما أصبح سيداً هكذا على منطقة افريقية كلها وجد سلطة الموحدين منكرة في كل مكان . ومن قبل عام ١٢٣٠ كان قد رفض اتباع المأمون في انقلابه الايديولوجي وقطع صلاته به وعمل على أن تكون الخطبة باسم المهدي ؛ وشيئاً فشيئاً وبحكم قوة الاشياء أصبح في عداد الطامحين بالخلافة . وفي عام ١٢٣٦ / ٦٣٤ عمل على ان تلقى الخطبة باسمه واذا باشبيلية ، بعد قليل وسوتا بل ومكناس (١٢٤٤ / ٦٤٢) تبايعه بالخلافة . كانت تلك الاهمية المفاجئة التي حصل عليها احد الحفصيين هي التي ارغمت ، على وجه الدقـــة ، الموحدين على التجمع من جديد حول السعيد في محاولته للانهاض (١٢٤٢ — ١٢٤٨) الا أنها فشلت وظل ابو زكريا سيداً على افريقية .

جرى انفصال الاندلس ثم ضياعها وفق سيناريو غدا مألوفاً منذ بداية القرن الحادي عشر : تتشتت السلطة بين الولاة الموحدين الذين يتخلون عن مكانهم لأندلسيين يستنجدون هم بدورهم بالملوك المسيحيين وبعد لأي يخضعون لهم. وقد بدأت الثورة في أسرة عبد المؤمن نفسها . ففي عام ١٢٢٣ / ٦٢٠ عندما سمى الموحدون عبدالواحد ابن الناصر خليفة ، وان كان على الرغم منه مع ذلك فان عمه عبد الله (الذي يصبح الخليفة العادل) ، والي مرسيا ، رفض الاعتراف به وبتأثير مستشاره ابن يرجان وهو متآمر ذائع الصيت في رأي رواة الوقائع ، وتقدم بترشيحه ؛ فاعترف به اخوته في الحال : ادريس (في قرطبة) ، علي (في غرناطة) ابو موسى (في ملقا) واحد اولاد عمومته هو عبد الله البياسي (في جاين) الا أن أخاه رفض مجاراته

وتوصل الى استمالته (استمالة البياسي) الى وجهة نظره ؛ وعندئذ تمرد الاثنان واستنجدا بالقشتاليين . فترك العادل لأخيه ادريس الخليفة المأمون، فيما بعد، مهمة محاربتهما وقفل عائداً الى مراكش حيث توفي عام ١٢٢٧ / ٦٢٤ . ورغبة من ادريس في الثأر لأخيه لم يخضع للخليفة يحيى المعتصم الذي بويع ومن أجل محاربته على نحو أفضل طلب جيشاً من القشتاليين في عام ١٢٢٩ / ٦٢٦ ؛ واذ حصل عليه انتقل الى المغرب الاقصى حيث لم يلق نصراً أكثر من أخيه . غير ان هذه الصراعات المستمرة بين سلالة عبد المؤمن فتحت الطريق أمام ذرية السلالات القديمة المحلية كابن هود وابن ماردانيش . ففي عام ١٢٣٠ / ٦٢٨ طرد الموحدون من الاندلس واعترفت الولايات المختلفة اما بسيادة العباسيين (لوقت من الزمن قبل سقوط بغداد) واما بسيادة الحفصيين في افريقية . وانطلاقاً من هذا التاريخ بدأت المدن الاندلسية تسقط الواحدة تلو الأخرى تحت سيطرة ملوك قشتالة او اراغون ويمكن القول بأن الاندلسيين أنفسهم هم الذين أعدوا للفتح المسيحي .

في مركز الامبراطورية ، كلما كانت المنازعات تترسخ بين المتطلعين الى الحكم من الموحدين أصبح دور الجماعات التي كانت تخدم في الجيش راجحاً. كان ذلك يعني الهلاليين الذين يسيطرون على طريق فاس — مراكش والمارينيين الذين يسيطرون على طريق مكناس — تازا والزيانيين الذين يقع تحت رحمتهم طريق افريقية . كانت هذه الجماعات قد صارت تمثل قوة سياسية وعسكرية ؛ كانت تزود جيش الموحدين بالفرسان وتجبي الضرائب ؛ اكتسبوا اذن من حيث هم وسطاء بين السكان الفلاحين وحكومة الموحدين قوة التمتع بالاستقلال الذاتي . فالاولون انقسموا في مساندتهم لامراء من بني عبد المؤمن ، مختلفين ، ولهذا السبب وكذلك بسبب قلة عددهم لم يستطيعوا الطموح الى وراثة سلطة الموحدين . وبالمقابل اتحد المارينيون بسرعة فائقة حول زعيم واحتفظوا لانفسهم بالضرائب التي يجمعونها [1] ووقفوا متأهبين لاتخاذ البديل عن سلالة الحكم المتهاوية . وقد ساعدهم موقعهم المركزي فوق ذلك على تأكيد ذاتهم بخلاف هلاليي الغرب وزيانيي الشرق على حد سواء .

---

(١) أنظر : ا. ناصري : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٠ حول هذه الناحية الضرائبية .

اضطرت كل جماعة من الجماعتين اللتين سوف تنشئان السلالتين : الزيانية (وتدعى كذلك بعبد الواديد) والمارينيين الى الاتحاد بادىء ذي بدء ، طبيعياً تماماً ، حول زعيم واللعب بين مختلف الطامعين الموحدين لكي تؤكد في النهاية استقلالها الذاتي . ان اسرة المطهّر بين جماعة عبد الواديد هي التي بدا انه كان يجب ان تفرض نفسها ، وقد اكتسبت تفوقاً معيناً من ايام عبد المؤمن ويوسف. وفي عام ١٢٣٠/٦٢٧ تم اختيار احدهم وهو جابر بن يوسف ، زعيماً فحاول عندئذ جعل سلطته فعالة ؛ الا انه فشل ولم يكن ابنه حسن افضل منه حظاً بالنجاح ؛ كذلك فشل عمه بدوره ، فكان عندئذ ان تم الاتفاق على اسم ابو عزة بن زيان لكن بني المطهّر لم يعترفوا به وقتل في اثناء اشتباك وقع عام ١٢٣٥ / ٦٣٣ ؛ فخلفه أخوه يغمورسين وحتى ذلك الحين كانت سيادة الموحدين معترفاً بها دائماً ؛ الا ان الزعيم الجديد من أجل تأكيد استقلاله الذاتي قرر الاعتراف بأبي زكريا الحفصيّ . وبعد فشل محاولة السعيد وقد قتل في تلمسان عام ١٢٤٨ / ٦٤٦ لم يكن قد بقي لدى الزيّانيين ما يخشونه وكانوا يقبضون باحكام على اورانيا الحالية بأكملها .

في أثناء ذلك الوقت كان المارينيون يتصرفون على نفس المنوال في الغرب . فمنذ عام ١٢١٦ / ٦١٣ كانوا يظهرون قوتهم بالتغلب على والي فاس . وعندئذ حاول الخليفة الاعتماد على الهلاليين لاعادتهم الى طاعة نسبية . واذ كانوا لا يزالون بعد غير واثقين من انفسهم ومن ضعف الموحدين ، فان قسماً منهم اعلن خضوعه لكن القسم الآخر استمر في كفاحه حول زعيمه عبد الحق فتغلبوا . وبموت عبد الحق خلفه ابنه ابو بكر . وفي عام ١٢٣٨ / ٦٣٦ سقطت مكناس في أيدي المارينيين وبسياسة منهم اعترفوا بدورهم بسيادة الحفصيين . وبعد زمن من التوقف يطابق خلافة السعيد ، استأنفوا فتحهم المتأني للشمال المراكشي . وفي عهد المرتضى (١٢٤٨ — ١٢٦٧ / ٦٤٦ — ٦٦٥) تفتتت دولة الموحدين تماماً . فأنفصلت سوس في الجنوب وسوتا في الشمال . وفي عام ١٢٥٥ / ٦٥٣ قام الخليفة بجهد أخير : الا انه وقد دحره المارينيون ويئس اكتفى بالمحافظة على عاصمته وعندما جاء يعقوب الماريني اخو أبي بكر وخليفته ، بعد احتلال تلمسان ودحر آخر الجيوش من الموحدين والمرتزقة

من البدو في أم الربيع عام ١٢٦٢/ ٦٦٠ فحاصر مرّاكش . عرض المرتضى أن يدفع له أتاوة ؛ ولكن ابا دبّوس احد احفاد عبد المؤمن ثار واستنجد بالماريني الذي وعده بالتخلي عن نصف البلاد المحتلة ؛ وعندما رفض ابو دبّوس بعد الانتصار ، جاء يعقوب فحاصر مراكش واستولى عليها عام ١٢٦٩ / ٦٦٨ . وفر آخر الموحدين (اسحق اخو المرتضى) مع آخر المشايخ الى تينمال حيث وافته المنية عام ١٢٧٥ / ٦٧٤ . فلم يبق أمام الماريني حينئذ الا التلقب بألقاب الحكم .

كانت امبراطورية الموحدين تنتهي هكذا في حشرجة طويلة ومثيرة للشفقة . وقد نجم هذا البطء في التفتت ، في آن واحد ، عن ضعف السلطة المركزية وكذلك عن ضعف خصومها ؛ فعلى حين بدأ المرابطون والموحدون ومن قبلهم الفاطميون فتوحاتهم بقوى جديدة كانت قوى امبراطورية الموحدين الخاصة هي التي تبارزت احداها مع الاخرى. ان هاهنا أمراً جديداً . فقد اتفق ان رأى القرن الثالث عشر ميلاد نتاج تاريخ رسمي ، حرص على ان يصف بالتفصيل سجل وقائع الاسر الحاكمة مبالغاً في أهمية الاعمال الباهرة ، وهي في الحقيقة متواضعة، ولكن يجب ألا تؤخذ تأكيداتهم النفعية على محمل الجد المبالغ فيه ؛ فان الصراعات بين جماعات الهلاليين والمارينيين وبين المارينيين والزيّانيين ونزاعاتهم مع الخلفاء الموحدين لم تكن بالتحليل الاخير الا منافسات بين جيوش جند مرتزقة كانوا يقتتلون على احتيـاز واردات الضرائب وان النزاع دام هذا العدد من السنين بمغامرات متعددة وتغيرات مفاجئة لا حصر لها لان سكان المدن والارياف كانوا لا يبالون بمن يدفعون اليهم الاتاوات . الا أن فشل الموحدين كان قبل كل شيء افلاس عقيدة وتفرّق جيش في ظروف اقتصادية صعبة ووضع خارجي غير ملائم . ولم تعش الامبراطورية بعد ذلك لان المركز كان قد ضعف في آن واحد على الصعيد الزراعي وعلى الصعيد التجاري . فان انتقال الهلاليين وتفوق المارينيين لا يفسران الا بأن المناطق الاطلنطية كانت قـد صارت نصف مخربة بالحروب السابقة . فمن الممكن ان يكون هذا الانتقال في ذهن الخلفاء الموحدين وسيلة استعمار وادارة وتجنيد عسكري في آن واحد ، ولكن لما كانت الدولة بحاجة الى جنود بقدر ما كانت بحاجة إلى منتجين فان القادمين الجدد اختاروا المهنة الاولى ، فتسارع الانحطاط العام . وحقيقة أن الجنوب لعب دوراً

صغيراً إلى هذا الحد في تاريخ الموحدين لأمر سوف يدعو الى الاعتقاد اما بأن التجارة الصحراوية كانت قد نضبت او انها تحولت . والحال انه اذا كانت الامبراطورية افتقرت ولم تعد حرب الحدود (الاندلس وافريقية) ترفاً أو خطأ ، وانها لضرورة إذ كيف الى امداد بيت المال بغير هذا الشكل أي للإنفاق على جيش وبحرية قويتين والمحافظة على السلام بين الموحدين وزُبُن الخلفاء ؟ ومع ذلك هل كان يسع استغلال هاتين المنطقتين ان يدوم دائماً ؟ فمنذ ان صارت هذه الاسواق في خطر كان الانحطاط يمكن ان يكون عضالا . ان قوة الاسرة الحاكمة كانت مرتبطة بانتصاراتها العسكرية لكن الحرب في اسبانيا كانت مستمرة وبسرعة فائقة غير متكافئة . كانت الجيوش المسيحية تحسّن بلا انقطاع تسليحها وتكتيكها وخاصة ان الكنيسة كانت آخذة شيئاً فشيئاً في فرض وحدة في وجهات النظر كانت تتباين مع تشتت جهود المسلمين والحذر العميق الذي كان يفصل الاندلسيين عن المغاربة . وقد عرض الموحدون ايديولوجية بهدف الافضاء تماماً الى مشاركة في الاذهان ؛ فكان ذلك اشد اخفاقاتهم إيلاماً ، فالاكثرية لم تقبله وما حاباها في باديء الامر (من زهد وورع) كـان سيفقدها اذ نمت الصوفية خارج حركة الموحدين وبسرعة فائقة ، ضدها . وبدون شرعية وفيما بعد بدون قوة لم يكن في وسع سلطة الموحدين الا أن تنحل ، ولو لم يفعل ورثتها شيئاً لاستعجال اختفائها . وبعد اخفاق المرابطين والموحدين سوف لن يكون الزيانيون والمارينيون ابطال أية عقيدة : ذلك انهم إذ يتقدمون كورثة على الرغم منهم ، لحكم خائر القوى ، سوف يكسبون تعاطف الفقهاء ويدعون السبيل للمعتقد الصحيح ليفرض نفسه بنفسه . ويقال أحياناً ان الموحدين اخطأوا ببذل هذا القدر من طاقتهم في اسبانيا . فهل كانوا يملكون الخيار حقاً ؟ وبدون تلك الحروب في اسبانيا هل كان المغرب الاقصى يستطيع اجتياز مرحلة الاقليمية واكتساب نموذج دولة وثقافة وايمان تسمح له في الحقبة التالية ان يدوم بمعرفة نفسه في تقليد ؟

٩ - فكرة الامبراطورية تمنى باخفاق

لا شيء يظهر أهمية ملحمة الموحدين أفضل من الافتتان بها الذي ما تنفك تمارسه على ملوك المغرب اللاحقين . كل واحد اراد ان يكسب ويستثمر جزءاً من التركة ؛ وما من احد حالفه التوفيق ، إذ لم تكن لديه قوى كافية ولم يجد ظروفاً مواتية . فقد قسم المغرب بين ثلاث دول منظمة ، مقترباً هكذا شيئاً فشيئاً من الوضع الحالي : ما من احد احسّ بأنه راض ؛ وكل واحد اراد التوسع ، ان لم يعمل من جديد الى الوحدة الامبريالية وواحد فقط اوشك على التوصل الى ذلك ، لكن فشله سد الباب نهائياً في وجه المحاولات التوحيدية . ففي حوض البحر الابيض المتوسط الغربي استقر في القرن الثالث عشر توازن عابر لكنه واقعي بين الدول المسيحية والاسلامية ؛ وفي غضون حقبة قصيرة خامر الناس وهم تعايش سلمي دائم : أبانت هذا التوازن وعززته الدبلوماسية والتجارة والاجارة في آن واحد إلى أن تأججت روح الصليبية مجدداً وغيرت مجرى الحوادث تغييراً تاماً ، لاسيما في المغرب . كان المحركون الأول هم البرتغال وقشتالة والاراغون ومدينتا جينوا وبيزا وممالك غرناطة وفاس وتلمسان وتونس . ومن بين الدول الثلاث التي اقتسمت المغرب ، اثنتان منها خبرتا أياماً حلوة هما دولة المارينيين في الغرب والحفصية في الشرق في حين ان دولة الوسط ، الزيّانية ، لم يكن لها لا القوام ولا القوة لتكون مستقلة حقيقة وانتقلت من وصاية الى أخرى .

في الحقبة الممتدة من عام ١٢٢٧ / ٦٢٤ ، وهو التاريخ الذي قطع فيه الخليفة المأمون صلته بايديولوجية الموحدين وآتاح على هذا النحو لحفصيّ افريقية باعلان استقلالهم الذاتي الى عام ١٣٥٨ / ٧٥٩ ، العام الذي توفي فيه السلطان الماريني فارس المتوكل (ابو عنان) [١] ، يمكننا ان نفرق بين مرحلة رجحان حفصية ، ومرحلة توازن ومرحلة رجحان مارينية .

كان الرجحان الحفصي الذي دام حتى عام ١٢٧٧ / ٦٧٦ دينياً أكثر منه سياسياً ؛ فمنذ البداية وبصورة شعورية تقدمت سلالة الحكم الجديدة كوريثة لخلافة الموحدين وتبريراً لهذا الادعاء كانت لديها حججها الممتازة . فأبو حفص عمر كان في الحقيقة مؤثراً في مثل تأثير عبد المؤمن ؛ وقد اقتسمت عائلتاهما تقريباً بالتساوي القيادات الادارية والعسكرية العليا في المغرب الاقصى وخاصة في الاندلس . وقبل أن ينطلق في غزوة عام ١٢١٢ ، استشار الناصر ، عبد الواحد الحفصي وان كان لم يأخذ بمشورته [٢] . وفي أثناء النزاع الطويل الذي تناوأ فيه ادريس المأمون ويحيى بن الناصر أعلنت الخطبة في افريقية باسم المهدي وخلفائه المخلصين . وفي عام ١٢٣٧ / ٦٣٤ عمل يحيى الاول الحفصي بعد أن رسّخ وضعه على ان تقام الصلاة باسمه الخاص دون أن يتخذ مع ذلك لقب الخلافة . ولكنه ، من بين جميع الطامحين الى سدة حكم الموحدين كان هو الذي يقدم وسائل النجاح الاكثر جدية واعترفت بسيادته الاندلس ومدن المضيق ومكناس والمارينيون . فأعاد يحيى بناء افريقية الزيرية بأناة ، مستفيداً من هذا المركز في الوقت الذي كان لا يزال فيه المارينيون والزيّانيون منشغلين في تصفية امبراطورية الموحدين : واذ لم يعد لديه ما يخشاه من الجنوب التونسي بعد وفاة ابن غانية (١٢٣٣ / ٦٣١) ، استولى على قسطنطينة وبوجي والجزائر وارغم تلمسان على

(١) كما هو معروف يحمل العاهل المسلم إسماً وكنية وهي التسمية المستعملة عادة ، ولقباً تشريفياً ؛ ورواة الأخبار يستخدمون في سردهم بلا تفريق الاسم أو الكنية . وسوف أستعمل الاسم واللقب التشريعي بالنسبة للعاهل الذي حكم والاسم والكنية بالنسبة للمطالبين بالحكم أو بالنسبة لمن يشك في شرعية حكمهم .

(٢) أنظر ا. ناصري : المصدر السابق : ج ١ ص ١٩٦ .

أن تدفع أتاوة له . ولانه كان في آن واحد اقوى عاهل في المغرب في ذلك الزمن وانه كان خليفة الزيريين والحمّاديين فانه أقام علاقة مع دول البحر الابيض المتوسط ؛ فوقع سلسلة من الاتفاقات مع مدن ايطاليا (فنيسيا وبيزا وجنوة) ومملكة اراغونة ؛ كان ذلك تجديداً لمعاهدات الزيريين . واستفاد خليفته محمد المستنصر (١٢٥٠ — ١٢٧٧ / ٦٤٨ — ٦٧٥) من الحالة المكتسبة فاتخذ لقب الخلافة ، حتّى انه بعد سقوط بغداد في ايدي هولاكو عام ١٢٥٨ واختفاء الخلافة العباسية ، وجد نفسه يحظـى باعتراف شريف مكة عام ١٢٥٩ ومماليك مصر في عام ١٢٦٠ . الا أن هذا المجد المفاجيء لم يدم قط أكثر من عام ما دام ان بيبرس في عام ١٢٦١ احيا السلالة العباسية التي ستحافظ في القاهرة على طيف الخلافة حتّى عام ١٥١٧ ، لكن احد المتحدرين من اسرة بربرية من الاطلس الاعلى اعترف به أثناء فترة قصيرة من قبل جميع العالم الاسلامي تقريباً ؛ صحيح انه كان يدعي تحدره من عمر بن الخطاب وان اللقب نفسه لم تعد له أهمية حقيقية [1] . فقد اكتسب على اية حال نفوذاً أدبياً الى حد ان السفراء ارسلوا اليه من بلدان بعيدة كبلاد الكانيم Kanem والبورنو Bornou (١٢٥٧ / ٦٥٥) والنورفيج (١٢٦٢ / ٦٦١) . ويبدو جيداً ان مدينة تونس قد عرفت ، في عهد المستنصر ، تحسينات كبرى من وجهة نظر العمران . ولا شك في أن هذه الخطوة هي التي جعلت منها هدفاً لحملة لويس التاسع الصليبية (١٢٦٩ / ٦٦٨) ، إذ اعتقد أنه بالتغلب عليها او الحصول على تحوّلها كان سيتغلب دفعة واحدة على الشرق . ومع انه كان على وشك ان يفقد عاصمته وان جيش الصليبيين قهره المرض أكثر مما قهرته قوة السلاح ، فان اخفاق الحملة الصليبية افاء عليه زيادة من النفوذ . وانتهت الحرب بتسوية ؛ قبل المنصور بمضاعفة الغرامة (؟) التي كان يدفعها لأنجيفنس Angevins صقلية وباعطاء ضمانات للتجار الفرنسيين والصقليين والنافاريين . وعندما وافته المنية في عام ١٢٧٧ كانت الحالة في المغرب قد صارت متغيرة وفي حين كانت افريقية سوف تعرف ازمات في الخلافة على الحكم وان وحدة المملكة سوف تتحطم فان المارينيين هم الذين قاموا بدور ملوك المغرب .

---

(١) أبرز ابن خلدون أنه تم الاعتراف به خطأ .

حتى عام ١٢٦٩ / ٦٦٨ كان الدور متبادلا بين المارينيين والزيّانيين ، جند الهلاليين المرتزقة (لا سيما الرياحيون المستقرون في الغرب) والموحدين المدعمين بالفرق المسيحية . وبالطبع تحالف الياغموراسين مع قوى الموحدين لمحاولة اكتساب نوع من الاستقلال الذاتي ؛ كان هوالذي أتاح عام ١٢٤٤ للخليفة علي السعيد استعادة مكناس التي كانت حينئذ بمثابة عاصمة للمارينيين ؛ وانه هو كذلك الذي ساعد ابا دبوس . وعلى هذا النحوتفسرحشرجة الموحدين البطيئة وفقدان الاهتمام لدى الجميع بازاء الاندلس السائرة الى الهلاك . لكن يعقوب المارينى دخل في سبتمبر عام ١٢٦٩ إلى مرّاكش واتخذ لنفسه لقب امير المسلمين من اجل الانفصال عن هرطقة الموحدين واظهار انه كان يرث سلطتهم في آن واحد ؛ واستردّ سيجيلماسا (١٢٧٤ / ٦٧٣) بإخضاع الهلاليين المعجل ، الذين كانوا منذ قرن يشرعون في فرض أنفسهم كسلطة سياسية وحيدة في الجنوب الغربي من المغرب في ظل سيادة زيانيّ تلمسان الاسمية . وكان في وسعه عندئذ الاستدارة اما نحو الشرق وامانحو الشمال : ولما لم يكن يملك لخلافة الموحدين شيئاً آخر غير حيازة القوة وانفتاحه على المعتقد المالكي الصحيح فقد كان عليه اقامة الدليل على ان استلامه السلطة كان لا يعني اضعاف الاسلام الغربي . كان اختياره محدداً سلفاً لا سيما ان امير غرناطة محمد الفقيه هوجم في آن واحد من القشتاليين ومن الاراغونيين . فعقد يعقوب هدنة مع يغموراسين وعبر إلى اسبانيا ؛ وقد ذهب بالاجمال اربع مرات للقتال من اجل انقاذ الاندلس ، ولكن في احوال اقل ملاءمة للغاية من احوال اسلافه من الموحدين ، ذلك أن لعبة القبان نفسها بين الخلفاء الموحدين وملوك قشتالة وبني غانية سوف تبدأ من جديد بين المارينيين والقشتاليين والزيانيين ، اللهم الا أنها هذه المرة كانت أكثر تعقيداً أيضاً وانها جرت في نطاق أضيق ؛ لقد تغلبت مصالح الاسر الحاكمة على الاوامر الدينية ؛ الا ان المارينى فاز بما كان يبحث عنه : الا وهو اقرار معين من علماء الشريعة . وفي عام ١٢٧٥ / ٦٧٤ ، فاز الجيش المارينى ، على مقربة من ايسيجا Ecija بنصر عظيم اعتبر ثأراً لانكسار عام ١٢١٢ . وبعد مضي اربع سنوات انتهت كذلك معركة بحرية استهدفت السيطرة على المضيق بنصر مارينى . وفي عام ١٢٨٢ / ٦٨١ . وُفق

يعقوب الى التدخل في السياسة القشتالية نفسها ؛ إذ استنجد به الفونس العاشر ضد ابنه واعطاه رهناً تاج قشتالة . وفي عام ١٢٨٥ / ٦٨٤ فاز بنصر بحري جديد فتم له به توقيع اتفاقية تسوية مع قشتالة يؤمن مؤقتاً سلامة مملكة غرناطة . على ان هذه النتائج يمكنها ان تظهر جد عارضة ، اذا نظرنا بعين الاعتبار ان الامل في انقاذ الاندلس ، مهما كان من الامر ، كان قد ضاع [١] ومع ذلك فان يعقوب المنصور المارينى كسب هيمنة معنوية معينة في المغرب ، ذلك انه وحده كان قادراً على تقديم مثل ذلك العون الى اسلام الاندلس . بيد ان هذه السياسة قد افضت الى توازن محقق بين الاسر الحاكمة المغربية الثلاث . استغله يغموراسين لاعطاء امارته تقليداً معينا سوف يحتاج اليه فيما بعد حاجة عظيمة . وجعل من تلمسان بفضل طاقته وحسه السياسي عاصمة المغرب الاوسط التجارية والفكرية وادرك أيضاً ان انتصارات المارينيين ما كان ليمكنها ان تبقى على المدى الطويل بدون عواقب ويقال انه نصح خليفته عثمان (١٢٨٣ — ١٣٠٣ / ٦٨١ — ٧٠٣) بالتطلع إلى الشرق . وهذا ما فعله عثمان في محاولته لفتح بوجي (١٢٨٦ / ٦٨٥) ، مستفيداً من تقطيع أوصال المملكة الحفصية . ولم يتسع له الوقت للوصول الى أغراضه ، ذلك أن المارينى كان قد غير في نفس الوقت سياسته . فالعاهل الجديد يوسف الناصر (١٢٨٦ — ١٣٠٧ / ٦٨٥ — ٧٠٦) كان يحاول بالفعل التخلص من شؤون الاندلس حيث كانت لعبة امراء غرناطة (بنو الأحمر) المزدوجة تصبح متزايدة البراعة (استيلاء قوى غرناطة وقشتالة على طارفة عام ١٢٩١ ثورة سوته عام ١٣٠٦ التي اوقد نارها امير غرناطة) . وانطلاقاً من عام ١٢٩٥ بدأت المبارزة الكبرى بين المارينى والزيانيين ؛ اول حصار لعاصمة الزيانيين دام ثماني سنوات (١٢٩٩ — ١٣٠٧) . فتح يوسف المغرب الاوسط كله حتى الجزائر وابتنى لنفسه عاصمة جديدة (المنصورة) وانتظر بأناة استسلام تلمسان . وكان الامير الزيّاني لذلك الحين ، محمد الاول (١٣٠٣ — ١٣٠٨) على

---

(١) اللعبة الأثيرة لدى هـ. تيراس هي إضفاء النسبية على جميع الانتصارات المغربية في إسبانيا مشدداً على النهاية الأخيرة للاسلام في إسبانيا ؛ ومن الممكن ، على هذا النحو ، إفراغ أي نصر ، مهما كان من معناه .

وشك الاستسلام عندما توفي الماريني مقتولاً ؛ فتم توقيع هدنة مباشرة . وهكذا كانت تفشل اول محاولة للسيطرة من جانب الماريني ؛ الا أن ذلك لم يكن الا تأجيل الأمر . وفي غضون ذلك كان الصراع في افريقية بين الطامعين بالحكم يستمر حول المدن الاربع : طرابلس ، تونس ، بوجي وقسطنطينة . فقد هب ضد يحيى الواثق (١٢٧٧ – ١٢٧٩) عمه أبو اسحق ابراهيم وعندما أصبح هذا ملكاً فان ابا عمارة ، احد المغامرين الذي زعم انه ابن الواثق هو الذي ثار عليه في طرابلس . وكانت عاقبة هذه الصراعات اقتسام المملكة في عام ١٢٨٤ / ٦٨٣ بين المنصور الثاني الذي كان يحكم في تونس ويحيى بن ابراهيم في بوجي ودام هذا التقسيم الفعلي حتى عام ١٣٠٩ لكن اعادة التوحيد التي تلت ذلك لم تجلب معها السلام . وعرفت مملكة الماريني هي كذلك ضعفاً طفيفاً طيلة الحقبة الممتدة من ١٣٠٧ إلى ١٣٣١ ؛ فالعاهلان ، أمير (ابو نابت) وسليمان (ابو ربيع) انشغلا بالاخص بالاستيلاء من جديد على سوته (١٣٠٩ / ٧٠٨) وكان على عثمان الثاني (ابو سعيد) تدعيم تنافس شرس ضد ابنه عمر (ابو علي) الذي انشأ في سيجيلماسا امارة مستقلة ذاتياً . ان الفترة التي تمكنت فيها تلمسان من ان تعرف نمواً ما ، بل ومن ان تدير سياسة هجومية ، كانت في غضون تلك الحقبة القصيرة حيث كانت الصراعات على وراثة الحكم تمزق المملكتين المتجاورتين ؛ فقد ادخل الامير موسى الاول (١٣٠٨ – ١٣١٨) على قول ابن خلدون المراسم الملكية حينئذ . واستعد ابنه عبد الرحمن ، وقد رأى الوضع ملائماً في المملكة الحفصية ، حيث كان ابو بكر المتوكل (١٣١٧ – ١٣٤٧) يحاول عبثاً الدفاع عن عرشه ضد اسرته المتحالفة ضده ، لفتح مدينتي بوجي وقسطنطينة . فكان عندئذ ان استنجد الحفصي لفرط يأسه بالماريني ولتكريس هذا التقارب بين الاسرتين وافق على زواج احدى بناته بابن حليفه البكر : علي (ابو الحسن) . وتوفي عثمان الثاني وهو يستقبل زوجة ابنه .

كان ما نجم عن ذلك من تفوق الماريني شاملاً في عهد العاهلين علي (ابو الحسن) وفارس (ابو عنان) من عام ١٣٣١ / ٧٣٢ إلى ١٣٥٧ / ٧٥٨ . فالأول استأنف مشاريع الموحدين الكبرى . وحد المملكة باسقاط الامارة التي كانت قد

تشكلت في سيجيلماسا وفي السوس ثم استدار يهاجم تلمسان التي سقطت في يده عام ١٣٣٧ ففقد عبد الرحمن (ابو تاشفين) الزيّاني . الذي كان يريد توسيع دولته ، عرشه وحياته . ثم تدخل في اسبانيا . ومن قبل في عام ١٣٣٣ / ٧٣٣ كان قد استعاد الجزيرة ، وانتصرت بحريته في عام ١٣٤٠ ، بمساعدة بحرية والد زوجته ابو بكر المتوكل ، نصراً عظيماً في المضيق وراحت تحاصر طارفة Tarifa . غير ان المدينة قاومت بمساعدة الجنويين وانتهت الغزوة بهزيمة المارينى . وبعد مضي اربع سنوات سقطت الجزيرة في أيدي القشتاليين مدعمين بفرسان من انجلترا وفرنسا وايطاليا . فكان ذلك آخر تدخل مغربي في اسبانيا . وفي عام ١٣٤٧ تدخل علي (ابو الحسن) ، بموت والد زوجته في افريقية تلبية لاستنجاد الحاجب ابن نافراجين . فاستولى بسهولة على قسطنطينة وتونس حتى لقد امكن الظن بأن أيام عبد المؤمن قد عادت ؛ وكان الشعور بالسير على آثار الموحدين يخامر المارينى نفسه . الا ان النجاح كان قصير الاجل ، ذلك انه لاقى الهلاليين ، خصوم عبد المؤمن القدامى ، أسياد السهول وبدلا من ان يكونوا هم المهزومين هذه المرة فانهم كانوا المنتصرين في القيروان عام ١٣٤٨/ ٧٤٩ . ودفعة واحدة انهار البناء كله . ففي المغرب الاقصى أعلن فارس (ابو عنان) نفسه اميراً معتقداً بأن أباه قد لقي حتفه وعاد عثمان الثاني الزياني إلى تلمسان والامراء الحفصيون إلى بون وقسطنطينة وتونس وهم يواصلون ، مع ذلك الاقتتال فيما بينهم . واما علي (ابو الحسن) : فانه سعى عبثاً الى استرداد عرش ابيه ومات على نحو يرثى له في عام ١٣٥١ . لم تنقصه المقدرة ولا الذكاء لكن التوازن القوي في المغرب وفي البحر الابيض المتوسط تغيّر تغييراً عميقاً وكان يدين مقدماً كل مسعى طموح . غير ان هذا الامر غرب عن بال ابنه وخليفته فارس (ابو عنان) فسلك الطريق الى افريقية دون ان يلتفت الى شؤون الاندلس . استعاد تلمسان في عام ١٣٥٢ حيث أمر بقتل عثمان الثاني الزياني ثم استولى على بوجي ، وفي عام ١٣٥٦ أعد غزوة قوية بهدف فتح افريقية كلها ، لكن الهلاليين لم يكونوا هذه المرة هم الذين عملوا على تفشيل المشروع وانما الجنود المارينيون أنفسهم هم الذين رفضوا تجاوز المغرب الاوسط . فعاد ابو عنان الى المغرب الاقصى ، ودفعة واحدة ضاعت جميع

مكتسباته : استقر موسى الثاني الزياني من جديد في تلمسان عام ١٣٥٩ / ٧٦٠ وعاد ابراهيم الثاني الحفصي الى تونس بعد ان تم له الاستيلاء على بوجي ، الباقية دائماً مع ذلك تحت وصاية الحاجب القوي ابن تافراجين الذي لم يتوف الا في عام ١٣٦٤ / ٧٦٦ .

يمكن النظر الى منتصف القرن الرابع عشر على انه زمن فاصل في تاريخ المغرب إذ أن القوى نفسها سوف تستمر بالقيام بأعمالها في اثناء القرن التالي ووفقاً لنفس المخطط ، فقط في اطار أضيق . كان لدى حكام ذلك العصر بلا مراء حنين للموحدين فالمارينيان يوسف وعلي اللذان كانا يملكان وسائل أكثر للنجاح حاولا ان يسجّلا في الوقائع ذلك الحنين لكن وراء هذا الحنين كانت هناك ضرورة قصوى ، نفس التي كانت تدفع دولة الموحدين الى الدفاع عن ولايتيها البعيدتين : افريقية والاندلس. كانت الحروب ضرورية ومنهكة في آن واحد . فقد وجد عبد المؤمن أمامه عدداً من الامارات واضطر الماريني علي (ابو الحسن) الى ان يجابه مملكتين كانت لهما بنية دولته نفسها . فان تماثل الظروف العامة في المغرب هو الذي كان يجعل الصراعات هزيلة وفي نفس الوقت لا مفر منها لمحاربة نزوع طبيعي الى اللامركزية : افريقية في امارات حول قسطنطينة وبوجي وطرابلس والمغرب الاوسط حول اوران (وهران) وتلمسان والمغرب الاقصى حول سوتا (في عام ١٣٠٦ و ١٣٢٦ في عهد الاسرة الشريفة من بني العزافي) في السوس Sus وتافيلالت . ففي كل ولاية كانت السلطة ترتكز على ثلاثة أسس : رسوم على التجارة ومخزّن (مخزنجية او هيئة ادارية) وجند مرتزقة اغلبيتهم الساحقة من الهلاليين ، منتشرين في جميع مناطق المغرب . وكان الوالي نزاعاً بالطبع الى ألا يعترف مدة طويلة بسيده لانه لم يكن يرى اي فارق محسوس بينهما . فقد بعث عثمان الثاني بابنه ابي علي والياً على سيجيلماسا . فشكل جيشاً فيها بمساعدة البدو من المعقل Ma'qil واخضع التوات Tuat والغورارة Gurara وامربسك عملة . وفي عام ١٣٢٢ دخل مرّاكش وحصل على امارة دامت حتى عام ١٣٣٣ ؛ كذلك جرى في الشرق حيث اعاد خالد (ابو البقاع Baqa') عام ١٣٠٩ — ١٣١١ وحدة افريقية بعد تقطيع اوصال توطّد في غضون عشرين عاماً ؛

وما كان يسمي اخاه ابو بكر والياً على قسطنطينة حتى أعلن هذا استقلاله . لقد مضت مجانسة البُنى والنزوع الى اللامركزية والصراعات المستمرة . جنباً إلى جنب على مستوى واحد ، وحددت نفسها بالتبادل ؛ فلا بد اذن من البحث عن علة ذلك في اساس المجتمع المغربي نفسه لذلك الحين [1]

— ٢ —

كان تجانس الظروف العامة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر واضحاً في البنى السياسية وفي الفعاليات الفنية والثقافية . وفي الظاهر كان وضع العاهلين مختلفاً : الزيّاني لم يكن سوى امير ليس لديه اي طموح ديني او سياسي فيما وراء المنطقة التي كان يسيطر عليها فعلياً ؛ والماريني اتخذ نصف لقب الخلافة ، اي امير المسلمين (احتفاظاً بذكر المرابطين بلا شك) ؛ وفكر على (ابو الحسن) في اتخاذ لقب الخلافة وعمل ابنه على ان يُمنح له في الوقت نفسه الذي لم يعد له اي مبرر ، واحتفظ به من جاء بعده من المارينيين ؛ وحافظ الحفص بالطبع على بنية وشعارات وعبارات الموحدين . والواقع ان السلطة كانت في معظم الحالات جد وقتية وعبارات القنصليات قليلة الدقة الى حد ان الالقاب التشريعية لم يبق لها اي مدلول من وجهة النظر الدينية او الشرعية ؛ كل شيء كان يتعلق نهائياً في السلطة الواقعية . فبهدف توطيد هذه السلطة نظم التعاقب في الحكم بتعيين الوارث المشارك في ممارسة السلطة ؛ فكان يعترف بجميع الامتيازات الملكية للامير المسمى الذي كان له في خدمته (مستشار وزير) وكتبة وحرس . ولم تنجح المحاولة ليس بسبب الظروف الاقتصادية العامة فحسب بل وكذلك بسبب التوازن بين ممالك عديدة : كان الامراء ، العديدون دائماً ، يفيدون الملوك كرهائن وكوسائل ضغط للبعض ضد البعض الآخر . في عام ١٣٢١ — ٧٢٤ ارسل عبد الرحمن الاول الزيّاني ، ابراهيم بن ابي بكر الاول ضد الحفصي ابو

---

(١) نرى جيد جداً فيما أتاحته لا بن خلدون المماثلة في الظروف المتلابسة للقرن الرابع عشر التي كان يعرفها تمام المعرفة بالظروف المتلابسة في القرن العاشر ، من تقديم قضية العصرين الزناتيين ؛ فان ما يجب تفسير تكوين نظرية ابن خلدون به هو التاريخ اذن ، وليس تفسير سير الوقائع بعقلانية ابن خلدون .

بكر الثاني ؛ كذلك في عام ١٣٥٣ / ٧٥٤ ارسل امير غرناطة ، حليف ملك قشتالة ضد المريني ابو عنان اخاه ابو الفضل . فقد كانت هذه المكائد الدبلوماسية تجعل شواغر السلطة بالغة الخطورة . وخلف هذا النهج السياسي المستمر ثمة هيكل حكومي كان يتخذ شكلا مع ذلك (المخزّن) الذي دام في المغرب الاقصى ، مثلا ، حتّى القرن العشرين . لقد تأحّد هذا المخزن في المغرب كتعبير عن تصرف مدروس جداً وعن شكلية تتزايد براعة . ولا يبدو البتة انه يتعلق بالضعف الباطني لكنه دولي كالكيان الزياني [1] مثلاً . وبصورة تكاد تكون عامة كانت البنية الحكومية ثلاثية : جماعة ، قليلة العدد ، مؤلفة من اثنين او ثلاثة اشخاص كانت تهتم حقيقة بالسياسة الداخلية والخارجية ، وغالباً ما كان هذا الدور يؤول للوزراء والحجاب ، الذين كانوا فضلا عن ذلك يدينون به اما لتأثير سياسي واقعي على جزء من السكان واما لوفاء مجرب لشخص العاهل(وهذه كانت حال المعتقين)واما لميزتهم كاجانب لاينطوون على أي خطر على العرش ؛ كان اعطاء هذه السياسة شكلها مناطاً بديوان الوزارة حيث كانت انواع مختلفة من الكتاب يتخصصون وفقاً لمن توجه اليهم المراسلة مع تقسيم للعمل في الغالب بين الانشاء والتوقيع (العلامة) ؛ وكانت وسائل هذة السياسة تدار من قبل مأموري بيت المال والاشغال أو العمل ؛ وكانت السياسة المالية والسياسة العسكرية مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً لأن جباية الضرائب غالباً ما تشكل جزءاً من الخدمة العسكرية ؛ والضرائب كانت تجبى عيناً وتحفظ في مستودعات وتستخدم في تموين الجنود . وهذا التمييز بين فروع الحكومة الثلاثة الرئيسية لم يدون في قوانين ، فالاسماء كانت تتغيير من مملكة الى أخرى لكنها كانت توجد حيثما كان حتّى في المدن الاقليمية الكبرى ؛ ذلك انها كانت تقلّد حقيقة الدولة الواقعة نفسها ؛ وكانت الدولة بالاستفادة في الشكلية قد استفادت أيضاً في الاستقلال الذاتي وكانت تتعلق بقوى متفرّدة جيداً في داخل المجتمع . وهناك ثلاث جماعات كانت تقتسم السلطة السياسية بصورة غير

---

(١) لقد وصف هذا المغرب بالتفصيل في ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ... ، نشر وصف أفريقية.ه.عبدالوهاب وترجمة م.غودفروىديمومبينس M.Gaudefroy Demombynes باريس ١٩٢٧ ، أما « وصف مراكش » فقد نشره م. منوني في البحث العلمي ، الرباط نمره ١ ، لعام ١٩٦٤ ص. ص ١٣١ — ١٥٣ .

متساوية : العبيد المعتقون ، البدو الهلاليون والمهاجرون الاندلسيون ؛ وكانت الصلات بين هذه الجماعات الثلاث تتضح على المستوى السياسي في مشاكل نظام ايرادات الحكومة التي لم تحل ابداً على نحو واف وفي الجيش وفي الادارة . وكانت مصادر امداد بيت المال نظرياً الضرائب الريفية والرسوم على التجارة البحرية والبرية ، ودخول المزارع والاحتكارات (إذْ لم يعد للضرائب القديمة التي كانت تدفع من قبل المسلمين وغير المسلمين ، اهمية كبيرة) . وفي الحقيقة ان الأولين كانوا يتعلقون بالجيش اما الآخرون فباعضاء الادارة ؛ فاذا كان الامير معترفاً به فان الضرائب كانت تجبى : فيدفع للجنود وللموظفين وينعم عليهم ، وكل شيء كان يسير كما ينبغي ؛ وفي حالة العكس كان هؤلاء المسؤولون انفسهم ، الذين لا يدفع لهم بانتظام ، يحسبون لانفسهم جزءاً كبيراً من واردات الدولة . والمصدر الوحيد الذي كان يمكن الاشراف عليه بسهولة كانت الجمارك البحرية الامر الذي كان يدفع الامير لاعطاء امتيازات تتضخم اكثر فأكثر ، للتجار الاجانب : لكنه كان يجتذب في نفس الوقت عداء التجار المحليين ، ورجال الدين الذين كان في وسعهم التأثير . فمشكلة الجيش كانت اذن مرتبطة بمشكلة نظام الضرائب : كيف الحصول على جيش جاهز دائماً ؟ ومن هنا كان اللجوء الى الهلاليين الذين مارسوا دائماً ، منذ القرن الحادي عشر سلطة سياسية . ضد القرار الفاطمي لعام ١٠٤٨ كان هناك اطار شرعي ، في وسع هذه التعبئة للبدو ان تتضح فيه الا وهو الاقطاع الذي كان يعني إنابة من السلطة السياسية وكان يستطيع على هذا النحو ان يغطي جباية الضرائب من مزارعي منطقة بقدر ما يغطن واردات رسوم الدخول في مدينة او الانتفاع بأرض ؛ في مقابل تلك الامتيازات كان المستفيدون يجبون ضرائب اخرى من اجل العاهل وعليهم تأدية الخدمة العسكرية . ويمكننا ان نتبيّن بأن وضع هؤلاء الهلاليين كان ينحط كلما كان الاقتصاد ينهار : ذلك لأن الرسوم على الاتّجار او اتاوات المزارعين نقصت كثيراً فان هؤلاء الهلاليين عادوا الى نمط حياتهم الذي ارادوا على وجه الدقة الفرار منه بمغادرتهم للحجاز أو لاعالي مصر . فمن جنود اصبحوا جنوداً رعاة لينتهوا الى ان يكونوا مجرد رعاة ليسوا دائماً جاهزين للخدمة المسلحة ؛ لكنهم كانوا يتدخلون

في الصراعات السياسية سعياً وراء إنابات أفضل من حيث هم محاربون دائماً ، ودورهم لايفهم .الا لان شكلية الجيش ما كان ليمكن ان تحل بصورة وافية في اي مكان من المغرب ، وقد حدد التطور المغربي اللاحق كله بهذا التطور المزدوج : اهمية متزايدة للفرسان في المغرب التي كانت تعني عبئاً متفاقماً للبدو ، على حين انه في كل مكان آخر من العالم كان المشاة اي فئة الفلاحين بصفة اساسية هي التي كانت تكسب قوة . فقد توقف امر الزيّانيين الى اقصى حد على الهلاليين ؛ وقدم بنو سليم يد المساعدة ليغموراسين ، وساعد الدواويدا موسى الثاني . وبفضل وحدات جند الموحدين تمكن الحفصيون من الاستغناء عن الهلاليين بل واخضاعهم الى طاعة دقيقة ولا سيما في عهد المستنصر الاول ، لكن الهلاليين ، منذ نهاية القرن الثالث عشر بالنظر الى ان جيش الموحدين لم يعد يتجدد واصبحت الصراعات بين الطامعين في الحكم تتزايد حدتها ، استفادوا من استقلالهم الذاتي فساعدوا المستنصر الثاني الذي كان أول من اعترف لهم باقطاع عام ١٢٨٤ ثم انهم اعادوا الى سدة الحكم عمر الثاني وابراهيم الثاني بعد الفترات الفاصلة من حكم المارينيين واسترجعوا هكذا نفوذهم . وصمد المارينيون اطول مدة لانهم كانوا هم انفسهم جنداً مرتزقة في خدمة الخلفاء الموحدين ؛ فاستطاعوا على هذا النحو ان يمنعوا تعديات الهلاليين المرحّلين من قبل يعقوب المنصور ولكنهم اضطروا في منتصف القرن الرابع عشر الى ان يتحالفوا بدورهم مع آخر القادمين منهم ، المعقل الذين استفادوا من الموقع الاستراتيجي للبلاد التي يسيطرون عليها بين مملكتي المارينيين والزيانيين . وفي عام ١٣٣٤ منحهم السلطان علي (ابو الحسن) اقطاعات عندما استولى على مرّاكش وسيجيلماسا . وهكذا اصبح الهلاليون في كل مكان قوة مستقلة في الحدود نفسها التي كانت فيها الدولة بحاجة لهم للمحافظة على بقائها . وهناك جماعة اخرى مارست كذلك دوراً راجحاً هم المهاجرون الاندلسيون . فقد فرضوا حيثما كانوا ، في تونس وبوجي وتلمسان وفاس وفي مدن أقل اهمية مثل قسطنطينة او مرّاكش ، اللياقة والشكلية والدبلوماسية . وظهر تأثيرهم على الاخص في تلمسان حيث لم يكن للزيّانيين تقليد ملكي ، على حين ورث المارينيون والحفصيون ، اولئك وظائف المخزّن وهؤلاء لتنظيم الموحدين ؛ واذ اصبحوا هيئة

متخصصة فانهم انتقلوا من خدمة هذا الامير الى خدمة آخر وصاروا هكذا سكرتيريين في هيئة المستشاريين ومأمورين في المالية بل ووزراء احياناً . ولكن بالنظر الى انهم هيئة غريبة في المجتمع فان قوتهم واحياناً أمنهم كانا يتعلقان بضعف الملوك وبالصلات الطيبة التي كانوا يستطيعون ان يعقدوها مع الرؤساء الهلاليين . هذا الوضع سبق ان كان موجوداً في الاندلس : انه تقليد كامل للعمل السياسي ذلك الذي كان هؤلاء المهاجرون يوطنونه في المغرب . فقد ادخلوا ليس فحسب الدسائس البارعة والحسابات المراوغة التي كانت تتشابك بها مصالح الملوك العابرة والتي كانت تتضمن التحالفات والتحالفات المضادة لدول ودويلات المغرب في القرن الرابع عشر ، لكنهم حددوا مفهوم السياسة نفسه الذي أصبح أكثر استقلالا بازاء المجتمع والدين في آن واحد . في ممارستهم لم تعد السلطة بحاجة الى تبرير ديني جدي ؛ ومن هنا انقطاع شامل عن الماضي الفاطمي والمرابطين والموحدين . كان الدين يصبح لديهم شأناً خاصاً حقيقة (ومن هنا النمو المتلازم لصوفية فردانية وعلى شيء مـن التظاهر بالتقوى)[1] وايديولوجية مبررة بوعي لطموح الامراء . وكان هذا الاستقلال في السياسة يفتح الطريق الى « علمنة » حقيقية في السلطة ؛ كذلك اقتضى الامر ان تتخذ سكانها في اطار اقتصاد مزدهر . والحال انها في مغرب القرن الرابع عشر المتدهور لم تؤد الا الى نتائج سلبية . ملوك وهلاليون واندلسيون يشكلون بنية دولة ، منسلخة منذئذ فصاعداً عن المجتمع ، استخدم بعضهم بعضاً للدفاع عن مصالحهم الخاصة العارضة ، ممهدين في نفس الوقت لانحطاط عام ودائم[2] . هذا ، واذا كان التطبيق السياسي في القرن الرابع نتيجة لتقاليد أندلسية غارقة في الشدة ، فانه كان كذلك يطابق لتطور المجتمع المغربي ؛ لم يكن سوى التعبير النظري لانحطاط واقعي . ومهما يمكن تصور الاستمرارية في تنظيم الدولة منذ المدن — الدول في القرن الثامن إلى ممالك القرن الرابع عشر ، فانه باستطاعتنا التأكيد مع ذلك ، انه ، لاول مرة في المغرب تأسس في هذا التاريخ حقيقة

---

(١) المثل النموذجي يقدمه ابن الكاتب ، استاذ في الدسائس وفي الصوفية .

(٨) هذا هو أساس التنظيم الخلدوني . ويمكن أن نعتبر بحق أن وجهة نظر ابن خلدون هي وجهة نظر الجماعة الأندلسية في معارضة المرتزقة الهلاليين . الأمر الذي لا يعني بأن نظريته هي أيديولوجية بأكلها . فهي تتوصل إلى الإفلات من الأيديولوجية في كثير من جوانبها .

وبصورة دائمة انفصام بين ما يسمى دولة ومجتمع : احدهما لم يعد يعبر عن الآخر ؛ حتّى ان العاهل لم يعد يجسّد وحدة المجتمع الموجودة بالقوة ، فسلطته ليست الا الشكل الذي تضعه فيه من كل جهة فعالية الزمرتين الاجتماعيتين المنوه عنهما ، في ماتقدم . وهذة الثنائية تلتقي من جانب آخر في مجالي الدين والثقافة .

لقد مثلت الحقبة التي نحن بصددها بالنسبة للمغرب ذروة ثقافية ، ذلك ان جميع اجزائه معاً شاركت فيها لأول مرة . فبعد ذلك المقدار من التشبثات بالرأي ثمة معتقد صحيح اتضح وأخذ في الانتشار بطريق المدارس وكانت نوعاً من الثانويات تعلم المذاهب الاسلامية الصحيحة . وكان ذلك بفعل الدعاية المضادة السنية التي عكست ضد الفاطميين والموحدين اسلحتهم انفسهم ؛ نمَتْ باديء ذي بدء في بلاد االسلجوقيين ثم تبناها المارينيون فكانت لفاس وتلمسان وتونس مدارسها العظيمة ما زال بعضها موجوداً حتى اليوم . وفي فاس وفي تونس تألفت مدرسة مالكية جديدة ، وفية لتعاليم الماضي ، محاولة في الوقت نفسه ارضاء حاجات جديدة ناشئة عن مجادلات طويلة مع المذاهب الهرطقية . هذا الجهد في مجال التعليم لم يضع فقط النهاية فحسب في تعريب افريقية وساعد على تعريب المغرب الاوسط وسهول المغرب الاقصى بصورة شاملة تقريباً (تعريباً ظهرت نتيجته في اختيار القضاة الذيغدا من بعد محلياً في جزء كبير منه) ، وانما مهد الميدان لتفتح حركة تأريخ رسمية للمغرب تتيح لنا اليوم معرفة التفاصيل في حياة المغرب السياسية لذلك الحين ؛ فكل سلالة حاكمة كان لها مؤرخوها الرسميون ، بعضهم على جانب عظيم من المقدرة . ولم يكن فن ذلك العصر أقل تفتحاً من الآداب او العلوم الدينية ويكفي ان نتذكر بأن معظم الصروح التي نعجب بها اليوم في فاس وتلمسان او تونس كانت من صنع سلاطين المارينيين او الحفصيين . واذا لم تقم وزناً الا للوثائق المكتوبة لأغرانا ذلك بالاستنتاج ان فعالية العصور السابقة المجزأة قد توجت في القرن الثامن الهجري (ثالث عشر — رابع عشر م.) بتفتح ثقافي على الرغم من الضعف السياسي واخفاق المحاولات الامبريالية. ومع ذلك ، من ذا الذي لا يرى ان المقصود هو تألق مصطنع ؟ اذا كان الفن المارينـي لم تبق له عظمة فن الموحدين ، اذا كان يبرع خاصة في التفاصيل فذلك لانه فن

الاندلس الماضية الى الإنتهاء ؛ واذا كان موسى الثاني الزيّاني ألف كتاباً في السياسة [1] فذلك لانه كان قد تثقف في شبه الجزيرة . واذا كان واحد كابن الخطيب لم يتمكن من ابتكار مدرسة أدبية فذلك ان آثاره كانت هي نفسها شائخة . ان ثقافة القرن الرابع عشر هذه التي بدت على هذا القدر من الغنى كانت إذن الإزدهار الاخير لاندلس آفلة ؛ كانت لا تعبر البتة عن تجربة المغرب التاريخية . بيد ان تغايرها مع المجتمع الذي كان يدعمها لم يكن طابعها الاساسي ؛ كالدولة التي كانت تخدمها لشهرتها ، كرّست كذلك وفقاً لمصالح الجماعتين المتنافستين اللتين سبق تميزهما . ولو ان المعتقد الصحيح الذي تنشره المدارس يخدم نظرياً سلطة الدولة فانه تأثر كثيراً بروح وتقاليد ومصالح القسم الاندلسي من المخزن Makhzen [2] . وكان التعريب من جهة يجري وفق نموذجين مختلفين : النموذج الذي كان يؤصله المعتقد الصحيح والمدارس ، والنموذج الذي كانت تفرضه الجماعة الهلالية لمجرد ممارستها للعبة سلطتها السياسية . فان نشر الاسلام والتعريب اللذين كانا على وشك ان يتمّا توقفا بل لعلهما تراجعا لهذا السبب نفسه . كانت الدولة المفارقة والثقافة المتفرّدة تسيران جنباً إلى جنب فلم تعد تستطيع لا هذه ولا تلك الا التعبير عن المجتمع ولا توحيده ؛ ولسوف يجد هذا المجتمع العلاج البديل في التصوف الشعبي : وهذا هو السبب في نجاح الزوايا المباشر والدائم .

— ٣ —

جميع التفصيلات المتقدمة لا تفسّر بالتأكيد الا بضعف الاساس الاقتصادي ، وكان علينا ان نبدأ به . ومرة أخرى يجدر بنا ان نبدأ بما نعرف افضل من البدء بما نصل بالكاد لتخمينه .

ومع أنه من الصعب جداً تكوين فكرة محددة عن الوضع الاحصائي لان النصوص

(١) كتاب : واسطة السلوك ... ، منشور في تونس عام ١٨٦٢/ ١٢٧٩ .

(٢) لا يمكن لهذا بالطبع أن يكون صحيحاً تمام الصحة عن أيديولوجية دينية ذات نزعة شاملة ، لكن احتمالاتها الإنسانية الموجودة بالقوة ، لا تنمو إلا إذا تكونت جماعة معارضة واعترضت على التفسير المسلم بــه .

تكون في معظم الحالات صامتة ؛ فمن المرجح ان سكان المغرب استمروا في التناقص في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، إذ يتحدث ناصري في هذه المناسبة عن الآثار المفجعة لهزيمة عام ١٢١٢ وكان عليه ان يضيف اليها آثار جميع غزوات الاندلس التي استمرت في عهود المارينيين بما ان مملكة غرناطة استمرت في ان تتلقى امداداتها من الجنود طويلاً بعد أن تخلى حكام المغرب عن كل طموح اقليمي فيما وراء المضيق . ويمكننا كذلك ان نستدل على هذا التناقص الاحصائي بواقع ان اعداد القوات العسكرية لم تكن أبداً هامة في غضون هذه الحقبة الاخيرة كلها حتى في انشاء السيادة الحفصية أو المارينية . فأكثر الاجزاء سكاناً كانت من جانب آخر في منجاة عن السلطة المركزية اذ كانت مقر ثورات عديدة : ريف وسوس في الغرب ، منطقة بوجي في الشرق . كذلك كانت فيها الهيئة السياسية منقوصة . ووفقاً للفترة التي تبرزها ، يمكن ان يكون هذا الواقع الاحصائي سبباً ونتيجة لضعف الدول تماماً كما يمكن ان يكون من جراء دور الهلاليين المتزايد ولعودتهم الى حالة من البداوة صرف ، كما يكون نتيجة لتجزئة المغرب . هنا كان لا شك العنصر الاساسي الذي اذا تم توضيحه كان يمكنه تفسير العصر كله . وما من وسيلة كذلك لمعرفة وضع الزراعة بصورة مباشرة . فالذين يخلصون الى القول ، مثل ه. تيرّاس H. Terrasse بتقهقرها لمجرد واقعة اتساع رقعة البداوة ، يفكرون باتجاه وحيد ، ذلك ان الوجهين يتحددان بالتبادل : الاخير يمكن ان يكون تماماً نتيجة للأول ونُساق الى الاعتقاد بذلك خصوصاً ان الاقطاعات التي نمت في القرن الثالث عشر وبخاصة في الرابع عشر ليست محددة في أي مكان على وجه الدقة . فالتبعات لا يمكنها ان تكون نفسها بحسب المقصود من اراضي المرور او الاتاوات المدفوعة من قبل المزارعين [١] ، وان ما يحدد وضع الزراعة هو العلاقة الاصلية بين ذينك النوعين من الاقطاع وتطور احدهما بازاء الآخر . وفي هذه الشروط تصبح البداوة مفرطة في عدم استقرارها ولا تتأبد الا بضعف الدولة وانخفاض الاحصائية البشرية . ومن المؤكد من جانب آخر أن التشجير هو على الاصح اكثر الحالات المتعرض للاضرار . فان المساحات المحرجة الواسعة

---

(١) نقرأ غالباً صيغة : « واقتطاع الجباية » .

التي وصفها الرحالة الجغرافيون من قبل في القرن الثالث عشر بدت كأنها لم تعد الا ذكرى ؛ وحافظت زراعة الحبوب على بقائها ولكن بانتاج غـير ثابت [1] . وبالمقابل تحسنت حالة التجارة . ومن المرجح ان التجارة الصحراوية عرفت نهوضاً ، وقد صار منذئذ يهيمن عليها ، عند الوصول في مكان وصولها المعقل Ma'qil الذين تولوا بإناة الجنوب الغربي من المغرب . وظلت الطريق الشرقية نشطة وانتعشت الطريق الغربية كما تثبت ذلك، الاهمية التي اتخذتها فجأة امارة سيجيلماسا التي أسسها ابو علي بن عثمان الثاني الماريني وكذلك الصلات المعقودة بين ممالك كانيم Kanem وبورنو Barnou في بداية الامر مع المستنصر الاول الحفصي ثم مع علي (ابو الحسن) الماريني . وكانت تلمسان هي أكثر من يستفيد على الارجح من هذه التجارة بفضل صلات الصداقة بين الزيانيين والمعقل Ma'qil وأصبحت تلمسان وميناءها حسين مركزين مزدهرين . غير أن التجارة التي كانت أكثر ما نمت في ذلك العصر هي تجارة البحر الابيض المتوسط : ازدادت حجماً وكانت أفضل تنظيماً . وكان الحفصيون اول من انطلق في هذا الطريق ، فقد جددت بسهولة الاتفاقات الماضية الموقعة من قبل يحيى الاول (ابو زكريا) مع المدن الايطالية وكان التجار يعيشون في الفنادق تحت اشراف قناصلهم ، والرسوم محددة نهائياً (١٠ ٪) وتدفع لديوان البحر . وفي عام ١٣٥٣ — ٧٥٣ توصل البيزيون مستفيدين من ضعف العاهل البالغ ومن الحاحية حاجاته المالية ، الى الحصول على الاعتراف بمسؤولية التجار الفردية في حالة النزاع . وكان هؤلاء التجار يستقرون في بون وبوجي وسفاكس وفاس وجربا ؛ وكانت التجارة تقوم في الاستيراد والتصدير على نفس السلع التي فاضت عليها ايام الزيديين والموحدين . والوضع نفسه كان يلتقي في الغرب ؛ كان الجنويون يحتكرون الاتجار مع سوتا حيث كانوا يتجسسون غالباً لحساب الاراغونيين والقشتاليين . وكان البنادقة يؤمون مبدئياً مرة كل عامين باديس التي أصبحت تقريباً ميناءً لفاس ؛ كذلك نمت

---

(١) ثمة ملاحظة مفيدة يقدمها م. إميريت M.Emerit : « أياً ما كان تفكير الجغرافيين في ذلك فان الاجتياحات أحدثت إهمال تربية الماشية (بالنظر إلى أن القطيع كثير التعرض لخطر » وأضرت أقـل كثيراً بانتاج الحبوب بالنظر إلى أنه كان من السهل إخفاء المحاصيل » . وذلك في صدد سبتمبر ـ أكتوبر من Annales,E,S.C. لعام ١٩٦٨ .

الصلات مع اراغونا التي وقعت في عام ١٣٥٧ معاهدة صداقة مع فاس (ابو غسان) . وكان التجار الاجانب يترددون على الاخص على موانيء البحر الابيض المتوسط وعلى ساحل الاطلنطي ولا يذهبون الى أبعد من سالي . وكان المغرب الاقصى يصدر عبيداً وجلوداً وسجاداً وحبوباً وسكراً ومرجاناً ؛ ويستورد شأنه شأن افريقية خموراً ومنسوجات ومعادن . وكانت هذه التجارة تنقل في معظمها بمراكب اوربية لان التفوق البحري الاوربي في المتوسط ، في غضون القرن الرابع عشر ، كان آخذاً في تأكيد ذاته ولذلك فان السباق قد نما في الدرجة الاولى في بوجي للتعويض عن هذا التفاوت في معنى ما ، وكذلك لمحاربة سوء النية المتكررة لدى التجار ولا سيما من الايطاليين والاسبان . وكثيراً ما يقدم نمو هذه التجاره على انه علامة على الازدهار . في الحقيقة كانت تغني فقط الملوك وبطاناتهم ؛ ومن هنا كانت ذات طبيعة مختلفة تماماً عن التجارة الصحراوية لان هذه التجارة كانت تجارة داخلية وتتعلق بالبلاد قاطبة . ولم تكن المسألة فحسب ان هذه التجارة كانت مربحة وتلك خاسرة بعض الشيء ، لكن احداهما كانت توحد المجتمع على حين كانت الاخرى تقسمه . وكانت تجارة البحر الابيض المتوسط الجديد تساعد ، باهتمامها الخاص بالتنظيم على استقلال المخزن الذاتي ، الذي تكلمنا عنه فيما تقدم ، بما توفره له من عائدات أكيدة وبتشجيعها له على سياسة احتكارية ؛ وعليه فان تحالفاً فعلياً قد انعقد حينئذ بين المخزن والتجار الاجانب الذين كانوا على هذا النحو يدخلون في لعبة السياسية الداخلية ؛ فقد كان هؤلاء التجار يتيحون للملوك ، حتى وان كانوا معدمين ، لان يكونوا مستقلين ، يؤيدون المنازعات بتغذيتها في كل لحظة ، لان المخزن لم يعد في تبعية مباشرة للقوى الاجتماعية . لا شك في ان هذا الاستقلال الذاتي كان يمكنه على المدى الطويل ان يكون مؤاتٍ ويخدم في توطيد الدولة لكن الوضع في البحر الابيض المتوسط ذلك العصر لم يكن يسمح على وجه الدقة لهذه التجارة ببلوغ درجة من النمو كافية لتلعب هذا الدور ، ومع الزمن كانت امكانية هذا التطور تتناقص ؛ كان دورها بالفعل غير ذلك سلبياً دائماً : هو دور دعم سلطة متهالكة ووصفها اكثر فأكثر في موضع المقاومة للمجتمع في مجمله والذي لم تعد تعبر عنه . ولم يكن هذا هنا إلا بداية لكننا

نستطيع من الآن ان نخمن ماذا سيكون من امر توازن ما ، مولد بذاته للانحطاط : سيدوم حتى القرن التاسع عشر .

قلنا ان منتصف القرن الرابع عشر (آخر الثامن الهجري) هو تأريخ فاصل وهذا صحيح ، ولا سيما لان انسانا ، هو ابن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦) ، عاش في هذا العصر ، وروى التاريخ السابق منذ القرن السابع ونهّجه ؛ واستخلص من هذه الدراسة في آن واحد نظرية تفسيرية (علم اجتماع) وحكم تقويمي (فلسفة تشاؤمية للتاريخ) . فكان اذن في آن واحد رعياً وضحية لعصره . انتابه الاحساس بأنه يعيش نهاية عالم ؛ أما وقد احس هذه البيئة الشفقية وصفها بحدة مؤثرة فما من احد بعده بات قادراً على الافلات منها . كانت اطروحته التفسيرية انه يوجد انقطاع بين السلطة السياسية والمجتمع المدني : نسبته هذا المجتمع الى تلك السلطة كنسبة حياة البداوة (الترحل) الى الحياة المدنية (اذا كانت هناك صلة المتقدم بالمتأخر فانها تكون اذن منطقية أكثر منها تسلسلاً تاريخياً) . وبالنظر الى ان الحياة المدنية هي الثانية فان الجري التاريخي يكون محدداً بتلك . والحال ان السلطة السياسية تتعلق بقوة (تلاحم قبلي او بصورة أعم بوعي جماعة) ليست ثابتة ولكنها على العكس ، تكون مستهلكة حتماً . ومن هنا ، هذا هو الحكم التقويمي ، ينتج أن انحطاط الحضارة ، متمثلة بالحياة المدنية يكون على حد سواء لا مفر منه ؛ ومن هنا تعاقب الدورات [1] . من الواضح ان هذه النظرية هي ، حتى التفاصيل عقلنة الحوادث التي سبق لنا تفصيلها : هذا المنحى ، جابته الحوادث بمدى مختلف ثلاث مرات منذ القرن الحادي عشر . ويمكننا ان نلاحظ من الآن ان المقصود مجرد عرض معقلن للمحاولات الامبريالية الثلاث لا يرمي الى تفسير التاريخ السابق للقرن الحادي عشر ، الا بقولبة زناتة العصر

---

(١) يكاد البيان بالمؤلفات عن ابن خلدون أن يكون لا محدوداً. لنكتف بالإحالة إلى أعمال Y.Lacoste الأخيرة في هذا الباب وقد ذكرت سابقاً وكذلك N.Nassar في الفكر الواقعي عند ابن خلدون المطابع الجامعية الفرنسية .P.U.F عام ١٩٦٧ ؛ كذلك م.رابي M.Rabi نظرية ابن خلدون السياسية، ليدن، ١٩٦٧ ؛ ومحمد عزيز لحبابي : ابن خلدون. ط. سيغيرس seghers ١٩٦٨ . وهذه الأبحاث الأخيرة لم تفقد شيئاً من قيمة كتاب محسن مهدي : فلسفة التاريخ عند ابن خلدون : لندن ، ط.ج. ألين وأونوين ١٩٥٧

الاول على زناتة العصر الثاني ولا ينفتح البتة على المستقبل لانه ، لم يذكر في أي مكان ان البنية القبائلية والبداوة (حياة الترحل) تسيران جنباً إلى جنب وان البدو الهلاليين كانوا يستطيعون عندئذ أن يستأنفوا لصالحهم محاولات البربر السابقة . ويلوح ان ابن خلدون اعتقد انه ما دام ان العرق العربي قد استنفد منذ زمن طويل فان ضعف العرق البربري يعني اذن نهاية كل حضارة ، كل تاريخ في المغرب وان اية امكانية للتجدد الداخلي ليست ، في اقصى المطاف ، ممكنة . في هذا المعنى لا يمكن اعتبار عمل ابن خلدون تاريخاً عقلانياً ؛ انه على الاصح رؤية للتاريخ نشأت من تعاقب تاريخي وضع في شكله المجرد : بدلا من ان يكون علة التاريخ المغربي فان هذا التاريخ على العكس هو الذي يكون علته ؛ وبالتالي يجب ان يستخدم على نفس المنوال الذي يستخدم فيه مكيافيللي : من حيث هو مؤشر لازمة عامة ؛ ويجب ان لا يقدم لا كتفسير ولا يقترح كحل .

يحتفظ المؤرخون الاستعماريون من ابن خلدون بدور البدو فحسب ، مستغلين كما رأينا غموض الدلالة في المفردات العربية لادخال آراءهم العرقية المسبقة . فان أ. ف. غوتيه E · F · Goutier يمحو دفعة واحدة كل دقة ، احياناً غير قاطعة ، من المفاهيم الخلدونية ويرد التاريخ المغربي الى صراع لا ينقطع بين البدو (الرحل) والمقيمين ؛ فهو يميز ثلاث محاولات لبناء الدولة واخفاق نهائي : الاولى كانت محاولة السلالتين : الاغلبية والادريسية الممثلة ، وفقاً لرأيه ، للسكان المقيمين في مواجهتهم لحركة الخوارج البدوية ؛ ونجحت في حماية ارث الحضارة الرومانية ولكن بدون نتيجة قاطعة . وقد اتاحت الشيعة ، المستخدمة كغطاء ايديولوجي للكتاميين المستقرين استئناف الكفاح ضد الزناتيين الرحل واحراز انتصارات عظيمة هذه المرة لكن الزناتيين وهم على وشك الانكسار انقذهم الهلاليون . وكانت المحاولة الثالثة والاخيرة هي محاولة الموحدين المقيمين في الاطلس الذين تفوقوا على زناتة والهلاليين ، المخالفين ؛ كان يمكن لهذه المعركة ان تكون شاملة لولا الخطيئة السياسية ألا وهي ترحيل الهلاليين الى السهول الاطلنطية ؛ فالفشل كان عندئذ نهائياً لان البدو ، الحاضرين في كل مكان سيطروا على المسرح وعملوا على سيادة فوضى معممة . من

السهل التأكد بأن هذه النظرية غريبة على فكرة ابن خلدون وان كانت تدعي بأنها مجرد ترجمة موضحة لها ؛ إذ أن ما كان لدى ابن خلدون تمرداً لممارسة السلطة ، الا وهي العصبية ،مع انها غير مرتبطة البتة بحالة البداوة ، تصبح لدى غوتيه Goutier قدرة خالصة على الاضرار ؛ لكن ما هو اخطر هو انها تسكت عن الوقائع التي لا تتوسل الى تفسيرها ، كنجاح الموحدين وصنهاجة بحسب التصنيف المسلم به كالكتاسيين ومع ذلك فانهم من البدو الرحل ، او خبرة المارينيين المدنّنة . ويمكن القول بصفة عامة ان إ. ف. غوتيه E . F . Goutier يحاول ، دون النجاح فيما يحاول ، ان يجعل ما كان غامضاً عند ابن خلدون واضحاً (الحقبة الممتدة من القرن الثامن الى الحادي عشر) ، لكنه ينجح تماماً في جعل ما كان جلياً لدى المؤرخ المغربي مكتنفاً بالاسرار (الامبريالية الامبريالية) ؛ وعلى الرغم من نقاط ضعفها العديدة فان هـ. تيرس . H . Terrosse وس.ا.جوليان Ch . - A . Julien (ر. لوتورنو R . Letourneou) قد أخذا بهذه النظرية من جديد واصبح البدوي عندهما Deus ese machina يستنجد به لتقويم ميزانيات الاسر الحاكمة المتتالية ، التي كانت دائماً في عجز .

من جانبهم لا يجرؤ الايديولوجيون العرب لا على قول ولا على رفض ابن خلدون ؛ انهم يبقون على وجه العموم في مستوى مفارق جداً ، مركزين على الانتصارات ، مارين بالانكسارات مروراً عابراً ؛ وبذلك يتركون الساحة فارغة لتلامذة غوتيه Gautier .

ربما حان الوقت لطرح المسائل خارج موضوعة ابن خلدون ولو ان فرص العثور على عنصر الجواب اضعف ما تكون في الوقت الحالي . ان انفصام منتصف القرن الرابع عشر كان واقعياً ولا مراء فيه ؛ ومن الضروري لدراسته مع ذلك ان نحدد على وجه الدقة الاسباب الداخلية وان نأخذ بعين الاعتبار الاسباب الخارجية في آن واحد ، الامر الذي لا يمكن القيام به اذا بقينا في اطار فكر ابن خلدون لانه كان يجهل تاريخ شعوب البحر الابيض المتوسط الاخرى ولا يميز حالة حياة الترحل (البداوة) التي يمكن ان تكون بحسب الظروف ، عنصراً داخلياً وخارجياً في آن واحد أو بالتعاقب . فالاسباب الداخلية لا تقوم اذن على النزاعات مع البدو . انها امور متولدة (محشّة) ،

وانما هي فحسب في التطور الاحصائي وفي الزراعة وفي التجارة الصحراوية ؛ وإذا كان هذا التطور لا بد من ان يبقى فهمه متعذراً علمياً فمن الافضل عندئذ الاعتراف بجهلنا بدلا من ان نحمل على الاعتقاد بأن ثمة اسباب ثانوية تستطيع ان تكون حقيقة موجبة . وبالطبع يمكن عدم الوقوف هنا ؛ ولئن منحنا تصورنا ، على افتراض اطار انحطاط عام . لامكننا عندئذ ان نستخدم ملاحظات ابن خلدون كمؤشرات للمشاكل التي كان على المجتمع المغربي ان يواجهها : بصفة اساسية مشلكتي التنظيم السياسي والجيش . فالاولى كانت قبل كل شيء مشكلة الشرعية ؛ بعد تجـارب الشيعة والمرابطين والموحدين تكون المعتقد الصحيح وفرض نفسه في الوقت نفسه الذي كانت فيه الدولة تفقد خاصيتها الايديولوجية المناضلة ؛ ولم يكن ذلك من قبل الصدفة اذا كان الفقهاء قبلوا بسهولة بل وبرروا احياناً ثنائية خلافه نظرية وسلطنة كـانت قانونيتها تتعلق فقط بمقدرتها الدفاعية ، ذلك كان المناخ الافضل الذي يلائمهم ؛ لكن مشكلة الشرعية عندئذ هي التي لم يعد من الممكن ان تحل ، اذ ان السلطة لم تعد تتعلق الا بالقوة . فالدولة السلالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم تعد تبرر نفسها الا بنفسها ، بميول طبيعية ، بسيكولوجية واجتماعية : لقد عمل ابن خلدون حينئذ وهو يسترجع الماضي ، من كل مذهب ديي ايديولوجي دولة صرف . ذلك ان العصبية تأخذ كل معناها في اطار شرعية متلاشية لان مختلف قوى جماعة ، اذا ما كانت الشرعية معطاة ، كانت ستحد من طموحها وتجعل من التضحية قيمة أو انها ستتنافس في اعمال ايجابية تتجمع ؛ ولكن ان لم يوجد هذا التحديـد المستبطن (الوازع) فانها لا تستطيع الا ان تتلف نفسها . وكانت المشكلة الثانية هي استحالة تنظيم قوة بوليس ودفاع على اساس دائم ومن هنا الاستعانة بالمرتزقة واستعلاء الهلاليين وركود التكنيك العسكري ؛ فلم يقم الجيش بأي دور في التنظيم او التقدم . وكان هذا الفشل قد صار بالطبع مرتبطاً بالسابق بل واكثر بالانحطاط الاحصائي ؛ مع ذلك يمكن تحليله وفقاً لاشكالية خاصة ومن هنا الاهمية الجوهريـة لانحطاط الموحدين ، الذي كان وحده حقيقة ذا مغزى لانه كانت لجيش الموحدين نواة قومية وكان يستبق التنميات القادمة .

شرعية وجيش قومي ، انهما مفهومان لا يأخذان معناهما الا اذا اعدنـــا وضع المغرب في التاريخ العام للبحر الابيض المتوسط . فقد جرت الحقبة الممتدة من القرن الحادي عشر الى الرابع عشر تحت تأثير ضعف البحر الابيض المتوسط ــ بيزنطة والعالم الاسلامي ــ وتدعيم اوربا الغربية . فأثر ذلك في بداية الامر باتجاه ترقيـــه المغرب ثم سرعان ما انقلب تأثيره الى العكس ؛ ومن هنا المعنى المتناقض لذروة الموحدين . ومن الممكن ان تكون المنحيات التي وصفها ابن خلدون ، في آخر الامر نتائج الانكسارات العسكرية ، المسببة هي نفسها بتطورات جارية باتجاهات معارضة على شاطىء البحر الابيض المتوسط ومن التنظيم السياسي ومن التجارة . وعلى كل حال كلما كان الغرب الاوربي يوطد نفسه كلما كانت عناصر الانحطاط تتزايد في المغرب وهذا السبب الخارجي جعل للاسباب الداخلية كامل حدتها ؛ ولم يكن من قبيل الصدفة ، أن كان هناك اتفاق بالفعل بين الهلاليين والنورمان Normands ضد الدولة الزيرية وبين المارينيين والقشتاليين ضد امبراطورية الموحدين . حتى القرن الرابع عشر مع ذلك ثمة توازن معين كان موجوداً ، الامر الذي كان يجعل من الممكن المحاولات الامبريالية التي افضت بالتأكيد الى نجاحات سياسية والى ازدهار ثقافي لكن في شروط صعبة دائماً . وفي مطلع القرن الخامس عشر انهار التوازن نهائياً واستقر الانحطاط . ومن السهل وصف آلية هذا الانحطاط : ارتفاع مستوى البدو ؛ إضعاف بيت المال ، صراع بين الطامعين في الحكم ، تقهقر اقتصادي وحضري وثقافي ... والعلاقات العديدة والغامضة بين مختلف هذه الجوانب تشكل مجالا زاهراً، غنياً بالامكانات النظرية ، وها هنا كان جوهر التفكير الخلدوني ؛ ولكن كما ان القرن الرابع عشر المغربي كان يتضمن بالقوة اشكالية ابن خلدون فان هذه الاشكالية لا تحلل الا هذا الوضع على النحو الذي اتخذ فيه شكله أو مماثلين آخرين ، ولكنها لا تضع اليد على الاسباب التي أنشأتها . وكان يمكن القول بأن تحليله هو تحليل نظام لا تحليل تكوُّن (اصل) . وعدم ابداء هذه الملاحظة التمهيدية معناه الاعتراف بتشويه فكر ابن خلدون وتعتيم تاريخ المغرب .

٣

توازن الانحطاط

١٠ - صليبية الغرب

يشكل القرنان اللذان يفصلان بين اخفاق محاولة ابو عِنان الامبريالية وهزائم الاسبان المعاصرة تقريباً في تونس (١٥٧٤) والبرتغاليين في القصر (١٥٧٨) ، حقبة من الانحطاط العميق ، ومن الممكن ان تكون لهذا السبب نفسه واحدة من أكثر حقب التاريخ المغربي مغزى . ولسوف يكون من السهل التحقق من أن اللوحة التي سوف ترسم تعرض تشابهاً كبيراً مع لوحة القرن التاسع عشر بل والقرن العشرين في أجزاء معينة من المغرب ، على نحو سوف ندرك معه بيسر كيف امكن ان نرى في هذا التشابه امارة تاريخ توازني . لقد حسبنا اننا امسكنا هنا بالبنية الاساسية لمجتمع ولبسيكولوجية جماعية ؛ مع ذلك ينبغي ان نذكر بأن هذه البنية ليست البتة سرمدية وانما النتيجة لتطور محدد تمام التحديد . وحكم ابن خلدون المحرر من الوهم على عصره يبدو ، في الواقع ، مبرراً تماماً : دولة تتصدع ، زراعة تتقهقر ، تجارة داخلية تتوقف ، الجبل الذي ينقفل على نفسه ، وكأن الارض المغربية تقدم نفسها بنفسها الى الفاتحين الغوبيين أو البعيدين . والديالكتيك المحتوم للانحطاط وللخراب يعمل بنشاط ، داخل الدول نفسها حيث مكتسبات الحياة المدنية تندثر الواحدة تلو الاخرى ، حيث تتبدد السلطة بين زعماء المرتزقة الذين تحولوا في بداية الامر الى اقطاعيين ثم ، يساعد تأخر الزراعة على ذلك ، الى مجرد زعماء قبائل شديدي الحرص على معاشهم ومعاش ذويهم .

هذا الضعف استدعى التدخل الخارجي الذي تفاقم بدوره ففقد التوازن وأبّده. ولسوف يكون عبء الاجنبي قاطعاً كثيراً الى حد أن مصيره الخاص في النهاية سوف

يتعلق بمصير المغرب ، ولسوف تكون الحلول ، التي سوف تجرّب للعمل على اعادة انطلاق اللاآلية الاجتماعية ، الفعالة مؤقتاً ، عديمة الجدوى على المدى الطويل بسبب هذا الحضور الاجنبي ، سواء أكان في الاصل قد فرض بالقوة او استدعاه المغاربة بأنفسهم . فلا شيء يرمز الى هذا الانحطاط في المغرب أفضل من العقم المفرط ، بل تفاهته ، اذا امكن القول ، في نتاج مؤرخي هذه الحقبة [1] . طالما كانت الملكيات باقية فقد وجد كتاب وشعراء بلاط استمروا في تعظيم الاعمال الباهرة التي ما تكاد تكون جديرة بالتنويه في الحوليات العائلية ، بشعر مفخم ونثر مقفى . كأن هؤلاء المؤرخين الذين لا يعون ، ولسبب ، نذر التهديد التي كانت تتشكل على الضفة الاخرى من البحر الابيض المتوسط ، يتظاهرون بالتحمس لانتصارات آخر المارينيين او الحفصيين الكاذبة على الزيانيين الآخذين في التدهور. فليس اذن من هذه الناحية ما كان يمكننا ان نحصل به على فكرة عن بنية المغرب الآخـــذ في الانحطاط . وكلما ازدادت الدولة تصدعاً كلما انحصر نتاج المؤرخين في المحلية : لرؤساء القبائل ، لزعماء الزوايا الشريفة الاوفياء لهم الذين يصفون حركاتهم [2] . هذا الأدب ، مقروناً بأدب الفقه المطبق [3] الذي ازدهر في ذلك العصر ، سيستطيع وحده ان يتيح لنا الاقتراب من الحقائق السياسية ــ الاجتماعية ؛ وما زال للأسف بعد لم يلق عناية الدراسات المنهجية . فان الروايات المكتوبة باللغات الاجنبية [4] ، التي اتاحتها

---

(١) هذه الملاحظة صالحة حتى بالنسبة لرواية ابن خلدون (أنظر حكم إبراهيم ، أبو سليم ، الذي كان سكرتيراً خاصاً له) ، بالأحرى بالنسبة لابن الأحمر أو ابن أبي دينار (المصدر السابق) . أنظر كذلك محمد الكراس (؟) ، عروسة المسائل .. ، الرباط ، المطبعة الملكية ، ١٩٦٣ .

(٢) مثل دوحة الناشر ... لإبن عسكر (متوفي ١٥٧٨) **Arch.mar XIX,1913** ترجمها إلى الانجليزية ت.ه.وير T.H.Weir ؛ كذلك : شيوخ مراكش في القرن السادس عشر ، أيديمبورغ ١٩٠٤ أو نشر المثاني للقادري (متوفي ١٧٧٣/ ١١٨٧) مترجم إلى الفرنسية في : **Arch.mar.1913-1917**

(٣) مثل المعيار للونشريسي ، ولم يدرس بعد من وجهة نظر التاريخ الاجتماعي .

(٤) أنظر البيانات المعطاة في : مصادر لم يسبق نشرها من تاريخ مراكش ، نشرها ه. دي كاستري H.de Castries (سلسلة برتغالية) : مقالات مختلفة في المراجع بقلم ر. ريكارد في مجلة Hesperis أعيد بعضها في : تاريخ البرتغال في مراكش ، كوممبرا Coïmbra ١٩٥٥ ؛ كذلك ف. بروديل ، « الأسبان في الجزائر » ، وذلك في : تاريخ ومؤرخو الجزائر ، باريس ١٩٣١ ص. ص ٢٣٤ — ٢٥٠ بخاصة ، ثم وصف رحلتين في أفريقيا الشمالية في القرن الخامس عشر ، نشر وترجمة ر. برونشويغ ١٩٣٦ .

الغزوات الايبيرية ليست افضل مزية من نتاج المؤرخين العرب ؛ انها على طريقتها ، تمثل اسطورة مذهبة للارستقراطية الاسبانية او البرتغالية ؛ الا ان خطأها الاكبر هو وقوفها على هامش الحياة المغربية ؛ فهي تخبرنا عن الزعماء المحليين الذين كانت تصرفاتهم واقوالهم ترى وتنقل على ضوء ممسوخ . ان دراسة متقدمة وحدها للادب الفقهي العربي تجعل من الممكن تفسيراً وافياً بالمرام لبعض المعلومـــات التي يمكن استخدامها مما تقدمه لنا تلك الروايات الايبرية . غير ان هناك أثراً ، بين المؤلفات الموضوعة في اللغات الأجنبية في ذلك العصر ، على جانب مهم للغاية قد وصل الينا هو أثر : جان ليون الافريقي [١] Jean leon L'Africain ، الذي يعبر مصيره تقريباً عن وضع نخبة مغربية معينة منعزلة ، يائسة وشكوكية . فهو من اصل اندلسي رُبّي في فاس ، واسر في البحر الابيض المتوسط ، فتنصر في روما ، وقد قدم لاخوته الجدد في الدين وصفاً مذهل الدقة لجزء كبير من شمال افريقيا سوف يخدم حتى القرن التاسع عشر في رسم مخططات جميع الارتيادات وجميع الفتوحات الاوربية . والصورة التي يتركها لنا مقبولة خاصة بالنسبة للقرن الخامس عشر؛ الا انها ما كان ليمكنها ان تكون مفيدة تماماً ، الا اذا فسرناها كنتيجة لسياق ، بدلا من اعتبارها وصفاً سكونياً ، الأمر الذي لم يحاول بعد للاسف منذ دراسة ل. ماسينيون L .massi-gnon ، القديمة منذ أكثر من نصف قرن . ان مغاربة الماضي كانوا لا يحبون ذلك العصر والملاحظة ما زالت بعد مقبولة بالنسبة لمغاربة اليوم ؛ ومع ذلك فان ما ندعوه بالـ (بنية القبائلية) ، التي هي بنية الانحطاط ، سوف لا تكسب معقولية ابداً ، اذا كان على هذه الحقبة ان تبقى هكذا مهملة .

— ١ —

أ ــ انحطاط مغربي وهجوم ايبيري كانا الحدثين الاعظمين في ذلك العصر : ان تاريخهما يجري في مرحلتين : الاولى تتميز بضعف المغرب الاقصى الماريني والتفوق

---

(١) وصف أفريقيا ترجمة جديدة ، بقلم ا. ايبولارد ، باريس ، ميزون نوف ١٩٥٦ . أنظر المقدمة لدراسة ل. ماسينيون : مراكش في السنوات الأولى من القرن السادس عشر ، الجزائر ١٩٠٦ ؛ مهدي الهجوي : حياة الوزان الفاسي، الرباط ١٩٣٥ ؛ ر.موني R.mauny : تعليق على « الرحلات الكبرى لليون الأفريقي » في هسبيريس Hesperis XLI ، ١٩٥٤ ص. ص ٣٧٩ — ٣٩٤ .

البرتغالي في سياسة التوسع الايبيري ؛ الثانية بالانحطاط العام للمغرب والرجحان الاسباني .

لقد شهد النصف الثاني من القرن الرابع عشر (الثامن الهجري) استقرار توازن بين ثلاث ملكيات موهنة ؛ في القرن الخامس عشر ، في حين كان المارينيون والزيانيون يستمرون في الوهن كانت افريقية تعرف نهضة سوف تقيها الى زمن ما من التدخلات الاجنبية ولكن ربما كذلك تمنعها اذا ما حان الوقت من ان تجد في ذاتها الوسائل لتأمين نجاتها اذ أن الخطر المعادي في غضون ذلك تعاظم بلا حدود .

في المغرب الماريني لم يكف الميل الى التجزيء عن التعمق طول العقود الاخيرة من القرن الرابع عشر ، مفاقماً بعنصرين جديدين : دور الوزراء المتفوق ، الراجع إلى روابطهم الاسرية والى اقطاعاتهم ، ودسائس الزيانيين المتواصلة وامراء غرناطة واسبانيا . ومن قبل أجهز على أبوعنان وهو يحتضر على فراش الموت (١٣٥٨ / ٧٥٩) وزيره الفودودي Fudùdi ، من اجل تأمين خلافة الحكم لمرشحه ؛ وعارضه وزير آخر هو ابن ماساعي بمرشح آخر ؛ واخيراً فان شخصاً ثالثاً هو ابراهيم (ابو سليم) هو الذي تغلب في عام ١٣٥٩ / ٧٦٠ بفضل مساعدة ملك قشتالة بيير لوكروييل Pierre le cruel فقد تخلص من الفودودي al - Fududi ولكن بعد قليل عمل وزير آخر هو عمر بن عبدالله بتدعيم من رئيس الميليشيا المسيحية ، على استبداله بتاشفين ، احد اخوته واقلهم كفاءة للحكم لان مدة اسر طويلة في قشتالة جعلته معتوهاً تقريباً . وفي عام ١٣٦٦ / ٧٦٨ حدثت بحكم عبد العزيز تجربة إنهاض : فتم استبعاد الوزراء المحتلين أو قتلوا ؛ فان الهنتاني ، وهو سيد الاطلس مستقل تقريباً ، تم إلزامه بالطاعة في عام ١٣٧٠ ؛ ومن جديد بدت ملامح سياسة هجومية ضد تلمسان . فان المملكة المارينية قد أعيد انشاؤها اذن في عام ١٣٧٢ لكن عاهلها اختفى في العام نفسه وفي عهد ابنه السعيد عاد التنافس بين الوزراء . وافضت المكائد النصرية إلى تنصيب احمد المستنصر الذي تصرف كأنه مجرد منفذ لمطامح

---

(١) هو كذلك يحمل النسب الفودودي ، وكان الأول يسمى حسن بن عمر (راجع ا. ناصري : المصدر السابق ، ح ٤ ص. ص ٣ و ٣٧) .

غرناطة . الا ان هذا لم يحل دون ان يُظهر له الامير الاندلسي منافساً بضغط الوزير ابن مساعي المبعد من البلاط ؛ فانسحب احمد اول مرة قبل ان يعود في عام ١٣٨٧ — ٧٨٩ وبمساعدة المعقل Ma'qil الذين يسيطرون على منطقة سيجيلماسا، استرد عرشه واعدم الوزير المتآمر ؛ وكافأ حلفاءه الهلاليين بالسماح لهم بالوصول الى السهول الاطلنطية مع احتفاظهم بامتيازاتهم في الجنوب المراكشي . وبوفاة المستنصر في عام ١٣٨٤ — ٧٨٦ عاد الصراع بين الوزراء أشد مما كان عليه إلى أن تولى احدهم ، احد افراد الاسرة الوطاسية حماية آخر امراء المارينيين : عبد الحق ، وحكم باسمه .

في غضون هذه الحقبة كلها لم يكف المارينيون عن التدخل في المملكة المجاورة وان يفرضوا عليها ، على الرغم من ضعفهم ، وصايتهم المباشرة ، او غير المباشرة . الامر الذي يعين ببساطة ان العناصر السياسية نفسها كانت في البلدين على رأس العمل ، واستطاع موسى الثاني ، وقد عمر طويلا واستفاد من العقبات التي واجهت خلفاء ابو عنان ، بتنظيم مملكته : الا انــه منذ عام ١٣٦٠ كان عليه ان يواجه هجومــاً من ابراهيم (ابو سليم) واخلاء عاصمته . ثم تم احتلالها مرة اخرى في عام ١٣٧٠ من قبل عبد العزيز . وعندما كان امير فاس بالغ الضعف للتدخل مباشرة أقــام اميراً من الزيانيين تابعاً له . وكانت هذه هي حال ابو تاشفين الثاني الذي تولى السلطة في عام ١٣٨٨ — ٧٩١ وابو زيان الثاني الذي تولاها في عام ١٣٩٤ — ٧٩٧ . وكان هؤلاء الامراء التابعون لا يبقون طويلا على اخلاصهم ، لكن الماريني كان له دائماً في متناول يده أمير فار سرعان ما كانت المساعدة بالمال او بالجند تحوله الى مرشح جدي . وان لم يوجد هذا ، كان غزو تلمسان مباشرة ممكناً دائماً . لقد فتحها احمد المنصور في اثناء كل فترة من فترتي حكمه . وكان آخر جهد للحكم المباشر هو حكم عثمان الثالث (١٤٠١ — ٨٠٤) ؛ فبعد مغامرات عديدة انتهى الى فرض عبد الواحد (ابو مالك) (١٤١١—٨١٤) ؛ الذي حاول ايجاد مخرج لوضعه المعقد بالتحول نحو الشرق ؛ ولسوء حظه كانت افريقية عندئذ في ابان نهضتها ، وقد سقطت المملكة الزيانية ، وهي تنجو من الوصاية المارينية تحت سيطرة جيرانها الحفصيين . ولنلاحظ بأن المملكة المارينية كثيراً ما بترت ، في غضون تلك الحقبة ، من جزئها الجنوبي وان هيمنتها

على تلمسان لم تؤمن ابداً ، وهما امران يُفسران بالاهمية المتعاظمة للمعقل Ma qil الذين كانوا قد أصبحوا القوة الاساسية للمغرب قبل ان يمدوا في سيطرتهم كثيراً الى الجنوب في الصحراء الغربية . في اثناء هذا الوقت كانت افريقية قد انتهت الى العثور على هدوء نسبي . وبعد ذهاب ابو عنان حكم تافراجين سيداً مطلقاً حتى عام ١٣٦٤ – ٧٦٦ . وبوفاته تفاقمت الصراعات بين الموحدين والاندلسيين والعرب البدو ؛ اذ اعلن كل وال استقلاله حتى ان ابراهيم الثاني وابنه خالداً الثاني لم يحاولا الوقوف في وجه حركة التصدع هذه إلى أن ثار والي قسطنطينة احمد حفيد ابراهيم الثاني ، بابن عمه وجاء لاحتلال تونس في عام ١٣٧٠–٧٧٢. فوضع قليلاً من النظام في المملكة وارغم على طاعته جميع المدن المستقلة : سوس والمهدية وقابس واعاد فتح جيربا والجريد والغى جميع الهبات الاقليمية . وفي نهاية المطاف نجح حيث كان قد اخفق العاهلان المارينيان وأعد على هذا النحو الطريق للانهاض الذي كان سيجري في عهد عبد العزيز (ابو فارس) في مطلع القرن الخامس عشر .

* * *

ب – في الوقت الذي كان المغرب يهدر فيه قواه على هذا الشكل في صراعات عقيمة ، ضارية الى حد انها كانت تدور في نطاق مصغر أكثر فأكثر ، كانت دول البحر الابيض المتوسط (ا راغونا وقشتالا والبرتغال) ، تساعدها المدن – الدول في ايطاليا ، توطد نفسها اقتصادياً وعسكرياً ، دائماً تثيرها الروح الصليبية . وكانت هذه الحملات الصليبية قد انتهت بالفشل في الشرق لكنها على العموم كانت مسألة اقتصادية نافعة ووجهت ضربة قاضية للتجارة الاسلامية في البحر الابيض المتوسط . كل شيء كان يدفع الدول المسيحية الى مواصلة الصراع في كل مكان حيث كان يسيطر الاسلام : كانت الغزوات البعيدة تخدم في آن واحد في املاء الصناديق الملكية – على الاقل في بداية الامر – وفي اشغال الكنيسة الارستقراطية . والحال ان الحدث الاعظم في الشرق المتوسطي ، في القرن الرابع عشر ، كان الزحف التركي ؛ يرجع اول هجوم جدي على القسطنطينة الى عام ١٣٣٧ بعد الاستيلاء على بروسة في عام ١٣٢٦ ؛ اما وقد فشلت هذه المحاولة فان الاتراك بدأوا حركة التفاف واسعة

بالانتقال الى اوربا وعزل العاصمة البيزنطية شيئاً فشيئاً من اجل اهلاكها في النهاية . وهذا التقدم التركي في الارض الاوربية كان يدفع البابا إلى اطلاق النداء إثر النداء للقيام بحملة صليبية . وكان الايبيريون يستقبلون هذه النداءات بمشاركة وجدانية لكنهم بدلاً من الذهاب لمقاتلة المسلمين بعيداً ، كانوا يفضلون الهجوم على الاسلام المغربي الذي كانت لا تزال له نقطة ارتكاز في شبه جزيرتهم . وابتداء من عام ١٣٤٠ لم يعد المارينيون يستطيعون التدخل عسكرياً في اسبانيا ؛ حقيقة ان وحدات مارينية كانت تستمر في تشكيل الشطر الاعظم من جيش غرناطة لكنهم كانوا لا يتصرفون خلافاً لما كان يقوم به افراد الميليشيا المسيحية الذين كانوا يخدمون في مراكش : كانوا مجرد جند مرتزقة .

كانت حصيلة هذه الظروف سلسلة من الهجمات على الموانىء المغربية . وعرفت افريقية عمليات انزال مماثلة في عهد الزيريين انقذها منها الموحدون ؛ وعادت اثناء الحقبة الاولى من ضعف الحفصيين ولا سيما بعد عام ١٢٧٠ ؛ وفي عهد لمنصور الثاني ، هاجم الاسطول الصقلي بقيادة الاميرال روجيه دي لوريا Roger de lauria جزيرة جربا عدة مرات وانتهى به الامر الى احتلالها (عام ١٢٨٦) ؛ ولم تحرر الا في عام ١٣٣٥ في عهد ابو بكر الثاني ؛ كذلك احتلت جزر كيركينا Kerkenna وهوجمت المهدية عدة مرات وان كان دون احراز اي نصر . في الغرب المغربي هناك حملتان ملازمتان لازمات سياسية خطيرة ترمزان الى بداية هذا العصر الجديد: في عام ١٢٣٤ – ٦٣٢ حاصر الجنويون في عهد الرشيد احد الموحدين ، سوتا ولم ينسحبوا الا بعد الحصول على غرامة باهظة [١] وفي عام ١٢٦٠ – ٦٥٨ هاجم القشتاليون واحتلوها لمدة اسبوعين في الفترة التي كان فيها الصراع متأرجحاً بين الموحدين والمارينيين. وفي نهاية القرن الرابع عشر تضاعف تواتر انزالات المسيحيين الى البر ، في الشرق وفي الغرب في آن واحد : في عام ١٣٥٥ هاجم الجنويون طرابلس واحتلوها لمدة قصيرة ؛ وفي عام ١٣٩٠ جرى تحريض حملة فرنسية –

(١) وجب على المدينة المستقلة في ذلك الزمن أن تدفع ٤٠٠,٠٠٠ دينار . وعلى الرغم من مبالغاته الواضحة فان نص محمد القاسم الأنصاري : اختصار الأخبار ، الذي نشره لفي – بروفنسال في هسبيريس Hesperis XII,1931 ، يقدم مع ذلك فكرة عن رخاء سوتا .

جنوية على الصعود الى المهدية ؛ وفي عام ١٣٩٩ اغــار الاراغونيون عــلى بون والقشتاليون على تطوان التي دمرت تدميراً تاماً . وفي غضون القرن الخامس عشر سوف تنجو افريقية وهي في ابان استعادتها لازدهارها ، من تلك الهجمات ، في حين سيكون الغرب المغربي الذي كان يزداد ضعفاً هدف سياسة توسعية حقيقية .

لقد دلت هذه الهجمات الاولى في القرنــين الثالث عشر والرابع عشر على معرفة دقيقة بالوضع السياسي : أخذت تجري بكثرة متزايدة وبجسارة في أوقات الازمات ؛ وهي معرفة ترجع الى الروابط بامارة غرناطة والى نشاط التجار الجنويين الذين كان دورهم هاماً جداً في اعادة الفتح Reconquista الاسبانية ولو انه كثيراً ما يهمل ذكره . وفي خلفية هذه الاعمال الجريئة التي تبدو لاول نظرة انها من ثمار الصدفة ، يكشف المرء باعثاً محدداً : الهيمنة على تجارة البحر الابيض المتوسط . ولما كان هذا البحر الابيض المتوسط محتكراً من قبل الايطاليين والايبيريين فان المغاربة وقد كانوا عاجزين عن الدفاع عن تجارتهم الخاصة ، لجأوا الى القرصنة كما فعل الانجليز بعد قرنين من الزمان ضد الاحتكار الاسباني . هذه القرصنة المنظمة بصورة خاصة انطلاقاً من بوجي صارت شكلا من اشكال الحرب ، موجهة للرد على شبه الاستحالة في ان يكون للمغاربة تجارة منتظمة في البحر الابيض المتوسط ابتداء من القرن الثالث عشر . وعندما يراد ابداء الرأي في قرصنة العصور اللاحقة يجب عدم نسيان اسبابها البعيدة التي تعود في جانبها الكبير إلى اختناق الموانىء المغربية التي كانت لا تستطيع أية مفاوضة للسلام ، في ذلك العصر ، انقاذها منه .

ذلك ان ما صنعته سياسة الاعمال الجريئة – اعمال الردع كما يمكن ان يقال اليوم – من اتاحة المجال لاحتلال الموانىء المغربية ، التي أوهنها كثيراً الكساد التجاري في القرن الرابع عشر ، كان من اجل جعل الهيمنة الايطالية – الايبيرية أكثر شمولا كذلك على تجارة البحر الابيض المتوسط . كان البرتغاليون – يدفعهم وينصحهم الجنويون – هم الذين سوف يقدمون على الخطوة الاولى في غرب المغرب . فقد نظم الملك جان الاول بدافع مصلحة سياسية – اقتصادية (تنافس مع القشتاليين) وبحمية دينية ، حملة سوتا التي كانت لا تقدم من جانب آخر الا قليلاً من العقاب ،

بالنظر الى ضعف المارينيين السياسي والعسكري في عام ١٤١٥-٨١٨[١] . ولم تنجح المحاولات الاولى للانقاذ - وكانت مهمة عثمان الثالث في عام ١٤١٩ - وعليه فان سوتا التي كثيراً ما ثارت بحكامها المراكشيين واعلنت استقلالها ، وتبعت هكذا مصير الاندلس . وما ان احتلت المدينة حتى فقدت كل فائدة فيما عدا غنيمة الحرب التي وجب ان تكون باهظة جداً . وإذ أخليت من سكانها وفصلت عن داخل البلاد وعن ميناء مزدهر انقلبت الى مدينة حامية سوف يتزايد عبئها على الخزينة البرتغالية ؛ ذلك ان الهدف الرئيسي لم يكن فتح سوتا بقدر ما كان عزل المغاربة عن البحر الابيض المتوسط ؛ وعلى مر الزمن تمضي هذه السياسة في اكتساب الوضوح والاستمرارية . وسوف تبقى غزوة سوتا عملا باسلا منعزلا حتى نهاية القرن الخامس عشر ، وفي هذا التاريخ كانت البرتغال ما تزال بعد دولة بحرية كبرى وكانت قشتالة قد استرجعت التقاليد القاطالانية والصقلية واحتلت غرناطة ؛ فأقتسمت عندئذ الدولتان الايبريتان السواحل المغربية التي هيمنتا عليها دون نزاع طيلة النصف الاول من القرن السادس عشر . وصار المغرب هدفاً لسياسة معينة ، واضحة التصور من جانب المعاصرين . لكنها بالنسبة لنا عسيرة التحديد . هل هي اول شكل للاستعمار ؟ هل هي استئناف للصليبية المسيحية ؟ هل هي مجرد عاقبة لقطيعة في توازن القوى كانت الدول القوية تستغلها رغماً عنها تقريباً ؟ ان وجهات النظر هذه التي تستوجب جميعها أحكاماً تقويمية ، قد دعمت الواحدة منها بعد الاخرى بحجج على جانب كاف من القوة . فالجوانب الاقتصادية في السياسة الايبيرية أكيدة ، الا انها لدى البرتغاليين أكثر وضوحاً منها لدى الاسبان ؛ وفقدان التوازن الآلي بين القوى امر محقق كذلك - فقد برهنا على ذلك باسهاب - والدسائس الدبلوماسية والتحالفات السياسية - العسكرية التي تظهر لنا الآن وكانت تظهر من قبل للذين عاشوا بعد مضي قرنين عليها ، غير معقولة تقريباً ، هي البرهان عليها ؛ كذلك فان الجانب الديني ولا سيما في الحقبة الممتدة من ١٤٧٠ - ١٥٥٠ ، لا يمكن انكاره ، إلا أننا نكون مجبرين ، اذا كان علينا ان نحدد

---

(١) قارن بالترجمة البرتغالية (زرارة مثلا) الاعتبارات التي تقرأ في ا. انصاري، المصدر السابق حـ ٤ ص ٩٢ حول الاتفاق الحاصل قبل سقوط سوتا بسنوات ، بين الأمير والتجار الجنويين والبرتغاليين والذي كان يترك لهؤلاء الحرية الكاملة في حدود الميناء ، بعيداً هكذا عن رقابة الأهالي ، الأمر الذي كان يجعل الفتح سهلا إلى هذا الحد .

هذه السياسة التي كان المغرب موضوعها لنجعل الحوادث معقولة ، ان نأخذ بعين الاعتبار في آن واحد معاً تأثير الكنيسة الحاسم التي كانت تأخذ على عاتقها حينئذ ايجاد تناسق معين في سياسة الدول المسيحية والطريقة التي سوف يقاوم بها في نهاية المطاف معظم السكان المغاربة . في هذه الظروف ليس من عدم التبصر ان نصف هذا العصر بأنه عصر حرب صليبية الغرب وانه في نفس الوقت نتيجة لفشل الحرب الصليبية في الشرق والمد التركي الجديد . فان ضعف الدول المغربية يكون الشرط الملائم ، الامبريالية التجارية تكون الوسيلة – اختناق الموانىء المغربية واحتكار الاتجار في البحر الابيض المتوسط – لسياسة ، كان محركها الاساسي هو الحمية للدينية . حرب صليبية الغرب بلغت أوجها في اثناء الثلث الاول من القرن السادس عشر . وسوف لا يكون رد الفعل المغربي اذن جواباً دينياً على عدوان اقتصادي ، وانما حرب صليبية مضادة – بالتأكيد في غير زمنها – مقاومة لحرب صليبية جرى تصورها بوضوح .

– ٢ –

قبل ان يعم الانحطاط كافة المغرب وان يأخذ الهجوم الايبيري اتساعه كله ، عرفت افريقية في غضون ثلاثة ارباع القرن عودة ازدهار أكيدة وظهر الحفصي بمظهر ملك المغرب . وبعد موت احمد الثاني (١٣٩٣ – ٧٩٦) بدت شروط ازدهار الاغالبة والزيريين مرة جديدة مستوفاة : امراء حازمون ، سلام نسبي ، وحدة الاقليم المقرر ونهضة تجارية . وثمة اتفاق مؤقت madu vivendi أقيم مع الهلاليين الذين اعترفوا من جديد بتفوق الدولة . واخضع عبد العزيز (ابو فارس) (١٣٩٣ – ١٤٣٤) بني سليم ، الذين حاولوا مرة اخرى الاستنجاد بالمارينيين ولكن هؤلاء لم يعودوا قادرين على ان يلعبوا هذه اللعبة على مسافة بعيدة . ورمز الى عودة الازدهار التجاري بواقع ان اسطول الحفصيين غدا من جديد ، بأمرة القائد رضوان ، قادراً على توجيه حملات تأديبية ضد مالطة وصقلية . ومن جديد ملئت خزائن الدولة (تواردت الضرائب الاقليمية وازدادت الرسوم على التجارة الداخلية والبحرية) واستطاع الحفصي بناء القلاع والقصور التي ظلت آثارها في الحمامات والرفراف Rafraf ... ، واصلح المساجد واقنية المياه في تونس وبنى فيها مارستانا

شهيراً . وامكنه كذلك التدخل في الغرب : أخذ عبد الواحد الزياني ، الذي كان في بداية الامر عميلا للمارينيين ، يتهيأ لمحاربة من كان في حمايته ؛ فاستبدل بسرعة بمحمد الثاني ؛ وراح الحفصي يغزو تلمسان ويعيده الى سدة الحكم فيها عام ١٤٢٧ ــ ٨٣١ . ثم سار الى فاس حيث كان الوصي على الحكم الوطاسي ما زال لم يوطد وضعه بعد فسارع الى الاعتراف له بسيادة نظرية . ورجع الحفصيّ راضياً لكن ما من شيء كان في الحقيقة ثابتاً ، فبعد مضي سنتين كان محمد الثاني يستّرد تلمسان ويتخلص من خصمه ؛ وفي عام ١٤٣٠ ــ ٨٣٤ جهّز ابو فارس غزوة ثانية واقام في سدة الحكم احمد العاقل؛ الا انه لم يطل به المقام حتّى اكد استقلاله منذ عام ١٤٣٣ . كانت السياسة الحفصية اذن ذات آثار عابرة كسياسة المارينيين على حد سواء في القرن السابق ، لكنها أظهرت على أي حال بأن السلام ساد افريقية نفسها . الحقيقة انه أعيد توحيد المملكة : استردت طرابلس في عام ١٣٩٨ وتوزور وقفصا Gapsa في عام ١٤٠٠ وبسكرا في عام ١٤٠٢ والجزائر في عام ١٤١٠ . وقد اخضع عثمان خليفة أبي فارس الثاني ، نافتا عام ١٤٤١ وتوغورت عام ١٤٤٩ : فلم يكن امراء افريقية ابداً قد توغلوا جنوباً الى هذا الحد منذ أيام الفتح العربي الاولى . واستمرت حماية الحفصيين لتلمسان ولو انها اضطرت الى اعادة تأكيدها في كل لحظة بمظاهرات قوة . ومع ذلك فلإبداء الرأي في القيمة الحقيقية لعودة الحفصيين هذه يجب الاّ ننسى بأن امراء تلمسان ، الضعاف ، الذين لا مورد لهم ولا جيش الا جماعات من البدو مخلصين بالكاد ، الا انهم كانوا قادرين على مقاومة نظرائهم في تونس ؛ فان هذا النهوض كان حقيقياً بالنسبة الى التفتت الذي سبقه ، الا انه يبقى في اطار الانحطاط المطلق ؛ فهذا هو الاساس لـ « تقليد » معين ؛ على الرغم من جهود امراء نشيطين ، فان هؤلاء الامراء لم يدركوا ابداً مستوى اسلافهم الذين اتخذوهم قدوة لهم . ان التعلق بالماضي ، قبل ان يكون امراً بسيكولوجياً هو باديء ذي بدء معطى من الواقع . وعلى أية حال فان افريقية عرفت بموت عثمان في عام ١٤٨٨ ــ ٨٩٣ انحطاطاً جديداً . لقد كان على يحيى الثالث ان يقمع ثورات في بون وقابس وسفاكس ولم يتوصل احد خلفائه الى انهاض الحالة من كبوتها . كذلك تجزأت مملكة تلمسان هي ايضاً ، وكانت قد تحررت اخيراً من الوصايتين المتخاصمتين

عليها ، اللتين لم تكفا طيلة قرون ثلاثة عن فرضها عليها ولم يتوقف الصراع بين امراء مستقرين في أوران او في تينس وامراء حاكمين في تلمسان .

كانت الحالة في الغزب أكثر ظلمة كذلك فقد استمر سلطان المارينيين الاخير عبد الحق خاضعاً للاوصياء من الوطاسيين حتى عام ١٤٥٨ . ولم يكن البرتغاليون حتى هذا التاريخ اجتازوا سوتا . وبعد سقوط القسطنطينية . اطلق البابا نداءً جديداً الى حملة صليبية . فاعد ملك البرتغال الفونس الخامس جيشاً ، لكنه بدلاً من ان يسلك به طريقه الى الشرق جعله يهاجم القصار ويستولي عليها عام ١٤٥٨ ؛ ومنها جرى توجيه محاولات مختلفة ضد طنجة . وخشية من ان يناله أذى من جراء هذه الإخفاقات الخطيرة قرر الماريني ان يحمل مسؤوليتها للوصي عليه ، يحيى الذي كان عاجزاً بخلاف والده وابن عمه اللذين سبقاه في الحكم ولم يعدما بعض المزايا السياسية او الحربية وعندئذ نصب عبد الحق كميناً للوطاسيين وعمل على تقتيلهم جميعاً ولم ينج منهم الا محمد الشيخ وحده بالصدفة ؛ فتحصن في ارزيلا Arzila ومن هناك أثار المقاومة ضد الماريني الذي اعتقله أهالي فاس ووضعوه في السجن لدى عودته من احدى غزواته واعدم عام ١٤٦٥ كمرتد. وعلى اثر محاولة اصلاح من جانب الادارسة ولكنها اخفقت ، عقد الشيخ هدنة مع البرتغاليين ودخل الى فاس عام ١٤٧١ لكن البرتغاليين لم يفوا بالتزامهم فاحتلوا ارزيلا وطنجة اللتين اخليتا من جميع الميليشيا ووضع هذا المنقلب نهاية لمصير الاسرة الوطاسية التي لم تنجح ابداً في بسط سلطانها الى ما وراء الشمال المراكشي . وفي الحقيقة ، انتهى في عام ١٤٧١ وجود الدولة على النحو الذي كان الموحدون قد نظموه .

في هذه النهاية للقرن الخامس عشر تميزت الحالة بتجزيء عام للدول : استقلت عن تونس طرابلس وبوجي وقسطنطينة ؛ وعارضت اوران تلمسان ؛ ولم تعترف مرّاكش بفاس ؛ وخضعت الواحات الواقعة الى جنوب توجورت حتى وادي درا تحت سلطة فروع الهلاليين المختلفة . وتفككت اوصال التجارة في دائرتها الواسعة : إذ باتت خاضعة في نقطة انطلاقها للممالك التي تكونت في السودان [1] وصارت

---

(١) إن إعادة تشكيل هذه الممالك في السودان الغربي (مالي) التي يرمز إلى غناها بالهدايا المرسلة إلى سلاطين المارينيين (التي خلدت ذكراها بالزرافة الشهيرة التي وصلت إلى فاس ايام أبو سليم) يجب أن تفسر بلا شك كمؤشر على ضعف المغرب .

دروب القوافل واقعة تحت رحمة الزعماء الهلاليين المستقلين ، ومعرضة لدى وصولها للمزاحمة ، فانها راحت تتحول نحو موانىء الاطلنطي ونحو الشرق ، وثمة ازمة دينية عميقة سوف تعبر عن استياء السكان من الزعماء العاجزين عن الدفاع عنهم . فان الاخيرين من امراء المغرب لم يعودوا هم المحركين الحقيقيين لهذا التاريخ المشتت ، فقد خلق محلهم مجالس محلية في المدن الساحلية وزعماء قبائل من ورثة سلطة الدولة واخيراً شخصيات ذات نفوذ متزايد في الرأي العام هم زعماء الجمعيات الدينية .

ازاء هذه الحالة الملائمة عاد الهجوم الأيبيري بسرعة فائقة بنجاحات عظيمة . فبعد عامين من سقوط غرناطة في سنة ١٤٩٤ اتفقت اسبانيا والبرتغال بحث من البابا على مناطق فتوحاتهم المقبلة . وفي عام ١٤٩٦ استسلمت ايزابيلا لحجج دوق دي ميدينا — سيدونيا — medina — sidonia فأرسلته الى ملليلا Mellila ؛ فانتظر السكان عوناً لم يأت ثم غادروا المدينة التي احتلها الاسبان . وفي الحال تطلعوا نحو الشرق . وكان الكاردينال القوي اكسيمينس هو الذي نظم الحملة على مرسى الكبير (١٥٠٥) الذي استسلم في مدى ثلاثة أيام . وفي عام ١٥٠٩ سلمت بخيانة وهران التي قام بتحصينها على عجل الزياني محمد الخامس ؛ وتم احتلال بوجي في عام ١٥١٠ من امير حفصي كان مستقلا منذ زمن طويل . ودانت الجزائر ودلليس وتينس ذات الاستقلال الذاتي الى بيدرو نافارو Pedro Navarro . ودمرت طرابلس في عام ١٥١١ واعيدت الى ملك صقلية . ولما رأى محمد الخامس هذه الامور جميعها وتأكد من استياء السكان المتزايد مضى الى بورغوس في عام ١٥١٢ يعترف بتبعيته لملك اسبانيا وفي نفس الوقت استقر البرتغاليون دون جهود تذكر على الساحل الاطلنطي للمغرب الأقصى في مدن ذات استقلال ذاتي منذ زمن طويل ، لفاس ولمرّاكش ، اللتين كانت لهم بهما منذ زمن طويل صلات تجارية بل وسياسية : فتم احتلال صافي عام ١٥٠٧ — ٩١٣ وازيمّور عام ١٥١٣ . وبفضل قلعة سانتا كروز santa Cruz في أغوير Aguer (مرسى اغادير) ، التي بنيت منذ عام ١٥٠٥ وموقع مازاغان mazagan غير بعيد عن رباط الموحدين القديم في تيت Tit ، المحتل في عام ١٥١٣ فان الساحل المراكشي كله غدا منذئذ تحت رحمتهم .

هكذا استقطع البرتغاليون والاسبان بنفقات قليلة امبراطورية لهم في الارض المغربية ومن هنا بالذات احكموا قبضتهم على التجارة البحرية . واحتلال هذه المدن جميعها صار سهلاً ، لانها كانت قد اصبحت ذات استقلال ذاتي ولم تكن تستطيع تلقى اي عون من دولة لم تعد في حقيقة الامر موجودة . سلطة محلية جديدة بين سلطات اخرى ، واندس الزعماء الايبيريون في لعبة السياسة من انحلال المجتمع المغربي . ففي منطقة اوران امضى بدرو نافارو اتفاقات مع الزعماء المحليين وبذلك عزز موقعهم ضد امير تلمسان ؛ كذلك سلـح البرتغاليون في منطقة الحـاووز Haouz يحيى بن تعفوفت الذي قاتل ضد امير مرّاكش المستقل ذاتياً ، الهنتاتي .

هذا الانحلال العام الذي سوف يدوم حتّى عام ١٥٧٤ والذي يعطينا عنه ليون الافريقي فكرة دقيقة لم يكن سوى تطور عناصر كانت عاملة منذ القرن الرابع عشر . لكن فترة تزاحم الدول في اوج توسعها فاقمه ، وخاصة ان ادامة مدة طويلة الى حد ان محاولات الانهاض سوف تحتفظ منها على بذور التفسخ ؛ فلن يتغلب عليها المغرب ابداً .

— ٣ —

لقد احتفظ المغرب من هذه الحقبة ، بسمات ميزته الى زمن قريب جداً . في بادىء الأمر تعيين الحدود الداخلية التي سوف تدوم : ان الصراع الطويل ، المتذبذب بين المارينيين والزيانيين ترك في الوضع العام خطاً فاصلاً لا شك في انه ما يزال غير ثابت لكنه داخل رقعة اقليمية آخذة في الانكماش . وعلى نفس المنوال في الشرق كانت ثورات طرابلس وبوجي وبون وقسطنطينة المستمرة تدل على ان السلطـة المركزية ، في حالة من الوهن المستوطن كان يعبر عن مستوى تقنيّ واقتصادي معيّن ، كانت لا تستطيع الحفاظ الا على ما يشكل اليوم تونس الشمالية . فبالتأكيد كان هناك دائماً كيانٌ افريقي ولكن كانت هناك دائماً افريقية كبيرة وصغيرة كذلك ، وانه على اساس هذه الافريقية الصغيرة سوف تتكون تونس الحديثة . وكان هذان

التحديدان سوف يتيحان للمركز المغربي بأن يصبح متفرداً بادماج بطيء لما كان مجالا للحماديين بما كان مجالا للزيانيين .

انها ثلاثية حكم جغرافية ـ سياسية اذن ، لكنها متطابقة للثلاثية الاجتماعية ـ التاريخية القديمة التي نعثر عليها مرسومة في كل عصر ازمة ، وهذه المرة في شكل انفصال يتزايد وضوحاً بين مدن وارياف وجبال . ان سقوط غرناطة لم يكن لـه صدى في المغرب سواء بذاته ام بعواقبه التي لايمكن تلافيها : فكتب الملوك الكاثوليكيين لعهودهم المقطوعة للمسلمين ، تفتيش ، ثوره عام ١٤٩٩ ومراسيم الطرد لعـام ١٥٠٢ . ولم يكن اللاجئون الذين سوف يوزعون بين مختلف مدن المغرب ، ليجدوا في دول متفسخة تمام التفسخ كادراً لاستقبالهم قادراً على الاستفادة من ميزاتهـم العديدة . انهم سوف ينمّون صناعة هامشية ليس في مكنة السلطات المركزية ضبطها ؛ ولسوف يشجع لديهم ضعف هذه السلطات شعوراً بالتمرد ان لم يكن بالازدراء وبخاصة نزعة الاستقلال . وفضلاً عن ذلك فانهم سوف يشكلون بفضل رؤوس اموالهم وثقافتهم تنافساً عنيفاً للتجار وللحرفيين المحليين . ومن جميع وجهات النظر ، لعبوا دور طبقة وسطى وكانت معارضتهم للسلطة المركزية كثيراً ما تأخذ مظهر ثورة قروية لكن هذه الثورة لم تبلغ ابداً كامل تفتحها (الظفر بمواثيق للحرية) يسبب ما لهذه الجماعة الاجتماعية من خاصية النمو الخارجي التي كانت تجعلها معزولة وخجلة واكثر من ذلك بسبب الخطر الخارجي اذ كان كل ميناء مستقلاً ذاتياً فريسة سهلة للفاتح الأيبيري . فان وجود هذه الجماعة نفسها ، الآتية في ظروف خاصة ، قد وقف حائلا في وجه تطور طبيعي كان سيمكنه العمل على انشاء وازدهار طبقة متوسطة في قلب المجتمع المغربي نفسه .

كانت السهول الزراعية قد صارت منذ زمن طويل خاضعة لرؤساء المرتزقة من الهلاليين ، الذين لم تكف سلطتهم عن المضي في توطيد نفسها ؛ ولكن الحروب لم تعد كذلك منذ زمن طويل مهنتهم وكانت صلتهم بالسلطة قد تراخت ولا سيما ان الزراعة نفسها قد كانت آخذة في الانحطاط فاذا كانت لديهم اذن فرصة لان يصيروا زعماء اقطاعيين بمعنى العبارة الطبيعي فان هذه الزراعة كانت قد تلاشت بسرعة ؛

اذن ، لم يعد المهم السيطرة على الاراضي وانما على الرجال ؛ ولكن بأية وسيلة ؟ باستخدام البنية القبلية الهلالية كشكل للتنظيم السياسي ؛ فالسكان المحليون اندمجوا بالضرورة في مختلف التفرعات القبائلية : فان المادة البشرية هي التي كانت تفي بكادر شكلي هو وحده جاهز حينئذ . هذه البنية الهلالية ، بيولوجية كانت ام اجتماعية اصبحت بصفة أساسية شكلا للادارة وللحكم المحلي [١] . ومن هنا بالذات كانت تستطيع في كل لحظة ان توفر الاسس لاقطاع لو ان شروط سلم نسبي كانت تعود بالزراعة الى مستوى معين من الانتظام والاتساع ولو كان تعزيز السلطة المركزية يتوصل الى ان يفرض على الزعماء عقلية ومسلكاً وحالة من الطاعة والخدمة . مرة اخرى فان الضغط الاجنبي لم يسمح ابداً بأن تجمع شروط كهذه وذلك طيلة زمن طويل . فقد استمر اولئك الزعماء على ان يكونوا قادة حرب (حفظ التاريخ اسماء بعضهم) ، فكان وضعهم يتعلق اذن دائماً بمصير الاسلحة ولم يكن ابداً موطداً نهائياً .

واذ كانت الجبال منفصلة عن السلطة المركزية بهذه السلطات المحلية التي كانت تقتسم السهول ، فقد انعزلت في عاداتها . وكالحال في نهاية الحقبة الرومانية ، نجد ثلاث كلمات : هي هذه المرة : مور Maures وعرب وبربرتدل على اختلاف عرقي اقل من اختلاف اجتماعي – تاريخي . ففي ايام ابن خلدون كان المرء يكشف تنافساً على المستوى السياسي بين هذه التجمعات الثلاث لان الدولة كانت ما تزال تعرض ارضاً مشتركة لمبارزتهم ؛ وبتفكك الدولة اندست الغيرية ، اللااعتراف الذي سوف لا يتأخر عن ان يتحقق في لغة تخاطب خاصة وفي ممارسة دينية متميزة .

اذا قارنا هذه الثلاثية بتلك التي ختمت حقبة تاريخية اخرى فان الأمر الجوهري

---

(١) المقصود حتى الآن فرضية عمل تكون قرينته الأساسية إدخال ديناميكية إجتماعية في التاريخ المغربي ومن الطبيعي أن النصوص الأجنبية من القرن السادس عشر إلى أيامنا ، التي كتبها أناس ضعيفو الاطلاع ، لا ينبغي بحال من الأحوال أن تكون معارضة لذلك . والمصادر الوحيدة التي يجب أن تستخدم ، من أجل الطعن فيها أو من أجل تأكيدها ، هي نصوص الحقوق (فتاوي ، براءات ، سلطانية عقود حق خاص) ؛ ومن هنا الأهمية الرئيسية لـ. نوازل الونشريسي . وطالما لا يصار بهذا العمل الصبور إلى النجاح فان كل ماكان قد قيل في التاريخ الإجتماعي للمغرب يبقى في ميدان الأحكام المسبقة أو مجال النظرية .

الذي يسترعي الانتباه هو انها في هذه المرة كائنة بأكملها في المغرب الأوسط . فان المدن الساحلية سوف تضيع وكان الجنوب قد سبقها الى ذلك (صار لتوغورت سلاطين مستقلين ولم تعد سيجيلماسا الا ذكرى) . ولسوف يغدو عاهلو العصور القادمة العظام ، هم اولئك الذين سيعملون ، الى زمن ما ، على نيل الاعتراف بهم من الاطراف الشمالية للصحراء . وبفقد الجنوب فقد المغرب معرفته نفسها بمنابع ثروته .

فالمسألة المطلوب طرحها هي اذن التالية : هل كانت هناك امكانيات داخلية لتجاوز الازمة ؟ ان التحليل السكوني للوضع ، القائم على توازن القوى ، والنمو اللاحق يظهران انه كانت لهذا الانحطاط عناصره لكي يدوم . لقد اضعف نضوب التجارة المدن وجعلها تتردد في دفع الضرائب وراغبة في الاستقلال الذاتي . وسبّب الانحطاط المديني افقار خزينة الملك واضعافاً عسكرياً . ودفعة واحدة تحرر الزعماء المحليون من كل انقياد وحلوا محل العاهل ، ومن هنا ساهموا في المزيد من اضعافه . وقد وجد الاجنبي المتمكن من الاطلاع ثلاثة محركات على المسرح امامه : مدناً تكاد تتمتع باستقلال ذاتي ، زعماء محليين ، امراء ، يميل كل منهم الى التفاوض لحسابه وبالتالي الى قبول التبعية . اعتبار ضائع ، استقلال منقوص ، ضعف متزايد ، ان آلية انحطاط ، ذاتي التسارع ، قد أخذت ابعادها ولسوف نجد هذه الآلية في القرن التاسع عشر . اما في السادس عشر فان ادخال عنصر اجنبي : قوة تركية أو نفوذ شريفي قد فرض نفسه على الجميع . ففي الوقت الذي عرفت فيه إذن بلدان البحر الابيض المتوسط الغربية النهضة ، الاكتشافات العظمى ، التوسع الاستعماري دخلت البلدان المغربية بنوع من التلازم السلبي في نوع من العصور الوسطى نضبت في غضونها التجارة وتراجعت الزراعة وتبددت السلطة . ولكي ينبثق انهاض ما، سوف ينبغي تراجع السلطتين الايبيريتين وقد ازاحتهما قوى اخرى اقل اهتماماً بالمغرب وبروز قوة ظاهرية عسكرية او دينية في شمال افريقية .

١١ ـ استجابتان ، سلطتان

منذ بداية القرن السادس عشر بدأنا نحصل على وفرة من المصادر تتزايد أكثر فأكثر لدراسة التاريخ المغربي فهل اكتسب هذا التاريخ وضوحاً ؟ ثمة نتاج مؤرخين رسمي يتسع متماشياً مع توطيد السلطات الجديدة السعدية والتركية التي تبرز بالطبع الانتصارات على الايبيريين ، ولكن لما تعقدت اللعبة السياسية بدءاً من منتصف القرن فان نقاطاً عديدة هامة قد اهمل ذكرها او أنها شوهت بصراحة ولا سيما في الآداب الموالية للسعديين [١] الا أن نتاج المؤرخين المحلي والأسرى الذي انطلق في ظل الوطاسيين الاخيرين والزيانيين يتيح التدقيق في وجهة النظر الرسمية أو إكمالها . وقد درس هذا الأدب الغزير في مطلع هذا القرن [٢] باصطفاء ؛ بيد ان الاهداف السياسية المستهدفة فيها (معرفة الاسناد التاريخية لارستقراطية دينية واجتماعية معينة لتوفيقها مع السياسة الفرنسية) قد عملت على تمييز جانبها الديني وحالت دون تبيان حقيقة المسألة الجوهرية للعصر : مسألة العلاقات الديالكتيكية بين حركة المرابطين وتغير البنية الادراكية على منوال القبلية الهلالية . فالى اي حد كانت الحركة الاولى تجاوزاً للثانية ؟ وفي أية لحظة استأنفت الحركة الثانية سيرها بعد ، اذ توقفت لحظة ، ولماذا

---

(١) إن النقطة الجوهرية تتعلق بالطبع بمساومات الغالب مع الأسبان : تنازل فيليز Velez (باديس في عام ١٥٦٤ ودوره في تمرد الموريسك . وقد وردت الرواية المناقضة في الوقائع المجهولة المؤلف ، الرباط ، ط. ج . س. كولان ١٩٣٤ .

(٢) دراسات عديدة للأساتذة : ا. ميشو-بللير E.michaux-bellaire وا. كور A.Cour ، و ا. بيل A.Bel ، ور. باسيه R.Basset و م. بينشينب Bencheneb وقد ألف بينها ا. ليفي - بروفنسال في : Histoire des Charfas ، باريس ١٩٢٢ وجاك بيرك في اليوسي ، مشاكل الثقافة المراكشية في القرن السابع عشر ، باريس ط موتون ١٩٥٨ .

نجحت بالاستيلاء على الأولى ؟ مسألتان اساسيتان من اجل فهم للقرن الثامن عشر ، اهملتا لأنهما كانتا لا تبيّنان الأهداف المقصودة ولم يجر طرحهما جدياً ابداً . كان القرن السادس عشر قرن اتصالات ، سلمية او حربية بين بلدان محاذية للبحر الابيض المتوسط ؛ نتج عنها [1] أدب في اللغات الاوربية ، استمر ، على الرغم من اخطائه الواضحة (احكام سبقية دينية وعقلية اقطاعية) في تقديم التصميمات التي ينسج عليها في المستوى النموذجي لرواية التاريخ المغربي السابق على الاستعمار . كذلك مصادر الارشيف بانت أكثر وفرة واسهل منالا [2] . ومع انه لم يستخدم في المصادر الاجنبية كل ما يمكن استخدامه يبدو انه صار ضرورياً ان نلفت الانتباه الى نقصه الأعظم : بالإضافة الى الاسهابات المعتادة والمبالغ فيها بوضوح المكرسة للعبيد المسيحيين [3] فانه يعطي اهمية كبرى للسباق (ظاهرة بحر ابيض متوسط وليست مغربية بحصر المعنى) وللتجارة (هامشية) وللدبلوماسية (التي لا تكاد تستحق هذا الاسم لكثرة ما كان موضوعها رديئاً وعابراً) وللزعماء المحليين (قادة المرتزقة بدون نفوذ واسع) . ألم يكن موضوع هذا الادب الضخم في نهاية المطاف بخساً ؟ وهو نفسه ألم يكن بحاجة ليكون مفهوماً حقيقة . الى تفسيره بديناميكية المجتمع المغربي مأخوذاً بجملته ؟ وبما ان هذا المجتمع يبقى بالنسبة لنا عصياً على الفهم في جزئه الاكبر ألا يكون المقصود في ذلك الادب مجموعة ، من المعلومات اما تافهة اوغير شفافة [4] ؟ الاان نتاج المؤرخين المغربي المعاصر ينساق للاسف الى الانبهار بهذه الوفرة

---

(١) روايات عديدة للسفارات ، وللأسر ، وتواريخ كتاريخ دييغو دي توريس Diégo de Torres عن مراكش الاشراف ، وب. دان ، دى هاييدو P.Dan,de Haedo عن الجزائر ؛ أنظر المراجع في ش.-ا. جوليان (لوتورنو) ، المصدر السابق ، ص. ص ٣٤٢ - ٣٤٦ وتقدير غودفروي فيشر في ... The barbary legend أكسفورد ١٩٥٧ ص ٩٧ .

(٢) على الرغم من مشروعات المصادر غير المنشورة بالنسبة لمراكش ، ومشروعات ب. غرانشان P.Grandchamp بالنسبة لتونس وا. بلانتيه بالنسبة للجزائر يبدو أنه مازال هناك الشيء الكثير مما يجب عمله بالنسبة لما يتعلق بانجلترا (ج. فيشر : المصدر السابق) والمدن الإيطالية (ف. بروديل) وخاصة تركيا (ر. مانتران ، « تطور العلاقات بين تونس والأمبراطورية العثمانية من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر » ، دفاتر تونس رقم ٢٦ - ٢٧ لعام ١٩٥٩).

(٣) فيشر G.Fisher المصدر السابق ص. ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٤) هذا هو العيب الرئيسي في دراسات أ. برينان A. Prenant وأ. نوشي A.Noushi في الجزائر ، ماضيها وحاضرها ، باريس ١٩٦٠ ، و ر . غاليسوت R.Gallissot ، الجزائر قبل =

المرنية ، ويحكم على عظمة ملك بعدد السفارات التي اوفدها الى بلاط انجلترا أو اسبانيا [١] . ولكي لا ندع التحليل يتلاشى في الحادث فمن الضروري ارجاع الوقائع الى المسائل الجوهرية التي كانت ، وفقط لدرجة الصعوبة المتزايدة ، درجة المستوى الثقافي ، المستوى التكنولوجي [٢] . ويمكن القول ان هذه المسائل كانت غريبة عن ذهن العصر وهناك بالتالي استحالة القياس بينها وبين الاستعلامات ذات المصدر المحلي او الاجنبي التي نملكها . ولكن اذا لم تكن على الأقل مطروحة ، كيف يمكن اعطاء تاريخ المغرب ديناميكية واستمرارية وكيف يمكن ادراك الاسس الموضوعية لـ « سلفية » سوف تغلفها شيئاً فشيئاً ؟

١ ـ استجابتان ؟

أ ـ حركة المرابطين وسلطة سعدية

في حكم الموحدين أخذت تنمو الحركة الصوفية ـ وهي ضرب من تعميم وتعميق الايمان الديني ـ التي ازدهرت في غضون القرنين الثالث عشر والرابع عشر لان المارينيين والزيانيين وقد وصلوا الى السلطة بقوة السلاح المجردة ، استعملوا التشجيع الذي كانوا يسبخون به عليها لتأمين الحد الادنى من الشرعية . ولم تنجح قط محاولتهم في توجيهها بخلق مدارس حيث كان اللاهوت والفقه التقليديان يقيمان عقبة في وجه تأصيلها ، إذ أن إضعاف السلطة المركزية كان يقوي الحركة الصوفية، التي باتت منذ ئذ طليقة في ان تشكل لنفسها كوادر مستقلة . فالتنظيم الشكلي واصله شرقي كان قديماً ومعروفاً جيداً : تلتقي جماعة من الحواريين (طلبة ، مريدين) حول شيخ

= الإستعمار : .Ronéo du C. E. R.M باريس عام ١٩٦٨ ، في اعتمادها أكثر من اللازم غالباً على أوصاف القرن الثامن عشر دون التذكير بالامر الاساسي الذي سوف يمكن لببليوغرافيا عربية معاصرة للأحداث ، القاء الاضواء وبحدها على المشاكل الاساسية في البنية الاجتماعية المغربية .

(١) على سبيل المثال المصير المسند لفعاليات المنصور السعدي الدبلوماسية ولمحمد الثالث . انظر : تقديم محمد الفاسي لمحمد بن عثمان الاكسير... ، الرباط ١٩٦٥ .

(٢) كثير من التحسينات التكنيكية نسبت للعرب في اسبانيا وفي صقلية ولكن يبدو انها لم تعرف في المغرب . فاذا كانت قد عرفت فيه بعض الوقت ثم نسيت ففي اي زمن اعيد ادخالها ؟ مثل العجلة (كاريطه Karita) في ابن ابي ضياف ، اتحاف ... ٢ ص ٣١ .

(استاذ) ويشرعون في عملية تلقين ، تدوم سنوات ، الى اللحظة التي يحكم فيها على عدة مريدين باتفاق اجماعي انهم قادرون على نشر التعليم الذي تلقوه ؛ عندئذ يصار الى تأسيس مركز تلقين آخر (زاوية) . ويسير الاتجاه هكذا نحو لامركزية في التعليم الديني تعوّض بيمين الاخلاص الذي يربط الاساتذة بالمريدين ويؤمن على هذا المنوال الوحدة والاستمرار . وهذا الشكل من التنظيم سوف يلعب دوراً رئيسياً في المغرب ، حتى مطلع القرن العشرين في اجزاء معينة منه ؛ ويكون متعدد الوظائف دينية واجتماعية وسياسية وعسكرية . ومنذ البداية ابرزت الحركة صفات تكشف في آن واحد عن اسبابها واهدافها : اما وقد كانت معتدلة ، دون الاستغراق ابداً في باطنية الحركات الشرقية او الاندلسية المماثلة ، فانها تقدمت كمتمم اختياري للتعليم الصحيح (عاملة هكذا على تجريد الفقهاء الحذرين من سلاحهم) ؛ كذلك شددت على حاجات الطائفة بدلا من الانزواء في فردية الصوفيين المتطرفين . وعلى هذا النحو أصبحت شعبية بسرعة فائقة : اصبحت الزوايا في المناطق التي كانت تفلت من هيمنة السلطة المركزية ، مراكز تجمع ؛ واعتاد السكان مكافأة هذا الاعتناء وكذلك تعليم الاولاد بهبات وهدايا (زيارة) . وعندما تجسد الخطر الايبيري اصبحت الزوايا مراكز حربية للدفاع أي رباط ومن هنا اسم حركة المرابطين الذي كثيراً ما يطلق على هذا النوع من التعبئة الشعبية خارج كوادر الدولة . ولم تكن الحركة في البداية موجهة ابداً ضد السلطة المركزية لكن هذه السلطة لم تستطع ، اذ كانت ضعيفة جداً ، لا الحاقها بها ولا السيطرة عليها . وكان الشريفيون في النهاية هم الذين تولوا قيادتها . وفي الحقيقة كان منهجها الداخلي (دور الاستاذ الرفيع ، قدرات فائقة الحد تتوج التقوى ، مفهوم علم خفي) يجعلها ضعيفة الحجة ازاء الادعاءات ، المؤيدة للحكم الشرعي ؛ ولكن اذا كان يجب على حركة المرابطة ان تنتهي الى التقارب مع الحركة الشريفية الا انها على الاقل حافظت على سمات نوعية ، تهذيبية ولامركزية . وثمة رجلان كانا رمزاً للحركتين : الجازولي [1] ، المتوفي عام ١٤٦٥ — ٨٧٠ والذي

---

(١) مقال : الجازولي في E. I. ، ٢ والمراجع . ولا سيما محمد المهدي الفاسي ، ممتع ، طباعة حجرية ، فاس ١٨٩٥ / ١٣١٣ .

ساعدت تعاليمه على تنسيق حملة ضارية ضد الذين كانوا يقاومون تجارياً او سياسياً مع البرتغاليين في سهول الأطلنطي [1] ، كان الاستاذ الروحي لجميع الزوايا اللاحقة ؛ وقبل محمد السعدي المتحدر من الشرفاء القادمين من الحجاز في منتصف القرن الثالث عشر والذين أقاموا في سوس ، بأن يقود الحرب ضد البرتغاليين انفسهم في الجنوب ومن اجل هذا العمل اقام على مقربة من تارودانت متخذاً لقب القائم بأمر الله ذا الرجع الشيعي الواضح . ومنذ البداية حاول ان يتطابق مع الحركة الجازولية المعادية للبرتغاليين ، فأرسل في عام ١٥١١ ولديه الى فاس للحصول على الاذن بجمع الوحدات العسكرية من اجل الحرب ، وفي عام ١٥١٢ – ٩١٨ استقر في افوغال Afughal زاوية الجازولي القديمة . ووافته المنية عام ١٥١٧ – ٩٢٣ الا ان ولديه احمد الاعرج ومحمد المهدي توصلا بفضل الدعاية الجازولية المكثفة الى التخلص بضربة تلو الضربة من يحيى بن تعفوت Ta'fuft حليف البرتغاليين ومن امير مرّاكش الهنتاتي . وفي عام ١٥٢٩ اصبح نصف المغرب الاقصى الجنوبي ملكاً لهم فاقتسماه واستقر احدهما في مرّاكش والآخر في تارودانت . وقد اوحت هذه الانتصارات بالشكوك للوطاسيين في فاس ، فأدت الى نشوب الحرب في عام ١٥٢٦ لكن العلماء تدخلوا [2] وتم الاعتراف بالاستقلال الذاتي لمملكة مراكش . واذا بحادث حاسم يقع عندئذ فيجعل الكفة تميل نهائياً لصالح السعديين . ذلك ان ثمـة مراكب انجليزية كانت منذ سنوات خلت ، تأتي فترسو على شواطيء سوس بقصد تحطيم الاحتكار المفروض من جانب البرتغاليين وحدهم على التجارة الافريقية . وفي عام ١٥٤١ [3] حصل محمد المهدي من الانجليز على مدفعية وهاجم في الحال قلعة

---

(١) يمكن التساؤل فيما اذا لم يكن قرار الاحتلال الفعلي لصافي safi وأزمور Azemmour بعد حقبة طويلة من الحماية ، يعزى الى حدة هذه الحملة . فان الاحتلال الفعلي كان سيطابق عندئذ لضعف موقع البرتغال السياسي .

(٢) امر ذو دلالة يدل على وجود رأي عام قادر على تفشيل طموحات السلالات الحاكمة . فان زمن السياسة الخلدونية قد انتهى .

(٣) انظر ت . س . ويلان T. s. Willan في كتابه studies in Elizabethan : Foreign trade مانشستر ، المطبعة المتحدة ١٩٥٩ . كانت المراكب الخاصة بالانجليز وبالهولنديين وحتى بالمهرّبين البرتغال تنطلق من انفرس ؛ وترجع الرحلة الاولى التي تكلمت عنها وثائق مكتوبة ، الى عام ١٥٥١ .

سانتا كروز santa-Cruze واستولى عليها : اول نصر على البرتغال كانت نتيجته غير المتوقعة بالتأكيد اخلاء جميع النقاط المحتلة في اقل من عشر سنين باستثناء سوته وطنجة ومازاغان mazagan التي احتفظ بها لاسباب مالية [1] . وخرج النفوذ السعدي من هذا الامر عظيماً ؛ فنودي بمحمد المهدي الذي تغلب ، اثناء ذلك على اخيه ، سلطاناً على مرّاكش عام ١٥٤٥ – ٩٥١ واصبح الطريق الى فاس حراً . لكنّ الحكم السعدي كان منذ البداية يتعلق بعناصر ثلاثة – تجارة خارجية (انجلترا وفيما بعد البلدان الواطئة) دعم الزوايا السياسي ، الحمية الوطنية أو الدينية [2] – التي كان يمكنها عند الحاجة ان تتعارض . فقد كان حتماً على سياسة اسرة حاكمة مركزية ، تعتمد على الاجنبي ، غير مكترثة بصورة جد واضحة ، بتحرير المدن التي يحتلها الايبيريون ، ان تعمل على خلق معارضة قوية .

ب – قادة مرتزقة اتراك وحكم عثماني

قبل ان يصبح غرب البحر الابيض المتوسط رهان عراك مريربين الامبراطوريتين العالميتين في القرن السادس عشر : العثمانية والاسبانية ، وصل الى المغرب المفكك مغامرون تابعون للسلطة التركية يبحثون عن امارات . استقر احدهم وهو عروج Aruj، وكان قد عرف بمساعدته للمسلمين الاندلسيين ضحايا محاكم التفتيش ، عام ١٥١٤ في جيجلي Jijélli ؛ وبفضل الكفاح الذي قاده ضد المراكب الاسبانية ، اكتسب نفوذاً عظيماً لدى السكان ولا سيما عند الزعماء الدينيين . وإذ رأت مدينة الجزائر فيه احتمالا للتخلص من الوصاية الاسبانية استنجدت به . وبسرعة فائقة وطد فيها مكانته وعمل على المناداة به سلطاناً رغم معارضة الزعماء التقليديين وهزم الاسبان الذين كانوا يريدون اجلاءه عنها واستولى بسهولة على ميليانا miliana وميديا medea وتينيس Tenes . وثارت تلمسان بدورها بألامير الزيّاني وقدمت نفسها اليه في عام

---

(١) راجع في الأسباب العميقة للانحدار البرتغالي ، د. لوبيز D.Lopez: « البرتغال في مراكش » ، مجلة التاريخ الحديث أغسطس – سبتمبر (آب – ايلول) ١٩٣٩ ص. ص ٣٣٧ – ٣٦٨ . يفضل هـ. تيراس أن يدافع مرة أخرى عن « الاحتلال الضيق » .

(٢) من أجل تفسير قومي لحركة المرابطين أنظر محمد حجي ، « فكرة الأمة في مراكش في القرنين السادس عشر والسابع عشر » في الملزمة الأولى من: Hesperis.vol IX لعام ١٩٦٨ ص١٠٩ وما يليها .

١٥١٧ . لكن ابو حموّ الثالث ، عند هذا الحد ضم قواه الى قوى الاسبان في اوران Oran ومضى يحاصره ؛ وفي نهاية الامر هزم عروج Aruj وقتل عام ١٥١٨–٩٢٤ لقد اخفقت هذه المحاولة الفردية اذن لكن العثمانيين كانوا في ذلك التاريخ قد صاروا في مصر وسيطروا على شرق البحر الابيض المتوسط كله وتطلعوا نحو الغرب . فتلقى اخو عروج Aruj خير الدين الى جانب لقب باشا بايلرباي Beylerbey ، مدفعية وجيشاً قوامه ستة آلاف رجل من السلطان سليم . بهذه القوة كان يستطيع محاربة الاسبان وحلفاءهم . وشيئاً فشيئاً احتل الشمال الجزائري ثم هاجم في عام ١٥٢٩ بنون Penon فاستولى عليها وعمل في الحال على البدء ببناء ميناء الجزائر . ثم اغتنم فرصة اندلاع ثورة ضد الحسن الحفصي للتدخل في المملكة المجاورة والدخول الى تونس دون عقبات (١٥٣٤ – ٩٤١) [١] .

في ذلك التاريخ يرى المرء بوضوح ان السلطتين الجديدتين قد نمتا وفقاً لسياق واحد : جيش جديد او اجنبي يستخدم سلاحاً جديداً هو المدفعية ، يحارب الايبيريين المحتلين ، ولكن قبل كل شيء يحارب حلفاءهم . والطموح المعبر عنه بوضوح لاعادة بناء وحدة البلاد قد رفضه بعنف أولئك الذين استغلوا تفكك الدولة . ووجد الاتراك والشرفاء معارضة عظيمة في المدن المتمتعة الى حد ما بالاستقـــلال الذاتي (مرّاكش ، فاس ، الجزائر ، تلمسان) وبين الزعماء المحليين الذين استلزموا مواصلة الاعطيات التي اكتسبوها بالدبلوماسية أو بالقوة . والاّ فانهم على استعداد لدعم الامراء االمخلوعين ، من حفصيين وزيانيين ووطاسيين ، بحجة الاخلاص لوريثي الحكم من ملوكهم [٢] . وكان الرؤساء الدينيون المنظمون في الزوايا هم الذين سيساعدون السلطات الجديدة على الغلبة على الرغم من العقبات الجدية ، عاملين على اثارة نفوذ الشريفي او العثماني . ففي مواجهة الهجوم الايبيري كانت هناك استجابتان ، كما قلنا ، لكن الفارق ليس جغرافياً قبل كل شيء ، فهو يفصل بين صفويتين : زعماء الزوايا من جهة والزعماء المحليين المستقلين ذاتياً من جانب آخر ،

---

(١) إن التاريخ المعطى في النصوص العربية هو ١٥٢٩ / ٩٣٦ . وتسلسل الأحداث غير دقيق ، دقة كافية . أنظر رواية مجهولة المؤلف في مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، ٢ ، لعام ١٩٦٧ .

(٢) أنظر في هذا الموضوع ملاحظة ابن أبي ضياف المصدر السابق ، ٢ ص ٢١ .

وكل من الفريقين يحاول تغيير بنية المجتمع المفتت . ولكن اذا كان الاوائل قد وجدوا مرتعاً خصباً في غرب المغرب فان حركة البّنّين في الشرق على المنوال الهلاليّ كانت جارية منذ أكثر من ثلاثة قرون خلت . ان هذا الفارق الاجتماعي هو الذي دوّن جغرافياً ، فاصلا افريقية بمعناها الواسع ذات الخاصة الهلالية الغالبة عن المغرب الغربي ذي الخاصة الاخوية الدينية الغالبة . وفي غضون اربعين عاماً ، ستأخذ أنظمة من التحالفات والتحالفات المضادة المختلفة بالتطابق في المغرب ؛ وفي المبارزة التركية — الاسبانية الكبرى سوف تكون الأسر الحاكمة والزوايا والسلطات المحلية وفقاً للظروف مع هذا المعسكر او ذاك . فان مصير المغرب سوف ينسج بالتأكيد في مكان آخر حيث سيحدد نظام آخر هو نظام اوربي نهاية المجابهة ، ولكن عندما ستكون الطموحات الايبرية قد تحطمت نهائياً امام تونس وامام القصر ، فان الفارق البنيوي ، الذي تحدثنا عنه ، هو الذي يصبح محسوساً من جديد والذي يكيّف السلطات الجديدة .

٢ — سلطتان ؟

كانت احداث نصف القرن (١٥٣٤ — ١٥٧٨) ذات اهمية على مستوى البحر الابيض المتوسط ، بل في ذلك الزمن ، عالمية ، كانت اسبابها في مكان آخر ولسنا نكشف في المغرب الا نتائجها [١] . فليس من الضروري اذن تناولها هنا بالتفصيل . لنكتف بالقول فحسب ان الاسبان بذلوا جهدين عظيمين : مرة اولى فيما بين عام ١٥٣٤ وعام ١٥٤١ والمرة الثانية فيما بين عام ١٥٦٠ وعام ١٥٧١ . فقد كانت عاقبة انتصارات شارل الخامس في تونس (١٥٣٥) وفي تلمسان (١٥٤٣) — اما الهجوم على الجزائر عام ١٥٤١ فكان مصيره الفشل — ارجاع سلالتي الامارتين الحفصية (حسن) والزيانية (محمد السادس) الى الحكم وانما في ظروف سيئة الى حد ان الاهالي دعوا بأقصى امانيهم لانتقام تركي ؛ وهذه الانتصارات خدمت كذلك

---

(١) راجع مؤلف ف. بروديل F.Braudel الأساسي : البحر الأبيض المتوسط وعالم البحر الأبيض المتوسط في حكم فيليب الثاني ، أ. كولان ، ١٩٤٩ ، ولاسيما ص. ص ٧٢٣ — ٧٦٠ ، ٩٦٣ — ٩٨٤ .

السلطة السعدية الجديدة : فلم يعد الوطاسي يأمل بعون مباشر من الاتراك ، الذين استنجد بهم في عام ١٥٤٨ بعد المناداة بمحمد المهدي سلطاناً في المغرب الاقصى . وقد عمل هذا السلطان ، مدعوماً بالجازوليين على غزو الشمال ودخل فاس عام ١٥٤٩ واتجه الى تلمسان فحاصرها . ولم يكن في وسع هذا التطور الا ن يكون من وجهة نظر الاسبان ، مؤاتياً اذ كان من الافضل وجود احد الشرفاء كخصم للاتراك في الغرب الجزائري يتمتع بنفوذ ما زال سليما، بدلا من عاهل فاقد الاعتبار ، ومن هنا قيام نوع من التحالف الضمني بين السعديين والاسبان [1] . وكان الاتراك ، وهم في وضع سيء ويستبقيهم سلطان القسطنطينية يحاولون على الاخص الصمود . وفي تونس اغتنموا فرص الاستياء الشعبي فساعدوا احمد للتمرد على ابيه ؛ وفي عام ١٥٥٦ استولى درغوت على قفصا Gafsa ، سالكاً مرة اخرى طريق عروج 'Aruj ودخل الى القيروان بعد سنتين . وفي الغرب تدخلوا لصالح ابو حسون الوطّاسي الذي أقاموه في فاس عام ١٥٥٣ ، مستفيدين من ضعف الجيش السعدي الجديد الحربي (انكسار عام ١٥٥١ بسبب نقص المدفعية والتكتيك السيء) . الا ان ضعف موقفهم في ذلك التاريخ بدا في كون السعدي كان قادراً على استرداد فاس بعد عام وفي ان يعود لتطويق تلمسان وان نائب الباي ، حسن كورسو لم يستطع التخلص منه الا باللجوء الى الاغتيال في عام ١٥٥٧ . وفي غضون هذه الحقبة كلها كانت السياسية التركية في المغرب تقرر في القسطنطينية ، ويحس المرء بأن مسرح العمليات الرئيسي هو في مكان آخر . ولم تظهر علائم سياسة هجومية عثمانية معينة الا عندما سمي أولوج علي [2] Uluj-Ali بايلرباي في الجزائر . وفي ذلك التاريخ كانت تلمسان قد صارت تحت ادارة حاكم تركي ؛ وفي عام ١٥٦٩ كان احمد الثالث قد طرد من تونس واستبدل بالقائد رمضان ، ساعد البايلرباي الايمن . وقام الاسبان بعد نصر ليبانت Lepent (١٥٧١) بمحاولة اخيرة لاسترداد تونس والمحافظة عليها ؛

---

(١) كان هذا التقارب في المصالح يجعل التحالف ضرورياً تقريباً حتى إذا لم يكن في الوسع من الجانبين التعبير عنه باتفاقات مكتوبة .

(٢) يدون الاسم في العربية بتنوع حتى في المخطوطات القديمة ؛ « في الكثرة الغالبة نجد علوج وعلج بمعنى مرتد عن الدين .

واجاب الاتراك بحملة على نطاق واسع ، وفي عام ١٥٧٤ بقيت عاصمة افريقية نهائياً في ايديهم . واستدار أولوج علي عندئذ ضد السعدي عبد الله الغالب الذي لم يكف منذ تسنمه سدة الحكم عن مفاوضة الاسبان في اوران (وهران) Oran لتنظيم هجوم مشترك على تلمسان . وعليه كانت الفرص مؤاتية في ذلك التاريخ ذلك ان الغالب كان قد قضى نحبه تاركاً العرش لابنه محمد وكان اخوا الملك المتوفى ، المنفيان ، عبد المالك واحمد ، يخدمان منذ زمن طويل في الجيش العثماني.فقرر البايلرباي Beylrpey مساعدتهما لاستلام السلطة . وهكذا وصلت الحملة بسهولة الى ابواب فاس ومنذ المناوشات الاولى استسلم جيش محمد واستقر عبد المالك (عام ١٥٧٦) سلطاناً تابعاً للقسطنطينية . لكن هذا الخضوع لم يثبت لامتحان الزمن اذ أن الجزائر كانت قد أخذت تفكر في اجتياح المغرب الاقصى عندما استسلم الإيبريون مرة أخرى لحلمهم في حرب صليبية . وبعد ان حاول محمد السعدي المخلوع عبثاً كسب فيليب الثاني الى جانب قضيته وافلح في اقناع سبستيان sebastian ملك البرتغال الشاب ، في اعداد حملة كبيرة . باديء ذي بدء تسامح عبد المالك على تحويل الخطر لكن سبستيان المتهوس أصر على حربه ؛ فحدث اللقاء الى الجنوب من ارزيلا Arzilla ؛ وكان جيش الاحتلال عديداً ويملك وسائل عظيمة الا ان عبد المالك نجح في كسب دعم الجازوليين الذين وُفّقوا الى تعبئة الرأي العام بسرعة فائقة . ولقد انتهت المعركة (١٥٧٨) بنصر عظيم للجيش المراكشي ، على الرغم من ان عبد المالك لقي حتفه في ساحة المعركة فحل مكانه في الحال اخوه احمد [١] . وبفضل هذا النجاح نجا المغرب الاقصى نهائياً ليس فحسب من الاطماع الايبيرية بل ومن اطماع اتراك الجزائر كذلك الذين عدلوا عن خططهم في الفتح . والتوازن المقام على هذا النحو سوف لا يتغير . وسوف لا يبقى من الجهد الايبيري العظيم الا ميادين أوران ومرسى الكبير ومليلاّ بين ايدي الاسبان ؛ وسوتا وطنجة ومازاغان في ايدي البرتغاليين . وسوف يستمر المغرب الاقصى في حدوده الحالية ، خارج فلك الاتراك في مواصلة طريقه

---

(١) قارن ا. و. بويل E. W. Boivll في
The Battle of Alcazar, Londres, Batchworth, P. éd. 1952.

المستقل ؛ وبعد عام ١٥٨٧ أضحت الجزائر وطرابلس وتونس مراكز الولايات الثلاثة وعلى رأس كل واحدة منها باشا باي ليرباي . فقد روهن إذن على مصير المغرب في البحر الابيض المتوسط ، الذي لم يعد يبقى له حتى منفذ اليه ؛ لكن البحر الابيض المتوسط كان في ذلك الزمن ، كما يقول بروديل Braudel قد تخلى عنه التاريخ . والمسألة المطلوب طرحها في موضوع هذه الاحداث التاريخية والاحداث التي تلتها هي : بأي شيء تتعلق بالمغرب ؟ وبماذا يدين لها المغرب ببعض من سماته البنيوية؟ ذلك اننا اذا كتفينا بتلخيص نتاج التاريخ الرسمي او الاجنبي فاننا نصل الى سلسلة من الاثباتات المتناقضة : لا استقرارية سياسية مرعبة وكثرة سكان مدينيين ملفتة للنظر ؛ اهمية دبلوماسية وعسكرية لعاهلي المغرب الثلاثة وركود اقتصادي واجتماعي ؛ فمن جانب نشاهد نمواً ثقافياً وفنياً وتجزيئاً للمجتمع ؛ ومن جانب آخر تتأكد عودة عامة للازدهار ، كما يتجلى تخلف تاريخي . فكيف لتوضيح هذه التناقضات ؟ ذلك اننا نخلط مرة اخرى بين دولة ومجتمع ، موانيء وداخل البلاد واننا نهمل الآثار التي خلفها انحطاط القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ولا شك في انه قد وجدت منذئذ سلطتان في المغرب : سلطة شريفية في الغرب ؛ وسلطة تركية في الشرق . ولكن بدلاً من التوسع في هذه الثنائية الجغرافية ــ السياسية ، وهي هزيلة التوضيح ، كان من الأفضل اظهار تلك الثنائية التي لم تكف منذ القرن الثالث عشر عن تحديد المغرب والتي تضع الدولة في معارضة المجتمع اذ أنها تبلغ حينئذ تمام وضوحها . فثمة نظامـــان اقتصاديان ، مجتمعان جزئيان ، سلطتان سياسيتان تجهل احداهما الاخرى وتقتتلان في غالب الاحيان . فاذا نحن غضضنا النظر عن الدول ــ المدن ، المأهولة من الاجانب الذين يعيشون على القرصنة والتجارة والذين تهتم بهم وحدهم الاخبار ، وعن الجبال المعلقة على نفسها على الدوام تقريباً والتي تظل الحياة فيها بالنسبة لنا غامضة في اكثر جوانبها ، فان الفعل التاريخي تتقلص الى تنافس لا يتوقف بين جيش وسلطات محلية .

ثمة دول ــ مدن تنظمت في الجزائر وفي تونس وبدرجة أقل في تطوان وساليه وكانت من جميع وجهات النظر تشكل جزءاً من دائرة البحر الابيض المتوسط بالمعنى

الواسع . لم تكن فحسب جامعة لاجناس مختلفة ، تدار بصورة مستقلة ذاتياً ، لكن المصدر الرئيسي لمواردها ، وهو القرصنة ، كانت ظاهرة تتجاوز الى حد بعيد المسألية المغربية [1] . انه عمل المرتدين الذين يجعلون منه مهنة : فعقده القرصنة نفسها تأتي من الخارج ، وتجري تصفية حساب المغانم لصالح الوسطاء الاجانب انفسهم بصورة خاصة . ولا تهتم بالتجارة الناتجة عنهم الا أقلية ضئيلة وتفيد اوربا وحدها ؛ وتكاد العلاقات الدبلوماسية الناجمة عن ذلك لا تستحق هذا الاسم [2] . ويمكن اعتبار هذا التاريخ كله كأنه ذو فائدة محلية صرفة وبلا تأثير طويل المدى .

ومع ذلك يبقى جيش ذو بنية جديدة ، كأن الشيء الجديد العظيم في مغرب ذلك العصر ، كان قبل كل شيء أجنبياً ، مؤلف من متطوعين اتراك ، يصار الى تجنيدهم من وقت الى آخر من بلاد الاناضول ومنظم على اسس ديموقراطية وهو الجيش الذي سوف يستولي على السلطة مباشرة قبيل نهاية القرن بانتزاع اي حربة في القرار من الباشا ممثل سلطان القسطنطينية . ولولم يكن هذا الجيش هيئة احتلال الا انه يشكل مجتمعاً مقفلا كان تاريخه الداخلي (دسائس واغتيالات) قليل الاهمية في التطور المغربي اذا نظر اليه بصورة اجمالية . والأمر نفسه في المملكة السعدية : فقد كان قلب جيش المنصور (الذي فتح السودان) مؤلفاً من المرتدين المعتقين ، من الاندلسيين والاتراك والزواوا Zwawa . وقد فرض هذا الجيش نفسه على دول ــ المدن وعلى السكان الافريقيين في آن واحد ، وان فيه لتلخص المبادلات بين النظامين الاقتصاديين والاجتماعيين . فالحوب التي تجبى باسم ضريبة تُقايض بأسلحة وبعدة قرصنة التي تستعمل لتنمية القرصنة؛ وهذه القرصنة بدورها تتيح زيادة السكان الارقاء الذين يعملون في الحقول حول المدن بانتظار استرداد حريتهم . ولكن هذا الجيش ، كما انه يصطدم بالقوى الاجنبية في الخارج ، يصطدم بالسلطات المحلية في الداخل ،

---

(١) من المؤسف أن كتاب ب. هوباك P.Hubac : البربر ، باريس ١٩٤٩ ، المثير غالباً ، يأخذ أحياناً ، مظهر العمل الأدبي ، إلا أن الفكرة الرئيسية بأن القرصنة هي أوربية، ناشئة عن أزمة الجنوب المختنق بالدول القوميـــة الكبرى ، فكـرة صحيحة. أنظر كذلك ج. فيشر المصـــدر السابـق ص ١٣٩ .

(٢) يرجع المصير الذي أسند لهذه الصلات ، وهو في حاصل الأمر متواضع جداً ، إلى أيديولوجية «الحقوق التاريخية » للقرن التاسع عشر .

وهذا الضعف في تكوينه يجعل من الدولة التي يخدمها كدعامة اساسية ، بنية سلبية بصورة خاصة ومحافظة .

في وسط المغرب وشرقه كانت العلاقات بين الباشا ممثل السلطان العثمـــاني ، رئيس الطائفة التي يتكلم باسم قباطنة سفن القرصنة والداي المنتخب من قبل الميليشيا موضع اهتمام كبير ، على حين كانت المنازعات بين الداي والباي bey ، ذي الصلات الوثيقة بالسكان الريفيين ، تمر بلا ذكر . والأمر يمكنه ان يبرر بالنسبة للجزائر التي اتجهت نهائياً ناحية البحر ولا يستطيع المرء أن يأمل بالحصول على فكرة عن المجتمع غير التركي الا بالانعكاف على الحكايات المحلية في قسطنطينة واورانيا اللتين تظل قسماتهما الرئيسية هي قسمات افريقية الغربية بالنسبة لاحداهما وقسمات مملكة تلمسان القديمة بالنسبة للاخرى . وعلى الرغم من ادخال فرقة ادارية جديدة فان الخط الفاصـــل الاجتماعي ــ التاريخي الممتد على طول خط التنصيف الجزائري ، لم يمح ويمكن ، لاول تخمين ، اعتبار ان كلاً من الوصفين المختلفين اللذين كانا في ذلك العصر راجحين في افريقية وفي المغرب السعدي ، كان صحيحاً بالنسبة لكل شطر من شطري المغرب الاوسط [١] .

كان الحدث التاريخي الاساسي في افريقية القديمة في آخر القرن السادس عشر وفي السابع عشر هو النزاع المستمر الذي وضع الدايات في مواجهة البايات ؛ ولو أن الامريغي اتراكاً في الحالتين فان المعارضة تخفي في الحقيقة جهد الزعماء المحليين لفرض انفسهم ضد السلطة المركزية المستولى عليها من قبل الجيش (اوجاق) العثماني. هؤلاء الزعماء كان معظمهم مؤيداً للحفصيين ، وبالتالي مؤيدين للاسبان ، وعلى عكس سكان العاصمة لم يعانوا كثيراً من قطاعات العسكرية الايبيرية (نهب عام ١٥٣٥) . وبالنصر التركي وجدوا انفسهم في وضع سيء ؛ فقد استطاعت الادارة التركية الجديدة ، مدعومة بزعماء الدين في البلاد ان تثأر بسهولة ، وكان رمضان بك

---

(١) نستطيع أن نعثر في تاريخ تلمسان وقسنطنطين المحلي فقط على عناصر من أجل فهم بنية المغرب الأوسط الاجتماعية .

الشهير توفي عام ١٦١٣) هو الذي قاتل بشراسة في عهد الداي عثمان عيوخ أبي الليل واولاد حمزة واولاد سعيد ... وحتّى سكان الجبال كالأمدون les Amdun .
لكن الباي في هذا النزاع الشرس بالذات ادرك قوة الابتزاز التي كان يمتلكها بازاء الداي والميليشيا التركية فعمل خليفة رمضان معتوق مراد على ان يمنح لقب الباشا الفخري واسس سلالة البايوية . وببساطة اصبح الداي مدير العاصمة والميليشيا التركية وبدل جيش الباي نفسه بنيته ، ما دام قد أخذ يندمج أكثر فأكثر بالعناصر المحلية .
وفي المنازعات التي جعلت اعضاء الاسرة المرادية بعد عام ١٦٥٧ يعارضون بعض دايات تونس والجزائر ، يحس المرء بوضوح ارادة الاتراك في استرداد هيمنتهم في الدولة وبارادة الزعماء المحليين في استخدام هذه الازمات المستمرة للعمل على الاعتراف بامتيازاتهم [١] . وبلغ التناقض ذروته في عهد الباي مراد الثالث ، الذي عمل على هدم منازل سكان القيروان الثائرين وفي عهد خليفته السفاح ابراهيم الشريف الذي كان باياً وداياً في آن واحد والذي كان يريد اقتلاع نمط الحياة « العربية » من البلاد [٢] عندئذ أخلص السكان نهائياً لمشايخ الطوائف المحلية الذين هم مرتبطون على الأقل بأخلاق مشتركة تقليدية . فالتطور انتهى على هذا النحو ؛ إذ تأصلت البنية الهلالية من بعد ؛ واصبح الزعماء المرتزقة القدامى ممثلين معتمدين من الاهالي ، وكان استبدادهم – يحتمل أكثر – بما لا يقاس من طغيان الجنود الاتراك الذين لا ضابط لهم . ولا شك في انه لم يكن في الوسع اسقاط سلطة هؤلاء الجنود ، الا أنها اهتزت بنفوذ محلي . ومرة اخرى بدلت البنية الهلالية معناها وكان عجز النظام الجديد عن ان « يصبح قومياً » هو الذي اظهر هذا التطور وليس العكس كما نعني ذلك غالب الاحيان . ولسوف تستخلص سلالة الحسينيين البايوية النتائج وتتوصل الى طريقة للتعايش modus Vivendi مع تلك القوى المحلية المعترف بها من جديد .

كان الامر يجري على هذا المنوال ، بشكل ظاهر في المغرب الغربي . فقد كانت السلطة السعدية تتعلق في جزء كبير منها بجيش جديد كان يتطلب مالية مجهزة وبالتالي نظاماً ضرائبياً منظماً وعاماً ، والحال انه كان يوجد نظام ضرائبي للمرابطين من قبل

---

(١) ابن ابي ضياف : المصدر السابق ، ٢ ، ص. ص ٤٧ و ٥٩ .
(٢) نفس المصدر السابق .

كان يستخدم في افتداء الاسرى وفي تمويل الحرب ضد الايبيريين . كان هناك اذن ومنذ البداية سببٌ للاحتكاك: لقد رفض الجبل اي ضرائبية جديدة وعثر في الزوايا على دعم فعّال . فلم يستطع محمد الشيخ ان يفتح الاطلس بكامله الذي خضع فيما مضى للهنتاتي . وفي عام ١٥٤٧ عمل على استقدام زعماء الزوايا الى مراكش وعمل على قتلهم . الا ان عبد الله الغالب ، الضعيف والواقع تحت تهديد الاتراك لم تكن له الطموحات نفسها واعتمد على بعض الزعماء معترفاً لهم بمورد من الامتيازات وبذلك أقامهم ضد الآخرين . الا ان ثمة تسوية حصلت في عهد احمد المنصور بفضل مصادفة ملائمة للغاية ؛ ذلك ان انتصار القصر (وادي المخازن كما يسميها رواة الاخبار العرب) قد رسخ التحالف بين حركة المرابطين والسلالة السعدية بسهولة فائقة الى حد ان المسألة المالية سويت مؤقتاً : وامكن تجهيز الجيش بفضل العتاد الهام الذي وقع بين ايدي المراكشيين والانفاق عليه بفضل الفديات الهامة التي دفعها نبلاء البرتغاليين العديدين الذين سقطوا اسرى . ولقد قامت سياسة المنصور كلها (١٥٧٨ — ١٦٠٣) على ايجاد وسائل لتمويل نفقاته ، المستقلة عن المجتمع وبالتالي غير قابلة لايحاء الشكوك للسلطات المحلية . صارت تجارة قصب السكر المعصور في الجينيوس Ingenios شيشاوا shishawa والمؤجر للتجار الانجليز موضوع احتكار مطبق بدقة ، ابقى السكان المراكشيين بعيدين عنها [1] . ونظر إلى فكرة العهد العظيمة ، فتح السودان ، الذي شرع به على الرغم من المعارضة الجماعية التي ابداها العلماء حينئذ [2] ، في البداية فقط ، بمنظار المالية والسلب : حقوق على مناجم ومراقبة على مناجم الذهب [3] وعلى هذا المنوال لم يكن لمشاريع التحالف الكبرى ضد الاسبان مع اليزابيت انجلترا، من فائدة في ذهن المنصور الا في النطاق الذي كانت تتيح فيه تامين الاسلحة والاعانات المالية دون الاضطرار مباشرة الى تنفيذ الالتزامات المناطة به في الانفاق وهذا ما يفسر

---

(١) أنظر دراسة ب. برتيه P.berthier الموثقة : مصانع السكر القديمة في مراكش ، الرباط ، ١٩٦٦ ص. ص ٢٢١ — ٢٦٥ .

(٢) فشتالي (مختصر) مناهل الصفا ، تطوان ، ط أ. غنون ، ١٩٦٤ ص ٦٥ . وثمة نصوص لم تنشر بعد تقدم بياناً أشد عنفاً .

(٣) فشتالي ، المصدر السابق ص ٥٥ .

الاتهام بسوء النية والبخل الموجهة اليه من قبل سفراء ملكة انجلترا . وليس المقصود بتاتا العيب بمزايا المنصور الاكيدة الذي كان اول عاهل مراكشي وربما الوحيد قبل القرن العشرين الذي كانت لديه فكرة عن سياسة قومية حديثة ، ولا انكار الحقيقة في قوة وعظمة سعديين الذين لم يكن في الوسع ان تكون سراباً ، اذا ما نظر الى عدد تقارير الشهود المعاصرين الذين لم يكونوا جميعاً عمياً أو ساذجين [1] . ولكن اذا اردنا ادراك ما سوف يعقب عهد المنصور . من دون أن نقتصر على اللجوء للنفسانية فلا بد من ان نحفظ في ذاكرتنا أن اساس ذلك الثراء كان في مكان آخر وان تلك القوة كانت نتيجة تسوية مع السلطات المحلية . فلا شيء يظهر هذين الامرين افضل من السر الذي كان المنصور يحيط به مشاريعه . أكان هنالك كثير من الجواسيس الاسبان والاتراك الى حد اقتضى معه الأمر اختراع رقم [2] ؟ أم أنه كان من باب أولي يحذر زعماء الزوايا ؟ وعلى أية حال ما ان اصبحت الوسائل المستقلة لامداد المالية وتجهيز الجيش غير مؤمنة (السكر المراكشي لم يعد مطلوباً من انجلترا ، اذ صار ينافسه سكر البرازيل ؛ ولم يعد السودان يرسل ذهباً ؛ والتحالف المراكشي لم تبق له اهمية بعد ضعف الاتراك والاسبان في آن واحد) ، حتى اختفت الدولة كقصر من الورق ، على الرغم من الجهد الذي بذله المنصور لاعادة تنظيم الادارة على غرار الموحدين ، وقد وُسمت مع ذوق العصر باقتباسات عن الاتراك كاللباس والألعاب والمراسيم ... تصدع الجيش ولجأ الأولاد المرشحون لخلافته الى الاجانب (زيدان الى الاتراك والمأمون الى الاسبان) : فقسمت المملكة من جديد بين مراكش وفاس ووراء هذه المنازعات البخسة التي تذكر بمنازعات آخر المارينيين ، فان القوى المحلية هي التي كانت تستعيد تفوقها : الدول—المدن ، مثل تطوان وسالة التي كانت تتفاوض مباشرة مع الانجليز والهولنديين ، والمرتزقة كالعياشي (توفي عام ١٦٤١) اللذين

---

(١) قارن ا. وبوفل E.W.bovill في The Golden Trade of the moors, 1958 ص ١٨٠ الذي يستشهد برسالة للورانس مندوك ، تاجر إنجليزي عاش في مراكش عام ١٥٩٤ حيث يقول :

« This King is like to be the greatest prince in the world of money if he keeps thls country (the soudan) . »

(٢) فشتالي ، المصدر السابق ص. ص ١٦٠ — ١٦١ .

كانوا يقاتلون الايبيريين وعلى الاخص الزوايا واهمها زاوية ديلا قد اوشكت على إعادة بناء وحدة المغرب الاقصى على اساس مرابطي [1] . وهذه السرعة في انبثاق السلطات المحلية تدل وان كانت لم تختف في زمن المنصور نفسه على انها قد قبلت فحسب تسوية مع السلالة لمصلحة الكفاح ضد الايبيريين .

هكذا لم تتأكد الدولة في شرق المغرب شأنها في غربه ، في عهد الاتراك شأنها في عهد الاشراف ، الا اذا كانت مستقلة عن المجتمع ولم تثبت الا بالاعتراف بشرعية السلطات المحلية ، ففي هذه الحالة او تلك ليست الا ظلا لنفسها ، ليست متأصلة حقيقة في الارض المغربية . هذه الدولة التي كانت لاول نظرة ، تدخل مستحدثات كثيرة لم تكن في بنيتها الاساسية سوى صورة منجزة لدولة القرنين الثالث عشر والرابع عشر . الا ان كون المرابطين في حالة والهلاليين في اخرى ، هم الذين نازعوا الدولة شرعيتها لم تكن بلا عواقب ؛ فثمة تمييز في داخل الغرب كان يبتدي على هذا النحو .

— ٣ —

أكان في الوسع ان يكون الامر على غير ذلك ؟ الذين يطرحون هذا السؤال ينزعون منه مباشرة أية مصلحة طواء باقتضائهم ان يكون للمغاربة موهبة البصيرة الخارقة (التكهن بما كانت استبدادية اليزابيت الاولى أو هنري الرابع سوف تتكشف عنه) ، او بأن ينسب لهم نقص بسيكولوجي مستعص (بلادة وفقدان الفضول) [2].

لنكتف بالتحقق من امرين : احدهما متعلق بالتقنية والآخر بمستوى الحياة وبالثقافة . لقد جاء اللاجئون الاندلسيون — كما قيل لنا ، الى تونس في مطلع القرن السابع عشر فأقطعهم الداي العثماني ارضاً ؛ بنوا مدناً وادخلوا طرائق جديدة في الزراعة وشقوا طرقاً لاستخدام العجلات (الكاريتا Karita) التي كانوا هـم

---

(١) دراسة محمد حجي الزاوية الديلائية ، الرباط ١٩٦٤ .

(٢) هـ. تيراس المصدر السابق ص ١٠٣ ؛ جان مونلاو Jean monlaù : دول البربر ، باريس ط P.U.F. ١٩٦٤ ص ١١٦ .

الوحيدين الذين استعملوها [1] . بيد أن جميع هذه « التجديدات » كانت معروفة من قرون خلت ؛ ولكنها ، وقد نُسيت ، لم يجر تبنيها من جديد . وابتداء من عام ١٥٤١ وعلى الاخص في عهد احمد المنصور [2] كان الانجليز يأتون الى سواحل سوس لشراء ملح البارود الذي لم يكن في وسعهم الاستغناء عنه ، إذ أن سر تركيبه الكيماوي المكتشف في المانيا قد حوفظ عليه جيداً . وبعد سنوات لم تعد انجلترا بحاجة له ، ولم يتقدم المراكشيون في صناعة البارود فحسب بل ونسوا ما سبق ان تعلموه كذلك كانت نتيجة صناعة السكر انها اختفت تماماً مع اختفاء الدولة السعدية . فاذا كانت مسألة التقدم التقني تحتفظ بحق ببعض الغموض فان مسألة التقهقر والنسيان بحاجة كذلك الى ان توضح ، وفي الحالتين ان بنية السلطة السياسية هي التي تلعب الدور الحاسم أكثر من الاحتكاك مع الاجنبي أو سذاجة الافراد . ففي الحالة التي تشغلنا كان في وسع التقدم كل لحظة أن يوطد السلطات المحلية (تسلح ، على التجارة ، الخ) ، وبالتالي ان ينال من الـ « دولة » ؛ كان اذاً محاصراً ، وعلى نفس المنوال فان تقوية تلك السلطات سواء أكانت من المرابطين أو من « قباتلية » لم يكن يعني مزيداً من الاستقلال في مفاقمة للبؤس وللبوار . على العكس كان الاستقلال الذاتي ازاء المدن وسلطة مركزية كما كان الاعتراف بسلطة قريبة يفضيان الى نزعة في المساواة ابوية وإلى « تعميم » للثقافة . ذلك ان الثقافة الاسلامية بعد الانحطاط العميق في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، قد دخلت الى كل مكان في ذلك العصر ، حتى الى المناطق الجبلية بطريق المدارس الريفية والزوايا . فان تجربة الجميع لم تكن تتيح البتة اعتبار مركزية السلطة كشرط للتقدم الاجتماعي او الثقافي ، ذي ضخامة للحقوق . على ان هذه الثقافة التي هي ثمرة حضارة مدنية كانت كثيرة التنوّع بالنسبة للمجتمع الذي كان بصدد تمثلها ؛ فكثير من عناصرها لم يكن يتجاوب مع ضرورة داخلية . فقد كانت القسطنطينية ومراكش الموحدتين تشكلان افق الحاكمين الاتراك والسعديين

---

(١) أنظر كذلك ابن أبي ضياف المصدر السابق ، ٢ ص ١٢ حول المدافع المجهزة على العجلة المستخدمة من قبل خير الدين في الهجوم على القيروان .

(٢) مختار السوسي ، سوس العالمة تعد ٢٠٠٠ مدرسة من أجل مقاطعة سوس وحدها .

وكانت ثقافة القرن الثالث عشر تمثل الطموح الامثل لناس القرن السادس عشر والسابع عشر . فهل كان يمكن ان يكون المقصود اكتشاف متى كان التعليم ثانية قد صار تقدماً ؟ وسكان المدن الداخلية (فاس ، تلمسان ، قيروان ...) الذين كانوا لا يملكون أية وسيلة للمشاركة في الحياة البحرية ، كان عليهم ان يبحثوا عن ردو اجتماعي جديد بالاندماج بحركة الـ « تثقيف » تلك بواسطة الزوايا [1] . وكان ذلك هنا الاساس الموضوعي للـ « سنة » ، وليس عمه الحاكمين أو انعدام الفضول لدى السكان .

(١) هذا هو المدلول الذي يحسن منحه لنمو التصوف المديني (فاس ، ساليه ، تلمسان) ، ولتكوين الأسر المرابطة الكبرى مثل القاريين والفاسيين والناصريين . والمقصود دور إجتماعي جديد لنخبة لم يعد لا في وسع الإدارة ولا التجارة القيام به ، ولكن كان ذلك أيضاً نشاطاً منحرفاً وعقيماً لمدة طويلة .

١٢ ـ في الانتظار

في الحقبة المقابلة اجمالا للقرن الثامن عشر كانت الوقائع البارزة هي التالية : المصدر الرئيسي لموارد الدول ـ المدن وهو القرصنة قد نضب وقاد الى ضعف الاستقلال الذاتي المديني ، الانتاج الزراعي لم يزدد بشكل ظاهر ولا سيما في الجزء الغربي من المغرب ؛ النزاع بين سلطة مركزية وسلطات محلية لم يعرف التوقف ؛ التجارة البحرية بقيت على حالها بل ونمت ، ولكن دائماً تحت هيمنة الاجانب ومفيدة في المقام الاول للاقلية الحاكمة وقد استمرت في انها لا تلعب دور الموحد للمجتمع ؛ وهكذا حل تسرب اوربا الاقتصادي شيئاً فشيئاً محل التهديد العسكري . غير ان مناطق المغرب المختلفة لم يكن رد فعلها من نمط واحد على هذا التطور المشترك : فان التباين قد تحدد .

١ ـ البايوية الحسينية

لقد مال التنظيم ببطء في آن واحد نحو الاستقرار ونحو « الطابع القومي » الذي اتخذ شكل العودة الى التقليد الحفصي . .

بعد عام ١٧١١ اتخذ نظام الحكم مظهر المملكة الوراثية الا انه لم يتبنَّ بوضوح مبدأ البكورية الذي لم يكن مع ذلك مبدأ السلالة العثمانية والولاة . كانت السلطة نظرياً مطلقة في يد الباي ولكنها لم تعد تركية الا بصفة جزئية . فالجيش الذي يفيده كركن رئيسي مؤلف من ثلاثة عناصر : **الانكشاريون** وهم دائماً يستجلبون من تركية ؛ **المخازنية** ـ ma Khazniya ، وهم مشكلون من عناصر محلية يكونون نوعاً من

الدرك ؛ واخيراً **المازاركية** mazarqiya وهم السوقات العسكرية الذين يجندون من الاهالي في حالة الحاجة . ومع ان الهيمنة التركية بقيت أكيدة على المستوى العالي ، الا اننا نلاحظ الاتجاه الى الاندماج في العنصر المحلي لا سيما التونسي ولا يفتأ هذا التطور أن يتأكد طوال القرن . وإذ يفقد الانكشاريون هيمنتهم فانهم سوف يتمردون في عهود البايات : علي باشا عام ١٧٤٣ وحمودة الثاني ومحمود إلا أن حسين الثاني سوف يشتتهم . ويكون التطور اكثر وضوحاً كذلك في نطاق الادارة . ذلك ان حمودة الثاني يأخذ في نهاية القرن الثامن عشر عدداً معيناً من المستشارين يشكلون نوعاً من الحكومة ؛ وتعود وظائف الوزير ورئيس الديوان ومأمور الضرائب الى الظهور مع الالقاب الحفصية ، وكانت اللغة العربية عندئذ هي التي عادت تأخذ المقام الاول بين الطبقة الحاكمة على الاقل من اجل الادارة الداخلية . وهذا التصالح مع العنصر المحلي المديني يساعد في تفسير حركة الاستعمار الداخلية التي لا يمكن انكارها ؛ إذ أن الامارات المستقلة ذاتياً في وسط البلاد التونسية قد ابتلعت ؛ ودفعت البداوة اكثر فأكثر باتجاه الجنوب .

ان هذه **النهضة الحفصية** هي التي تفسر الجانب الأكبر من العلاقات مع دايات الجزائر . فمنذ القرن السابق كان هؤلاء الدايات ينظرون بعين غير راضية الى ضعف دور الدايات في تونس الذي كان يعني بالنسبة لهم نهاية احادية الحكم التركي . ومن اجل منع تحول النظام ، واصلوا التدخل مقتنصين فرصة كل نزاع عائلي . وعليه فانه لامر ذو مغزى أن تغيّر التدخلات اتجاهها مع الزمن . فقد ساعدت الجزائر بادىء ذي بدء علياً ، حفيد حسين الاول ، الذي ثار عندما فضل عليه الباي ، الذي سماه ولياً للعهد ، إبنه الذي رزقه من بعد والذي لم يكن يرتجيه . وبفضل مساعدة الداي ابراهيم (١٧٣٢ — ١٧٤٥) انتصر علي ، وفي عام ١٧٣٥ — ١١٤٨ استقر في تونس ، معاهداً على دفع الجزية للجزائر . وكما يحدث غالباً ، في حالات مماثلة ، فان الاتفاق لم يدم ، وفي عام ١٧٤٦ — ١١٥٩ بدأت الجزائر في دعم اولاد حسين الاول الذين لم يكفوا ، وقد لجأوا الى قسطنطينة ، عن التآمر . الا انه كان عليهم ان ينتظروا الى عام ١٧٥٥ قبل ان يكسبوا القضية ويستردوا عرش ابيهم ، ولكن اتجاه

المجابهات تغير بعد هذا التاريخ . فان اصل الازمة في عهد حمودة الثاني اصبح سياسة هذا الباي التوسعية الذي ، بعد ان استرد جزيرة جربا . تدخل في طرابلس ، قبل ان يهاجم قسطنطينة .

وقبل ذلك في عهد علي باشا يحس المرء تنافساً حقيقياً بين بايَيّ تونس وقسطنطينة من أجل تأمين تبعية سكان الحدود . هذه الحوادث جميعها اذا ما وصفت في منظورنا تبدو انها بالتأكيد توضح تجديداً حفصياً بطيئاً لكنه محقق ، كان سببه الاساسي تقارب سلطة الباي مع النخبة التونسية التقليدية . يلاحظ الاتجاه نفسه في التحول البطيء للعلاقات مع البلدان الاوربية حيث يتناقص طابع القرصنة الغالب عليها وتتزايد التجارة . وقد كانت تونس تحتفظ ببحرية حربية لا يستهان بها كانت تشارك في الاعمال الحربية التي تباشرها تركيا ، لكن الازمات الكبرى التي جعلت البايات يعارضون فرنسا والبندقية لم تكن اسبابها مسائل القرصنة وانما خلافات في الطباع التجارية . فان الباي علي باشا هاجم في عام ١٧٤٠ المنشآت الفرنسية كما هاجم المنشآت الجنوية ليمنع الروابط التجارية المباشرة مع سكان الجوار من ان تتقوى [1] . كذلك عمل الباي حمودة على مهاجمة مراكب البندقية (١٧٨٤) لان البندقية رفضت تعويض التجار التونسيين الذين صودرت بضائعهم المنقولة تحت علمهم في مالطة . ولم تُستأنف القرصنة الا في اثناء الحروب النابليونية عندما بدأت البلدان الاوربية ذلك . وعلى عكس ذلك كانت الطبقة الحاكمة . بايات ووزراء ، اتراك وغير اتراك مهتمة على نطاق واسع طوال القرن الثامن عشر بالتجارة البحرية غير المشروعة تماماً كما كانت تفعل النخبة فيما مضى في امارة الحفصيين . ومن عام ١٧١٠ إلى ١٧٢٨ تم التفاوض على سلسلة طويلة من الاتفاقات مع اهم دول العصر وتوبعت فيما بعد . وكما هي الحال دائماً كانت هذه التجارة تتناول بصورة خاصة القمح والزيت للتصدير ومنتجات كمالية ونصفه للاستيراد ، واخذ إشراف الفرنسيين يتزايد عليها ، الذين بدأوا من وكالتهم التجارية في رأس بون bon (١٧٨١) يقومون بالاتجار على طول السواحل التونسية . ذلك ان الانجليز لم يصبحوا منافسين جديّين للفرنسيين الا في مطلع القرن التاسع عشر ، اذ كانوا بحاجة للقمح التونسي فأفادوا من تفوقهم في البحر

(١) قارن ابن أبي ضياف ، المصدر السابق ٢ ، ص ١٢٤ .

الابيض المتوسط لتأمين تموين جبل طارق . وقد وصفت هذه التجارة النخبة من سكان المدن المرتبطة بالادارة البايوية beylicale على علاقة مع الاحنبي وشجعتها في هذا الاستعمار الداخلي الذي نحن بصدده .

كذلك نلاحظ النهضة الحفصية على الصعيدين الثقافي والفنيّ . واذ اغتنى البايات بل وحتّى الوزراء مثل يوسف **صاحب الطابة** sahib at - taba شيدوا الجوامع والمدارس وامكنة للبرّ . وهو امر ذو مغزى بليغ : عندما بنى الباي حمودة **قصر دار الباي** ، فانه لم يدع الطراز التركي يبهره لكنه عمل على احياء التقاليد المعمارية الاندلسية . وسواء استعان بصناع مراكشيين كما يقال ، ام لا ، إلا أن معنى الاختيار واضح : هو محاولة الربط مع الماضي المحلي ، ولا شك في اننا لا نشاهد اي تجديد في الثقافة المعطاة في المدارس الجديدة ، في الحسينية او في **النخلة** ، ولكن اذا كنا لا نزال نذكر التفكك الكامل في مطلع القرن السادس عشر الذي لم تصاحبه حركة المرابطين شأنها في غرب المغرب فاننا لا نستطيع الا ان نرى في هذا الاحياء الا كاعداد لنهضة كامنة [1] . والخلاصة ان تونس القرن الثامن عشر استقرت على الرغم من ازمات الخلافة في الحكم ومن تدخلات دايات الجزائر ؛ والمقصود حقبة من الازدهار على اساس ثراء اقل ولكن بامكانية للنمو اكبر إذ أن الطبقة الحاكمة التي اسعف من بعد مع بقائها مرتبطة بتجارة البحر الابيض المتوسط بدأت تنظر الى الداخل . وهذا التطور يظهر توازناً معيناً مع تطور مصر ؛ فقد كانت تونس الأولى في شق الطريق ثم استلهمت استبدادية محمد علي المستنيرة . كذلك فان هذا التطور هو ما جعلها تستقبل الافكار الاصلاحية الاولى التي ظهرت في بعض الاوساط العثمانية في مطلع القرن التاسع عشر . واذا كانت تونس تلك الايام نظرت باتجاه الشرق بدلا من اتجاهها نحو جيرانها الغربيين فلعل ذلك لانها سبق لها ان عرفت « اصلاحا » كان قد اتاح لها ان تتجاوز بسرعة مرحلة الـ « اصلاح التقليدي » . ودون ان يكون من الممكن تأكيد ذلك بصورة حازمة ، إذ أن تلك الحقبة لم تحلل بعد بعمق . فلربما

---

(١) أحد مؤشرات عودة الأزدهار الثقافي هو رفض الأيديولوجية الوهابية بخلاف فاس حيث كان رد الفعل على الأقل مخففاً . قارن ابن ابي ضياف المصدر السابق ٣ ، ص. ص ٦٤ — ٧٥ ؛ زياني ، الترجمانة ... ، الرباط ، ط . ا . فلالي ، ١٩٦٧ ص. ص ٣٩٦ — ٤٠٢ .

لا يكون جسارة اذا فكرنا بأن العودة الى الكوادر الحفصية في عهد الباي حمودة ، بعد تطور القرنين السابقين البطيء . كانت اول مؤشر لقومية تونسية حديثة .

٢ ـ نظام الدايات في الجزائر .

في الآداب الرحبة المتعلقة بالجزائر في القرن الثامن عشر تركز اهتمام الشهود على الدولة ـ المدينة ، ونظامها السياسي ـ الاقتصادي وحياتها القروية وصلاتها الخارجية وفي عالم تسيطر عليه الملكيات المطلقة كان نظام الاوليغارشية العسكرية يذهل بخاصياته ، ولكن بالنسبة للقارىء الذي يسعى الى الحصول على نظرة اجمالية فان هذا الادب لا يسعفه كثيراً اذ أنه يصف حياة الاقلية التركية وحياة حلفائها في التجارة او الادارة ؛ المور Maures المهاجرين من اسبانيا والاوربيين [١] . وكان اهم من هذا كثيراً تنظيم داخل البلاد إذ أنه استقر في ذلك العصر وسوف يبقى بلا تغير الى ما بعد الاحتلال الفرنسي بزمن طويل . ولقد كان الأمر الاساسي في القرن الثامن عشر هو الافقار المستمر لمدينة الجزائر وتوطيد السلطات المحلية المزامن له داخل البلاد وما من شيء يدل على ذلك افضل من الأهمية المتزايده التي يتخذها بايات قسطنطينة وبايات المغرب بالنسبة للداي . ومن وجوه عديدة تذكر الحروب بين بايات تونس وسلاطين مراكش بالمواجهات بين الزيريين والحماديين من جهة والمارينيين والزيانيين من جهة أخرى ، لشدة ما كان الاستقلال الذاتي السياسي الذي يتمتع به البايات ، في المغرب الاوسط ، قابلاً للتمييز . وقد أدرك ، أقدر دايات ذلك العصر ، محمد بن عثمان (١٧٦٦ ـ ١٧٩١) ، جيداً ، معنى هذا التطور ، وحاول أن يأخذ المبادرة ليتحول الى ملك للجزائر لكن عزلة الجزائر والاقلية التركية كانت أشد عمقاً وطالت أكثر مما يسمح للمحاولة بفرص النجاح [٢] . وكان البايات ، وعلى الاخص باي

---

(١) لقد شغل تنظيم مدينة الجزائر بال الأجانب كثيراً، لا شك لأن سيطره نظام الملكية المطلقة في ذلك العصر كان يضفي عليها وجهاً من مخلفات الماضي ، ولقد قورن الداي بملك بولونيا ، بستاثودر Stathouder ، يسابا زمني ... (قارن ج. فيشر المصدر السابق ص ٣٣٠) . ولكن فيما وراء الوصف الصوري ، نعرف شيئاً قليلا عن الحياة الواقعية في مدينة الجزائر ، لأنها لم تدرس من الداخل في أية لحظة .

(٢) قارن بتفسير ت. ا. مدني القومي في : محمد عثمان باشا ، الجزائر ١٩٣٧ / ١٣٥٦ .

قسطنطينة يستمدون قوتهم من صلاتهم المباشرة بزعماء السكان . ولا شك في أن معظم القادة وهم أعضاء الأوجاق القدامى كانوا من الاتراك ، سماهم الباي باقتراح من الآغا ، آمر الميليشيا المحلية ، لكن سلطتهم لم يكن في الوسع ممارستها حقيقة الا بموافقة المشايخ . وفي الحدود نفسها التي كان الموظفون الاتراك يحرصون فيها على ممارسة حياة هادئة فان نفوذ الزعماء المحليين هو الذي كان يتوطد سنة بعد اخرى . وفي اطار التقسيم الاقليمي للأوطان كان هؤلاء الزعماء هم الذين يرأسون توزيع الاراضي ويجبون الضرائب ويحافظون على الأمن . فان تاريخاً محلياً مجدداً سيكون في وسعه ، وحده ، وصف مختلف الاساليب لاكتساب ذلك النفوذ الذي اضطر الاتراك الى الاعتراف به : ولاول نظرة يبدو ان تجمعات المغرب الجديدة كانت تقوم على اساس مرابطيّ ، بعكس تجمعات الشرق التي كانت تستند باديء ذي بدء على المقدرة العسكرية والغنى . لكن النفوذ الديني والمقدرة الاقتصادية التي كانت تتحول الى قدرة حماية كانا موجودين حينما كان بدرجات مختلفة وبما أنه كانت هناك مشابهة بين التطور الاجتماعي في تونس وبايوية قسطنطينة من جانب وبين الشمال المراكشي واورانيا من الجانب الآخر فقد توصل النمطان من التجمع المحلي الى نضجهما التام في المغرب الاوسط وذلك بصفة جوهرية بسبب ضعف السلطة المركزية وعزيمتها . واستطاع السلاطين العلويون من حصر الزوايا ان لم يكن تحطيمها ونجح بايات تونس المتحالفون مع النخبة في المدن في تحديد استقلال التجمعات المحلية الذاتي بدفعها نحو الجنوب ولم يكن في وسع اتراك الجزائر ، دايات كانوا ام بايات ، أن يفعلوا في ذلك نفس الفعل . كانت ثنائية السلطات اذن لا تتوقف عن الازدياد ، حتى في الجيش ، فلم تعد الميليشيا التركية تتجدد بنفس القدر من السهولة كما كان يجري الامر سابقاً ؛ وهبط العدد بسرعة (٤٠٠٠ في مطلع القرن التاسع عشر بالنسبة الى حد أعلى هو عشرون ألفاً في مطلع القرن السابق) . ومع ان تواتر المناوبة كان سريعاً فانه لم يعد هناك مايكفي من الرجال لشغل جميع الحاميات واملاء المراكز الادارية في نفس الوقت . فالمولدون (Kureughli) الذين لم يحصلوا ابداً على مساواة مع ذوي الاصل التركي ، تمكنوا عندئذ من تسنم المراكز الثانوية ، ولكن هذا الامتياز بذاته كان يضعف النفوذ التركي . كذلك رأت القوى الاضافية دورها

يعظم نسبياً: فالمخازنية ، المستقرون على اراضي الدولة الواقعة حول النقاط الستراتيجة ، وواجب عليهم الخدمة العسكرية ، ثم الوحدات المسلحة ، المجندة من قبل القادة وحكام القبائل المستقلين ومن الجنوب عند الاقتضاء . وهذه القوى الاضافية كانت أقل من ان تقوم مقام الميليشيا التركية ولكن بالنسبة لنا فان تغيّر العلاقات بين العنصرين هو الذي يقام له الوزن ؛ فرمز السلطة التركية وهو الجيش ، كان يفقد بصورة جلية من مقدرته على الاقناع . ولذلك فان الدبلوماسية في الصلات بين الاتراك والسكان الاصليين أخذت تحل شيئاً فشيئاً مكان القوة . وكان هذا التغيير على قدر من الضرورة بحيث لم يعد في الوسع تأمين الاستقلال الاقتصادي لمدينة الجزائر .

كانت دولة المدينة تعيش على القرصنة والتجارة . يحتفظ الداي بخمس الغنائم ، المعتبرة كغنيمة حرب ، ويستلم فدية السجناء والاتاوات المدفوعة من قبل الدول التي وقعت معاهدات [1] . وتناقصت هذه الموارد باستمرار طوال القرن : لم تكن السفن تتمتع فحسب بحماية أفضل بل ان القرصنة الاوربية وازنت على مدى واسع قرصنة الجزائر الى حد أن الأمر اخذ يعني أكثر فأكثر تبادل السجناء بدلاً من افتداء الاسرى [2] . ولم تعرض التجارة بتاتاً هذا الانحطاط في القرصنة : فقد ظلت رسوم الجمارك وفوائد الامتيازات ضعيفة . وباستثناء تجارة القمح الضروري لتموين الجنوب الاوربي ، الذي كثيراً ما يكون في نقص ، فان المنتجات الاخرى لم تعد تجد الا طلباً ضعيفاً . فافتقرت الجزائر وخلت من السكان ، وراح أمر الأقلية التركية يتوقف حينئذ أكثر فأكثر على استقلال الداخل . فان عشر منتجات الارض والزكاة على الماشية وايجار اراضي المخزن makhzen ورسوم التوظيف على جميع المستويات والغرامات وفرض الضرائب الشاذة (اللازمة) على السكان المستقلين في الجنوب وعلى القبائل ، راحت تجمع بصورة تزداد دقة وانتظاماً . وعلى الرغم من عرض القوة الذي يرافق كلاً من الرتلين السنويين (mahalla) فان نتيجة الجولات كانت تتعلق بخطوة البايات والحظوة تتعلق بالعلاقات الطيبة مع الزعماء المحليين ، اذ أن لهؤلاء الزعماء ،

---

(١) ننسى أغلب الأحيان أن نذكر بأن هذه الأتاوات كانت الوضع المخالف للاحتكار التجاري ؛ فان التوسع في أيديولوجية التبادل الحر هو الذي جعل ينظر إليها بتمييز .

(٢) كان اتراك الجزائر يرفضون افتداء غير الأتراك؛ وقد افتدى محمد الثالث كثيراً من الأسرى الجزائريين راجع ابن عثمان ، الأكسير ... ، ص ١٦٥ .

سواء أكانوا مرابطين ام لا ، ضريبتهم الخاصة . فالسياسة التركية صـــارت اذن مناقضة ، اذ من جهة كان تعاون الزعماء المحليين ضماناً للسلام وبجولة مُجزية من الضرائب ، ولكن من جهة أخرى كان استخدام القوة يدفع هؤلاء الزعماء انفسهم الى قيادة الثورات الشعبية لئلا يفقدوا اعتبارهم تماماً في نظر اتباعهم .

هكذا نشأ توازن آخذ في التقلقل أكثر فأكثر وهو على المدى الطويل يعمل على حساب النفوذ التركي. ومن قبل في عهد الداي ابن عثمان ثارت القبائل وفازوا بنجاحات عظيمة ؛ وفي نهاية القرن بدأت الانتفاضات الكبرى في غرب وفي شمال قسطنطينة ؛ وما ان هدأت فترة ، في اثناء الحروب النابليونية ، لأن القرصنة كانت تعاني تجديداً ، حتى عادت ابتداء من عام ١٨١٠ وسوف لا تعود الى التوقف حتى الهجوم الفرنسي في عام ١٨٣٠ بالتأكيد تدخل المراكشيون والتونسيون ولكن باستدعاء من الزعماء المحليين الذين يرتبطون بهم تقليدياً سواء في اطار الجمعيات الدينية (الدراقوة les Darqawa) او بسبب مخالفات دائمة كتحالفات الهنانيشا Hananisha حول قسطنطينة مع الشابيّ Shabbi في جنوب – غرب تونس . ولم تسفر محاولة الجزائر المتأخرة في في ان تصبح عاصمة المغرب الاوسط بعد خرابها من حيث كانت دولة – مدينة ، عن نتيجة الا انها رفعت من قامة الزعماء الجدد الذين سوف يشتهر اعقابهم في محاربة الفرنسيين في القرن التالي . فلماذا دامت هذه الثنائية في السلطات ، المزعزعة كثيراً طيلة هذا الزمن ؟ ثمة سبب من الاسباب وعلى الارجح انه الموجب اكثر من سائرها ، كان دوام الخطر الاجنبي ولا سيما الاسباني . وقد يبدو لنا هذا الخطر الآن هزيلا ، لكنه لم يكن كذلك في نظر المعاصرين وهوما اتاح للاتراك كسب دعم الزعماء الدينيين الذين لم يكونوا جميعهم يباركون الثورات الريفية [1] . كانت القرصنة تُقدم دائماً على شكل من اشكال الحرب ويُنظر الى الغرامات المدفوعة من مختلف البلدان (الولايات المتحدة الامريكية ، هولاندا ، البرتغال ، البلدان الاسكندينافية) **كأنها جزية** . ولكن الحرب مع اسبانيا بخاصة لم تكن تتعطل ابداً . فقد تم الاستيلاء على وهران ومرسى

---

(١) إن اسلام المدن ، اسلام الفقهاء كان ملائماً بصفة عامة للسلطة أياً كانت ؛ فلا ينبغي اذن المبالغـة بأهمية نتاج مؤرخي مدينة الجزائر الموالي للاتراك .

الكبير عام ١٧٠٨ بعد حصار طويل سهلته الفوضى السياسية في اسبانيا الممزقة بالحروب وكان لزاماً على سلالة البوربون الجديدة ان تثأر لماحقها من عار : ارسل فيليب الخامس حملة مظفرة في عام ١٧٣٢ . ولم يمهل الزمن مدينة وهران لكي تعمر من جديد ؛ ومع ذلك استمرت الحرب . ففي عام ١٧٧٥ وقعت حملة أوريلي الشهيرة على الجزائر والتي كانت نكبة ؛ وفي عامي ١٧٨٣ و ١٧٨٤ قصف الاسطول الاسباني الجزائر . وكان بايات الغرب وبايات قسطنطينة والقبائل واحياناً المراكشيون كما كان الأمر في ابان الدفاع عن وهران عام ١٧٣٢ يرسلون وحدات من الجنود . فالامر يعني اذن تعبئة عامة لم يكن من شأنها الا ان توطد الخطوة التركية [١] . ولكن بالجلاء النهائي عن وهران (١٧٩٢) التي اصبحت عاصمة للبابوية الغربية في العام الثاني ، فان الخطر الاجنبي تلاشى خصوصاً وان الدولة التي كانت ، في آن واحد لاسباب دينية وسلالية ، ستحل مكان اسبانيا ، وهي فرنسا كان الدايات ينظرون اليها كحليفة بسبب علاقات تجارية ثابتة ومربحة . وفي مطلع القرن التاسع عشر اخذ طابع العداوة والضعف والانعزال في سلطة الدايات يصبح واضحاً . وكانت الاقلية التركية ، التي تعيش في اناء مقفل تهتم بداخل البلاد ولكنها لا تنظم فيها الا وجوداً عسكرياً في خدمة نظام ضرائبي تتزايد وطأته . فسياسته الارتكاز على زعماء الجمعيات وبناء الجوامع كان هدفها التسكين وليس الرغبة في التزيين . وهذا العجز عن الامتزاج بالسكان المحليين كان يدفع الميليشيا الى التشبث بالقرصنة حتى عندما اصبح مردودها لم يعد يعوض التعقيدات الدولية التي صارت تجلبها . وما من شيء يظهر ضعف سلطة الدايات الملازم لنشأتها افضل من هذا الالتزام في نفس الوقت بمجابهة الثورات في الداخل وتهديدات الدول في الخارج : وهذه الحالة كانت معروفة لدى دول اوربا التي كان لها جواسيسها منذ سنوات بطريقة ثابتة او عابرة . وكانت فكرة استبدال اقلية أجنبية بأخرى مألوفة لدى الاسبان ولا شك كذلك لدى حلفائهم الافرنسيين . ومنذ ذلك الوقت فما هو العجيب في الأمر ان تكون سلطة الدايات ، المثل الاكمل على التفرغ الثنائي بين الدولة والمجتمع في المغرب ، الاولى في الانهيار ؟

---

(١) قارن الحكاية المتعلقة بالداي محمد (احمد) خليفة الداي إبراهيم الذي كان يجيب ، في كل مرة كان يطلب منه مهاجمة تونس : لنهاجم قبل كل شيء أوران (وهران) ... (راجع ابن ابي ضياف المصدر السابق ٢ ص ١٤٦ .

٣ ــ السلطة العلوية

في غضون الشطر الاكبر من القرن السابع عشر عرف المغرب الاقصى عصراً من التجزئة الى امارات مستقلة استقلالاً ذاتياً . الا أنها حالة لم يقبل بها احد ؛ كل انسان اراد أن يعيد بناء الوحدة لحسابه . وكانت هذه الوحدة الاقليمية والسياسية قد غدت مطلباً ، لكن الشكل الذي ينبغي أن تأخذه هو ما كان المشكلة : فلم يكن في وسع مركزية شديدة واستخدام القوة وحدها للوصول اليها ، اعطاء غير نتيجة مؤقتة ، كما برهنت على ذلك نهاية السعديين . فالامارات المستقلة ذاتياً كانت اما زوايا كزوايا الدلاع Dila او ابو حسّون الجازولي في الجنوب أو دول ــ مدن مثل مدينتي سالة وتطوان واما كذلك مناطق نفوذ أسسها قادة عسكريون مثل العياشي وملازمة وخليفته غيلان في الشمال واما اخيراً سلطة مشايخ هلاليين مثل الشبانات Shbanat في مرّاكش [1] وفي التفيلاليت كانت هذه السلطة المحلية وقفاً على اسرة من الشرفاء ، من ابناء عمومة السعديين والقادمين من الحجاز في مثل ظروفهم ، هم **العلويون** : وقد أتاحت لهم هذه الصفة الشريفية الدفاع عن انفسهم في وجه توسعية الدلاعيين dila'ites في الشمال والأبو حسون في الشرق الذين كان رئيسهم في حوالي عام ١٦٣١ الشريف علي بن يوسف . الا ان تأسيس الحكم العلوي لم يقم على اصل مرابطي مع ذلك كحكم السعديين. فاذا تركنا جانباً تفاصيل فتح المغرب الاقصى الذي حاوله اول مرة بدون نجاح محمد بن علي من عام ١٦٣٥ إلى عام ١٦٥٩ ثم شرع به بنجاح اخوه الرشيد من ١٦٦٦ إلى ١٦٧١ والذي يشبه في رأي رواة التاريخ جميع الفتوحات السابقة منذ فتح يوسف بن تاشفين ، فلا نملك الا ان نلاحظ ضعف الوسائل التي استخدمتها السلالات الحاكمة الجديدة [2] . ان المنافسين الجديين للرشيد بدوا كأنهم ينهارون من انفسهم ؛ والحال أن ضعف الدلاعيين dila'ites وغيلان والازمات التي لم تكف عن وضع سالة

---

(١) من الضروري أن نميز بين هذه السلطات المختلفة ، وهو ما لا يفعله أولئك الذين يتكلمون عن الفوضى المراكشية في القرن السابع عشر . وثمة عنصر مميز أساسي هو دور التجاره الخارجية في توطيد بعض تلك السلطات .

(٢) من أجل بدايات السلالة الحاكمة العلوية قارن احمد بن عبد العزيز العلوي ، الأنوار الحسنية ، ط أ. منلالي ، المطبعة الملكية ١٩٦٦ الذي كان مصدر نتاج جميع المؤرخين اللاحقين .

في مواجهة الدلاعيين dila'ites وفاس في مجابهة غيلان بدت ان سببها هو ضعف التجارة الانحليزية — الهولاندية التي هيمنت طيلة قرن على الساحة المراكشية ووطدت كثيراً السلطات المحلية بالدخول التي امدتها بها وبالاسلحة التي زودتها بها في آن واحد .

بالمقابل سهلت طموح الرشيد على نطاق واسع مشاريع تجارية افرنسية على السواحل الريفية التي لم تكن حينئذ الا في بدايتها وفي الوسع ان تتم مراقبتها بسهولة . وهــذا الانقاص المؤقت من التدخل الاجنبي يجب أن ينظر اليه بلاشك على أنه الشرط الرئيسي الذي يسّر اعادة توحيد البلاد المراكشية ؛ وقد اعتبر خلفاء الرشيد بذلك فأكدوا دائماً ان الرقابة على التجارة الخارجية كانت ضرورية لحفظ سلامة الاراضي الوطنية واياً ما كان السبب الحاسم في نجاح الرشيد ، عندما توفي في عام ١٦٧٢ في مراكش وقد أنجز مشروعه وخلفه اخوه اسماعيل ، فان الحكم الجديد لم يكن يدين بشيء لحركة المرابطين : انه يرجع الى قوة مسلحة وإلى خطوة دينية . بيد ان العنصرين سوف يأخذان في التطور باتجاهين متعاكسين . لسوف تميل القوة المعنوية خصوصاً الى ان تؤكد بأن الحاجة الى اللامركزية سوف يتزايد وضوحها ، على الرغم من ضعف الزوايا التي عبرت عنه فيما مضى . وحاول اسماعيل الذي حكم من ١٦٧٢ إلى ١٧٢٧ تعزيز النتائج التي حصل عليها اخوه : فحل ، مستغلاً تغيير سلالة الحكم ، بصورة جديدة مسألة ضعف السلطة المركزية في مواجهة السلطات المحلية . ويمكن تلخيص سياسة اسماعيل على النحو التالي : تشكيل جيش جديد ، هدم نفوذ الجمعيات وفرض نظام ضرائب باهض ؛ فكانت المحصلة السلبية لسياسة المنصور ، اذ أن الزوايا كانت قد فقدت حظوتها في القرن السابع عشر بمساواتها مع الاجانب واخفقت محاولة العمل على مد بيت المال من الموارد الخارجية في المغرب الاقصى . ولم يرفض اسماعيل تنظيم الجيش المراكشي القديم كله : استمر استخدام الوحدات الهلالية كأيام المارينيين ؛ كان الــ Ma'qil ، دعامة الاسرة الزيانية الحاكمة زمناً طويلاً ، وقد منعهم حاجز الاطلس فترة ثم استقروا منذئذ في سهول الاطلنطي ، هم الذين سوف يلعبون كميليشيا ، الدور نفسه الذي لعبه ابناء عمومتهم في عهد اواخر المارينيين ؛ واذ أقيموا على اراضي اميرية بصفتهم ملاكين أو مجرد منتفعين ، معفيين من الضرائب ، لكن

عليهم ان يؤدوا الخدمة العسكرية . فان المرتدين عن الدين قد استخدموا كذلك ولا سيما كجنود في المدفعية او ضباط في الهندسة ، لكن فكرة اسماعيل العظيمة ، المقتبسة ، بصورة غير مباشرة ، عن العثمانيين ، كانت في ان يكون له جيش لا يرتبط بأية مجموعة اجتماعية . بل يرتبط فقط بشخص العاهل بيمين الاخلاص وعليه نظرياً ان يكون الضمانة الحية لاستمرار الاسرة الحاكمة . والاسلوب الوحيد لتحقيق هذا المشروع في ذلك العصر كان في ان يستخدم عبيداً يؤدون يمـين الولاء للعاهل ومن هنا اسم عبيد البخاري بالاستناد الى الكتاب المختار لهذا . فقل عمل الملك العلوي بادىء الأمر في طلب العبيد الذين كان جيش المنصور استجلبهم من السودان بعد معركة عام ١٥٩١ ثم بالنظر الى أن عددهم كان غير كاف عمل على تجنيد جميع العبيد حتى أولئك الذين كانوا تابعين لافراد خاصين . فجمعوا في المحلّة على مقربة من سيدي سليمان ، وسرعان ما فصلوا عن ابنائهم ، الذين كانوا يذهبون الى مكناس ، لتعلم مهنة ثم يتدربون لادخالهم بسرعة في احد افواج الجيش . وقد اعطت الطريقة وهي في ذروتها عدداً يتراوح بين ثلاثين إلى خمسين الف جندي . وفيمـا وراء المشابهات البدهية بتنظيم الانكشارية فان كان المغزى الاساسي لهذه المحاولة الاعتراف غير المباشر بأنه لم يعد من الممكن الحصول على جيش مخلص ومجند من البلاد نفسها لفرط ما كان الانفصال بين الدولة والمجتمع عميقاً وظاهرة الجنسية المزدوجة منتشرة ، وانشيء من أجل تعهد هذا الجيش نظام للضرائب مرهق ومنفذ بلا رحمة . ولم يجر الاصرار على الضرائب المشروعة مثل العشر والزكاة فحسب بل ان النائلة ، وهي غرامة حرب بقصد تحرير الارض المحتلة من الاجانب ، أصبحت دائمة ، تدفع إما نقداً ، أو عيناً ، ولا سيما الغرامات غير المباشرة ، المعتبرة منذ الابد غير مشروعة (المكوس) فقد فرضت على التجارة الخارجية والداخلية . وعمل الجيش المعاد تنظيمه على جباية هذه الضرائب بانتظام أكبر . ولم تكن القوة مع ذلك هي الوحيدة المستخدمة ؛ كانت تستكمل احياناً بتبرير سياسي — ديني . فاستخدم النسب الشريف بديلاً للانتماء الى المرابطين كما ان نزعات رؤساء الزوايا الصوفية عورضت كما في أيام المارينيين بالتقليدية الشرعية . ثم تلقت حركة المرابطين ضربة حاسمة عندما صار على جميع الجمعيات ان يكون مركزها في فاس ، اذ كانت قوتها قبل كل شيء في عملها

اللامركزي ، وأكثر من ذلك عندما أخذ الجيش الجديد على عاتقه تنظيم حصار المواقع الواقعة في قبضة الاجانب . والنتيجة ـ اخلاء لاراس Larache والحلق al- Halq (المعمورة) من قبل الاسبان (١٦٨٠ و ١٦٨١) وطنجة من الانجليز (١٦٨٨) ـ كانت تتباين مع لا فعالية كفاحات المرابطين . كذلك كانت السياسة الشريفية تدفع السلطان احياناً الى مواقف عناد لا خلاص منها كما كان الحال في النزاع مع الاتراك. لا جرم ان هؤلاء كانوا قد دعموا الدلاعيين dila'its (ثورة احمد الدلاعي dila'i في عام ١٦٧٧) ، كما ساعدوا قبل عشر سنوات خلت قائد المرتزقة غيلان ، ولكن الطابع الخليفي في الحكم العلوي هو الذي كان يقتضي الحصول من الاجانب على الاقل على مساواة في التعامل بالنسبة لسلطات القسطنطينية : ومن هنا تجربة التحالف الفرنسي الذي لم يعط اية نتيجة ، ومن هنا الحملات العقيمة ضد تلمسان والحال ان هذه السياسة الدينية لم تكن الا مساعدة للسياسة العسكرية اي انها كانت في خدمة مركزية دقيقة في النفوذ [1] . وبهذه الوسائل نجح اسماعيل ، على الرغم من ثورات التنازع على الحكم والمحلية المثارة في وجهه من الاتراك ، في اعادة بناء « المغرب الاقصى التاريخي » . مغرب المارينيين . ومع ذلك فان هذه السياسية لم تقبل بالاجماع . وقد حاول السلطان عن وعي منه لهذه المعارضة تبرير سياسته مرات عديدة . وايا ما كانت الحوافز الشخصية لهذه المعارضة فانها كانت تعبر عن حقيقة : الحل الذي نادى به اسماعيل كاف ، بعد كل حساب نكبة . فبسعيه للحصول على العبيد وجه الى الزراعة ضربة قاسية في واحات الجنوب وحول المدن (ومن هنا معارضة فقهاء فاس الشديدة) ؛ وكان في وسع الزراعة ، الآخذة منذ زمن طويل في التدهور ، النهوض من جديد مع عودة السليم ؛ الا أن فقدان اليد العاملة من العبيد لم يسمح بذلك . وثمة نتيجة سلبية اخرى ذات طبيعة سياسية وهي ان الجمعيات الدينية كانت قد نشأت في حالة تفكك الدولة وكان دورها الرئيسي انقاذ وحدة اقليمية معينة ؛ وبتحطيمها كان

---

(١) نرى بوضوح تحالفاً بين اسماعيل وفقهاء فاس من أجل الكفاح ضد المرابطين ؛ فقد كانت تلك هي السياسة الوطاسية حينئذ ؛ إلا أن أياً من الفريقين لم يكن في وسعه أن يلعب اللعبة حتى النهاية إذ أن وضع النخبة في المدن الاقتصادي والاجتماعي لم يكن يسمح بذلك . قارن : « رسائل غير منشورة لاسماعيل » نشرت في Hesperis عدد خاص ١٩٦٢ ولاسيما رسالة رقم ١٠ .

اسماعيل يزيل كل عقبة من امام دمار الدولة الكامل في حالة ما سوف تفقد الدولة من جديد دعامتها الرئيسية ، اي دعم الجيش . وعليه فان الاستقلال الذاتي للجيش الجديد بالنسبة للمجتمع الذي كان ينظر اليه اسماعيل كضمانة لبقاء الدولة ، كان في وسعه عند الحاجة ان يؤدي الى النتيجة المعاكسة ، اذ ما دام العبيد غير مرتبطين بشخص، كان في وسعهم ان يخدموا كل من يدفع لهم وعلى هذا النحو فان كل ازمة في الجيش تصبح ازمة في الدولة . وهذا عين ما حصل بعد وفاة اسماعيل ؛ فالفعلان السياسيان الرئيسيان – انشاء جيش شخصي وتحطيم الزوايا – صارا السبب في فوضى ثلاثين عاماً ، وفيما وراء التغيرات الفجائية المؤلمة [1] التي عارضت اجزاء من الجيش باجزاء اخرى وعارضت الجيش بالسكان وبالعاهل (عبد الله بن اسماعيل) وهذا في مواجهة المنافسين ، فان السبب الاساسي لاخفاق السلطان العلوي كان عدم ملاءمة سياسية للمستوى الاقتصادي العام في البلاد . إذ لم يعد في وسعها دعم دولة كبيرة مركزية لم تعد من جهة اخرى تظهر الا كجسم طفيلي . وكان الافقار المتواصل يقتضي العودة الى لا مركزية معينة وكان ما تم التوصل اليه في نهاية المطاف حلا من هذا النوع .

اعطت احداث الحقبة الممتدة من ١٧٢٧ الى ١٧٥٧ والتي شهدت عزل السلطان عبد الله خمس مرات ، درساً لابنه محمد الثالث (١٧٥٧ – ١٧٩٠) . فأصلح الحكم العلوي على اساس جديد : فأخذ يركز اكثر فأكثر على صفته كزعيم ديني ؛ واعاد تنظيم الحكومة منطلقا من الاعتراف بالولاءات المحلية مكتفياً بتقليد الرئيس المختار أو المسنود من قبل الاهالي ؛ واعتمد لتكوين جيشه قبل كل شيء على افواج المجندين الذين تجهزهم الجماعات المستقرة في الا اضي الاميرية والمعفاة من الضرائب ؛ وجرّب فيما يتعلق بنظام الضرائب الزراعي ، الاستقلال عنه بتطوير التجارة بصورة تستطيع معها دخول الجمارك أن توفر الحد الادنى الضروري لسير الدولة . وعلى هذا النحو غيّر محمد الثالث عناصر المعادلة السياسية المغربية : فبدلا من امتلاك جيش قوي ، مستقل عن المجتمع بقصد زيادة الضرائب وتوطيد الدولة كما حاول جدّه ، اراد ان يكون له نظام ضرائبي مستقل لكي لا يبقى بحاجة الى جيش قوي . لقد كان لاهتمامه

---

(١) قارن ملاحظات ابن زيدان المفيدة : اتحاف آلام الناس ... ، الرباط ١٩٣٢ جـ ٤ ص ٤٧٥ وما يليها كخاتمة لسيرة السلطان عبد الله بن اسماعيل .

بالتجارة الذي استرعى الانتباه مراراً عديدة دوافع ضرائبية اساسية . ففي عام ١٧٥٧ وقع معاهدة مع الدانمارك (بلاد صغيرة لا تطلع كبيراً لها وبالتالي غير خطرة) كانت تكفل لها احتكار حركة الاتجار في ميناء صافي Safi ؛ وبعد ذلك إذ رأى اهمية تجارة تهريب البضائع ، المزدهرة دائماً على سواحل الجنوب ، فانه قرر تجميعها من اجل اشراف افضل عليها ، في ميناء واحد ، واختار لذلك موقع موغادور ، ليعمل بمساعدة مهندسين اجانب على بناء ميناء حديث حيث دعي قناصل الدول الكبرى الى اختيار مقر لهم . وابتداء من هذا التاريخ وحتى مطلع القرن العشرين فان الجزء الاعظم من موارد الدولة يتشكل من رسوم الجمارك التي كان ازدهارها بل وجودها نفسه متعلقاً هكذا مباشرة بتطور فعالية خاضعة بصفة اساسية للاجانب . وعليه كان محمد الثالث المهندس الحقيقي للمغرب « الحديث » ، المغرب الذي وصف في حكايات عديدة من القرنين التاسع عشر والعشرين وهذا الامر يشكل بذاته حكماً على عمله . وقد اخذ الحكم العلوي يستقر شيئاً فشيئاً ؛ وفقدت منازعات الاسر على الحكم والثورات المحلية حدتها ، تماماً من اجل طابع هذا الحكم الديني — المجرد — المتزايد .

حافظ محمد الثالث ، السلطان والخليفة والشريف على علاقات ودية مع شريف مكة ، متخلياً في نفس الوقت عن سياسة ابيه المعادية بعنف لتركيا . وبوصفه الحائز الوحيد على السلطة الروحية فقد عارض اية محاولة لاحياء حركة المرابطين [1] . ووجه احد خلفائه ، سليمان (١٧٩٢ — ١٨٢٢) فعاليات **الدراقوة** darqawa **والتجيانية** tijaniya باتجاه الخارج : اورانيا وافريقيا المغربية . وهذه السياسة وجدت نوعاً من التبرير وان كان غير مباشر ، في الحركة الاصلاحية ، التي ظهرت في القرن الثامن عشر في بلاد العرب ، الا وهي **الوهابية** ؛ ولولا معارضة بعض الفقهاء المالكيين وحملة الوهابيين العنيفة ضد شريف مكة كان محمد الثالث وسليمان قد عملا على تأسيسها [2]

---

(١) هناك نقطة ما زالت بعد غامضة ، لأنها لم تدرس بعد جدياً ، تتعلق بالعلاقات بين حركة المرابطين وسياق انتشار الاقطاع . أفلم يساعد تحطيم الأولى على وجود الثاني ؟ هذا ما يبدو أنه قد حدث في الـ le Haouz .

(٢) ومع ذلك فان زياني ، وهو عامل لدى هذين العاهلين ، ينتقد ذلك ؛ انه لصحيح بعد سقوطه امام جيش محمد علي عاهل مصر .

على الارجح . وقد رافق تعزيز نفوذ السلطة تنظيم للهيئة الحكومية؛ ومع انه حوفظ على اصلاحات سعدية معينة ، كان المقصود بلا مراء هو الرجوع الى **المخزن** المريني .

لقد بات الوزير ، مستشار السلطات الخاص وساعده الايمن يقوم بعدئذ بدور رئيس الحكومة : ان دوره الاساسي هو المحافظة على الاتصال بالسلطات المحلية ؛ وقادت الصلات التي أخذ تواترها يتزايد مع الخارج إلى تكوين ضرب من وزارة الشؤون الخارجية (وزير البحر لان المفاوضات كانت دائماً تدور حول القرصنة والتجارة) ؛ إلا أن اهم الابتكارات يتعلق بمصلحة الضرائب ، مع اعادة تنظيم مصلحة الواردات ومصلحة النفقات وتعميم نظام محاسبة أكثر دقة تحت مسؤولية **امين الأمناء** الذي يقود هيئة من الامناء يسمون في الموانىء وفي المدن الكبرى . وأبقى بالطبع على الوظائف القديمة مثل **الحاجب والكاتب وقاضي القضاة والمحتسب** . وكما في ايام المارينيين عادت المراكز السياسية او العسكرية الى شخصيات ذات انصار هامين في احدى مناطق المغرب الاقصى ؛ ومناصب المالية أو القضاء أسندت الى افراد من كبرى البيوتات التجارية في مدن الاندلس . وهذه الحكومة المركزية المنظمة من جديد لم تكن لها سلطة مباشرة على البلاد كلها ؛ فثمة لا مركزية واسعه كان يعترف بها وفي معظم الحالات تمثل تسمية احد القادة رئيساً لدائرة ما بتسوية بين ارادة السلطان وارادة الأهالي . وكانت للقائد نفسه سلطة مطلقة ؛ الامر الذي يفتح الباب الى جميع الطموحات حالما يتم اكتساب حد ادنى من الثروة والنفوذ . فهناك اذن سلّم في درجة اللامركزية التي تمتد من الموظف القابل للعزل الى الامير الحقيقي الذي يعترف بسيادة يسيرة ، وغير ثابتة هي الفوارق بين دائرة السيادة ودائرة الاقطاع ؛ وقد كانت جميع الظروف مؤاتية لنمو بطيء في الثانية على حساب الأولى ، ذلك ان وسائل هذه الحكومة من ايام محمد الثالث نفسه كانت محدودة . إذ لم يعد للعاهل الا نوع من البوليس المسلح معدّ لصيانة النظام الداخلي ؛ وقد استمرت فلول من الجيوش السابقة في الخدمة ولكن السلطات تزايد اعتمادها على فرق الجنود الواجب تقديمها من الجماعات المستقرة في الاراضي الاميرية وعلى الذين ترسلهم في المناسبات منطقة الحاووز Haouz [1] .

---

(١) لم نلق الأضواء بعد على سبب الهدوء النسبي لهذه المنطقة . فما من شيء يدل إلى أي مدى كان التاريخ المغربي سيء الدراسة إلا هذا الإبهام المتعلق مع ذلك بفترة من فتراته (حقبة محمد الثالث) التي كتب فيها أكثر من غيرها .

ولم تكن وقتية الموارد المالية تسمح بطموحات اكثر . وبمثل هذه الوسائل لم يكن في وسع النتائج الا ان تكون متواضعة ؛ ففي الداخل كان يطلب حد ادنى من الطاعة للسلطات المحلية ؛ وغالباً ما كانت تجري مفاوضات طويلة ضرورية لتجنب ثورات غير معروفة النتائج وغزوات مكلفة ومشكوك فيها مثل غزوات عام ١٧٦٤ وعام ١٧٨٧ ؛ وفي الخارج ، السعي وراء توازن غير ثابت بين متطلبات الدفاع عن البلاد كانت تمليه ايديولوجية الاشراف والرغبة في السلام ، معززة بتقييم موضوعي للحالة . ولقد حصّن محمد الثالث عدة موانىء . وفي عام ١٧٦٩ حاصر مازاغان mazagan ، آخر موقع يحتفظ به البرتغاليون فحرره ؛ كذلك حاصر مليلا عام ١٧٧٤ وحاصر خليفتة اليزيد سوته عام ١٧٩٠ ولكن دون نجاح في الحالتين . وعلى هامش هذه الاعمال الباسلة نتبين حكمة عظيمة مع ذلك . فقد قصف الفرنسيون لاراش وسالة عام ١٧٦٥ وساروا الى مصب لوكوس laukkos في العام التالي . ولم يمنع هذا محمد الثالث من توقيع معاهدة صداقة معهم في عام ١٧٦٧ . وتروي الوقائع اخبار المفاوضات العديدة التي اجراها هذا السلطان مع جميع الدول الاوربية والتي أفضت الى عديد من معاهدات الصداقة والتجارة ثم جددت مرات عديدة فيما بعد . كذلك سليمان ، اذ استفاد من مشقات الاتراك في اورانيا من اجل استرجاع اوجده عام ١٧٩٧ وتسمية حكام في المناطق الصحراوية التي تبعث مملكة المغرب في عهد المنصور اسماعيل ، فانه رفض احتلال تلمسان وان كان الأهالي طلبوا منه ذلك في عام ١٨٠٣ .

على نحو ما اعاد تنظيمه محمد الثالث فان الحكم العلوي لا يأمر وانما يفاوض : مع الاجانب ومع السلطات المحلية والقوة العسكرية لم تستخدم الا للعمل على الاسراع في المفاوضات ومن هذه الزاوية لا بد من ان نعترف له ببعض النجاح ، ولكن الحل الذي قدم في نهاية الامر الى مسألة الدولة ، في ظروف من الاضعاف الاقتصادي كان في العمل على اقتران الملك والامبراطور في نفس الشخص ، القائد العسكري والزعيم الديني . ان ازدواجية السلطة التي سبق ان تناولها الكلام في مناسبات عديدة اصبح العاهل نفسه يطالب بها بعد ذلك . كان المقصود بالمقابل توازناً غير مستقر : اذا دخل عنصر اجنبي في اللعبة فان كل شيء يفسد ، هذا عين ما سوف يقع في مطلع القرن التاسع

عشر . كان النظام قد اصبح يحمل في ذاته سبب التدخل : كان يتعلق اكثر فأكثر بالتجارة الخارجية الواقعة تحت سيطرة الاجانب . وعندما يصير التدخل مباشراً أكثر فان النظام سوف يدوم رغم كل شيء بسبب توازن من نوع إخر ؛ سوف تنجح دبلوماسية السلاطين العلويين مع الاجانب كما نجحت مع القوى المحلية هذا اذا كان النجاح هو تأخير المحتوم .

* * *

فيما وراء الفوارق الثانوية فإن التطور العام يلوح انه مشترك في جميع بلدان المغرب . فكيف تقديره ؟ لأول نظرة يتراءى القرن الثامن عشر كأنه حقبة انتقال ، مميزة بتوازن موقت بين القوى ، الداخلية والخارجية ، كان العاهلون يريدون الحفاظ عليه بأي ثمن : وبهذا نفسه فان هذا القرن سوف يظهر فيما بعد كأنه حقبة عراك الاقدام . فهو يواصل القرن السابق في كفاحه ضد الحضور الاجنبي اذ يسقط معظم المواقع التي ما تزال في قبضة الايبيريين الواحد تلو الآخر . هذا الوجه من التحرر القومي كان خادعاً مع ذلك إذ لم تعد الدولتان المعنيتان اسبانيا والبرتغال ، تتشبثان بالمغرب الا لاسباب واهية . وعلى الرغم من ظواهر معينة ، فان الحكم العلوي لم يبق ذا جوهر مرابطي وكان اتراك الجزائر قد فقدوا منذ زمن طويل روحهم الهجومية . فلم يعد الكفاح ضد الاجانب سوى ايديولوجية ، في خدمة سلطة متنازع عليها . اما الدولتان الجديدتان المسيطرتان : انجلترا وفرنسا فقد كانتا تتباريان في نقاط اخرى فوق الكرة الارضية ولم يكن المغرب ليتأخر الا بأصداء صراعهما البعيدة . انه لظرف ملائم اذن لتحسين الوضع الداخلي .

والحال ان التطور الداخلي ، في أفضل الحالات لم يفض الا الى المحافظة على البنى المجمدة من قبل . اما وقد نقصت الموارد الخارجية (ذهب السودان او ثروات البحر الابيض المتوسط) فان المشكلة الاساسية اصبحت مشكلة الضرائب ، وحول هذه المشكلة انعقدت ازمات متجددة بلا انقطاع جعلت الفكر المحلي في معارضة للمركزية الحكومية ، وفي التحليل الاخير ، مستوى الحياة الفردية او الجماعية ، في معارضة اصلاح الدولة . وقد لجأ قادة المغرب في آن واحد او بالتعاقب إلى الحلول

نفسها ولكن النتيجة كانت بعد كل حساب مختلفة . فبايات تونس نجحوا في كسب ثقة سكان المدن وقد تم تعايش بين النخبة ذات الاصل الاجنبي والنخبة المحلية كان ابرز محصلاته نمو متلازم للتجارة والزراعة على حساب الجماعات نصف الرحّل . واشعل دايات الجزائر ، النزاعون الى الافراط في استخدام القوة ، ثورات تلو ثورات ، وطدت على المدى الطويل مكانة الزعماء المحليين المؤهلين الى مقام المدافعين عن جماعاتهم . واعتاد سلاطين المغرب الاقصى مقداراً دقيقاً من القوة والدبلوماسية محاولين ان يكفوا بأنفسهم من دخول التجارة الخارجية : فلم يكسبوا تماماً دعم النخبة من سكان المدن ولكنهم لم يفقدوا كذلك خطوتهم تماماً في أعين الزعمـاء المحليين [1] .

في جميع الاحوال ، كان الحل مؤقتاً : ان الحكم التركي يتآكل في الجزائر على مر الايام ، وحتى بدون هجوم عام ١٨٣٠ لم يكن من المؤكد انه كان يستطيع البقاء كما هو : ففي تونس ومراكش اتاحت المجال وقتية السلطة وضعف الموارد لجميع التدخلات . ولم يستطع البايات والسلاطين وهم بلا رأس مال لا تغيير بُنى البلاأد ولا استلام التجارة الخارجية بصورة مؤكدة ، وانما غدوا هدف هذه التجارة ، في تبعية اولئك الذين يمولونها او يوجهونها ، ومع ذلك ، على الرغم من فقر الدراسات في هذا العضر فلا نتمالك من ان نتبين ما يشبه ارادة التكرار . فيما هو أبعد من العصر التركي ـ السعدي وازمة القرنين الرابع عشر والخامس عشر الطويلة ، ظهر هاجس ما لعقد الصلات مع الانظمة الملكية الحفصية والمارينيين ، وهذا ليس فحسب في الشكليات الحكومية بل وكذلك في عودة الازدهار الثقافي . فقد عنى الإحياء ، بالتأكيد بتوطيد سنة السلف الا انه في نفس الوقت تجديد الفكر العام ، ومن هنا ازدهار نتاج تاريخي محلي في فاس وفي تونس . وقد نالت نهضة النخبة من سكان المدن نصبت نفسها حارسة على التقاليد وعاملا رئسيا في اعادة تنظيم الدولة ، من مكانة نخبة المرابطين بالطبع ، حتى وان بقيت العلاقات بين الجماعتين وثيقة زمناً طويلا .

(١) أكثر الدراسات دلالة سوف تكون مقارنة انتاجي النخبة الدينية في تونس وفي فاس ، على مستوى الأيديولوجية إذ أن النخبة في فاس تحافظ على روابط عميقة بحركة المرابطين في حين اهتمت النخبة في تونس أكثر فأكثر بالـ « علوم الدنيوية » .

ان حركة المرابطين وقد تم اخضاعها في كل مكان منذ ذلك الوقت غيرت من طبيعتها: بعد ان كانت رابطة المجتمع الوثيقة أصبحت خادمة السلطة المركزية والنخبة من سكان المدن . لقد جاوزت بل واحياناً حلت محل الدائرة التجارية بين المدن والارياف ؛ لكنها وقد تمت السيطرة عليها في العاصمة ، التجأت الى المقاطعات : وضعت نفسها تحت حماية الزعماء المحليين — في الشطر الجنوبي من المغرب عادة — وكانت لهؤلاء الزعماء عندئذ الوسائل لـ « يصيروا اقطاعيين » [1] ، اي ليركزوا في ايديهم سلطة سياسية — ادارية ، قيادة عسكرية ونفوذاً دينياً بوصفهم دعامة للشيخ المحلي ؛ بالنظر إلى أن تكوين « منطقة نفوذ » لم يبق الا مسألة زمن .

لا يستطيع المرء ان يؤكد بالطبع ان هذا التطور كان عاماً ولا حتّى انه كان ظاهراً قطعاً . انه ببساطة ما تكشفه لنا الوقائع وسير الصالحين حين نريد اعطاءها معنى دنيوياً .

ولكي نستطيع الانتقال من مجال التفسير الذاتي الى مجال الفرضية العلمية ، من الضروري تبيان حقيقة النقاط التالية : تأثير التجارة الاجنبية على بنية السلطة المركزية وتكوين نخبة من سكان المدن ؛ الروابط الصحيحة بين هذه النخبة والحاكمين ؛ دور حركة المرابطين في خدمة السادة والزعماء المحليين واخيراً العلاقة في ايديولوجية النخبة المرينية بين التكوين الشرعي وصوفية المرابطين . انها لمسائل فائقة التعقيد ! ومن المؤسف بخاصة التأخر الى هذا الحد لطرحها بوضوح [2] .

* * *

هكذا تلا العهود المتتابعة من الامارات والامبراطوريات والممالك ضرب من

---

(١) استخدم هذه الكلمة كمجرد وسيلة وصفية؛ إذ أن مجموع الأعمال التاريخية الاستعمارية والمغربية تلح كثيراً على وحدة حركة المرابطين دون أن تلمح بأنها غيرت دورها أو معناها من القرن الخامس عشر إلى التاسع عشر ؛ شأنها في عدم رؤية فوارق بين زعماء المرتزقة الهلاليين من القرن الرابع عشر والجنود المرتزقة في السابع عشر والقادة (qo'id-s) في القرن الثامن عشر . ذلك اننا عندما نعرف بدقة فوارق الـ« أوضاع» لدى كل من تلك المجموعات الاجتماعية ، نبدأ في فهم ديناميكا التاريخ المغربي .

(٢) كانت لدى جاك بيرك الوسائل لطرحها وحتّى لحلها. فانه في دراسته للأليوسي . . . المصدر السابق ، يطرح الشواخص التي يعود إلينا متابعتها وإنماؤها .

عصر الدول العسكرية . وقد استخدمنا كعنصر مميّز التنظيم المتعلق بالدولة ولو أنه لم يكن قاطعاً البتة ، لان مصادرنا تقوم قبل كل شيء على روايات تتعلق بالاسر الحاكمة ولان التاريخ المدون عامة هو تاريخ الدول ، وثمة آفاق اخرى كانت ضرورية بل ويجب ان تحتل المقام الاول وهي : التطور الاقتصادي ، الديناميكية الاجتماعية ، الاعداد الايديولوجي ؛ ولانعدام الدراسات المنظمة والدقيقة فانها تظهر في عرضنا على شكل متطلبات منهجية .

ومع ذلك إذا سلّم بالبنى الاجتماعية ــ الاقتصادية الاولية ، فان المرء يميز منطقاً في تعاقب الترنيمة : امارات ــ امبراطوريات ــ ممالك وهو ما يحجبه غالباً نتاج مؤرخي الاسرة الحاكمة . فبعد ازمة القرن الرابع عشر التي كانت تحكم على الممالك بموتها حتف أنفها ، لم يعد من الممكن الرجوع الى تعايش الخلايا الاجتماعية الأولى : لقد انتظمت وحدات اوسع ، افضل تَبَنْيُناً واكثر تدرجاً ؛ وبهذا نفسه فانها لا تستطيع لا التعايش بعضها مع البعض الآخر ، ولا تبعية بعضها لبعض ؛ عندئذ فرضت نفسها على الجميع منظمة أجنبية ، مستندة اساساً على جيش منفصل عن السكان . هذه الخاصية الخارجية ، التي لا تجعل من الدولة التعبير العضوي عن المجتمع قادت على المدى الطويل الى رد فعل مقرر من جانب الوحدات القديمة التي نزعت على اشكال أخرى الى العمل على احترام ديالكتيكها الخاص . لا جرم أنه يمكننا تخيل نماذج اخرى من الدول كان في وسعها ان تكون أكثر انسجاماً مع البنية الاجتماعية ؛ بل يمكن حتى تجريم النموذج الذي فرض نفسه بعد كل حساب على المغاربة ، لكن كل شرح ، على هذا المستوى الشكلي البحت ، سيبقى ذاتياً ؛ يكفي التأكد من الوقائع . فإنه الظاهر للعيان ان الدول لم تستطع في أية لحظة اقامة معنى من الشرعية في وسعه أن يوفر موظفين اداريين منيعين في وجه انتقال السلطة ؛ فالعقد الاجتماعي كان معرضاً للبحث في كل لحظة ، وكان الولاء دائماً شخصياً . لم تجرد السيادة ابداً من شخص العاهل [1] . ولم تستطع اية دولة ابداً خلق ايديولوجية مؤيدة للشرعية والمحافظة عليها . فقد بقي الاسلام على الدوام الحيز

---

(١) إذا نحن فرقنا كما ينبغي أن نفعل تاريخياً ، بين سلطنة وخلافة .

المشترك لدى الجماعة وفي حمايتها . واخفقت محاولات كسب الشرعية من جانب الشيعة أو شبه الشيعة منذ الفاطميين الى السعديين . وهنا كذلك لنكتف بالتسجيل في الوقت الحاضر . واذ كانت هذه الدول بلا ايويولوجية مؤيدة لشرعية الحكم فانها دائماً كانت تتوقف على القوة ؟ ولكن أي قوة ؟ فقد ناقشنا القضية التي اراد اثباتها ابن خلدون وخلصنا الى القول بأن التماسك القبلي كان يستطيع تأسيس دولة لكنه لم يكن في مقدوره تأمين الدوام لها . فان ما يدعمها هو الجيش الذي يفرض وينظم تحصيل الضرائب التي تحافظ بدورها على وحدة الجيش . جميع بُنى الدولة التي تبيّناها بدت انها تتوقف في المقام الاول على موارد خارجية : ذهب من السودان ، اتاوات من الاندلس ، قرصنة بحر ابيض متوسط ... ولما كنا عاجزين عن تقييم هذه الدخول مباشرة ، فاننا ملزمون على تخمين اهميتها وفقاً لحياة البلاط ، والنمو الثقافي او الابنية التذكارية . ومع ذلك هل المقصود امر فريد ؟ أليس على الأصح ثابتاً في تكوين الدول ؟

وعليه تتخذ الحقبة الاخيرة ، حقبة الدول العسكرية اهمية رئيسية عندما نضبت الموارد الخارجية وهنا نتأكد من تطورين جديرين بالملاحظة: تنظيم « قبائل المخزن » والاولوية الممنوحة للتجارة الخارجية . وليس المقصود وقائع جديدة ؛ فان مكانتها التي أصبحت بعدئذٍ مهيمنة على الحياة العامة هي التي كانت الشيء الجديد . وعلى الرغم من تبدل الحاكمين ورداءة النتائج والاخفاق النهائي فلا يسعنا ان نرى في ذلك محاولة لاعطاء الدولة اسساً صلبة بانشاء قوة مسلحة محلية وضمان تموينها من بيت المال بنظام ضرائبي مرتبط بالتجارة وهو ما كان يستطيع ، فضلا عن ذلك أن يفضي الى تجديد مديني وعلى هذا النحو ثمة روابط عضوية بين الدولة والمجتمع عقدت من جديد . سوف لا يمضي التطور حقيقة الى النهاية ولكن ماذا سيفعل التاريخ اللاحق الا اتمام هذا البرنامج: تقديم جيش دائم وطبقة بورجوازية لمجتمع لم يستطع ان ينشئهما بنفسه؟ لنتأكد اذن ممّا صنع الخلل خصوصاً وان ثمة محاولات أجريت بوضوح لمعالجة ذلك . واذ يقال هذا فان البحث التاريخي لا يكاد ان يبدأ في عدة مجالات وعلى مستويات عديدة . وقبل ان تتمكن هذه الاستقصاءات من اعطاء نتائج ، هل يحق لنا ان نحكم ؟ وبخاصة هل ينبغي لنا ان نستبدل الامور الصحيحة بمسائل كاذبة ؟

هذا هو مع ذلك المجال الذي تتصيد منه أعمال مؤرخي الاستعمار على الدوام . فكل واحد يبسط التاريخ المغربي على ضوء تاريخ ١٨٣٠ و ١٨٨٢ و ١٩١٢ وبما ان فتحاً أجنبياً يبدو لاعين الجميع كمجابهة فان ما يستخلص هو اخفاق فيبادر الى البحث عن المسؤوليات . اتهم هـ. ترّاس H.Terrasse الاسلام ؛ في حين اتهم ش. أ. جوليان ch.A. Julien (لوتورنو Le Tourneau) العرق البربري [١] .

في رأيهما ان التاريخ هو في امرة الملوك وبحسب ما يكونون مسيحيين أو مسلمين ، يستطيعون قيادته في هذا الاتجاه أوذاك . فتواجه السيرة البراقة في نتاج المؤرخين العرب بسيرة سوداء . وعلى هذا النحو لا يدرس التاريخ المغربي ابداً بذاته وانما كتاريخ نا غ لتاريخ آخر ، غالباً ما تغفل الاشارة اليه واذا كان صحيح حقاً انلى لا يمكن عزل احد هذين التاريخين عن الآخر بما انهما في كل مرحلة يقارن احدهما وينكراه ، لنشاهد على الأقل مناظرتهما في حلبة خالية قبل كل شيء ، من كل تلوين مؤيد .

ان العيب الاكبر في مؤرخ الاستعمار الرسمي هو التستر ، ارادياً ام لا ، على النموذج الذي يرجع إليه . فعندما يتحدث عن عالم هائج وعن منطقه في اوج تحولها، الخ فانه بالتأكيد يقصد الغرب . ولكن في أية مرحلة ؟ ذلك ان جميع المقارنات ليست مشروعة . فالمقارنة الوحيدة المشروعة هي التي تكون مع الدولة ذات النظام الملكي المطلق : من هنا اهمية المنعطف في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ؛ ولا ينبغي للمراحل اللاحقة ان تستوقفنا عند هذا الطور . وعليه لاجل اجراء هذه المقارنة من وجوه عديدة ضرورية ، اذ أن سياسات كسياسة المنصور السعدي او محمد الثالث تبرزها في الحقيقة الواقعة نفسها ، فلا بد من التشديد على كثير من الوقائع المهيأة . وبادىء ذي بدء ، ان شروط وجود ملكية مطلقة يبدو انه توازن اجتماعي بين ارستقراطية اقطاعية المنشأ وطبقة تجارية . فالملكية تعيش على هذا التوازن وتفرض نفسها كضامن لا غنى عنه لحقوق وامتيازات كل واحد ؛ تشكل لنفسها قوة مستقلة ذاتياً مع جيش مؤلف من ضباط ارستقراطيين وجنود من الفلاحين وادارة مجهزة

---

(١) ش. ا. جوليـــان (لوتورنو) ، المصدر السابق ص ٣٠٦ ؛ هـ . تيراس المصدر السابق ، ٢ ، ص. ص ٤٤٥ – ٤٧٠ .

من الطبقة البورجوازية والكل ممول بموارد خارجية (سياسة الفتوحات) وبنظام ضرائب منتظم . فالتوازن الاجتماعي يكفل استمرارية السلطة الملكية التي تبارك شرعيتها الكنيسة . وثمة عناصر اخرى عملت في ذلك لا شك ، ولكـــن لنميز الجوهري . ان النقاط المطلوب مناقشتها في التاريخ المغربي في هذه الشروط ، والتي سبق لنا ملاحظتها هي : هل وجد اقطاع في المغرب وان لم يوجد فلماذا ؟ ماذا كان الأثر الحاسم للتجارة الخارجية ؟ ولماذا لم تكن هناك ايديولوجية مؤيدة للشرعيةسائدة؟

ان طرح هذه المسائل هو في نفس الوقت كشف النقاب عن استحالة الاجابة عليها في الوقت الحاضر واظهار كم يكون متسرعاً كل حكم تقويمي . لنذكر مع ذلك بالوقائع الثلاث التي يبدو انه من شأنها على اية حال تحديد الجدل : الاتجـــاه المتعارض بالضرورة للتطورات في اوربا الغربية وفي المغرب والتي تلوح انه ليس في مقدورها ان تنمو وتغتني في آن واحد في البحر الابيض المتوسط ؛ انخفاض مرتبة هـــذا البحر ابتداء من القرن السادس عشر من حيث هو بؤرة تاريخية ؛ واخـــيراً بداية تطور في مغرب القرن الثامن عشر باتجاه من نوع النظام الملكي المطلق . واذا كنا ، على الرغم من كافة التحفظات المعربة ، نحرص دائماً على وضع الحساب الختامي للاخفاق فانه سوف يكون في هذه الظروف نسبياً جداً ، معزوّاً لتلابس عـــام في ظروف ، لم يكن للناس عليها الا تأثير قليل ، واقلهم في ذلك الملوك ، وحيث لعبت العناصر الخارجية على الارجح الدور الاعظم .

فيما وراء هذه الاحكام والاحكام المضادة ، لنحتفظ بالنتائج الدائمة التي اعطت المغرب وجهه الذي ما زلنا نعرفه به حتّى الآن . يبقى قبل كل شيء نتاج حضارة يرمز اليه بمعتقد ديني وبلغة ؛ وقد لاحظنا في كل مرحلة تعميق احدهما وتعميم الآخر . استعمرت حركة الخوارج الصحراء وادخلت حركة الشيعة ديالكتيك المنازعة الدينية ونموذج الدولة العباسية ، وغرست حركة الموحدين التعليم الموجه والدعاية المذهبية وعممت الصوفية الشعبية الايمان وغذته بوطنية محلية حارة . واعطى التعريب للمغاربة قوالب معدة للتعبير وكان السلاطين والملوك البربر هم الذين ، بدأب فريد ، فرضوه . واذا سجلنا بعض مؤشرات المعارضة فانها لم تكن الا في حقبة

الانحطاط وفي اطار صراع سياسي من العسير الاحاطة به [١] . حقاً ان الادب المغربي باللغة العربية يبدو ، عندما يكون حقيقة محلياً ، جافاً بالمقارنة مع الادب الاندلسي أو العراقي لكن دراسته جدياً ما زالت في بدايتها وقد بدت انها تستحق ما هو افضل من الازدراء الذي منيت به حتى الآن [٢] . وعلى كل حال انه بعيد عن ان يكون فولكلوراً وهو ما كانت ستؤول اليه الثقافة المغربية لو انها لم تتبن اللغة العربية .

ها هما هنا الركنان اللذان ، اذ أضيفا الى تماثل عرقي والى تشابه في البنيــة الاجتماعية ، قد كفلا لبلدان المغرب وحدة اساسية . وقد اطلقت العصور الاخيرة بالمقابل حركة فردانية اقليمية . اصبحت الحدود ثابتة نسبياً : في نفس الوقت حقيقة ومتحركة ، تفصل من الآن فصاعداً كيانات سياسية محددة . ولكن اكثر كذلك من الحدود التي تكرسها فوارق طفيفة في اللهجات فان تنوع الظروف التي سوف يتبلور فيها ، في كل دولة ، الوعي بمصيرها الخاص ، هو ما تجب الاشارة اليه . فالمغرب الاقصى تمالك نفسه في صراعه ضد الايبيريين والاتراك في اطار جمعياته الدينية والاخلاص لتركة الاسلام الاندلسي . ودمجت تونس حكامها الاجانب وفي الوقت الذي لم تنس فيه ، ممارسة القيروان العقائدية عليها ، فيما مضى ، فتحت ابوابها لجميع مؤشرات شرق البحر الابيض المتوسط . واخيراً فان الجزائر ، على الرغم من تباعد التقاليد ، الزيانية والحمادية ، قد تفردت في شعور التمييز المشترك الذي فرضه النظام التركي [٣] .

كل هذا ، ليبقى مخلصاً للحقيقة الواقعة ، يتطلب ظلالا عديدة من الفروق ولن يأخذ نهائياً شكله الا في غضون القرن التاسع عشر ، ولكن من المؤكد ان عناصر جديدة ، مميزة قد أخذت ابتداء من القرن السادس عشر ، تعمل بوضوح . غير ان جميع البلدان المغربية وجدت نفسها من جديد في ذلك العصر موحدة فيمــا كان ينقصها جيش قومي قوي وعاصمة متكونة من قبل وبسبب هذا العوز ، سوف تعرف نفس الاحتلال الاجنبي .

---

(١) كثوران Ait Umalu ضد سليمان . قارن زياني ، الترجمانه ص ٧٥ ؛ ناصري المصدر السابق حـ ٨ ص. ص ١٣٤ – ١٣٧ ؛ ولكن وفقاً لرواية أصحاب الوقائع أنفسهم، المقصود كان نزاعاً من أجل الاشراف على المخزن تأجج بسبب عناد السلطان .

(٢) قارن عبد الله غنون ، النبوغ المغربي ... ، ٣ مجلدات ط ٢ ، بيروت ١٩٦١ .

(٣) في الاستبداد التركي قارن رد بني عامر الذين كانوا قد تحالفوا مع الاسبان في اوران (وهران) على الأتراك والذين كانوا موضوع أهجية المشرافي ، بهجة الناظر ... ، الجزائر ١٩٢٤ ، إلى اسماعيل الذي كان يحاول اخضاعهم في : رسائل غير منشوره ، المصدر السابق ص ٤٤ .

٤ – المغرب الاستعماري

بالنسبة للقارىء الدنيوي ، يدخل المغرب في التأريخ الحديث في مطلع القرن التاسع عشر لأن المصادر لتأريخ علمي ابتداء من هذا الزمن تكون متوفرة : ارشيف عام وخاص ، افعال دبلوماسية وسياسية،نصوص تشريعية وادارية، ميزانيات عامة ومحلية ، تحقيقات ، تقارير ، شهادات ... الخ . فالمؤرخ الوصفي يعثر على مادته : دقة الحادث المؤرخ . فهل بات المغرب بناء على ذلك معروفاً أكثر ؟ قد يظن المرء ذلك وهو يحكم على الكمية المرهقة من الكتابات في هذه الحقبة القريبة . في الحقيقة ، المقصود وضوح كاذب ، يُعزى الى العناية الدقيقة التي يُميز بها ميدان التاريخ مما هو أدنى من التاريخ : فالأول يجري تحليله بافاضة بينما يتم تجاهل الثاني بخفة اوعلى احسن تقدير يعالج بحرص . وعلى حين تفحص بدقة فائقة بواعث الدبلوماسيين والجنرالات وتظلمات التجار والمعمرين فان تغيير الوجه الطبيعي للبلاد وانفجار المجتمع وانحراف العقول وهي مشاكل المغاربة تعطى اما كعموميات بديهية أو على انها الغاز لا يمكن حلها .

المقصود بهذا بالطبع هو ال « تاريخ الاستعماري » ، ميدانه وحالته الواقعة . فقد تراءى، زمناً طويلاً ، وهو يمجد اعمال الاوربيين الرفيعة ، خارج اوربا ، على أنه الوحيدالممكن .وإذ انكره الحدث الذي لم يعرف أنيتوقعه ،فانهذا التاريخ يحاول اليوم الهروب من التزامه بجانب واحد بطريقين : إنه يهتم بالسكان المحليين اما بتفسير المصادر التي سبق له ان استخدمها ، بصورة مختلفة واما باتمامه لمراجعتها ، ثم يفضي

على هذا النحو ، الى نوع من التاريخ الاجتماعي في اطار استعماري [1] ؛ وهو ينطلق كذلك ، وما يزال هذا العمل في بداياته ، بحثاً عن كل ما يشير الى رد فعل السكان الاصليين : أغاني ، حكايات فولكلورية ، محليات ، تقاليد شفوية ، مجموعات من الاجتهادات [2] . ودون ان نكون بعد قادرين على تقويم درجة التجديد التي يمكن ان تدخله هذه التحريات على التا ريخ الاستعماري التقليدي ، نرانا مضطرين الى التأكد من ان الشائبتين الاساسيتين في هذا التاريخ تستمران في انقاص قيمة ما يكتب اليوم عن المغرب وهما : المبالغة في تقدير الجوانب الدبلوماسية والعسكرية واكثر نتائجها مباشرة هي العمل على رؤ ية العقل يعمل من جهة والتجريبيـة من جهـة اخرى وقصر مجال التاريخ على ما يسمى اليوم بالعالم «الحديث» — الذي هو في حقيقـة الامر العالم الرأسمالي — وبالطبقة الاجنبية بأكملها التي تحركه ، اما الظواهر التي تهم المغاربة: مقاومة ، تحويل قطاعات من الشعب الى بروليتاريا ، نزعة قومية ، فقد فُهمت سلبياً واذن بصورة تجريدية . فانه ينظر دائماً ، كما قيل ، الى المغرب ، مـــن مظهره الجانبي [3] وعليه ، فما زالت مهمة نزع الاستعمار من التاريخ بالنسبة لهذه الحقبة مسألة ملحة أكثر منها في الحقب السابقة .

ان المؤرخ الاجنبي يفصل كما قلنا التاريخ عما هو دون التاريخ ؛ اما الكاتب المغربي فانه يفرق عادة الاساسي من المشكوك فيه . واذا كان الاول يميز الدبلوماسية والاقتصاد فالثاني يقتصر على علم النفس وعلى علم الاخلاق يكاد لا يستند تقريباً الا على البيّنة (صحافة قومية ، يوميات خاصة ، أهجيات غير منشورة مذكرات

---

(١) أحسن مثل حتى الآن كان قد قدمه ا. نوشي A. Noushi في : Enquête sur le niveau de vie des populations Srurales constantinoises de la conquite à 1919 P· U. F. ed 1961, La Noissance du nationalisme algerien, Edit de Minuit 1962, p. p. 13 – 29 بحث في مستوى حياة السكان الريفيين في منطقة قسنطينة من الفتح حتى عام ١٩١٩ ؛ نشأة القومية الجزائرية .

(٢) قارن ج. ب. شارني J·P.Charnay : الحياة الإسلامية في الجزائر وفقاً لأحكام القضاء في النصف الأول من القرن العشرين ، باريس ط . جامعية ١٩٦٥ .

(٣) التعبير لـ. ب. نورا P.Nora في « عرض كتاب ش. ا. جوليان ، تاريخ الجزائر المعاصرة..» فرانس – أوبسرفاتور ٢٤ – ١٢ – ١٩٦٤ .

سياسية ، مرافعات شخصية ، منشورة غالباً بعد الوفاة ...) [1] . فلا ينظر الى الحدث في هذه الرؤية الا كما تم تبينه في البداية أو فهم بعد وقوعه من قبل احد الفاعلين الرئيسيين. هذا النتاج التاريخي هو بالتأكيد سطحي ؛ واذ يكون غير واع للاسباب الموضوعية فإنه بحاجة هو نفسه ، ليكون ذا معنى ، الى تفسير .

ولكن كيف ينبغي ان نفهم تاريخ الحقبة الاستعمارية هذا ، سواء أكان مكتوباً او مما تُطلب كتابته ؟ فلا بد لكليهما من الاجابة على أسئلة سابقة . ما هو وضع التاريخ الاستعماري بالنسبة للتاريخين القوميين السالفين ؟ ما هي درجة تكامل المجتمع الاستعماري ؟ ماذا يغلب عليه ، الاستمرارية ام الانقطاع في بنية المغرب المعاصر وايديولوجيته ؟ لقد لجأ الفريقان الى مسلمتين متعارضتين : احدهما يدمج تمام الدمج صيرورة المستعمر في العمل الاستعماري ، والآخر يستبعد هذا العمل باكمله باتجاه نقطة انطلاقه : المجتمع المستعمر . ويؤكد احدهما انه يكتب تاريخ المغرب الفرنسي في حين انه لا يكتب وفقاً لرأي الآخر سوى تاريخ الفرنسية في المغرب ولا يذكر شيئاً عن المغرب طيلة الاحتلال الفرنسي ولكن هل يُفسر كل شيء بهذا المرجع وحده او ذاك ؟ أليست الحقبة الاستعمارية ميداناً مستقلا حيث تعمل تحديدات ماضي ما قبل الاستعمار في تاريخ الامتين المتواجهتين وكذلك تحديدات الفعل الاستعماري المتناقضة ، جميعها في آن واحد وتتضافر أو يهدم بعضها بعضاً [2] انه لسؤال عديم الفائدة ، مبتسر ، في أحسن الأحوال ، قد يقول المؤرخ الوضعي ! لكنه يجيب ، مع هذا ، فيه – على الاقل – بالتقسيم الحقبي الذي يختاره .

ان االتقسيم الحقبي ، المستخدم في الصفحات التالية (١٨٣٠ – ١٨٨٠ ، ١٨٨٠ – ١٩٣٠ ، ١٩٣٠ – ١٩٥٤) يحمل بالطبع اجابة ويجد فيها تبريره . وليس من الضروري عرض هذه الاجابة هنا بالتفصيل ومع ذلك لنذكّر بالنقطة الاساسية

---

(١) ساق فاضل بن عاشور الأمثلة الكثيرة على ذلك في : الحركات الأدبية والفكرية في تونس ط. الجامعة العربية القاهرة ١٩٦٥ ؛ تصل حتّى العبث لدى محمد الباقر الكتاني في ترجمة محمد الكتاني الشهيد ، الرباط ١٩٦٢ .

(٢) يطرح جاك بيرك المسألة تماماً على هذا النحو في : المغرب بين حربين ط . لوسوي ١٩٦٢ ؛ ومصر امبريالية وثورة ، غاليمار ، ١٩٦٨ لكنه ينتقل مباشرة إلى عرض مذهب انثروبولوجي وفلسفي قبل الافصاح بوضوح عن افتراضاته المنهجية . كل واحد يستطيع بالطبع أن يحل محل المؤلف في هذه المهمة ، ولعله من الملح أن يباشر المرء في ذلك إذا كنا نريد العمل على أن يتقدم فهمنا للنظام الاستعماري .

فيها : اما التاريخ الاستعماري لا يستطيع بناء مفهومه الا في نسق القصديات وبالتالي يكون حقيقة مجال الضرورة المطلقة حيث تعمل قوانين السوق العالمية بأقصى شدّتها . والمجتمع الذي ينجم عنها قد لا يعرف دائماً نفس الدرجة من التجانس ؛ واضعف ما يكون هذا التجانس في اثناء الحقبة الممتدة من ١٨٨٠ الى ١٩٣٠ لكن الصلة بين الطبقات الاجتماعية تظل فيها مطابقة للنماذج المعروفة تاريخياً ، وينتج عن ذلك استمرارية على مستوى العمل حتّى وان كذبتها الايديولوجية في كل لحظة : فالسياسة تجد حقيقتها عندئذ في الادارة التكنوقراطية . هذه هي المنظومة التي تنشىء التاريخ الاستعماري؛ واذا فررنا من نسق القصديات إلىنسق الاصول أي من الغايات كما فعلت في الفصل الخامس عشر ، أو كما قد يفعل الكاتب الفرنسي الذي يصف رومانطقية ضباط ادارة شؤون الاهالي ، المؤيدة للعرب ، فاننا نخرج عن المجال المحدد،ويجمل بنا ان نعي ذلك لئلا ندخل،بصورة لا شرعية ، بذوراً من النسبوية[١].

بالبقاء اذن في اطار التاريخ الاستعماري يمكننا التأكيد بأن كون البلدان المغربية لم تستسلم في نفس الوقت ، امر لا اهمية كبيرة له . فان عام ١٨٣٠ لا يخص الجزائر وحدها فقد تحملت الدول المجاورة صدمته المباشرة ؛ اضف الى ذلك ان الجزائر عرفت في غضون اربعين سنة استعماراً من نمط مخفف ، سابق للامبريالية حيث لعبت الذكريات الرومانية ، الوجد الديني معاني الشرف والمجد والسيادة وباختصار ايديولوجية النظام القديم ، دوراً كبيراً ؛ ليس الفارق إذن كبيراً الى هذا الحد عن السياسة المتبعة بازاء الدولتين الاخريين المستقلتين استقلالا كاذباً . فطيلة الحقبة الامبريالية الكبرى صاحب اتساع منطقة الاستعمار تكثيف في الاستثمار ؛ تبدلت الوسائل والافكار، والقاعدة الزراعية وان كانت ما تزال هامة تراجعتامام التجارة والمضاربة والمال . ولسوف تحافظ الجزائر على اصالة ما،ولكنها ستعاني نفس التطور. وبعد ازمة عام ١٩٣٠ سوف يمضي تفكك النظام الامبريالي متسارعاً ، وكما ينبغي فان البلدان المغربية تحررت سياسياً وفقاً للنسق المعاكس لخضوعها .

لهذه العلامات المتسلسلة زمنياً قيمة شاملة بالتأكيد ؛ لعلها من اجل هذا نفسه . يكون معناها اكبر بالنسبة للبلدان الواقعة تحت السيطرة إذ أنها تتيح هدم اوهام المعاصرين : سيادات ظاهرة واستقلالات كاذبة .

---

(١) انظر فيما بعد رقم ٢٧ من الفصل الرابع عشر ومقدمة الفصل الخامس عشر .

١٣ - ضغط استعماري وصمود اولي

في مطلع القرن التاسع عشر كان كل شيء في مكانه في المغرب لكي يكون للضغط الاوروبي الحد الاقصى من الآثار ؛ كانت الصلات العضوية الوثيقة المتزايدة بين الدولة والتجارة الاجنبية توفر الوسائل لسياسة لا بد لنتيجتها من ان تصبح على المدى الطويل هي عزلة هذه الدولة وتحولها الى خادم مطيع للمصالح الاجنبية . على ان الحروب النابليونية اخرت هذا التطور ، الا ان اوربا ، التي منحتها مفاوضات فيينا الطويلة وعياً سياسياً مشتركاً ، كانت ، منذ عام ١٨١٥ ، مستعدة للتدخل باسم المعبود الجديد : الحرية . اننا نعرف مدى الانتفاع من هذه الشعارات : تحرير العبيد ، الغاء القرصنة ، حرية التجارة ، أمن التجار . وايا ما كانت المنافسات التي وضعت الدول الاوربية بعضها في مواجهة بعض فيما بعد وعلى الاخص فرنسا وانجلترا فقد كان هناك اتفاق سياسي على مبادىء العمل الاوربي وهذه المبادىء هي التي فصلت ، مع الايام ، في مصير المغرب . وكان هذا التطور مع ذلك يقتضي زمناً ، اعداداً طويلاً لم يقل عن خمسين سنة ، في مكان آخر ؛ الا ان الحركة في المغرب سارع بها حدث « غير متوقع » . لنعرض فكرتنا ، اذا شهدنا في غضون القرن التاسع عشر ، احتضار دولتي مراكش وتونس الطويل فان دولة الجزائر اختفت بموت عنيف . فما من شك أن وقتية سلطة الداي ، المشار اليها في الصفحات السابقة تجعل هذه النهاية سهلة التفسير ، لكن السياسة المعززة من جانب فرنسا ، التي تبدو لنا الآن متخلفة بالنسبة لسياسة انجلترا في ذلك الحين ، النزاعة الى الماضي بقدر ما كانت سياسة اسبانيا في العصور السابقة ، وجدت مبررها في بنية المجتمع الفرنسي وظروفها المتلابسة :

تأخر الثورة الصناعية ، تباين بين الشمال والجنوب ، رد فعل سياسي . وستقدم البنية الجزائرية حساباً فقط عن سياق الفتح لكن محرك هذا الفتح يوجد في مكان آخر . كان غزو الجزائر يمكن ان يكون تناسخاً آخر لمداهمات الايبريين أو طبعة جديدة من حملة لو لم يكن هناك اناس جاهزون في الجنوب الفرنسي ولو لم يكن آخرون مستعدون للاعتماد على الارض . وما دمنا نظل في الميدان الدبلوماسي أو العسكري فلن نفلت من المخاطر أو مما هو غير متوقع ولأن الممثلين انفسهم كانوا لا يذهبون الى ابعد من ذلك فان المسألة كلها لم تكف عن ان تكون مغمورة بنور لألأ يرجعنا في آن واحد الى عالم شارل كان والى عالم اقتسام افريقيا . ولكن على مر السنين تمحى هذه الاصالة الجزائرية ويفقد وجه الـ « نظام القديم » قيمته التفسيرية وعلينا أن نميز من الشكل الاساسي الذي يتلخص في تدمير الدول التقليدية في كل المغرب . ان الوسائل يمكن ان تتنوع اما الهدف فهو نفسه؛ انه النتيجة الاساسية للمرحلة الاولى من الضغط الاستعماري ؛ وهو كذلك المحصلة المنطقية لـ « توازن الانحطاط » .

اولاً : انكار الدولة بالعنف

أ ــ عندما انعقدت الازمة بين الحكومة الفرنسية والداي ، تخيل كل انسان رداً على الازمات الجزائرية ــ الاسبانية ونظر الناس الى الحملة التي اعدت ببطء كأنها حملة جديدة من اوريللي O'Reilly . فما من احد تدخل جدياً ؛ لا تركية لارغام الداي على مزيد من الليونة ولا انجلترا لردع فرنسا ولا باي تونس ولا سلطان مراكش لمساعدة الجار المعرض للخطر . وعندما تغلب الجيش الفرنسي المؤلف من سبعة وثلاثين الف رجل ، بسهولة على ستة آلاف جندي من الأوجاق Ujâq الذين أقلعوا منذ زمن طويل عن عادة القتال حقيقة ، وأن سكان مدينة الجزائر فتحوا ابوابها وانسحب الداي تاركاً للمنتصر ما يدفع به نفقات الحملة ،لم يأسف احد على النظام التركي [1] ، إلا ، بالطبع مبعوث الباب العالي الذي كان ينتظر بلا جدوى امام الغوليت La Goulette الاذن للابحار ومتابعة طريقه الى مدينة الجزائر لتنحية

---

(١) انظر محاكمة ابن ابي ضياف المصدر السابق جـ٣ ص. ص ١٦٧ – ١٦٨ ؛ أ.انصاري المصدر السابق حـ ٩ ص ٢٧ (الرسالة الثانية من سكان تلمسان إلى عبد الرحمن) .

الداي . وتفسير هذه اللامبالاة النسبية أن مدينة الجزائر لم تعد تمثل شيئاً منذ زمن طويل بالنسبة للجزائر في جملتها . حتى وهي منتصرة ، كانت السياسة الفرنسية تظل في اطار سياسة الاسبان ، فما من احد كان يحسب أن داخل البلاد استطاع ان يقدم فائدة ما للغزاة الجدد . وقد طفق هؤلاء الاخيرون انفسهم يبحثون عن امراء تابعين : فكروا بادىء ذي بدء بباي تونس الذي عرضوا عليه وهران Oran وعندما اخفقت العملية بسبب طابع المناورة المكشوف وخاصة لضعف الوسائل العسكرية والمالية التي كانت تملكها تونس [1] ، راحوا يحاولون مع الزعيمين المحليين اللذين كانا يديران المقاومة : الباي احمد في قسطنطينة والامير عبد القادر في اورانيا (منطقة وهران) Oranie ، دون الحصول على نتائج افضل مع ذلك . لقد جرت العادة على التنويه بالاختلافات التي نشأت بين الحكومة الفرنسية وجيش الفتح من جهة ، ثم فيما بعد بين هذا الجيش والمعمرين الذين كانوا يفدون باعداد متزايدة من جهة اخرى . الا أنها كانت تعتبر من وجهة النظر الجزائرية اختلافات ثانوية لان سياسة هؤلاء واولئك تتعاضد للوصول الى نفس النتيجة وهي توسيع المدى الاقتصادي الفرنسي ؛ ولم يكن هذا في الحقيقة يقتضي لا تحطيم دولة جزائرية (فتح شامل) ولا تدمير المجتمع الجزائري (الاندماج الذي اطراه المستوطنون بلا تحفظ) ؛ فان اقامة دولة تابعة مفتوحة للتجار الفرنسيين كان في وسعها ان تكفي . كانت هذه الحرية في المناورة تنشأ ، موضوعياً من المسلك المتبع من جانب الدولة الاكثر تقدماً في ذلك العصر وهي انجلترا ، واذا كانت فرنسا بعد كل حساب قد قررت اتخاذ وجهة اخرى فهذا يفسر بنموذجية الحالة الايديولوجية التي عاشتها فرنسا من عام ١٨١٥ إلى ١٨٧١ [2] فلا يفيد اذن في شيء أن نسبر غور دوافع شخص كبوجو Bugeaud أو لاموريسيير Lamoricière ، وان تبرأ سياسة نابليون الثالث او مكاتب الادارة العربية ،فان الأسباب كانت في غير ذلك والتفريق الوحيد المعتبر هو التفريق بين الايديولوجية

---

(١) ابن ابي ضياف ، المصدر السابق ص. ص ١٧٥ — ١٧٨ .

(٢) كان النظام السياسي ظاهر التخلف عن البنية الاقتصادية ،ومن هنا وجود وضع ثوري دائم كانت الواقعية الاقتصادية والأخلاقية أو الأدبية فيه تظهر كأنها خطيرة .

والبنية ؛ من هذه الزاوية كانوا ، جميعهم ، عسكريين ومستوطنين . غارقين في الايديولوجية، ايديولوجية الاسطورة الاسبانية بالنسبة لبعضهم وايديولوجية الاسطورة الرومانية بالنسبة للآخرين .

من الواضح ان قادة الجيش الفرنسي لم يكونوا متفقين على الستراتيجية المطلوب تبنيها ، وان كل واحد منهم قد بدل ، هو نفسه ، فكرته ، في اثناء العمليات ، ولكن صورة الحضور الاسباني على الشواطىء الافريقية كانت تلعب دوراً ايجابياً وسلبياً معاً في فكرهم : تخطئة الايبيريين في توطيدهم لاحتلال ضيق ، تصويب رأيهم وتخطئتهم معاً في تصميمهم على الفتح الكامل ، وليس الجلاء . وقد أجريت العمليات العسكرية والمساومات بالتعاقب مع زعيمي المقاومة بأمل التوصل الى قبول احدهما بوضع التابع . واذ رفض سلطان مراكش التدخل في منطقة نفوذه التقليدية ، اي منطقة تلمسان فان أحد سلالة اسرة مرابطية كبيرة ، عبد القادر بن محيي الدين هو الذي اختار الأهالي لقيادة الحرب ومنذ البداية اظهر مزايا رفيعة كمنظم وكزعيم [1] . فعمل ديمشيل Desmichels قائد وهران Oran الجديد للاتصال به وفي النهاية وقع معه معاهدة اعترفت به سيداً مستقلاً في اقليم وهران Oranie وايّاً ما كانت الاختلافات بين نصيّ المعاهدة : (العربي والفرنسي) ومداهنة المفاوض الفرنسي فمن الجليّ ان الاتفاق لم يكن له من معنى بالنسبة للمفاوض الفرنسي الا اذا كان عبد القادر في مقابل الحياد الفرنسي في منطقة وهران يقبل بصورة واقعية بسيادة الفاتحين على جزء من التراب الجزائري . والحال ان عبد القادر كان يقدر في الاكثر ، على اغماض عينيه على الحضور الاجنبي والمسيحي . وما عتّم هذا القبول ، لدى اختبار الوقائع أن أصبح ظاهرياً ؛ عندئذٍ ألغيت المعاهدة . لكن المحاولة الاولى لسحق الأمير (فشل تريزل Trezel في المقطع La Macta ، انتصار بوجو Bugeaud الصغير في السيكاك La Sikkak) اشعلت النار طويلاً فعقدت معاهدة ثانية هي معاهدة

---

(١) لم يحصل الأمير عبد القادر بعد على كاتب سيرة في مستواه . ثمة عناصر في محمد بن عبد القادر في تحفة الزائر ...، الاسكندرية ١٩٠٣ ج١ ص. ص ٩٦ – ٣١٧ ط ٢ بيروت ١٩٦٤ ؛ و. بلونت W. Blunt في كتابه : The Desert Hawk, Landres 1947

تافنا Tafna في ٣٠ مايو (ايار) ١٨٣٧ كانت أكثر دقة من الأولى وبهذا نفسه ، أكثر تعذراً للتطبيق على المدى الطويل ، اذ انها قسمت هذه المرة الارض الجزائرية بين سلطتين كان عليهما ، للتعايش ، ان يتبادلا التعاون ، الامر الذي كان مرفوضاً من حيث المبدأ . وفي غضون ذلك مورست اللعبة نفسها مع الباي احمد ؛ وفي مرتين عرضت عليه حالة التابع وفي المرتين هوجم عندما رفض . وقد انتهت المحاولة الأولى ضد قسطنطينة في نوفمبر ١٨٣٦ إلى كارثة ؛ ونجحت الثانية في اكتوبر (تشرين اول) ١٨٣٧ بالاستيلاء على المدينة ولكن في ظروف قاسية . وهذا ما شكل بالنسبة لعبد القادر إبطالاً للعقد .

في أكتوبر (تشرين اول) ١٨٣٩ استؤنفت الحرب وقد صمم الفرنسيون على المضي فيها حتى النهاية : تم تأمين وحدة القيادة واستقرارها بتسمية بوجو bugeaud حاكماً عاماً (في ٢٠ ديسمبر — كانون اول ١٨٤٠) وتركيز تكتيك ضد حرب العصابات وجمع وسائل هامة بالنسبة للعصر (١٠٨ آلاف رجل في عام ١٨٤٦) . ولسوف يصبح الهدف تحطيم دولة عبد القادر التي نجح بتنظيمها . وهكذا تم التخلي عن فكرة الحصول على الاعتراف بسيادة بسيطة على جزائر كانت تستمر في تشكيل كيان متميز ؛ وهي الفكرة التقليدية ؛ ولكن رغم فشل هذه السياسة على الصعيد الدبلوماسي فانها حظيت زمناً طويلاً بالمؤيدين في حقل السياسة الداخلية، ولا سيما في صفوف الجيش .

ب — دولة عبد القادر

لم يكن من قبيل الصدفة أن يأخذ الرد السريع ، الاحسن تنظيماً ، على الهجوم الفرنسي مكانه في منطقة وهران Oranie وباشراف احد ممثلي اسرة مرابطة . ذلك ان اشد مقاومة للاتراك ، كما رأينا ، كانت هاهنا ، لأن طغيانهم فيها كان افظع . فقد ابطل عبد القادر نظام الضرائب التركي واستبدله بالعشر على المحاصيل واعتمد اساساً على الارستقراطية الدينية وكافح الطوائف التي كانت قد تعاونت مع النظام السابق . لكنه حافظ على التقسيمات الاقليمية والادارية من العهد التركي وكذلك على

التنظيم العسكري ، فالنتيجة كانت اذن محددة في آن واحد بالحقبة التركية المنتهية وبالايديولوجية الدينية الاصلاحية ، التي كانت ، في ذلك العصر ، نافذة في مراكش المجاورة والتي استخدمت من قبل لزعزعة شرعية السلطة التركية . ولقد دار النقاش طويلاً حول المعنى الواجب اسباغه على هذه المملكة [1] ، مع ربط هذه المسألة بمسألة وجود أو عدم وجود أمة جزائرية ذلك العصر . وكون عبد القادر لم يكن الزعيم الفعلي للجزائر كلها ، وان تنظيمه لم يتمكن ، على أية صورة ، من ان يطبق ، كما هو ، على بلاد القبائل او على اقليم قسطنطينة ، فانه لا ينقص في شيء القيمة الرمزية لعمله . فان هذا العمل يؤكد بأن ثورات المرابطين ، في آخر النظام التركي ، كان لها معنى اصلاحي ووطني في آن واحد [2] ؛ وقد ساعد الهجوم الفرنسي على بلورة هذا الاحساس بما أن جميع الطوائف التي تعيش على ارض الجزائر ساعدت عبد القادر فيما بعد وما من شيء كان يمنع من تصور اجتماع منظمات محلية اخرى مختلفة التقاليد والبنية عن تلك التي رأت النور في منطقة وهران تقوم على شكل اتحادي او غير ذلك . فبالنسبة للجزائر كانت مملكة عبد القادر تعني ان التطور البطيء ، الذي كان ، منذ مطلع القرن الثامن عشر ، يفرغ الحضور التركي من محتواه قد كلل في غضون فترة قصيرة ، بالنجاح قبل ان يخلفه فاتح اقوى وافضل تسليحاً . وبالنسبة للمغرب كان يعني انه كان في مقدور الايديولوجية الاصلاحية الدينية وهي الاولى التي تظهر دائماً في دولة مسلمة واقعة في أزمة ، ان تعطي نتائج ايجابية بشرط تأمين وحدة عضوية بين القادة والمقودين ، فمن زاوية تاريخية ، كانت دولة عبد القادر ، تبعث مملكة تلمسان ولكنه على عكس الزيانيين توصل الى تسوية المسألتين الرئيسيتين في نظام الضرائب والجيش ؛ الامر الذي لن تنجح في اتمامه مراكش طوال القرن التاسع عشر . وايا ما كان من امر هذه الدولة فان الهجوم الفرنسي الذي قد

---

(١) انظر ر. غاليسو R.Gallissot في « عبدالقادر أو القومية الجزائرية (١٨٣٠– ١٨٣٩)» المجلة التاريخية ، ٢ لعام ١٩٦٥ ص.ص ٣٣٩ – ٣٦٨ ؛ «حرب عبدالقادر أو دمار القومية الجزائرية ، (١٨٣٩ – ١٨٤٧) » في Hesperis ١٩٦٤ ص. ص ١١٩– ١٤١ .

(٢) في رسالته إلى رجال القانون في فاس (١٨٣٦/١٢٥٢) يتكلم عبد القادر عن الوطن الجزائري « وطن الجزائر » ؛ فالمضمون لا يدع أي مجال للشك في المعنى . (أ. ناصري المصدر السابق ، ٩ ص ٤٥)

يكون عجل في ميلادها لم يكن في وسعه ان يسمح لها بالبقاء . حتى وان كان امكن العثور على لون من التعايش بين السلطتين ، فان هذه الدولة كانت ستنتهي ، على المدى الطويل ، كجارتيها الى ان تصبح تحت حماية يتزايد تأكيدها .

« يجب منع العرب من الزرع والحصاد والرعي ... » أمر بوجو bugeaud وقد طبقت هذه السياسة بنظام عندما فشلت السياسة الاكثر براعة لشق ضباط الأمير عنه . وعندما تم احتلال مدن تلمسان وتنيس وتياريت اصبح حكم عبد القادر بدوياً ، ثم استولي على معسكره نفسه في ١٦ مايو - ايار ١٨٤٣ . وفي نوفمبر - تشرين الثاني من العام نفسه قتل احسن ضباطه . عندئذ قرر عبد القادر الاعتراف بالسيادة المراكشية لمواصلة حرب ذات طابع تقليدي . ولكن السلطان عبد الرحمن لم يكن البتة ميالا لان يدع الى الزعيم الجزائري عناية اصلاح مراكش على ضوء ما فعل في اقليم وهران [١] فقد استقبله كضابط من اعوانه قد فشل في مهمته . وانتهى التدخل المراكشي بالطبع الى انكسار شنيع (ايسلي في ١٤ اغسطس - آب - ١٨٤٤) وبمعاهدة طنجة (في ١٠ سبتمبر - ايلول - ١٨٤٤) الموقعة تحت رعاية انجلترا ، غنمت فرنسا ما لم تحصل عليه حتى ذلك الحين ، لا من تركيا ولا من القادة المحليين : اعتراف قانوني بوجودها في الجزائر . ولم تتوقف الحرب حتى من اجل هذا ؛ بل انها عندئذ غدت شرسة بكل وضوح لكنها غيرت معناها . فقد استطاع الفرنسيون منذئذ أن يطلقوا عليها تمرداً وان يعاملوا المقاتلين كعصاة وفي نفس الوقت سوف تصبح المقاومة العامة والمنتشرة التي تدوم حتى استسلام عبد القادر في ٢٣ ديسمبر - كانون الاول - ١٨٤٧ ، ذات مغزى عظيم للمستقبل : ذلك أن المقصود بعد عام ١٨٤٥ لم يعد تحطيم دولة ، بل تحطيم مجتمع .

جـ - السياسة الاستعمارية

على هذا المستوى، كذلك نلاحظ التعارض بين ايديولوجية النظام القديم (سيادة

---

(١) ا. ناصري المصدر السابق ص ٥١ (حول العلاقات السيئة بين عبد القادر وابن السلطان ، محمد الرابع المقبل) .

سياسية) وبنية رأسمالية حديثة (تحرر الفرد من الأعباء المشتركة) ، وكلا المشروعين يجلبان استعماراً أرضياً ليس له ، بالطبع ، نفس المعنى في النظامين . ولما كان البرنامجان يطابقان حقائق فرنسية واقعة ، لم يكن في وسع احداها التغلب على الاخرى ، فإنهما وضعا موضع التطبيق في آن واحد ، كل منهما في اقليم محدد . ففي المنطقة المدنية طبق القانون الافرنسي وفككت البنية القضائية الاسلامية ، شيئاً فشيئاً ، وفي المنطقة العسكرية التي كانت تتعاظم يوماً بعد يوم باتجاه واحات الجنوب أبقي على البنية القديمة ، الاجتماعية والادارية ، مع الاعتماد المقصود على الارستقراطية المحلية التي خدمت الاتراك [1] . وعلى الرغم من التقلبات في صياغة السياسة الرسمية ، المنشورة في المعتاد ، فان هذه الثنائية لم تتعرض للخطر ابداً ؛ كانت الاختلافات في الرأي تتقلص الى مسألة المعدل في التوسع في المنطقة المدنية [2] . فما من شيء يظهر ذلك أفضل من نمو الاستعمار الارضي ، الذي لم يعرف توقفاً في أية لحظة . ان جميع النصوص التشريعية ، بدءاً من اوامر عام ١٨٤٤ و ١٨٤٦ إلى قرارات مجلس الشيوخ في ٢٢ ابريل — نيسان — ١٨٦٣ تستخدم معاني الحق الروماني الذي وضع في خدمة النظام الرأسمالي الحديث لانتزاع الارض من أصحابها . فبعدم التفريق بين أراضي المرور والاراضي غير المزروعة ، الشيوع والملكية المشتركة ، وبالافراط في توسيع الغابات جرى حصر السكان في جزء من الارض تزايد ضيقه ، ولم يكن العسكريون في هذه النقطة يختلفون في تفكيرهم عن المدنيين : كانوا يريدون فقط الدفاع عن حرمة الملكية الفردية (قانون ١٦ يونيو — حزيران — ١٨٥١) وترك العناية للوصول الى التفرّد (رسالة ٦ فبراير — شباط — ١٨٦٣ و S. e تاريخ ٢٢ ابريل — نيسان — ١٨٦٣) الى مبادرة الادارة. وبهذا نفسه كانوا يفتحون ابواب المستقبل على مصراعيها للمعمرين [3] . وعلى رغم كل ما قيل عن حسن نية نابليون الثالث إزاء السكان

---

(١) قارن ف . مونتيل V.Monteil «المكاتب العربية في المغرب (١٨٣٣–١٩٦١) » ، مجلة اسبري عدد نوفمبر – تشرين الثاني – ١٩٦١ ص. ص ٥٧٥– ٦٠٦ .

(٢) تمثل سياسة نابليون الثالث نوعاً من انتقام البنية من الأيديولوجية ولكن متأخر ومتردد .

(٣) إن تكوين املاك عامة لحساب المعمرين قد درس مؤخراً من قبل ج.روئيدي J.Ruedy في كتابه : Land and policy in Colonail Algeria. U. of. eal p. los Angelos 1967 فهو يضع موضع الاتهام بعض الأفكار المستقاة . فان مراسيم ١ – ١٠ – ١٨٤٤ و ٢١ – ٦ – ١٨٤٦ وقانون ١٦ - ٦ – ١٨٥١ و .S.C الصادر في ٢٢–٤–١٨٦٣ ، التي كانت الأدوات الشرعية لنزع =

الجزائريين فان المحتوى الحقيقي لسياسته هو ان ١,٢٠٠,٠٠٠ هكتار حجزت لصالح الاستثمار الاستعماري في عام ١٨٦٦ ؛ الفارق الوحيد الذي كان يفصله عن شانثيه هو انه بتأثير الايديولوجية الرأسمالية الحديثة التي كانت تتضح في السانسيمونين ، كان يحلم للجزائر برأسمالية على المستوى الامريكي لا الفرنسي فحسب . وحوالي عام ١٨٧٠ استولى المعمرون على ما يقرب من ٦٧٤,٣٤٠ هكتار من الارض وعلى ١٦٠,٠٠٠ من الغابات،فكان هذا الامر يعبر بذاته، عن أن تحطيم المجتمع الجزائري ، قد بدأ على نطاق واسع ولكن ليس على نمط واحد في جميع اجزاء الارض الجزائرية. وفضلا عن ذلك لم يكن هذا يتعلق الا بقدرة امتصاص المجتمع الفرنسي .

د ـ تدمير بالاقتصاد

كان عدد المعمرين في حوالي عام ١٨٧٠ يقرب من ٢٥٠,٠٠٠ ، يعيشون في اقتصاد منظم لهم ، في خدمتهم بنوك وبورصة تجارية (ابريل ـ نيسان ـ ١٨٥٢) وسكك حديدية ، ومكاتب بريد وينتجون للسوق الفرنسية (اتحاد جمركي جزئي مع فرنسا في عام ١٨٥١) . وكان السكان الجزائريون ، العائشون في اقتصاد تحت السيطرة يخسرون ـ كما يحدث هذا في ظروف مشابهة ـ اذا ارتفعت الاسعار او انخفضت . وابتداء من عام ١٨٦٤ ، اضيف الى حصر القاعدة العقارية هبوط الاسعار وهبوط الانتاج (الذي نقص في عام ١٨٦٧ إلى ١/٥ الرقم الحاصل في عام ١٨٦٣) : مما أدى الى مجاعة عامة واقرب الى الاحتمال ان يتجاوز عدد ضحاياه كثيراً رقم ٣٠٠,٠٠٠ الذي يساق عادة [1] . وهكذا فان تدمير المجتمع كان يؤول بعمل السياسة والاقتصاد المتضافر الى تدمير جسدي .

= ملكية الفلاحين الجزائريين قد قام بتحليلها أ . بيرنار A. Bernard في كتابه: الجزائر ط بلون ١٩٣٠ ؛ ش. ا. جوليان المصدر السابق وش. ر. أجيرون في : تاريخ الجزائر المعاصرة ط P.U.F ١٩٦٤ . فالتحليلات تتقاطع وتتكامل .

(١) في موضوع سكان الجزائر، حتى إذا رفضنا رقم العشرة ملايين جزائري في عام ١٨٣٠ الذي يدافع عنه م.هابارت M.Habart في كتابه: تاريخ حنث. في اليمين طبعةمينوي١٩٦١وقبلنا رقم الخمسة ملايين ، المقبول على وجه العموم فانه ينتج عن ذلك أن الجزائر قد فقدت نصف سكانها من عام ١٨٣٠ إلى ١٨٧١ ؛ وهذا لايمكنه أن يكون حصيلة النوازل الطبيعية فحسب . أنظر ش. ا. جوليان ، مقال في الموند ١٣ ـ ١١ ـ ١٩٦١ ؛ م. لاشراف في : الجزائر : أمة ومجتمع ١٩٦٥ ص ٢٢١ رقم ٢٧.

ﻫ – رد فعل جزائري

في عهد الاتراك كانت السلطات المحلية هي الممسكة بالحكم الحقيقي : نخبة دينية ، ارستقراطية قيادية للجيش . وكانت دولة عبد القادر تدين بقوتها الى اتحاد هذه السلطات وقد توحدت في لحظة ما . وبعد عام ١٨٤٧ حـاول العسكريون الفرنسيون الابقاء على الاسلوب مع تغيير الناس : الا ان سياسة تحديد الارض والغاء السلطات القضائية الاسلامية حالت دون ذلك التوفيق بين النخبة التقليدية والنظام الجديد ومن هنا سلسلة الثورات في الاوراس والهودنة Hodna والتل الاوراني Telle Oranais وجبال القبائل الشرقية من عــام ١٨٥٩ إلى ١٨٧١ . وكان الزعمــاء المحليون ، شأنهم في ايام الأتراك مكرهين على القيام بدور الوسطاء بين الفرنسيين ومحكوميهم ؛ وكان عليهم ان يراعوا في حسابهم مصلحتهم وحظوتهم ، في آن واحد ، في وسط جماعتهم ؛ اذن كان وضعهم دائماً دقيق الابهام . ولكن فيما وراء سلك العسكريين والاداريين في اختصاصهم ، بل فيما وراء تردد الحكومة الفرنسية الواضح فيما يتعلق بالهامش المطلوب تركه للشريعة الاسلامية في المجتمع الجزائري ، كان هناك عمل متصل ، نتائجه الاضافية ، كانت في تعميق التناقضات بين الزعماء والرعية : وهو عمل الاقتصاد الرأسمالي بواسطة انخفاض الدخول والتحريض على الانفاق والاستدانة وفوق مساحة ، يتزايد ضيقها ، أخذ السكان الجزائريون يزدادون فقراً اكثر من ان يصار للمحافظة على منزلة الصفوة التقليدية . ومن هنا كانت ثقتهم تتآكل وتنحسر ، وقبل ان تظهر نخبة جديدة الى الوجود لم يكن قد بقي للجزائريين الا زعماء اقوياء في الرياء ، ضعفاء في التجربة . ولاشيء يظهر ذلك أفضل من انتفاضة عام ١٨٧١ الكبرى التي شارك فيها أكثر من ثلثي السكان ، فاذا حللنا عمل الزعماء وحدهم لأمكن بالتأكيد ربطها بالانكسار الفرنسي امام بروسيا أو حتى جعلها وليدة مؤامرة بعض رؤساء الجيش للدفاع عن مركزهم في الجزائر . واذا نحن تقصينا عمل

---

(١) لقد دفعت سياسة المكاتب العربية .B.A في تحسين طرق الاستثمار الزراعي المشايخ والقادة (Shaykh-Setqo'id-s) إلى نفقات نفوذ وبالتالي إلى الاستدانة .

الفلاحين لكشفنا فيه بالطبع نتيجة سياسة تحديد الارض والانخفاض الثابت للاسعار والانتاج في غضون اربعين سنة متتالية . هذا الفارق في التفسير ممكن لأن التفريق بين موقف الزعماء وموقف الجماعات والعمال الزراعيين كان حقيقة واقعة بالتأكيد : فقد انتظر الزعماء وساوموا وحاولوا انقاذ امتيازاتهم بأقل النفقات ويدعون فرص الانتصار بالمفاجأة تمرّ . في حين عهد الفلاحون ، وهم واعون لهذا الرياء ، الى رجال مختارين في البدء من أجل المحافظة على السلم في الريف ومنع افعال السلب (الشرطية Chartiya) لمراقبة الزعماء [1] . وعلى الرغم من هذه الاحتياطات وشجاعة الثائرين الذين صمدوا بلا سلاح مدة سبعة شهور فان الانتفاضة فشلت في مطلع عام ١٨٧٢ ؛ وكان المعمرون مستعدين للافادة من هذا الفشل الى اقصاه . ولكن قبل أن يجعلوا الجزائريين ، بانتقام مريع ، يدفعون ثمن ما اصابهم من حقوق ، فان مسار التمرد نفسه قد اظهر انه اذا كان الافرنسيون ، في عام ١٨٤٧ ، قد هدموا بُنى المجتمع الجزائري العليا ، فقد عمل التشريع والاقتصاد في عام ١٨٧١ على تفجير البُنى الوسطية . ولسوف تعمل السياسة الافرنسية على انشاء ارستقراطية جديدة ولكن دون تأثير وحظوة . وسيستمر الجنوب الجزائري ، منطقة نفوذ العسكريين وبلاد الحماية ، في أن يكون ملجأ الجمعيات الدينية (انتفاضة اولاد سيدي الشيخ سوف تدوم حتى عام ١٨٨٤) ؛ وفي نهاية الامر عندما صار كل شيء مرتباً وصار من المفترض ، ان الفرد الجزئري ، الذي اخرج من منزله ، غدا بلا دفاع امام اسياده الجدد : فان سياق العملية كان قد بلغ حقا نهايته . ومنذئذ وطوال خمسين عاماً فان الواجب الوحيد سيكون الصمود .

كان تاريخ الجزائر من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٨٧١ سلسلة من الحيل : المعمرون، الذين كانوا ، كما قيل لنا ، يريدون ان يجعلوا من الجزائريين رجالاً مثلهم ، في حين كانوا يريدون بصورة خاصة ان يجعلوا من الارض الجزائرية ارضاً فرنسية؛ العسكريون الذين يحترمون التقاليد وطرق الحياة المحلية في حين كانوا يحاولون ان يحكموا بأقل

(١) تجدر مقارنة هذه الشرطيات لعام ١٨٧١ بشرطيات عام ١٨٦٤ في تونس : فان الفكرة قد جاءت من الشرق وليس من الشمال . أنظر ابن ابي ضياف المصدر السابق ، ٥ ، ص ١٢١.

النفقات ؛ نابليون الثالث الذي كان يزعم تأسيس مملكة عربية ، في حين ان فكرته كانت بصورة خاصة «امركة» الاقتصاد وبالتالي احلال الاستعمار الفرنسي .ولكن عندما يُشار الى جميع الفروق التي يعكسها وضع ايديولوجي واضح حيث تتعارض جميع البواعث والاسباب في كل لحظة ، يبقى ان السياسة الفرنسية في الجزائر (الفتح وما بعد الفتح) تفسر ربما قبل كل شيء بتأخر (بالنسبة لانجلترا) الرأسمالية الفرنسية ؛ فان الاستعمار الفرنسي في الجزائر يرجع في آن واحد الى استعمار القرنين السابع عشر والثامن عشر والى الامبريالية المعاصرة ويفسر مركزه في التعاقب التاريخي سير الحوادث كثيراً أكثر من المناخ الجزائري أو ذكرى الحركة الرومانية . وعليه ، ان تركيب اشكال العنف الثلاثة التي يتطلبها كل مشروع استعماري : شكل السلاح ، شكل القانون وشكل الاقتصاد كان هنا خاصاً جداً : الأول تغلب على الثاني وتغلب الاثنان معاً على الثالث ولكن بصورة ظاهرة فحسب اذ أن الاقتصاد (الذي كانت نقطة ارتكازه وبالتالي سببه في فرنسا) قاد المشرع والعسكري الى ابعد من الاهداف المقصودة ، ففي عام ١٨٣٠ لم تكن المسألة المطلوبة هي تدمير الدولة الجزائرية وانما احلال عاهل مكان آخر فحسب ؛ وفي عام ١٨٤٧ ، لم يكن الهدف تهديم المجتمع ، وفي عام ١٨٧٠ لم يكن قد فكّر بعد في تزييف الفرد التقليدي : وهذ هو ما جرى مع ذلك ولما كان الاقتصاد الذي يتطلب ذلك ما يزال ضعيفا فانه لجأ الى السلاح والى القوانين . ولكن مع مرور الزمن ، اي مع تمكنه من توطيد اركانه نفسه توصل الى ان يستغني عن هذا الدعم ، وهذا ما كانت تظهره ، للملاحظ المعاصر ، تجربة تونس ومراكش .

ثانياً : تدمير الدولة بالدبلوماسية

أ ـ تونس

لقد استمرت تونس ظاهرياً في القرن التاسع عشر في ابراز الاصالة نفسها بالنسبة لسائر المغرب . لكن راحت تضاف الى العنصرين اللذين كانت علاقاتهما تشكل الأساس الخلفي للحوادث الاجتماعية ـ السياسية وهما : النخبة ذات الاصل التركي والنخبة ذات الاصل المحلي ـ جالية اوربية مستعمرة ، متزايدة العدد وكان يتكلم

باسمها القناصل وثقل القسطنطينية السياسي ، متعاظم الفعالية ، ومن هنا تعقيد الحالة ، التي سيطرت عليها الى حد بعيد اللعبة الدبلوماسية . الا ان السياسة الفرنسية بعد عام ١٨٣٠ نجحت في فرض نفسها كقوة حاسمة ولكن بالتنافس مع قوة انجلترا (١) كان عليها ان تتخذ شكلا اكثر تمييزاً واكثر عصرية منها في الجزائر .

١ً - الوضع الدبلوماسي - حددت اللعبة بالمعارضة بين فرنسا وانجلترا : كانت انجلترا تريد توطيد السيادة العثمانية على تونس ، بينما كانت فرنسا تختار ان تلعب ورقة الاستقلال ، بادىء ذي بدء بحذر ثم تحت حكم نابليون الثالث بطريقة عدوانية آخذة في التزايد . وعلى عكس ما كان في الوسع توقعه لم تكن النخبة التركية الاصل وعلى رأسها الباي معادية للسياسة الفرنسية بينما جنحت النخبة المحلية الاصل نحو انجلترا والسلطان (٢) . والسبب في ذلك بسيط : ان ما دعوناه بالاصلاح الحفصي الذي كان يدع المجال للتنبؤ ببدايات وعي قومي حديث ، كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بنمو الطبقة التجارية في المدن ، وكانت هذه الطبقة تريد اصلاحات .

والحال ان تركيا كانت منذ مطلع القرن التاسع عشر تباشر تجارب اصلاحية متزايدة العمق (منها العسكرية ، من سليم الثالث الى الخط الشريف الكولهان في عام ١٨٣٩) . وكان في الوسع التوفيق في هذه الحالة بين الرغبة في الاصلاح وارادة التوكيد القومي . بالمقابل كان الاستقلال بالنسبة للباي يعني بصورة خاصة وسيلة للحفاظ على حكمه المطلق ، الأمر الذي كان يخدم على اروع وجه المرامي الفرنسية ، اذ كانت تونس على هذا النحو قد اضعفت داخلياً وعزلت خارجياً في آن واحد . الا ان فرنسا لم تكن تستطيع الذهاب بعيداً جداً في هذا الطريق إذ كانت الاصلاحات على نحو أو آخر في صالحها كذلك كما ستكشف عنه الحوادث بعد قليل، ومن هنا

---

(١) لقد وجدت سياسة انجلترا شكلها في المعاهدة الإنجليزية التركية لعام١٨٣٨ التي سوف ترغب بريطانيا العظمى تطبيقها على تونس بمجرد التصديق والتي ستفيد كنموذج للمعاهدة الإنجليزية- المراكشية المؤرخة في ٩ - ١٠ - ١٨٥٦ .

(٢) انظر التفصيل المسهب الذي يكرسه ابن ابي ضياف للعلاقات التونسية- العثمانية ، المصدر السابق ، ٦ ، ص. ص ١٣ - ٣٠ وعلى الأخص ص ١٦ .

تلك البيئة الملائمة صراحة للدسائس . فقد كانت للبايات حسين الثاني ومصطفى واحمد باشا علاقات سليمة بل ودية مع السلطات الفرنسية في الجزائر بهدف مقبول هو النجاة من مصير الكارامنلي Caramanli الذين افقدتهم صراعاتهم الداخلية الدامية باشاوية طرابلس . ولما كان موقف لوي – فيليب حذراً اضطر احمد باشا الى القيام بحركات مصالحة بازاء السلطان كما يدل على هذا مساهمته على رأس اربعة عشر الف رجل وعدة مراكب حربية في الحروب التركية – الروسية سنتي ١٨٥٤ – ١٨٥٥ واخذت تونس تدريجياً تستعيد مكانتها في الامبراطورية العثمانية كما كانت فعلت ذلك في نفس الوقت مصر بعد موت محمد علي ، وكانت الحالة على هذا النحو ملائمة لسياسة اصلاحية بالاتصال بالمؤشرات العثمانية والانجليزية والى حد ما الفرنسية .

٢ – الاصلاحات

كانت الاصلاحات التي فازت بالاسبقية تقليداً صرفاً سواء لاوربا أو لتركية كتغيير اللباس في عهد حسين ، ابتكار النياشين او سك قطع العملة التذكارية من قبل مصطفى بك [١] ؛ كذلك فان اغلاق سوق العبيد في تونس عام ١٨٤٦ كان بخاصة موجهاً لاعطاء انطباع حسن للخارج . وثمة عدد من المبادرات الحسنة على صعيد التعليم كانت كذلك جديرة بالتبيان مثل اعادة تنظيم مكتبة الزيتونة وتأسيس جريدة رسمية [٢] . وكانت هناك اصلاحات اخرى تتعلق بالجيش : كما جرى في تركية فان نظام الانكشاري البالي ، الذي أصبح منذ زمن طويل مجرد بقاء ، ألغي في مطلع القرن ونظم جيش جديد (النظامية) من قبل حسين في بداية الامر ثم احمد باشا بصورة خاصة الذي أنشأ جيشاً قوامه ٣٠,٠٠٠ جندي بالتجنيد الاجباري ، مزوداً بمدفعية هامة . وفي عام ١٨٤٠ – ١٢٥٦ انشئت مدرسة عسكرية في باردو Bardo وجند لها مدرسون اتراكاً واوربيين [٣] . كذلك كانت لتونس بحرية حربية

---

(١) ابن ابي ضياف ، المصدر السابق ، ٦ ، ص ١٨ ، تعليقات تقزز على هذه النياشين .

(٢) من المفيد جداً دراسة لغة هذه الصحيفة لأنها تظهر التقدم العظيم المتحقق منذئذ .

(٣) انظر ، في الشيخ قبادو الذي كان يعلم فيها اللغة العربية ، شرح ابن عاشور في كتابه : الحركات ص ١٤ وما يليها الذي يتحدث بهذه المناسبة عن تفاعل الزيتونة بالعلم الحديث .

صغيرة . ومثلما هي الحال في الاصلاحات التركية والمصرية يصعب اعطاء تحديد صحيح تاريخياً لهذه السياسة . ارادة لتوطيد الطاقة الدفاعية الكامنة في البلاد في وجه مهاجم محتمل (فرنسا في هذه الحالة) ؟ ميل للانبهار بالمظاهر العصرية ؟ عدم قدرة في معارضة اغراءات التجار الاوربيين ؟ ان هذه الاسباب جميعها قد لعبت دورها بالتأكيد : غير ان المحصلة ستكون قوة بوليس حديثة أكثر من ان تكون جيشاً ، سوف تخدم بخاصة في تأمين النظام الداخلي ، المطلب الاساسي للجالية الاجنبية والناطقين باسمها : القناصل .

كانت النتيجة المباشرة لهذه السياسة اصلاحاً ضرائبياً عرّى مباشرة تناقضات المجتمع التونسي . فقد حاول حسين الثاني تحسين حصيلة الضريبة العقارية باستبدال تقدير الانتاج الزراعي قبل الحصاد بالعشر المحسوب على المحصول لكن احمد باشا هو الذي وجد نفسه مضطراً لانشاء رسوم جمرك وضرائب على التجارة الداخلية والاحتفاظ لنفسه باحتكار بيع الملح والتبغ والصابون ... وعلى الاخص باللجوء الى الذريعة المشتركة بين جميع الحاكمين الواقعين في مصاعب مالية : اجارة الضرائب العقارية ، وليس من الصعب ان نرى في جميع هذه الاصلاحات المزعومة تأثير المستشارين الاجانب بالتواطؤ مع التجار المنتفعين قبل كل شيء بالنتائج المباشرة . فليس فحسب ان الاجارة أغنت الأفراد ، مثقلة كاهل الدولة بالديون وعاملة على افقار السكان ، الا ان الضرائب على التجارة جعلت بحبوحة بيت المال مرتبطة بازدهار التجارة الاجنبية التي لم تعد ، اذ بلغت مستوى معيناً ، تتلاءم مع احتكارات الدولة [1] وإذ رأى الباي محمد الثاني خليفة أحمد باشا التناقض ، المستعصي على الحل ، الذي كان يحكم بالفشل جميع هذه الاصلاحات فانه صمم على الغاء الجيش والنظام الضرائبي الذي كان من شأنه تمويله ؛ وحسب انه قد حلّ جميع المصاعب بانشاء ضريبة وحيدة ، شخصية وعامة (**الاعانة** التي سوف تأخذ فيما بعد الاسم النوعي **مجبي** ، فريضة) عام ١٨٥٦ — ١٢٧٢ . فلو امكن اخضاع النفقات للسيطرة لكان

---

(١) انظر ا.ريمون A.Raymond في « فرنسا وبريطانيا العظمى ومسألة الاصلاح في تونس » : دراسات مغربية ، مجموعة مقالات ش. ا. جوليان . ص. ص ١٤٦ — ١٤٧ رقم ٥ .

في وسع الاصلاح ان ينجح لكن ضغط التجار الاجانب كان قوياً جداً ؛ كانت كل سياسة في التقشف تبدو لاعينهم كأنها علامة للعداوة . وان عددهم المتزايد هو الذي يسمح ، في الحقيقة ، على وجه الدقة بادراك تكوين الاصلاحات السياسية .

لقد افضت الروح الاصلاحية نفسها وهي تعبر عن الرغبة في ان تكون صلاتها طيبة مع الخارج ، والتداخل المتزايد وضوحاً بين مصلحة الدولة ورواج التجارة ، إلى ازدياد الجالية الاجنبية [1] التي أخذت تلح اكثر فأكثر في طلب الضمانات وبواعث التشجيع . وكان الشعار بالتأكيد هو شعار الحرية ؛ والعدو المطلوب التغلب عليه هو نظام التشريع الاسلامي ، وليس من الضروري هنا مناقشة صحة الحجج المستخدمة ضد هذا النظام ، يكفي الاشارة الى خاصيتها المتغايرة ؛ بعضها بقي في اطار هذا النظام متذرعاً بحق الامتيازات الاجنبية وكانت الاخرى مقتضيات صياغة العلاقات الرأسمالية في قواعد ، وما كان الاجانب يرفضونه بالفعل في الحق الاسلامي هو وجهه المشترك : دفاع عن ملكية جماعية : كفالة الاجر [2] العادل . في الماضي كانت تجري محاكمة الاجانب بوصفهم افراداً ، وفقاً لقوانينهم الخاصة ، ولكن ما ان ازداد عددهم حتى باتت فعاليتهم لا يسعها ان تنمو الا إذا كانت تلك القوانين تشمل الآخرين ؛ وهذا التعميم كان يسمى اصلاحاً . وهذا ما سبق ان كان معنى **التنظيمات** في تركية ، وكان هو المغزى الحقيقي لاصلاح ٩ سبتمبر – ايلول – ١٨٥٧ – ١٢٧٤ في تونس . فبعد عدة تغيرات طارئة كان دور القناصل فيها حاسماً [3] ، اعلن الباي محمد **عهد الامان** الذي كان كما يدل على ذلك اسمه يصلح الجهاز القضائي .

---

(١) يعطي ج. غانياج J. Ganiage رقم ١٢,٥٠٠ في عام ١٨٥٦ ؛ يمكن ان نضيف اليه قسماً لا بأس به من الـ ٢٣,٠٠٠ يهودي الذين كان عدد كبير من القناصل يحاولون كسبهم بواسطة الحماية (المصدر السابق ، ص ١٧٣) .

(٢) في اجابة القنصل البريطاني وود Wood على ابن ابي ضياف ، المصدر السابق ، ٤ ، ٢٣٦ نلمح جيداً أنه يأخذ على اجتهادات القضاء على النحو التي تطورت اليه على مر العصور وليس على المبادىء الأخلاقية للاسلام التي لا تؤذي احد بالطبع .

(٣) ابن ابي ضياف المصدر السابق ، ٤ ، ٢٣٣ وما يليها ؛ ج . غانياج : جذور الحماية الفرنسية في تونس (١٨٦١ – ١٨٨١) باريس ١٩٥٩ ص. ص ٧١ وما يليها .

وكانت مبادىء العهد الاحد عشر تكفل الحرية الدينية لغير المسلمين (المبدأ الرابع) المساواة امام القانون (المبدأ الثامن) ، المساواة في الضرائب (المبدأ الثالث) ، منع كل احتكار تجاري (المبدأ التاسع) ، حق غير المسلمين في شراء العقارات (البند العاشر) . والى جانب محكمة الشرع Shra العليا أنشئت محكمة للمسائل الجنائية (المبدأ السادس) ، ومحكمة تجارية بمشاركة اجنبية (المبدأ السابع) . وقد تلي هذا العهد في اثناء احتفال مهيب بحضور القناصل وكبار الموظفين واقسم الباي يمين الاخلاص في تطبيقه . فاذا أمكننا اعتبار هذا العهد كأول كبح لحكم الباي المطلق لتبينا بأن الجالية الاجنبية (التي اندمجت في مصالحها ومطالبها في مصالح ومطالب الجالية اليهودية المحلية) قد فرضت بمساعدة القناصل ، مدعمين في مساعيهم بمناورات ارهاب بحرية ، نوعاً من الثورة الليبرالية . فايا ما كانت وحدة المصالح التي كانت تربط هذه الجالية بالنخبة التونسية والعطف الذي استقبلت به هذه النخبة الاصلاح الا ان الامر يبقى مع ذلك ان عدداً من الاجانب المقيمين بدأوا بهذا العمل في تغيير طبيعة دولة الباي ليجعلوا منها جهازاً في خدمتهم . وعليه اتخذت فيما بعد اجراءات لتطبيق عهد الأمان مثل انشاء مجلس بلدي مع تونس سمي اعضاؤه من اعيان المدينة . واقام خليفة محمد بك (توفي عام ١٨٥٨) **محمد الصادق** المحكمة الجنائية سالفة الذكر التي كان عليها ان تحكم وفقاً لقانون مكتوب وانشاء محكمة الاستئناف (**مجلس التحقيق**) ثم عين مجلساً كبيراً من ستين عضواً ، كان عشرون منهم من اصحاب الرتب العالية في الدولة ، وهو مجلس كان يقوم في آن واحد بوظيفة مجلس استشاري في الامور السياسية والضريبية ومجلس الدولة . ولقد صيغت قواعد سير هذه المجالس المختلفة والضمانات الممنوحة لاعضائها في نص كان يشكل نوعاً من ميثاق كان نابليون الثالث اول من حصل عليه في الجزائر في سبتمبر – ايلول – ١٨٦٠ في اثناء زيارة الباي له ، قام بها بالحاح من قنصل فرنسا في تونس ، وصدر هذا الميثاق (**او قانون الدولة**) في يناير – كانون الثاني – ١٨٦١ وجرى تنفيذه فقط في ٢ ابريل – نيسان – وظل مطبقاً مدة ثلاث سنوات ، وفي غضون ذلك أعلنت مراسيم مختلفة من عام ١٨٥٨ الى ١٨٦٣ كانت تعمم حق التملك العقاري على الاراضي التونسية وحق تعاطي

جميع انواع التجارة : كان أهم نص في هذا المجال الاتفاق الانجليزي – التونسي في ١٠ اكتوبر – تشرين اول – ١٨٦٣ – ١٢٨٠ [١] . اما الاصلاح العسكري من جانب احمد باشا الذي كان يمكنه ، نظرياً ، ان يتيح لتونس الصمود في وجه الضغوط الاجنبية لو تم استباقها في ميدان اعادة التنظيم السياسي – الاداري ، فقد فشل بسبب الصعوبات المالية . وحسب محمد بك انه بالانقياد للمطالب الاجنبية لن يعود بحاجة لان تكون له قوة مسلحة هامة ؛ لكن الضغط الاوربي كان ، على وجه الدقة ، لا يسعه ان يخفف من حدته الا اذا كان النظام الداخلي مصاناً ولم يستطع محمد الصادق التنبؤ بأن اصلاحاته ، وهي تعبير عن تأثير اوربي متزايد ، كانت تفصح كذلك عن الانحطاط بالسكان التونسيين الذين كانوا لا يستطيعون القيام برد فعل عنيف . فالاصلاحات التي ادخلت ظاهراً لجعل تدخل البلاد الاوربية المباشر في غير طائل ، كانت تمهد ، في حقيقة الامر ، التربة لهذا التدخل .

٣ - الازمة

كانت هذه الازمة من نمط سوف يصبح مألوفاً في القرن التاسع عشر ؛ وهي اساساً ، نتيجة الاتصال بين تكوينين اجتماعيين – اقتصاديين متغايرين ؛ خارجياً تولدت من تقريب دولة من نمط حديث من مجتمع لم يكن يجد نفسه فيها ولم يكن في وسعه فضلا عن ذلك تحملها مالياً .

في عام ١٨٥٨ ، في نفس الوقت الذي اعلن فيه عهد الامان كانت الازمة الاقتصادية التي تتهيأ منذ سنوات ، قد بلغت ذروتها على شكل اختلال عظيم في النقد [٢] . فقد كانت الاقليات الاجنبية ، مستفيدة من الرغبة في التحديث التي تملكت النخبة السياسية في البلاد ، راكمت ديوناً عظيمة كانت تتزايد عاماً بعد عام من جراء معدل فائدة مرتفعة جداً . واذا لم يكن لديها من البضائع ما تصدره (زيت ، حبوب بخاصة) فقد كانت تعمل على اخراج القطع الذهبية والفضية من البلاد ؛ وكانت اسعار المنتجات تتناقص كما يتناقص دخل السكان الريفيين . ان العملة النحاسية

---

(١) ابن ابي ضياف ، المصدر السابق ، ٥ ، ص. ص ١٠١ – ١٠٥ .
(٢) ابن ابي ضياف المصدر السابق ص. ص ٢٥٣ – ٢٥٥ .

كانت وحدها توجد بوفرة ، وبسرعة كبيرة فقدت قيمتها ؛ لم يعد التجار يقبلونها وكانت الحلقة الاقتصادية مختلة. فقررت تخفيض مقنع ب ٥٠ بالمئة لكنه لم يكن سوى ذريعة بائسة اذ إن التجار الاجانب اشتروا بسعر منخفض تلك القطع النحاسية التي عملوا على أن تستردها الدولة منهم بالسعر العادي قبل التاريخ النهائي المحدد لتبديل القطع . ولم تستطع دولة البايات ابداً التغلب على هذه الازمة النقدية . واهم منها الاشارة الى العواقب الاجتماعية لهذا الاختلال النقدي اذ كان كل اصلاح مالي محكوماً عليه بالفشل ؛ كان التجار الاجانب المدخرون هم الذين يستفيدون منه ، لا الدولة المستدينة ابداً . ولما كانت هذه الدولة بحاجة الى مال جديد وان الإفادة الخاضعة للضريبة كانت تتناقص عاماً بعد عام ، فان ما كانت تلجأ اليه هو سرقة: منتجات ، ابنية ، حلي ، أثاث ... الخ . فتبيعها من جديد بسعر منخفض في سوق متخم ؛ وعندما لاتذهب الى هذا الحد ، كانت هي نفسها تدفع مرؤوسيها إلى الإستدانة من البنوك والتجار الاجانب . ولما كانت النخبة التركية او المحلية مثقلة بالديون كذلك فان السرقة أصبحت عملياً عامة بالعنف أو بالحيلة [1] . كانت الكراهية للمماليك تتزايد ، وعملت النخبة التقليدية في المدن ، وقد أخذ الاجانب الاوربيون يزاحمونها من جهة ، وهي خاضعة للاتراك من جهة اخرى ، على التقرب عاطفياً وسياسياً من الجماهير الريفية التي لم تعد ترى في الدولة الا جهازاً للنهب في خدمة الاجانب . لكن هذا التحالف كان وقتياً ، وعندما كانت الجماعات الريفية ، بعد صبر طويل ، تثور كان عملها اما فوضوياً واما متناقضاً بوضوح ، بما انها كانت غالباً تضع آمالها في سلطان القسطنطينية او حتى في تدخل القناصل (لاسيما قنصل بريطانيا العظمى) . وكان الاقتصاد على هذا النحو يؤول الى نفس مآل الاصلاح القانوني : نخر الدولة التونسية من الداخل بالمبالغة في ميلها القديم الى كل ما هو غريب عن المجتمع .

فهذه هي بعينها الديناميكا التي تتكشف عنها انتفاضة عام ١٨٦٤ المسلحة التي

---

(١) عندما يلفت النظر بالحاح إلى الـ « بدو السلابين » لا بد من التساؤل باديء ذي بدء : من ذا الذي بدأ في السلب .

سميت ثورة علي بن غداهم Ghadhàhum [1] . ان الباي ، اذ هو لا يستطيع فرض ضريبة عالية على التجارة الخارجية بسبب ضغط القناصل ولا يحصل على شيء من القروض من الخارج التي كانت تظهر بأنها مشاريع نصب حقيقية ، واذ هو يجد نفسه في عجز عن سدادها ، بما ان رؤوس الاموال المستدانة لم تكن تستخدم أبداً في توظيفات انتاجية ، قد ارتد الى الضريبة العقارية : فضوعف معدلها عام ١٨٦٣ . وعليه كان السكان ، وقد سبق أن تأثروا بالازمة ، يعلمون ان هذه الضرائب كانت تفيد بصورة خاصة ، في دفع النفقات التي فرضها الاجانب : أبنية كمالية ، مهمات للجيش ، تجهيزات مدينية لتونس ، اعادة تنظيم سياسي واداري . ومن هنا مطالبتهم بالنكوص عن جميع الاصلاحات ، بدءاً من الغاء الرق حتى تأسيس محاكم الجنايات. ولقد كانت هناك مصلحة دائماً في التأكيد على الخاصية الـ « رجعية » لتلك المطالب . لكن المسألة الوحيدة ، الواجب اعتبارها ، في هذه الحالة ، هي تلك التي يطرحها الثائرون على وجه الدقة : لصالح من تجري تلك الاصلاحات ، جميعها ، ومن ذا الذي يجب أن يمولها ؟ وايا ما كان الامر فان الازمة الاقتصادية التي عملت على تفجير الثورة كانت تحكم عليها بالفشل: كان التحالف مع البورجوازية الساحلية قصير المدة . فان افقار الجميع كان يجعل الزعماء (وعلى رأسهم علي بن غداهم Ghadhàhum) سريعي التـأثر بوعود الباي والجيوش متلهفة للعودة الى القيـام بالحصاد . وقد تسببت فاقة القادة ، التي لم تسمح ابداً للثائرين بالتعرض لمبدأ البايوية وكذلك الخوف المنتشر بأن الفرنسيين يستفيدون من الاضطراب لاحتلال البلاد، في ترميم الاحوال السابقة . الا ان السنوات التي تلت الثورة شهدت تفاقم الوضع بسبب الجفاف والمجاعة والاوبئة (الكوليرا في عام ١٨٦٥ والتيفوس في عام ١٨٦٧) ؛ كذلك تركـت بصماتها على مصير تونس .

في عام ١٨٦٩ أنشئت لجنة للدين الانجليزي ــ الفرنسي ــ الايطالي . فلقد توقفت الدولة في الواقع عن الوجود . وغالباً ما يُشار هنا الى المنافسة بين الدول لتفسير

---

(١) إن دراسة ابن سلامة الوافية : ثورة ابن غداهم Ghadhahum ،تونس ١٩٦٧ تحل بصورة مفيدة محل الدراسات السابقة .

المحافظة على الاستقلال الظاهر ؛ وثمة سبب أكثر حسماً يجب البحث عنه بلا شك في البنية الاقتصادية لكل من هذه الدول كان يجعل تحمل تونس لمسؤوليتها ، اما متعذر التنفيذ واما مكلفاً . وايا ما كان الامر فان تجربة الاصلاح الثانية ، وهي تجربة خير الدين [١] ، على الرغم من الاهمية الايديولوجية التي تعطى لها ، منذ زمن طويل في تونس ، وخارج تونس ، والتي تستحقها من بعض الوجوه ، اذ إنها تشير على الأقل الى انفتاح فكري معين ، لم تغير عملياً شيئاً من حقيقة الامور الواقعة : وهي ان الدولة التونسية في ذلك الوقت لم يعد في وسعها ان تخدم الا مصالح الاجانب . ومن المهم أن نلاحظ بأن خير الدين استدعي الى الحكم تحت الضغط الاجنبي ولأنه كان لديه برنامج مقدم باللغة الفرنسية منذ عام ١٨٦٧ . وعليه فان هذا البرنامج الذي حققت منه نقاط عديدة في غضون الفترة الممتدة من ١٨٧٣ الى ١٨٧٧ كان بأكمله ضمن نسق المطالب الاجنبية . لقد كانت اعادة تنظيم الادارة المالية ، التي بوشر بها ، منذ عام ١٨٦٩ ، تخدم بصورة خاصة ضمان مصلحة الدين الاجنبي (المقدر حينئذ بـ ١٢٥ مليون فرنك ذهباً) ؛ وكان الهدف من انشاء محكمة تجارية مختلطة وتوحيد التشريع واقامة مجلس صحة ومجلس مدينة في تونس ، هو كسب ثقة الجالية الاجنبية . فحتى المبادرات التي سوف يكون لها اطيب الاثر : توزيع الاراضي الاميرية على الفلاحين وتشجيع المشجرين في الساحل بمنحهم اعفاء ضريبي لمدة عشرين عاماً وانشاء المدرسة الثانوية الحديثة (**الصادقية**) عام ١٨٧٦ ، يمكن النظر اليها في ظروف ذلك الحين كأنها اعداد موضوعي للتربة لاندماج المجتمع التونسي بالنظام الرأسمالي وبالتالي جعل عمل الجالية الاجنبية اكثر سهولة . لسنا نستطيع ، فيما وراء دوافع خير الدين ومجموعة الرجال المستنيرين الذين كانوا يدعمونه والذين ، فيما بعد ، سيأخذون في نقل مثلهم الاعلى السياسي الى الشبيبة التونسية في مطلع القرن العشرين ، ان ننكر بأن مصير التجربة كان يتعلق بالثقة التي كانت توحيها الى الدول. فما ان كانت هذه الدول تقدر بأن التجربة لا تمضي بسرعة كافية ولا الى المدى

---

(١) انظر كارل بروان Lean Carl Brawon في مقدمة الترجمة الانكليزية لأقوام المسالك ط - جامعة هارفارد ١٩٦٧ ؛ البيرت حوراني في : Arabic Thought in the liberal age لندن ١٩٦٢ ص. ص ٨٤-٩٤ . وفيهما أفضل تحليلين لا يديولوجية خير الدين .

الكافي ، حتى كانت تدان . ولم يكن الفرنسيون حريصين ، من جانب آخر على الظهور بمظهر الانصاف : فسرعان ما تآمروا ضد الوزير المصلح كما سبق ان فعلوا ضد سلفه المتهم بالاختلاس . وفي غضون ذلك كان الاجانب يرون مصالحهم الاقتصادية تنمو وتتنوع وكانت رغبتهم مع هذا النمو تشتد لكي يحملوا بأنفسهم اعباء اصلاح المجتمع وصنعه على هواهم . فهل هناك ما كان اكثر منطقية من هذا الموقف ؟ وما هو الفارق بالنسبة للفلاح التونسي بين ان يكونوا هم أو منتحلو القومية ، الذين يقبضون على زمام الأمر ما دام ان الهدف كان هو نفسه ؟ عندما يجري الحديث على برودة العاطفة القومية في عام ١٨٨٠ – ١٨٨١ (تأكيد تضطرنا الوقائع الى اظهاره كل الاظهار) فلا ينبغي ان ننسى الاشارة الى الاسباب الموضوعية التي كانت تدفع التونسيين الى عدم الدفاع حتى الموت عن دولة ، لم تعد أكثر من اي يوم مضى ، دولتهم . ان عنف الاقتصاد والقوانين ، وعنف السلاح تعاقبا هنا كما في الجزائر وإنما اباتجاه عكسي : الا ان النتيجة كانت هي نفسها .

ب – المغرب الأقصى

كان الاستيلاء على الجزائر يعني ، اذا ما نظر اليه من المغرب الاقصى ، بصورة خاصة ، نهاية نظام استبدادي ومستنكر بعنف ؛ كذلك كان يقدم امكانية الارتباط من جديد بسياسة اسماعيل في منطقة تلمسان . وبسرعة مع ذلك أدرك السلطان ان ثمة وضعاً جديداً نشأ .

* * *

١ – الضغط العسكري

بعد سقوط الحكم التركي وضع سكان تلمسان انفسهم تحت حماية السلطان عبد الرحمن بن هشام ؛ وهو الذي كان قد باشر لتوّه في اعادة قليل من النظام للبلاد بعد نهاية حكم سليمان المفجعة وذلك باعادة تنظيم الجيش وبارغام زعيم كبير في الاطلس الاوسط **محمد بن غازي** على الخضوع (١٨٢٢ – ١٢٣٨) وباقامة حكام اقوياء بسلطات غير محدودة في مقاطعتي مرّاكش وأوجده Oujda وبمواصلة سياسة

معادية للمرابطين في الداخل (محاصرة زاوية شرّادية Sharràdiya) واذ كان مدركاً بأن هذه النتائج كانت بعيدة عن المنال ، فلم يكن مؤيداً للتدخل المباشر. فاستشار الفقهاء في فاس وحصل منهم ، وفقاً لرغباته ، على رد سلبي ، لكـــن التلمسانيين الحّوا فكان مضطراً في نهاية الامر الى ارسال حامية بقيادة ابن عمه علي ابن سليمان . وخلافاً لتعليماته الصريحة اغتنم الجنود فرصة المقاومة التي واجههم بها الكوروغلي Kurughli والحلفاء القدامى للاتراك فنهبوا المدينة : ولدى استدعائهم على عجل ثارت فئة منهم .

كان تحليل السلطان يتكشف عن الحقيقة : لم يكن مستعداً للتدخل في الجزائر ومنذ عام ١٨٣٢ وعد الموفد الفرنسي ، دي مورني De Mornay بالامتناع عن ذلك بعدئذ على الاقل بصورة مباشرة فهذه التجربة الاولى هي التي تفسر علاقاته بعبد القادر تماماً بمقدار المبادىء العامة للحق الاسلامي العام التي كان هذا وذاك يستندان اليها . وبعد ان مال حكم فقهاء فاس باتجاه حجة عبد القادر زوده السلطان بالاسلحة والخيل والاعانات المالية . فكان هذا ضرباً من التحالف مع اعتراف مبهم بالسيادة ولم يكن السلطان راغباً بالذهاب الى أبعد من هذا . لكن هذا التوازن لم يدم الا من عام ١٨٣٩ الى ١٨٤٣ ؛ وإذ اضطر الامير فيما بعد الى الالتجاء مرات عديدة الى المغرب الاقصى وكان الجيش الفرنسي كثيراً ما يطارده إليها ؛ وهكذا وقع عبد الرحمن في دوامة ؛ وفي نفس المناسبة تغيّر اتجاه العلاقات بين الرجلين . فابتداء من اللحظة التي ارسلت فيها جيوش السلطان النظامية الى أوجده لم يعد الامير في نظره سوى موظف لم ينجح في مهمته ولم يبق له منذئذ أي مطلب يتقدم به . وفي نظر عبد القادر كان السلطان ، بالمقابل ، يملك قوة ، من الواضح انه لم يكن يعرف استخدامها ، وكان يعتبر من حقه ان يحل محله [١] .

كانت الحرب الفرنسية ــ المراكشية كارثة بالنسبة للمغرب الذي لم ينج الا بالتدخل الانجليزي ؛ وعلى الرغم منها ، فانه ، بمعاهدة طنجة ١٠ اكتوبر ــ تشرين

---

(١) راجع المحاكمة الموازنة بدقة في أ. ناصري : المصدر السابق ، ٩ ، ص. ص ٥١ ــ ٥٨ .

الاول ــ ١٨٤٤) وعد بطرد أو احتجاز الامير اي بأن يضع نفسه موضوعياً الى جانب الجيش الفرنسي ، كما انه قنع باتفاق لالاّ مارنيا Lalla Marnia (١٨ مارس ــ آذار ــ ١٨٤٥) بتحديد غير دقيق للحدود الجزائرية ــ المراكشية الامر الذي كان يقدم للفرنسيين وسيلة ضغط مفيدة دائماً . هذه المعاهدات لم تكن بالطبع تقيد عبد القادر الذي واصل كفاحه بعناد باللجوء مباشرة الى سكان الحدود . فكان الاستقبال الايجابي الذي كان يجده لديهم غالباً يرمز الى هذا التباعد بين المصالح المحلية والواجب الجماعي الذي لم يتوقف عن الازدياد في غضون القرن التاسع عشر. فقد كان موقف عبد القادر طبيعياً وصحيحاً بالنسبة للعصر ، ولكنه لم يؤد الى شيء ، لان كفاحه كان يبدو بلا مخرج : كان الفرنسيون يكسبون ارضاً على حين لم يكن الامير يفعل إلا تخريب ثرواته [1] . وكان هذا صحيحاً من جهة اخرى في مراكش كما كان في الجزائر على حد سواء : لم يكن الجيش المراكشي ، المفكك والسيء التجهيز هو الذي كان يضمن استقلال السلطان وسلامة الأراضي المغربية بل حماية الانجليز .

ازداد الضغط العسكري اكثر كثيراً بموت عبد الرحمن في عام ١٨٥٩ . فقد نظم الجيش الفرنسي ، متذرعاً بغموض اتفاقية الحدود أو بزعم اختلال الأمن ، حملة الى ابن إسناسين Isnasin ولاحقت بني غيل الى منطقة فيغيغ Figuig . وكان الهدف في الواقع هو اظهار ان الحكم السلطاني لم يعد إلا وهماً . وما إن رأت اسبانيا بعد سنوات من الجمودية الدفاعية ، هذه الحالة من الضعف ، حتّى انتقلت الى الهجوم : فاحتلت جزر زفّارين Zaffarines واختلقت، عن عمد، الحادث الذي كان اصل حملة ١٨٥٩ . واعطته طابعاً دينياً لكي تجر الملك الجديد الى الحرب ، مضطراً ، والحالة هذه، الى رفض الانذار الذي قدم له. وما ان قرر هذا حتّى حشد خمسون الف رجـل بينهـم كثيرون من المغامرين من جميع القوميات ، تحت امرة أودونيل O'Donnell وتقدموا نحو تطوان؛ وقد وجدوا أمامهم ٥,٦٠٠ رجل

---

(١) أ. ناصري المصدر نفسه ص

في جيوش نظامية ؛ ورغم ذلك كان التقدم بطيئاً جداً لان السكان اندفعوا من انفسهم في عمليات حرب عصابات بالغة الخطورة . لكن السلطان لم يفكر الا بالمساومة وازاء هذا العجز من جانب المخزن Makhzen ثار السكان بممثليه وهاجموا مدينة تطوان التي اسرعت الى فتح ابوابها لجيش الاحتلال [١] . فكل شيء في هذه الحرب التي جرت عام ١٨٦٠ ، كان يرمز الى أزمة الدولة والمجتمع المراكشي في القرن التاسع عشر . وبتدخل انجليزي قبلت اسبانيا بسحب جيوشها بعد عامين من الاحتلال مقابل غرامة كبيرة . ثم دفع (وقد بلغت عشرين مليون دوروس Duros) جزء منها بقرض عقد مع البنوك الانجليزية ، مضمون برسوم الجمارك [٢] . ففي نظر المؤرخين المغاربة المعاصرين للحدث ، كانت حرب النهب هذه التي جرت بلا سبب يثيرها ، تقرع اجراس الاسى على احلام المغرب المراكشي : لم يعد في الوسع ان تجري فيه ، في نظرهم ، حرب حقيقية مع الدول الاوربية الكبرى ، اذ إن التفاوت صار عظيماً .

هذا الضغط العسكري الذي بلغ في عامي ١٨٤٤ و ١٨٨٩ — ١٨٦٠ ذروته لم يكن متقطعاً ؛ كان في كل اللحظات في خدمة المصالح الاقتصادية الاوربية .

٢ً — ضغط اقتصادي

بدأت الدول بالعمل على الغاء احد مصادر دخل الدولة المراكشية : القرصنة . إذ حاول عبد الرحمن بعد ان منعت في مرة أولى عام ١٨١٨ ، العمل على احيائها ؛ وقد نجمت عن ذلك ازمة مع النمسا في عام ١٨٢٩ وفي العام التالي تم التخلي عنها نهائياً . وتحت ضغط فرنسا عام ١٨٤٤ ألغيت آثارها نهائياً ، وهي الاتاوات التي كانت ما تزال تدفعها الدانمرك والسويد. وكانت الرسوم على التجارة منذ حكم محمد الثالث ،

(١) راجع الرواية في محمد داود : تاريخ تطوان ، تطوان ١٩٦٤ مجلد ٤ ص. ص ٢٠٣ — ٢٠٥ والحكم على المسألة في ص ٢٠٤ رقم ١ .

(٢) لقد درست النتائج بالاستناد على وثائق مراكشية غير منشورة من قبل ج. عياش G.Ayache في أوجه الأزمة المالية في مراكش بعد الحملة الاسبانية عام ١٨٦٠ (المجلة التاريخية عدد CCXXIV لعام ١٩٥٨ ص. ص ٢٧١ — ٣١٠ .

كما قلنا ، اهم مصدر منتظم لبيت المال . وابتداء من عام ١٨٢٥ (معاهدة مع سردينيا) وخاصة من عام ١٨٢٩ (معاهدة مع انجلترا) كان الاتجاه نحو ترسيخ قواعد تحكم التجارة المراكشية كانت ترمي في الواقع الى ربط مصلحة الخزينة السلطانية بمصلحة التجار الأجانب . وقد حقق هذا الهدف في عام ١٨٥٦ عندما وقعت معاهدة صداقة وتجارة وملاحة مع انجلترا : عممت نصوصها فيما بعد بواسطة نص الدولة الاكثر رعاية . كانت تطرح كمبدأ الحرية المطلقة للمبادلات ، والغيت الاحتكارات السلطانية باستثناء احتكار التبغ والافيون وحددت الرسوم الواجب دفعها ب ١٠ ./. **حسب القيمة** عند الدخول وكانت نوعية لدى الخروج ولكنها في الواقع تبقى في نفس المقدار . وكان السلطان يحتفظ باشراف نظري على استيراد الكبريت والبارود والاسلحة والذخيرة . وكانت حرية الصادرات وعلى الاخص الحبوب موضوع مجادلة طيلة سنوات بين الفقهاء المراكشيين . وهي تشكل، اذ فرضتها معاهدة عام ١٨٥٦ ،أوضح مؤشر على عمق التغيير الجاري في مضمون المعاهدات التجارية المراكشية — الاوربية . ولما لم يعد للسلطان امكانية ان ينظم على هواه العلاقات التجارية ولا ان يفرض رسوماً جديدة على التجار الاجانب فانه لم يعد يستطيع أن يأمل بزيادة دخوله الا بزيادة عدد هؤلاء التجار وبنمو فعالياتهم . وفي عام ١٨٦١ حصلت اسبانيا على نفس المزايا وفرضت ، فضلا عن ذلك ، لرعاياها حق اقتناء اموال ثابتة في ارباض بعض مدن الساحل . وازاء عنف معارضة السكان حاول المخزن الاعتراض على تطبيق هذا البند بتصعيب الموافقة على الترخيص الذي كان المشترون المتوقعون ملتزمون بالتماسه ، لكن نتيجة هذه المماطلات كانت سلبية دائماً تقريباً . وفي نفس الوقت لم يعد الاجانب يكتفون بالافلات من التشريع المراكشي ، بل كانوا يريدون توسيع هذه الامتيازات لتشمل عدداً متزايداً من المراكشيين الذين تربطهم بهم علاقات عمل . ومن قبل ، في عام ١٨٥٦ ، اختص القناصل بصلاحية النظر في المنازعات بين الاجانب والمراكشيين ؛ ومنح موظفو القنصليات وسماسرة بيوتات التجارة والشركاء الزراعيون ، عدداً من المزايا . ثم كرس الاتفاق الفرنسي — المراكشي المعقود في١٧ اغسطس — آب — ١٨٦٣ والذي شمل بسرعة الدول الاخرى ، حق الحماية الذي لم يعد بموجبه نفوذ الحكومة السلطانية

يمتد الى جميع السكان ولا الى جميع اراضي البلاد : فجميع اولئك الذين كانوا على علاقة مع الاجانب (مزارعون ، رعاة ، تجار ، الخ .) لم يعد في الوسع ملاحقتهم الا بعد تبليغ السلطة القنصلية . وكل مزية ممنوحة للدول الاجنبية كانت توفر لها في نفس الوقت ، من جهة اخرى ، وسيلة جديدة ، ودائمة للتدخل . وكما جرى في الجزائر وتونس كان شعار الحرية (حرية التجارة ، حرية التملك ، حرية الافراد)[1] يفيد في نخر داخل الدولة المراكشية وفي اعداد التربة لنمو النظام الرأسمالي المندس من الخارج .

٣ - الازمة

كانت نتيجة الضغط الاجنبي المتعدد الاشكال ازمة اقتصادية خطيرة لم يكن من شأنها الا تعميق ازمة سياسية كامنة منذ مطلع القرن .

أخذت الازمة الاقتصادية ، وهي من نمط النظام القديم ، والتي كثيراً ما وصفت شكل البيع الوكس في منتجات معينة والنقص في اخرى وتضخم واختلال نقدي. وقد افضت حرية تصدير الحبوب والصوف الى ارتفاع الاسعار ؛ واحدثت زيادة الاستيرادات الاوربية ازمة في الصناعات الحرفية في المدن وازدياد الحاجات الى المال السائل ومن هنا اختناق سوق المنتجات المحلية ، هبوط الاسعار والاستدانة . ولما كان هناك سعر لجميع قطع العملة (اذ إن الدرهم يعمل كنقود حسابية) وان السوق كان مجزأ فان المرء يشاهد دورات تضخم اقتصادي ودورات انكماش[2] افاد منها الاجانب وحدهم دائماً . ولتدارك الاختلال في الدورة التجارية أحيا السلطان السعر القانوني ، مرة اولى عام ١٨٥٢ وبعد الصعوبات الناجمة عن الحرب المراكشية - الاسبانية في عام ١٨٦٩ ، وبالطبع لم تكن النتيجة ابداً هي ما كان يرجى .

---

(١) كانت الأقليات الدينية ولا سيما اليهود تقدم وسيلة للاختيار للتدخل خطأ أم صواباً في الشؤون المراكشية والتونسية . أنظر ابن ابي ضياف ، المصدر السابق ، ٤ ، ٢٥٩ ، أ. ناصري ٩ ص. ص ١١٢ - ١١٤ .

(٢) أ. ناصري المصدر السابق ، ص ٥٤ ولا سيما ص ١٦٣ ؛ وكذلك ج. ل. مييج J.L. Miège في : مراكش وأوربا جـ ٣ ص. ص ٩٧ - ١٠٦ .

كان للازمة انعكاس سياسي مباشر إذ إن جميع المصائب التي لحقت بالسكان ارتبطت في الاذهان بالتغلغل الاجنبي (الامر الذي كان صحيحاً) وكل مرة يقدم السلطان فيها تنازلا للقناصل كان يخسر فيها جزءاً من حظوته ومن نفوذه. ولما كانت موارد الجمارك اما محدودة أو مخصصة لصالح الدين الخارجي فان السلطان كان مضطراً لابتكار ضرائب جديدة تؤثر بقسوة على سكان المدن وتبدو لهم كيدية بما ان الاجانب كانوا دائماً معفيين منها. وفي عام ١٨٥٠ – ١٢٦٦ انشئت رسوم على الجلود ثم على الحيوانات؛ وفي عام ١٨٦١ فرضت رسوم الدخول؛ فظهر انزعاج في المدن ووجد صدى ملائماً لدى الفقهاء الذين بالاستناد الى التقليد الديني ادانوا «بدع» الضرائبية. وبالطبع كان من الطبيعي أن تأخذ هذه الاضطرابات في المدن اتساعاً أكبر عندما تمس الازمة الارياف، كما جرى في عام ١٨٥٠ وهي السنة التي عرف فيها الجنوب مجاعة خطرة جداً، او في الحقبة اللاحقة عام ١٨٦٦ حيث توالت الكوارث الطبيعية والاوبئة. وهكذا يدرك المرء انه كان هناك اتجاه في الانتفاضات الاستقلالية الى التكاثر، مظهرة مقاومة متزايدة العنف في آن واحد للمصالح الاجنبية وللمخزن الذي كان لا يكافح هذه المصالح بفعالية.

٤ً – نقاهة الاصلاحات

ازاء عناصر سلبية عديدة الى هذا الحد كان لا بد لعمل الحكومة السلطانية من ان يكون متردداً، مسوّفاً وبعد كل حساب بلا وزن. وثمة مشاكل جديدة جرى دمجها بالقديمة ومرة أخرى أعيدت تجربة نظام التحصيلات التقليدية. وادرك عبد الرحمن انه لم يكن في مقدور أي اصلاح امام ضغط اوربي قوي، أن ينجح. ولكي يعطي نفسه فترة من الراحة لجأ الى صداقة انجلترا الدولة الحامية التي ارادت فعلا ان تلعب هذا الدور من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٨٨٠ [1]، لكن السياسة البريطانية كانت متناقضة: كانت تريد الدفاع عن حكم السلطان على شرط ان

---

(١) انظر ف. ر. فلورنو F.R. Flournoy في كتابه : British Policy towards Moroccoin the age of Palmarston (١٨٣٠ – ١٨٦٥) ط. بالتيمور ١٩٣٥ .

يدخل اصلاحات « ليبرالية » ، كانت نتيجتها ، على وجه الدقة ، اضعافه معنوياً ومادياً ؛ كان الأغنى لا يدفعون ضرائب والأفقر تسحقهم كثرتها ، الاوائل يريدون اصلاحات(يرفضون تمويلها) من أجل تشجيع مشاريع مؤذية بالآخرين . كان ذلك حلقة مفرغة . فالجيش الجديد (العسكر) الذي كان عليه ، في الاصل ، ان يدافع عن استقلال البلاد ، أفاد في نهاية المطاف في قهر الثورات المحلية ، وعلى هذا النحو في تحقيق أمن الجالية الاجنبية . ان سياسة عبد الرحمن التي كانت ترتكز على اعطاء اوامر عظيمة لرجال ثقة مع سلطات واسعة كانت اصل الاسر القيادية الكبرى التي أصبحت في آن واحد يتملقها الاجانب ومدينة لهم ، الحليفة الأمينة على المصالح الاوربية ، فلا المزايا الشخصية في السلاطين ولا مشاعرهم الطيبة (التي يصر عليها المؤرخون المراكشيون) كانت موضع خلاف ، انما المقصود رؤية ديالكتيك حالة لم تكن تجعل ،فحسب ، افعالهم سخرية ولكنها احياناً تعمل على ان تغير معناها. فكل شيء كان يعمل لصالح القناصل .

وهذه الحالة سوف تدوم طويلا : لسوف يصير الناس الى انتظار المخرج كما كانت هذه هي الحالة في تونس من قبل ولكن الدولة المراكشية،منذ عام ١٨٨٠ ، توقفت عن ان تكون موجودة فما كان يحافظ عليه،لاسباب ، كانت بالتأكيد غير الاسباب الدبلوماسية الصرفة،لم يعد في الحقيقة الا وهماً . فاذا كان وجه الازمة المراكشية مأساوياً في حكم عبد الرحمن ومحمد الرابع لاننا رأينا رجالا جديين ادانتهم الظروف ، واذا اظهرت سمات مثيرة للشفقة في عهد حسن الاول الذي اضطرب وتنقل لكي يمسك ما تنسّل من كل جانب فانها اصبحت صراحة سخرية في عهد عبد العزيز ، ان التغييرات الفجائية التي قطعت ، بسقوط المجتمع المراكشي من عام ١٨٩٤ الى ١٩١٢ لم ترفع احداً لا أصحاب البنوك الذين يجذبون الخيوط وراء الستار ، ولا الدبلوماسيين الذين يتآمرون ولا الحاكمين المراكشيين المرتابين والطيعين . لكن مغرب عام ١٩٠٠ إلى ١٩١٢ ليس المغرب الابدي [١] .

---

(١) ان هذا هو ما توحي به مع ذلك الآداب الزاخرة التي تضع مراكش ابتداء من عام ١٨٨٠ ، على توافق مع العصر .مؤلفات ل.كامبون L.Campon ، ديفوكولد DeFaucquld ،جان درومومند هاي J.Drumond Hay ، ب.ميكين B.Meakin ، أ.أوبان E.Aubin ، الخ . انظر ج. ل.مييج : مراكش وأوربا ج ١ ، المراجع ط P.U.F. ١٩٦١ .

ثالثاً : مقاومة أولية : محاولة للتحديد

انطلاقاً من عام ١٨٦٠ يتخذ الوضع الاستعماري شكله في المغرب : قبل عامين كان إخضاع بلاد القبائل ومناورات الارهاب البحرية في عرض البحر على طول السواحل التونسية ،والاستعدادات للحرب المراكشية — الاسبانية ؛ بعد ثلاث سنوات اعلن النظام المدني .S.C لعام ١٨٦٣ في الجزائر وتم توقيع المعاهدة التجارية الانجليزية — التونسية والمعاهدة الفرنسية — المراكشية وما كاد يمضي عام واحد حتى كانت تنطلق ثورات الرحامنة Rhamna في مراكش وثورات اولاد سيدي الشيخ في منطقة وهران والعروش Urush في الجنوب التونسي وحتى عام ١٨٧١ كانت ستتعاقب سنوات المجاعة والوباء والكوارث الطبيعية ؛ وهي احداث كانت بالتأكيد مألوفة لكن آثارها المدمرة ضوعفت هذه المرة بالاستئثار بالاراضي وازدياد التجارة الاوربية وارتفاع الاسعار والأزمة النقدية . وفيما وراء فارق مجموعة الانظمة التشريعية — السياسية ، كان سكان المغرب الاوسط يعرفون ، شأنهم في الماضي ، الظروف المفجعة نفسها [١] .

انها لوحدة نادراً ما وُضّحت في الابحاث الضخمة التي كرست للأوربيين في المغرب . فبحجة انهم ، هم ، قد خلفوا وثائق (ضمناً يمكن استخدامها بسهولة) فانهم يرهقوننا بالتفاصيل عن فعالياتهم . ولكن من هم؟ دبلوماسيون ،عسكريون ، تجار ، مزارعون ، مربو حيوانات ، مؤدبون ، مبشرون ، انهم على وجه الدقة وسطاء ؛ ففعاليتهم ليست لا فعلا ولا رد فعل بالمعنى الصحيح للكلمة ، انها ببساطة تحويل افكار ، متخيّلة في مكان آخر ، من القوة الى الفعل . أين مركز العمل ؟ والتواتر ، الشكل ، الوسائل والنتائج ، لهذا العمل ؟ فعلى التاريخ الاقتصادي ان يجيب على هذا ، ليس بتوضيح قوانين الرأسمالية العامة ولكن بصياغة قوانين خاصة

---

(١) هل هذا من قبيل الصدف ، إذا كانت فكرة مملكة عربية معاصرة لتشديد الضغط الاستعماري على مراكش وعلى تونس ؟ بالنسبة للمعمر الجزائري كان الفارق عظيما بين الأوضاع في البلدان الثلاثة ولكن لم يكن الذي يرسم السياسة الاستعمارية الفرنسية ، فإنه يؤثر فيها فحسب . من وجهة نظر أصحاب البنوك الكبار ، إن الحالة الدبلوماسية لبلاد ما لا تهم كثيراً والوقائع تعطيهم الحق .

لرأسمالية قومية معطاة ، في نطاق محدد ولا شك في ان « الوثائق » هنا هي الى ذلك الحين سرية او من الصعب الحصول عليها ستكون بحاجة الى ان تكتشف وان تعالج بمقدار معين من الفكر النظري . وما زلنا بعيدين عن ذلك .

ان موضوع هذا العمل كان بالتأكيد هو الانسان المغربي ، المتشبث بأرضه ، وانطلاقاً من عام ١٨٦٠ بدأ يحس بقوة آثار الفعالية الاجنبية . فأولئك الذين كانوا أعلى منه ، ويعيشون من عمله : زعماء محليون . مرابطون ، نخبة في المدن (مثقفة او تجارية) هيئة حكومية ، كانوا كذلك وسطاء . الا أن ردود فعلهم ، التي تسهل دراستها لانها أعدت وافصح عنها ، كانت دلائل غير مباشرة لاثارة أعمق . ولكن قبل الانطلاق في تحليل هذا الاستبطان للضغط الاستعماري بطرائق لم تبتكر بعد او يجب اقتباسها ، لئلا يبقى من الواجب اللجوء ، كما يجري غالباً الى الصورة .المعكوسة من قبل المستعمر نفسه ، لنبادر الى لفت الانتباه على الاقل الى السمات الكبرى للحالة النموذجية التي تنجم عن ذلك .

لايهم كثيراً حجوم الجالية الاجنبية ، انها تلعب ، على أية حال ، في المجتمع المغربي دور طبقة وسطى : تفرض اصلاحات قانونية لها في حقيقة الامر خاصية الـ«ثورة الليبرالية»—الامر الذي يدين الثورة الليبرالية من جهة اخرى في نظر المغاربة ، آنذاك وفيما بعد — ، ولكنها بصفة خاصة تعمق الفوارق التي تفصل بين الجماعات المؤلفة للمجتمع الاصلي ؛ ولم تعد هذه الجماعات تتعين الا بالنسبة لها . هذه الظاهرة من الخارجانية لم تكن جديدة عندئذ الا انها تتفاقم وتتنوع تحت الاثر الاجنبي الحاسم ، إذ ان مصالح هذه الجماعات باتت تتعارض بوضوح بعد الآن . ولقد حلّ بالطوائف الريفية في جملة آفات اخرى ، نظام ضرائبي ثقيل اتخذ مظهر نزع الملكية ؛ فأخذت تحلم بالـ « أمير العادل ؟» ، الصارم ، الزاهد ، المنصف . « ان المعقل الذي يحمينا هو اننا ضحايا ظلم» أعلن ابن غداهوم Ghadhahum [1] . ففي الماضي كانت لها وسيلتها لاسماع شكاويها الى الامير الظالم او الفاسد ؛ ولم تبق لهما هذه الوسيلة بسبب

---

(١) ابن ابي ضياف المصدر السابق ، ٥ ، ص ١٢٢ .

الاصلاح العسكري الذي ، بمشورة الاجانب ، جرى بصفة اساسية ، على حسابها ولجأت الى وسطاء زعماء ومرابطين ، الذين ، وقد اضيروا كجميع الناس بالازمة، فافتقروا واستدانوا ، لعبوا بالطبع لعبة مزدوجة . الواقع كانت الثورة الريفية من حيث هي ريفية منطوية على مغالطة تاريخية بالضرورة إذ إن الامير العادل يجب ان يكون مواطناً اصيلاً ، قوياً ومستقلاً ؛ والحال انه لم يعد يملك هذه المزايا منذ زمن طويل واذا كان يحتفظ بالصدفة ببعض الأمارات منها فان الثورة نفسها توجه له الضربة القاضية ومن هنا احساس الزعماء بالخطأ وتردد الجيوش اليائس .

كانت النخبة التجارية في المدن تستطيع على المدى الطويل الاستفادة من التغلغل الاجنبي ؛ فعلى المدى القصير احست بصورة خاصة بآثـار المنافسة وبالامتيازات الضرائبية المستبعدة منها . وقد دعمت أحياناً الثورات الريفية بنشاط باستخـدام الجمعيات الدينية التي كان كثيرون منها من أصل مديني ولكنها حفظت ذكرى احقاد قديمة وتشبثت بفوارق في نمط الحياة وفي آخر المطاف خشيت على اموالها (مسألة تطوان في عام ١٨٦٠ ، موقف مدن الساحل التونسي في اثناء ثورة عام ١٨٦٤) . وكانت علاقات هذه النخبة من سكان المدن بالحكم وبالاجانب وبالسكان الريفيين جميعهم غامضة وهذا الغموض سوف يجد رمزه المبين عندما يُنادي عدد من الاسر،هي التي سوف تنصب نفسها فيما بعد حامية للتقليد القومي ، بحماية الدول الاجنبية . غير ان النتيجة الاساسية لانخفاض درجة النخبة في المدن كانت آنذاك هي التقهقر الثقافي بالمعنى الحقيقي للكلمة ، اي باللجوء الى الماضي . وللهجوم على نظام ضرائب العاهل (**المكوس**) ، للتصدي للمنافسة الاجنبية (حرية التجارة ، حق التملك) ، للابقاء على الثورة الريفية في حدود الاحترام الواجب للملكية سوف تشترك في ذلك « السنة الاسلامية » . وسوف لا يعترف في الليبرالية على ايديولوجية تقدم [1] .

---

(١) سوف تكون الذبذبات الليبرالية من فعل الهيئة الحكومية ، الخاضعة لمحاجة القناصل . وهذه هي حالة ابن ابي ضياف في تونس ولكن العقبات التي كانت تقف حائلا دون الفهم وتبني الايديولوجية الليبرالية قد القيت عليها الأضواء بصورة غير مباشرة في أ. ناصري المصدر السابق ، ٩ ، ص ١١٤ وما يليها عندما يشكو بألم من تلك « الحرية » التي ابتكرها الافرنج والتي هي بلا أدنى شك ، بنت « الالحاد » .

ولقد انقسمت الجماعة القيادية اخيراً على نفسها وهي مجردة من السلطة والنفوذ، وغرقت في دسائس لا آخر لها . واتاح الحذر المتبادل للقناصل واصحاب المصارف الاجانب **أن يلعبوا** غالباً دور الحكم وكان الوزراء والجنرالات والحكام الذين كانت مهمتهم الدفاع عن استقلال البلاد ، هم أنفسهم مدينين لاصحاب المصارف او « في حماية » احدى الدول . وهكذا لجأ الحكم ، الواقع بين نارين ، الضغط الخارجي والثورة الداخلية ، الى اسلحة الضعفاء : الدبلوماسية والحيلة ولكنه على المدى الطويل لم يعد يخدع احداً .

هكذا برر كل واحد على التوالي العنف والتسوية ووافق الجميع على ان اصل الاضطرابات هو الحضور الاجنبي . فمن الطبيعي نقد كره الاجانب من حيث المبدأ، لانه يكون رد فعل سلبي ، ولكن في الحالة التي تشغلنا يجب ان نضيف بأنه كان محدداً موضوعياً . وكان كذلك غير فعال وهذا هو ما يحدد الـ «مقاومة الأولية»: عندما يبدو كل شيء مستوحى من الخارج (اصلاحات حكومية ، إثارات في المدن ، تهييجات مرابطية ، انتفاضات ريفية) ، لان كل شيء يخدم مصالح **الآخر** ، فلا يهم ان يكون بعضهم خانوا عن وعي فالخيانة كانت في نظام الاشياء . لقد كان المجتمع المخدر على هذا النحو يستطيع أن يطيل في احتضاره حتى يقرر **الآخر** موته . هذا القرار جاء مبكراً جداً في الجزائر ؛ وتأخر في تونس واكثر منها في مراكش ولكن في نهاية الامر لم تكن النتيجة قط مختلفة .

١٤ ـ الاستعمار المنتصر

انطلاقاً من عام ١٨٨٠ وحتى الازمة الكبرى في عام ١٩٢٩ ، انتصر الاستعمار ؛ لم يكن له من حدود الا الحدود التي يريد ان يفرضها على نفسه ؛ فايديولوجية رسالة تمدينية هي ترجمة فرنسية لواجب الرجل الابيض White man's burden والحاجة لاقتصاد الوسائل . وبالطبع فان رمز هذا الانتصار هو رد فعل ضحاياه ؛ ثورات بدون امل او تسليم للقدر .

عام ١٨٨١ ، كانت الادارة الجزائرية مرتبطة بالوزارة المقابلة في باريس ؛ وتونس محتلة بلا صعوبة في البداية على الاقل ؛ ومراكش موضوعاً تحت الرقابة الدولية في مؤتمر مدريد الجلسة الثانية في مايو — ايار . فلم تبق هناك دولة مستقلة في المغرب ؛ عندئذ تبدأ أو تتسارع عملية تدمير المجتمع : وكان هذا المجتمع دائماً قد استطاع بصورة او بأخرى ان يفصل مصيره عن مصير الدول المنظمة . ومنذئذٍ هوجم من جميع الجهات ، وكان الهدف ، سواء كان واعياً ام لا ، هو ارجاع الانسان المغربي الى حجمه الفردي . وفي مواجهة هذا المجتمع السائر الى تفكك بطيء سوف ينشأ مجتمع آخر على نفس الارض بقاعدته العقارية ونظامه الاقتصادي وتنظيمه الاداري. واذ تصل هاتان الحركتان المتعاكستان في الاتجاه الى مستوى معين فان المشكلة المتعلقة بالمؤسسات ستغير في الواقع اتجاهها ؛ سوف لا يبقى المقصود كما في القرن التاسع عشر ان يصلح المجتمع المغربي حاله لكي يسمح للاجانب بممارسة فعالياتهم فيه بل سيكون المقصود بالنسبة لهؤلاء الاجانب ، المتميزين منذ زمن طويل ، أن يقبلوا بارجاع جزء من المسؤوليات الى السكان الاصليين . مسألة اصلاح مرة أخرى ولكن معكوسة .

فيما وراء الدوامات السياسية التي تثير الطائفة الاجنبية بل وراء الهزات الاقتصادية التي تنخر ازدهارها ستدق ساعة ازمتها الكبرى عندما لا تعود نقائص التاريخ السابق التي كثيراً ما خدمتها ، تحتملها ، عندما سينفد ما كان ، من الماضي ، في وسعه أن يُستخدم بصورة مكيافيلية ، عندما سيجد الانسان المغربي ، المقلّص الى المستوى « الانثروبولوجي »[1] . في هذا الاستبعاد نفسه مع ذلك ، ايجابية ، عندئذ كل شيء ينقلب : الاسباب تصبح دفوعاً بالغيبية ، والفعل ينحط الى الاثارة والعمل نفسه يفقد من خصوبته ؛ ويُخلي الخوف مكاناً للوعي الطيب والقلق للتفاؤل . فمتى يكون هذا الانقلاب المفاجىء؟ ١٩١٠؟ ١٩٢٠؟ ١٩٣٠؟ ولماذا ؟ هل يكون انقلاباً في التطور الديموغرافي ؟ أهو فقدان للخطوة ناجم عن هزائم الحرب الكبرى ؟ تسلّل الى عالم المال المسحور وبالتالي الى قابلية التأثر المتزايدة بالازمات ؟ أجوبة صحيحة وجزئية في آن واحد ، وعلى الارجح مبتسرة ، سنعرف الجواب عندما يمكن للارقام ان تترجم الى وقائع وعي وسلوك . وبانتظار ذلك كل واحد يسلس انقياده للحدس .

١ ـــ مجتمع جديد

لقد تحولت جالية القرن التاسع عشر بسرعة الى مجتمع ، مستعد لاقتضاء استقلال اداري ذاتي . يتألف في معظمه من عنصر بحر ابيض متوسط كانت دائماً على صلات ـــ الا انها غيرودية ـــ بالمغاربة وتحفظ لهم من الماضي ضغائن وكراهية ، ان لم يكن احتقاراً معلناً ، ففرنسا التي كانت تملك السلطة السياسيـــة نجحت في « تجنيس » ذريّات المهاجرين لكن هذا التجنيس كان لا بد من ان يبقى سطحياً . ففي عام ١٩٢٦ بلغ عددالسكان الاوربيين في الجزائر رقم ٨٢٨,٠٠٠ نسمة : وفي عام ١٩٣١ كان في تونس ١٩٥,٠٠٠ وفي مراكش ١٧٢,٠٠٠ نسمة ، وبحساب الاسبان في المنطقة الشمالية من مراكش يمكن تقدير عدد السكان الاجانب في المغرب قبيل عام

---

(١) لقد نفي التاريخ السابق . فان مزايا وعيوب هذا الانسان : بسالة ، استقامة ، ساطة ، كرم أو رياء ، طمع ، احترام القوة ، غريزة النهب ، تتعلق جميعها بال «طبيعة الانسانية » . ومن هنا ايديولوجية ال « دومام » التي تعكس في حقيقة الأمر سياقاً من « لا نظامية تاريخية » .

١٩٣٠ [١] بـ ١,٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، الامر الذي يدل على اتجـاه يتسم اكثر فأكثر بالتمركز في المدن الساحلية (فان النسبة هي من ٢ /٣ الى ٣ / ٤ بحسب البلدان) . وباستثناء مراكش لم تعد الهجرة تحسب كثيراً في زيادة هؤلاء السكان ، وهو ما يساهم في اعطائهم مميزات مؤكدة اكثر فأكثر .

أ — القاعدة العقارية

لم تتوقف عن الاتساع ، تشجعها جميع الوسائل ، ففي الجزائر تكشف الـ S.C. لعام ١٨٦٣ ، المطبق بدقة ، غير كاف رغم كل شيء : عندئذ عمل على اقرار قانون وارنيه Warnier (في عام ١٨٧٣ تمم في عام ١٨٨٧ وفي عام ١٨٩٧) ، الذي كان يقدم وسيلة بسيطة ، شرعية لكنها باغية بصفة أساسية لنزع ملكيـات الجزائريين . ولقد وصف [٢] النظام مراراً عديدة : يسمح لكل معمّر أو مضارب كان ينجح ، بأية وسيلة كانت ، في وضع يده على قطعة صغيرة ، حتّى وان كانت زهيدة ، من الارض الشيوع ، في الحصول على حق بيع العقارات الشائع لتقدر قسمته لم يكن في الوسع ان يؤول الا الى خراب جميع اصحاب الانصبة ويسمح له في النهاية ان يسترد بالشراء كل الارض بأثمان بخسة . واستمرت هذه التعديات المعترف بها حتّى عام ١٨٩٠ مع ذلك . وكان الاستعمار الحر يشجع على هذا النحو في نفس الوقت الذي كان يجري فيه تحسين كيفيات تطبيق الـ S.C. لعام ١٨٦٣ الامر الذي يتيح زيادة مساحة الاملاك العامة وفتح آفاق جديدة للاستعمار الرسمي . ومن عام ١٨٧١ إلى عام ١٩٠٠ منح المعمرون مجاناً ٦٨٧,٠٠٠ هكتار ؛ ومن عام ١٨٨٠ الى ١٩٠٨ انتقل ٤٥٠,٠٠٠ هكتار من ايدي الجزائريين الى أيدي الاوربيين في ظروف مريبة جداً . وبعد فترة من التوقف في غضون الحرب العالمية الأولى والمباشر بعد الحرب

---

(١) أنظر في هذا الموضوع ج. ديسبوا J.Despois في : أفريقيا الشمالية ، ط.ج. ف ١٩٥٨ (الطبعة الأولى عام ١٩٤٩) ص. ص ١٩٧ وما يليها . فان العدد الاجمالي لعام ١٩٥١ — ١٩٥٦ هو ١,٧٣٧,٨٠٠ .

(٢) قارن أ. برنارد المصدر السابق ص. ص ٤٠٠— ٤٠٢ ؛ م. سهلي : المصدر السابق ص. ص ١٢٠ — ١٢١ .

حيث كان رصيد الاستعمار سلبياً ، عادت الحركة الى سيرتها الأولى وقبيل عام ١٩٣٠ كانت الملكية العقارية الاوربية تبلغ مجموع ٢,٣٥٠,٠٠٠ هكتار [١] .

هذه التجربة المكتسبة في الجزائر أفادت في تونس وفي مراكش . ومن عام ١٨٨٢ إلى عام ١٨٩٢ اكتفي في تونس (لم تكن الحالة الدبلوماسية تسمح بغير ذلك) بتشجيع الاستعمار الحر بتدابير تشريعية وغيرها . وكانت نتيجة نظام تورنز Torrens للتسجيل العقاري الذي ادخله المقيم العام ب. كامبون P.Cambon (١٨٨٥) وعلى الارجح هدفه هو التصديق على سندات تمليك أكثر من شكوك فيها [٢] ؛ وأجرت اراضي الحبوس Habous (الوقف) العامة للمعمرين لمدة غير محدودة (٢٣ مايو – ايار – ١٨٨٦) وبايجارات رمزية ولم يلبث الأمر حتى جعلت سندات الايجار قابلة للتحويل (١٩٠٥) . وبعد عام ١٨٩٢ إذ اتضح النظام الأساسي للحماية وتأكد ، انطلقت الادارة الفرنسية في برنامج استعمار رسمي : فقد لجأت الى نفس الاساليب المتبعة في الجزائر أي بأن عرفت بأوسع ما يكون : الاملاك العامة (١٣ يناير – كانون ثاني – ١٨٩٦) ، نطاق الغابات (٢٢ يوليو – تموز – ١٩٠٣) واراضي مشتركة (١٩٠٣) [٣] . وفي عام ١٩١٣ كان الاستعمار الخاص ، المكثف كثيراً وذو البنية الرأسمالية ، والاستعمار الرسمي ، يجمعان ٥٥٠,٠٠٠ هكتار ؛ وفي عام ١٩٣٧ كان الرقم يبلغ ٧٢٤,٧٤١ هكتاراً .

---

(١) تختلف الأرقام التي تعبر عن تطور الاستعمار الأوروبي اختلافاً طفيفاً بحسب المؤلفين : البعض يعتبرون المساحات المنتزعة من المغاربة والمخصصة للاستعمار والآخرون يعتبرون الأراضي التي كانت مستعمرة فعلياً في فترة معينة ؛ والاستعمار الخاص يختلف في جميع السنين بحسب الرصيد ، إيجابي أو سلبي ، بالنسبة للملكية الأوربية ، للمعاملات العقارية . وللادارة الفرنسية بحسب الأطوار مصلحة في تضخيم الأرقام لتشجيع الهجرة وامتناع البرلمان أو على العكس في تقليلها للاجابة على انتقادات القوميين أو الليبراليين المعادين للاستعمار . وعلى أية حال تظل الاختلافات ، من عشرة إلى أخرى أدنى من ١٠٠,٠٠٠ هكتار .

(٢) ان النظام ، المتصور من أجل البلدان القليلة السكان مثل اوستراليا والمخصص للفصل في الخصومات التي تطرأ بين المعمرين أنفسهم ، لم يكن يلائم البتة البلدان الإسلامية . كانت المحاكم المؤسسة متعجلة ، لم تكن تحلل جدياً سندات الملكية ، وكانت تدير مداولاتها باللغة الفرنسية ، قليلة الانتشار بين المغاربة ؛ وكانت دائماً محابية للمعمرين وصدقت على نزع ملكيات شتى .

(٣) انظر في هذه القوانين انتقادات ب. سباغ P. Sebag وثيقة الصلة بها في كتابه : تونس ، محاولة في دراسة مفصلة وافية باريس ، ١٩٥١ .

في مراكش ، كان احد الدواهر Dahirs الأولى ، المعلن بضغط من الادارة الجديدة ، متعلقاً بالتسجيل العقاري (١٢ اغسطس – آب – ١٩١٣) : وهكذا صدق على شرعية تملك ٣٠,٠٠٠ هكتار في منطقتي أوجده وكازابلنكا في اثناء الحقبة الممتدة من ١٩٠٧ – ١٩١٢ عندما كان الملاكون يفرون أمام الجنود الفرنسيين . وفي عام ١٩١٦ انشئت لجنة للاستعمار وفي عام ١٩١٩ كلفت لجنة اخرى في التحقيق عن الاراضي العائدة للاملاك العامة : وهي وسيلة ملتوية لاسترداد الاراضي المزروعة منذ أجيال من قبل جماعات خدمت لدى المخزن . وكان الداهر Le Dahir الصادر في ٢٧ مايو – ايار – ١٩١٩ يسمح بتعيين حدود الاراضي المشتركة بقصد تأجيرها فيما بعد للمعمرين [١] . ولما كان ينبغي الاسراع كثيراً لاستدراك التأخير الحاصل بالنسبة للبلدين المجاورين فقد اتخذت اجراءات لتشجيع الاستعمـار الزراعي : مساعدة باسم استصلاح كثيراً ما يكون نظرياً ، اعفاءات ضرائبية ، قرض زراعي ، تعاونيات للتجهيز ، الخ . وكانت هذه الاجراءات معدة لمنع تكرار الازمات الدورية التي أصابت الاستعمار الجزائري . وكانت النتيجة ان نمت الملكية العقارية الاوربية بسرعة فائقة : فمنذ عام ١٩٣٢ كان الاستعمار الحر والاستعمار الرسمي يجمعان حوالي ٨٣٧,٠٠٠ هكتار . وفوق ذلك يمكن التأكد من أن الملكية الخاصة – كما في الجزائر ، أضيرت بسرعة في تونس أجرت منذ عام ١٩١٣ اراضي الحبوس الخاصة للمعمرين بحجة العمل فيها على استثمار أفضل ؛ وفي مراكش نزعت ملكية اراضي الملك malk منذ عام ١٩٢٧ (٦٢,٠٠٠ هكتار في مدة عامين في التادلا Tadla) وتم التنازل عنها للاوربيين . وكان منطق الارجاع الى الخلف هنا كذلك شرساً . وحوالي عام ١٩٣٠ كان مقدار ٣,٨٠٠,٠٠٠ هكتار ، في مجموع المغرب – تقريباً ثلث المساحة المزروعة حقيقة – قد انتقل الى سجل سكان كانوا دائماً أدنى من سبع (١/٧) من عدد الأهالي الاصليين .

---

(١) على عكس الهدف المقصود ظاهرياً. من أجل تأكيد حسن نية واضعي الداهر Dahir كان سينبغي الاعتقاد بأنهم لم يعرفوا ما كانت قد قدمته في الجزائر سياسة نابليون الثالث الموالية للعرب – وهو أمر لا يعقل .

(٢) هذا الرقم انتقل حوالي عام ١٩٥٠ إلى ٤,٥٠٠,٠٠٠ هكتار . قارن ج. ديسبوا المصدر السابق ص. ص ٣٥٦ وما يليها .

كانت هذه القاعدة العقارية تعتبر كضرورة سياسية وفي هذا كانت الايديولوجية القديمة في تحويل المنطقة الى رومان تستمر في تأثيرها على الاذهان على الرغم من الدعاية السان سيمونية ومن سياسة « المملكة العربية » . وبعد عام ١٨٨٠ اصبحت خاصيتها السياسية أكثر وضوحاً اذ إن عائديتها الاقتصادية من وجهة نظر المجتمعين الفرنسي والمغربي لم تتوقف عن اثارة كثير من الشكوك .

ب ـ المنظومة الاقتصادية

في غضون عهد الامبريالية طرأ على السياسة الاستعمارية الفرنسية تبدل حتى في الجزائر ؛ انتقلت الزراعة الجزائرية شيئاً فشيئاً الى اشراف البنوك والمؤسسات المالية . وكان الامر كذلك أكثر وضوحاً في تونس وفي مراكش حيث لم يكن رجال العمل من العسكريين أو المستوطنين وانما من أصحاب البنوك والمضاربين ومن الرجال ـ واحياناً من الضباط ـ الذين كانوا حائزين على ثقتهم .

في عام ١٨٥١ اسس بنك الجزائر (أمم في عام ١٩٤٧ فقط) الذي نال امتياز الاصدار وتخصص في القروض من أجل الزراعة . وفتحت البنوك الفرنسية الخاصة فروعاً لها بالطبع في الجزائر وكلما كانت الزراعات الصناعية (كرمة ، قطن ، تبغ) تحل محل الحبوب في نهاية القرن كان رأس المال المصرفي يأخذ في الاشراف على التوزيع (جمع ، تخزين ، نقل ، بيع في السوق الفرنسية) . ومن هنا الانتاج نفسه ، لا سيما عندما تم اقرار الاتحاد الجمركي مع فرنسا عام ١٨٩٢ . الا ان تجهيز البلاد بالسكك الحديدية وبالطرق وبالموانىء نما ببطء لانه كان يتعلق بثقة الناس بالدولة . ولم يجازف رأس المال الخاص بركوب أي خطر وكان ينتظر حتى يقر البرلمان الفرنسي الاعتمادات ويقبل بضمان القروض على السوق المالي . ومن عام ١٨٥٧ إلى عام ١٨٨١ أقامت شركات السكك الحديدية الفرنسية شبكة بطول ١,٣٧٥ كلم ، ضوعفت في غضون السنوات العشر التالية . غير ان الشركات بعد الارباح الطائلة في البداية ، ارادت أن تتخلص منها باعادة بيعها الى الدولة فنجحت في ذلك عام ١٩٢٠ . كذلك لم يكن رأس المال الخاص يهتم حينئذ بالمناجم ؛ اذ فشلت محاولات الادارة فيما بين

١٩٠٣ و ١٩١٠ في العمل على استغلال مناجم الحديد في أونيزه Ouenza ولم يستأنف المشروع بنجاح الا في عام ١٩٢١ . كذلك استمرت الزراعة في غضون هذه الحقبة في الهيمنة الى حد بعيد على القطاع الاقتصادي الاوربي ؛ كانت الثروات الكبرى تنشأ من الكرمة والتبغ والفعاليات التي كانت مرتبطة بتصنيعها وتسويقها وكانت قاعدة المصالح الفرنسية ، حتى وان كانت تبتعد تدريجياً عن الارض ، دائماً في الجزائر . أما في تونس ولا سيما في مراكش [١] فكانت الحالة مختلفة .

منذ البداية اعتبرت تونس أغنى وأكثر ازدهاراً من البلد المجاور ، لاشك لان البنوك الفرنسية كانت تدير فيها الامور منذ زمن طويل : في عام ١٨٨٣ ازداد تفوقها بفرنسة الدين المقدر بـ ١٥٠ مليون فرنك ذهب [٢] ، وصارت الميزانية التونسية لسنوات طويلة مثقلة بمصلحة هذا الدين (٣٥ ./٠ من النفقات في عام ١٩٣٩) ؛ وقد عمل بنك الجزائر على ان يمنح امتياز الاصدار ولكن الحدث البارز كان اكتشاف مناجم الفوسفات عام ١٨٨٥ في منطقة قفصه Gafsa . فاحتازت شركة فوسفات قفصه Gafsa ، وهي فرع من بنك الاتحاد الباريسي ، في آن واحد على الاستخراج والنقل (خط سكة حديد قفصه Gafsa ومبناءها) وكذلك على ٣٠,٠٠٠ هكتار من الاراضي حصلت عليها علاوة من الدولة الفرنسية . ولعب الفوسفات دوراً من الدرجة الاولى في حياة البلاد الاقتصادية وانضم الى المنتجات العادية : الزيت والحبوب ، وفي عام ١٨٩٨ منحت التجارة التونسية تسهيلات جمركية ، اتسعت في عام ١٩٢٩ الى اتحاد جمركي : الخمور والتبغ والملح ، المواد الوحيدة التي استمرت في دفع الرسوم . وكان السوق الفرنسي يمتص ٧٠ ./٠ من التجارة التونسية . وعلى الرغم من أهمية الجالية الفرنسية فان البنوك الفرنسية هي التي كانت تهيمن على الحياة الاقتصادية التونسية ؛ فكان مركز القرار اذن من وجوه عديدة في باريس .

---

(١) معلومات عديدة مستقاة من «فرنسا والاتحادات الاحتكارية» ، عدد خاص في الاقتصاد والسياسة ، ١٩٥٤ ص. ص ١٠٨ — ١١٧ .

(٢) قارن ب. كامبون مراسلات (١٨٧٠ — ١٩٢٤) حـ١ ط. غراسيه ١٩٤٠ ص. ص ١٦٢ ، ١٧٠ ، ١٩٠ .

كذلك كان هذا أكثر من حقيقي بالنسبة لمراكش . فمنذ عام ١٩٠٣ أنشئت لجنة مراكش في باريس بتحريض من نائب وهران النشيط اوجين إيتيين Eugene Etiene كانت تساهم فيها البنوك والشركات الكبرى المعنية بالمغرب [١] . وقد أفادت ازمات ١٩٠٥ – ١٩٠٦ و ١٩٠٩ – ١٩١١ بخاصة في السماح للبنوك الدولية في الوصول الى تسوية حول مساهمة كل منها في القروض وفي الاستثمار المنجمي وفي تلزيم (بالمزايدات او المناقصات) الاشغال العامة [٢] . واذ تم الوصول الى التسوية فان مسألة تولي الامور السياسية كانت تصبح ثانوية ، على الاقل مؤقتاً .

كانت القروض السلطانية لعام ١٩٠٤ (٦٢,٥ مليون) وعام ١٩١٠ (١٠١ مليوناً) تُقدم من قبل اتحاد في البنوك . وفي عام ١٩١٣ أذن البرلمان الفرنسي لادارة الحماية بطرح قرض مخصص لتسديد هذا الدين . ثم تتابعت الأذونات : عام ١٩١٤ (١٧٠ مليوناً) ، عام ١٩١٦ (٧٠ مليوناً اضافية) . عام ١٩٢٠ (٧٤٤ مليون) ، عام ١٩٢٨ (٨١٩ مليوناً) . لقد كانت كل الفعالية الاقتصادية في مراكش ، تماماً ، معلقة بهذه الاذونات . وكانت القروض – المكفولة من قبل الحكومة الفرنسية وفائدتها مدفوعة من الموازنة المراكشية – مخصصة لتمويل معظم الاشغال العامة والموانىء والطرق والسكك الحديدية مسلمة على وجه العموم لشركات فرنسية كبرى (شنيدر Schneider ، هرسنت Hersent ...) وهذا رغماً عن اشتراطات عقد الجزيرة L'Aete d'Agesira ، وسهر الانجليز والامريكيين . ذلك ان ليوتي Lyautey ؛ المقيم العام من ١٩١٢ إلى ١٩٢٥ قد أسس المكتب الشريفي للفوسفات

---

(١) قارن ب. غيين. P.Guillen «أوساط الأعمال الفرنسية ومراكش في فجر القرن العشرين ... » مجلة تاريخية عدد ابريل – يونيو (نيسان – حزيران) ١٩٦٣ ص. ص ٣٩٧– ٤٢٢ ، بعض النتائج ، (ص. ص ٤١٩– ٤٢٠) الأمينة لأفكار التاريخ الدبلوماسي المسبقة ، قابلة للمناقشة . فليس المقصود هو معرفة أيهما يتغلب ، في لحظة معينة ، صاحب المصرف أو الرجل السياسي وإنما ، على المدى الطويل ما إذا كانت السياسة الاستعمارية كلها معقولة خارج التحديد الاقتصادي .

(٢) أجين ن. اندرسون في : the First Moroccan Crisis (1904-1906) Chicago ؛ 1930 كذلك أ.ج.ب. تايلور A.J.P. Taylor في كتابه « The Confernec at Alge ciras » الذي أعيد نشره في : Historical Essays, Harper Torch books, New york ، ١٩٦٦ ص. ص ١٣٥ – ١٥٤ .

عام ١٩٢٠ . على وجه الدقة من أجل عدم الاعتراف للانجليز والامريكيين بحق المساهمة في استثمار الفوسفات المكتشف في منطقة مرّاكش وكانوا يهتمون به بالغ الاهتمام . اذ لم يكن الهدف بوجه من الوجوه كما قيل كثيراً جداً ، الدفاع عن حقوق الدولة المراكشية [١] . فان الشركات الفرنسية الكبرى وضعت يدها كذلك في عهد ولاية ليوتي الرومانية وفيما بعد ، على مساحات كبيرة من الارض .

ما هو الاتجاه الذي ينبغي اعطاؤه لهذا التفوق الذي يتزايد أثره لرجال المال في المغرب ؟ ان رأس المال الضروري لتجهيز البلاد كان يقدم سواء من الادخار الفرنسي ام من ميزانيات فرنسا والبلدان المغربية ، فهو والحالة هذه يساس من قبل البنوك بدون أية مجازفة . وتدفع الفائدة من الميزانيات المغربية والقرض مكفول من الدولة الفرنسية لكن تكاليف الاعمال لم تكن مراقبة ابداً اذ إن التنافس بين الملتزمين الذين يمكن ان يتقدموا للعمل لا يلعب أي دور بسبب التأثير الحاسم لعدد من الشركات الفرنسية الكبرى في المغرب . ولما كان القطاع الاوربي آخذاً في الخضوع لسيطرة البنوك فان الجانب النظري يبز الجانب الانتاجي . وهذا القطاع يكون اذن اكثر قابلية للتأثر . وهو بحاجة متزايدة للدفاع عنه من قبل الادارة الفرنسية ؛ فالاسعار ، اذ تتعلق بالسوق الفرنسي الداخلي ، تحدد دون الرجوع الى اسعار السوق المحلي المغربي ؛ وتكون النفقات مخفضة بالاعفاءات الضريبية وبمستوى الاجور المتدني ، الذي يحافظ عليه بالعنف . وفي الوقت نفسه الذي يصبح فيه هذا الجانب المالي اساسياً فان القطاع الاقتصادي الذي يقدم على انه حديث وفعال كان يصار الى تمويله أكثر فأكثر من قبل الاقتصادين القوميين الفرنسي والمغربي ؛ واذ كان اصطناعياً فقد اصبح اذن ذا خاصية « سياسية » [٢] . وكلما تحدد هذا الاتجاه كلما تبدلت حالة الجالية الاجنبية ؛ تغادر الريف وتتركز في المدن وتملأ القطاع الثالث (العمل في التجارة والخدمات والتأمينات) فيغلب عدد الوسطاء والمستخدمين على عدد الملاكين

---

(١) انظر في جميع هذه النقاط أ. عياش في : مراكش ، الحساب الختامي لاستعمار ، باريس ، ط. اجتماعية ١٩٥٦ .

(٢) القي الأضواء على هذا الجانب بصورة خاصة ملفينم. نايت Melvin.M. Knight في كتابه: Morocco asa French economic venture ط. نيويورك ١٩٣٧ .

الحقيقيين ؛ والحال انهم في العصر الذي يتزايد فيه شعورهم بأنهم المقصودون ، وخاضعون من جانب آخر يأخذون بالمطالبة بالحاح ان تمنح السلطة السياسية لهم وحدهم دون غيرهم وان يرجع مركز الثقل من باريس الى المغرب نفسه . ألم يكن قد صار متأخراً جداً بالنسبة لهم ؟ اذ كانت : قوة مصرفية (بالتالي انتقال مركز القرار نحو باريس) واستقلال ذاتي للجالية الاجنبية وقومية مغربية تنمو في آن واحد؛ وهذا على الاقل ، وهو من الممكن تأكيده ، ان لم توجد سلطة تحديـــد ووصف أساسهما المشترك .

هكذا فان ملاحظة بسيطة للامور – ما زال من المستحيل تفسيرها نظرياً – تدلنا على ان هذه الجالية الاجنبية ، القليلة العدد ، كان في وسعها في القرن التاسع عشر ان تفرض ثورة ليبرالية حقيقية محمولة والحالة تلك بكل القوة الاقتصادية الآخذة في التوسع ، على حين وجدت نفسها ، بعد مرور خمسين عاماً وهي اكبر عدداً بما لا يقاس، مالكة لقاعدة عقارية هامة وتنظيم اقتصادي معقد ومعتقدة عندئذ انها قادرة على فرض مطالبها السياسية ، وقد جردت من قوتها وخانها الاقتصاد نفسه الذي حرضها . وبعد عام ١٩٣٠ سوف تزيد عدداً كذلك وتجيء الملياردات للاستثمار في المغرب وتتسع القاعدة العقارية أيضاً ومع ذلك فان كل هذا الذي سيبدو انه يزيد في فرص فرنسا للبقاء على الارض الافريقية ، سيكون من شأنـــه ، آخر المطاف انقاص فرص الجالية الاجنبية في الفوز باستقلالها الذاتي [١] .

لذلك فان هذا الاستقلال الذاتي لم يكن حقيقة واقعة الا لفترة قصيرة وفي الجزائر فحسب قبل ان يبدأ ، حقيقة ، التطور الذي اثرناه .

ج – التنظيم الإداري

كانت الجالية الاجنبية بحاجة لتنمية فعالياتها ، الى كادر اداري مستقل تمـــام الاستقلال عن الادارة المحلية القديمة . ففي الجزائر لم تتوقف المنطقة المدنية حيث

(١) سوف يتيح هذا اعطاء نظرية حقيقية للتاريخ الاستعماري من حيث هو ميدان مستقل وليس كذيل لاقتصاد البلاد المستعمرة أو « ثقل » يسحق البلد المستعمر .

كانت تطبق القوانين الفرنسية عن الاتساع على حساب المنطقة العسكرية . وامتد التنظيم الاقليمي والقروي الفرنسي الى كل الجزائر مع تعديلات طفيفة . وبتطبيق القانون الفرنسي المؤرخ ٦ ابريل – نيسان – ١٨٨٤ حصلت القرى التي كانت في كامل وظيفتها على الحالة نفسها من الاستقلال الذاتي التي لقرى فرنسا ؛ ولما كانت مواردها غير كافية فقد استوجبت أن تلحق بها مساحات من الاراضي تزداد اتساعاً ؛ فانها كانت تستفيد هكذا من الضرائب التي يدفعها الجزائريون دون ان تقدم لهم اية خدمة بالمقابل . ومن هنا فضيحة سوء الادارة – (وبل اللاإدارة) – التي طالت شكاة المحققين الفرنسيين منها من عام ١٨٩٢ إلى عام ١٩٥٥ . وكان نصف موارد المجالس العامة يتم توفيره من ضرائب يدفعها الجزائريون في حين لم يكن يمثلهم فيها الا ستة مساعدون معينون . وفي المجالس البلدية كان عدد الاعضاء الجزائريين محدداً بستة دون ان يكون لهم حق المشاركة في انتخاب العمدة (مرسوم ٧ إبريل – نيسان – ١٨٨٤) . ففي الوقت الذي كان يُنقص فيه العنصر الجزائري الى الحد الادنى في الادارة المحلية كان يرتسم هناك تطور نحو الاستقلال الذاتي بالنسبة لفرنسا . فان نظام الالحاقات نفسه المتبع لاول مرة في عام ١٨٨١ الذي كان يعمل على الاشراف على مختلف مصالح الادارة بواسطة الوزارات الباريسية المقابلة لها ، قد خدم ، في الواقع ، الهدف نفسه ، اذ كانت النتيجة انه لم يكن هناك احد في باريس يستطيع ان يعرف حقيقة ماذا كان يجري في الجانب الآخر من البحر الابيض المتوسط : لقد أسلم الجزائريون الى رحمة المستوطنين الذين كانوا يستطيعون في نفس الوقت بفضل نوابهم الحصول على جميع الامتيازات من الادارة المركزية . وعندما ألغي النظام (٣١ ديسمبر – كانون الاول – ١٨٩٦) كانت السلطة المحصورة بالمستوطنين قد صارت امراً مكتسباً ؛ وخدم الإهتياج في اعوام ١٨٩٨ – ١٩٠٠ في توطيدها باعطائها أساساً شرعياً .

---

(١) تتشكل من ثلاث فصائل : معمرين (٢٤)، مندوبي الفعاليات الأخرى (٢٤) وجميعهم منتخبون مباشرة ومسلمين (٢١، منهم ٦ من القبائل) منتخبون من المجالس البلدية والكومونات العاملة والكومونات المختلطة . ولم تكن هذه الفصائل تجتمع إلا من أجل التصويت .

بمراسيم ٢٣ اغسطس – آب – ١٨٩٨ تم انشاء جمعية اقتصادية تضم **المندوبين الماليين**، وهم المجلس الأعلى للجزائر، المنظمة تنظيماً جديداً ؛ وبقانون ١٩ ديسمبر – كانون الاول – ١٩٠٠ نالت الجزائر الشخصية المدنية، ولم يعد ينظر إليها على انها مجرد امتداد فرنسا القارية. ولم يبق ثمة من حاجة للجالية الاجنبية أو كانت تحسب انه لم تبق بها حاجة الى اسطورة الجزائر جزء من فرنسا. لكن هذا الاستقلال الذاتي كان ادارياً محضاً فقد كانت الحقوق السياسية التي كان فرنسيو الجزائر ينعمون بها فردية، ويمكن ان يقال إنها حصانات سياسية ؛ ان منطق الحالة، الذي كان قد اقتضى أن تحصل الجالية، من حيث هي مجتمع، على شكل سياسي، منفصل في آن واحد عن فرنسيّ فرنسا وعن الجزائريين، لم يطور جميع تبعاته. وصارت سلطات الحاكم العام دائماً وفي هذا الاتجاه، صارت الحالة في نهاية المطاف شبيهة بحالة البلدين المجاورين، على الرغم من الظواهر وما يزعمه القانونيون [1].

بمعاهدتي ١٨٨٣ و١٩١٢ أفلتت المبادرة في القوانين من اسياد تونس ومراكش؛ فان واجب ادخال الاصلاحات خصوصاً الادارية والقضائية والمالية اي على وجه الدقة ما كان يخدم المصالح الفرنسية [2] مناط بممثل فرنسا. لقد تخلص الفرنسيون بادىء ذي بدء من العقبة التي كانت تشكلها حقوق الامتيازات الاجنبية القديمة. تخلت الدول عنها بسهولة في تونس ما عدا ايطاليا، التي لم تسلم بذلك الا في عام ١٨٩٦، وفي مراكش بعد ادخال تنظيم قضائي فرنسي في سبتمبر – ايلول – عام ١٩١٣ وباستثناء انجلترا التي احتفظت بحقوقها حتى عام ١٩٣٧ عندما قبلت فرنسا القيام بنفس التنازلات في مصر. وفي كل من البلدين، كان المقيم العام هو رئيس الجالية الاوربية التي كان يسوسها مباشرة ؛ كذلك كان يدير المصالح المحدثة والتي كانت وزارات حقيقية، اشراف السلطة التونسية او المراكشية عليها معدوم، والتي كانت تهتم بالطبع، في المقام الاول، بشؤون الاوربيين. والنقطة الوحيدة التي كان

---

(١) كانت تساعد الحاكم العام للجزائر منذ عام ١٩٠٠ إدارة لا تقل تمكناً عن الادارة التي كانت تحيط المقيم العام في تونس أو في مراكش.

(٢) من أجل معنى الحماية الحقيقي أنظر ب. كامبون المصدر السابق ص. ص ١٦٦ – ١٦٧.

ثمة تعاون معين ضرورياً فيها مع السلطة المحلية . كانت تتعلق بالعدالة الاسلامية وبالحبوس (الاوقاف) هناك موظف فرنسي كبير كانت مهمته الايحاء . في هذا الميدان ، بالاصلاحات المبتغاة [1] . ونجد ، في الادارة المحلية ، التمييز المعتاد بين المنطقة المدنية .T. C والمنطقة العسكرية .T. M . والاخيرة تتقلص في تونس ولكنها في مراكش تشمل نصف البلاد . وانشئت في المدن مجالس بلدية (في تونس عام ١٨٨٥ وعام ١٩١٧ في مراكش) برئاسة محافظ تونسي أو باشا مراكشي وهي رئاسة اسمية في الحقيقة لأن نائب الرئيس الفرنسي كان يمارس في جميع الاحوال السلطة الفعلية ؛ والمشاكل كان يناقشها بصورة خاصة الاعضـــاء من غير السكان الاصليين ، وهم الذين كانوا ينعمون دائماً بزيادة عددية طفيفة . وعلى المستوى المركزي هناك عدد من المجالس الاستشارية كانت تتيح للجالية الاجنبية العمل على اسماع شكاواها ؛ اولها انشىء عام ١٨٩٦ في تونس : ألف من أعضاء سماهم المقيم العام وكان يناقش مشاكل مالية ، تتعلق اساساً بالميزانية وتلزيمات الأشغال العامة . كذلك تم في الرباط تأسيس مجلس حكومي منذ عام ١٩١٩ اي مجلس ادارة شركة المغرب التجارية وفقاً لتعبير ليوتي Lyautey [2]؛ وكان يتألف من رؤساء ونواب رؤساء الغرف التجارية والزراعية التي كانت قد انشئت قبل ذلك وعين اعضاؤها تعييناً . وهذا المجلس الذي يلتئم مرة كل شهرين كان يدرس الميزانية وحالة تقدم اعمال التجهيزات .

كانت هذه الادارة منذ البداية وقفاً ، بصفة اساسية ، لتسهيل حياة الاجانب وفعاليتهم ، وقد عملت تماماً في هذا الاتجاه حتى عام ١٩٣٠ على الرغم من بعض لمسات التغيير التي أدخلت عليها بعد الحرب العالمية الأولى . وطول هذه الحقبة لم تكن المشكلة السياسية ، اي الانجاز القانوني لما يراد من استقلال ذاتي اداري ومن انفصال

---

(١) عدالة اسلامية وادارة الحبوس ، هذا هو كل ما كان ينبغي للوزراء التونسيين الثلاثة وللمراكشيين الأربعة الذين استبقتهم فرنسا . وكان السكرتير العام للحكومة التونسية ومستشار الحكومة الشريفية يمارسان عليهم رقابة يقظة .

(٢) ل. هـ. ليوتي L.H.Lyauty : كلمات عمل ط. أرمان كولان ١٩٤٤ (ط. أولى ١٩٢٧) ص ١٧٢ .

اجتماعي ، مفهومة بوضوح . فان مسألة السيادة لم تعالج مباشرة الا عندما طرحت القومية مبدأ الاصلاح واستلزمت ان تكون هذه الادارة هي ادارة كل المجتمع .

فما هو السبب العميق لهذا التأخر في المطالبة السياسية التي سوف لا تتجرد من وجلها الا في وجه وجل القومية ولمدة قصيرة جداً ؟ ما زلنا ملزمين في ذلك للجوء الى الفرضيات . واحدى هذه الفرضيات ، وهي مقبولة ظاهراً ، كانت مشهد مجتمع اصلي سائر الى التفكك . فهل كان في ذلك ما يدعو الى الصبر .

٢ — ... وعدد غفير من الافراد

« عندما وجدنا انفسنا في الجزائر امام عجاج حقيقي ، غبار حالة من الاشياء اللاعضوية ، (. . .) اما في المغرب فعلى العكس ... » ، هكذا كان يقول ليوتي Lyautey ناسياً ان بوجو Bugeaud لم يكن يقول تماماً الشيء نفسه ، وغير قادر ان يتنبأ الا بعد مضيّ ثلاثين عاماً ، انه كان سيُكذّب وهو يتكلم عن فوضى مغربية . ذلك ان كليشيه « عدد لا حصر له من القبائل التي تقتتل » اصبحت حقيقة واقعة في نهاية التطور الاستعماري وليس في البداية لانها موضوع وهدف الاستعمار لا سببه الأول .

بمقتضى النظام المدني .S. C المؤرخ في ١٤ يوليو — تموز ١٨٦٥ وضع الجزائريون في حالة متوسطة بين الرعية والمواطن : لم يكن في وسعهم ان ينعموا بحقوق المواطنة الا اذا كانوا يتقدمون بطلب مع التنازل عن قانون احوالهم الشخصية [١] ، وكان هذا هو اتجاه العملية الاستعمارية : تدمير المجتمع الأصلي ثم قبول الافراد ، واحداً ، واحداً في المدينة الجديدة المبنية من قبل الاجانب ومن اجلهم . وبعبارات اخرى ، يُترك بطيبة خاطر ، للمجتمع القديم الحق في ان يموت بكل طمأنينة بعد ان يجعل معظم طاقاته غير منتجة . صارت الذريعة ، في بلديّ

(١) أنظر ملاحظات م. سهلي المصدر السابق ص. ص ١١٠ — ١١١ حول البواعث التي كانت تدفع المشرع الفرنسي . ألا يدعو هذا النظام إلى مقارنته مع نظام أهل الذمة في الإسلام الذي ينتقد كثيراً دون الاضافة أنه في هذه الحالة لم يكن أحد يتمتع بحق المواطن .

الحماية هي الاخلاص للمعاهدات التي لم تكن تتحدث عن الاصلاح السياسي ؛ وكان الهدف مع ذلك هو نفسه : الابقاء على المغربي في حالته كرعية ليصبح الاشراف عليه اسهل . فقد كان يعد ليوتي [1] Lyautey : « سوف أتمسك بأن تكون المقامات والمراتب مصانة ومحترمة ... » ، ظاناً ، بلا شك انه يبتكر في هذا الصدد . على هذا النحو كان دائماً في الحقيقة موقف العسكريين ، هناك حيث كان عدد الاوربيين لا يعتد به ، اي في بداية المشروع الاستعماري . فحتى في ظل النظام المدني في الجزائر ، كان محافظ الكومونات المختلطة يرتدي البزة العسكرية ، لا شك للمحافظة على الخداع . بين ضباط شؤون الاهليين والسكان ، كان هناك دائماً وسطاء (قائد ، شيخ) ، كانوا يفسرون ويطبقون الاوامر ، وفي جميع المغرب كانت السياسة هي المراقبة ؛ العمل من النخبة المحلية القديمة المتعاونين مع الاستعمار بتحويلهم الى طبقة طفيلية . وكانت سلطة المراقبين ومعاونيهم الخاضعين للمراقبة سلطة بلا حدود دائماً . ففي الجزائر كان قانون ادارة المستعمَرين (١٨٨١) يحدد ٤١ مخالفة (أنقصت الى ٢١ في عام ١٨٩٠) وكان مخصّصاً بصفة أساسية لانهاك الجزائريين وارهابهم يومياً ؛ وفضلا عن ذلك كانت الادارة تملك امكانية اعتقال كائن من كان دون تقديمه الى القضاء ؛ ولم يكن معظم الجزائريين يستطيعون مغادرة مكان اقامتهم دون إذن . وفي الدولتين المحميتين ، كان القادة Qâ'ids ينعمون بالسلطة نفسها ؛ مدراء وقضاة لا جدوى فيهم ، اختيروا من قبل السلطة الفرنسية للين عريكتهم ، كانوا يملكون سلطة مطلقة على حرية الناس ، وقد ظل الاعتقال الاداري جارياً في تونس حتى عام ١٩٣٤ ولم يوقف ابداً في مراكش . وبالطبع لم يكن اي حق من الحقوق المعترف بها للمواطنين (حق الاجتماع ، حق المشاركة ، حق النشر ...) رائجاً في المغرب ، فالجالية الاجنبية ، التي كانت في القرن التاسع عشر تنتقد طغيان السلطات المحلية ، التي فرضت باسم الحرية مختلف الاصلاحات وبررت خطأ نظام « الحماية » هذه الجالية الاجنبية نفسها استخدمت ، منذ ان حصلت هي نفسها على السلطة ، الحجة القديمة : الاسلام ضد الديموقراطية ، والمسلم لا

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٧٣ ؛ قارن كذلك ص ٢٤٣ .

يحترم الا السيف والقبعة العسكرية ، وفي الحقيقة عاش المغرب دائماً تقريباً في حالة حصار (قررت رسمياً في تونس عام ١٩١١ فأبقيت حتى عام ١٩٣٥ ولم تلغ في المنطقة المدنية الا فيما بين ١٩٢٤ — ١٩٣٧) . واذا ترجمنا جميع هذه التحديدات في حياة الافراد اليومية ، فان النتيجة الحاصلة — بلا شك الهدف المقصود — كانت هي العمل على اضمحلال المغربيّ من الحياة العامة : فليبق كل واحد في دوّاره ، أو بالاحرى في منزله ، لكي لا يخرج منه الا اقل ما يمكن . والمكان الوحيد الذي ما يزال يقدم طابعاً عاماً كان الجامع وهذا ما يوضح السياسة المعادية بعنف للاسلام من جانب الاستعمار .

لقد سبق أن الغي كل ما كان في التنظيم القضائي الاسلامي يظهر عقبة في وجه نموّ الرأسمالية ، و بسلسلة من المراسيم كان اهمها الصادر في ١٧ ابريل — نيسان — ١٨٨٩ حدد اختصاص **القاضي** في الجزائر في الاحوال الشخصية وفي المواريث ؛ وانتقلت سائر الامور الاخرى وبصفة خاصة الشؤون العقارية الى القضاء الفرنسي . وفي تونس بدأت علمنة الحق قبل الحماية بكثير ؛ واستمرت بالطبع . واصبح المراكشيون بالداهر Dahir الصادر في ١٢ اغسطس — آب — ١٩٣٠ في التنظيم القضائي ، خاضعين للمحاكم الحديثة ، الفرنسية في الحقيقة ، في كل مرة ينشب فيها الخلاف بين فرنسي ومدني أو تاجر . والحال أنه لم يكن يكفي طرد الحق الاسلامي من القطاع الحديث حيث لم يكن في مقدور المغربي على أية حال ان يحارب بسلاح معادل ، بل كان يجب كذلك التخفيف أكثر ما يمكن من سلطان الاسلام على السكان فبُدىء بالبربر الذين كانوا يحلو للاستعمار ان يعتبرهم ضعيفي الاسلام . وعليه ألغيت السلطات القضائية الاسلامية منذ عام ١٨٧٤ في بلاد القبائل ومنذ عام ١٩١٤ كانت السياسة البربرية في مراكش سائرة وكانت جميع المناطق الناطقة بالبربرية في منجاة من المخزن ومن الشرع وفي المناطق الناطقة بالضاد نفسها توبعت سياسة تزوير بارعة للاسلام . وقد بُذلت جميع الجهود لكسب زعماء **الزوايا** واحرز النجاح في ذلك على نطاق واسع ، وفي الوقت نفسه جرت محاولة تشجيع التخصيصيات حتى أكثرها شذوذاً ، لاعطاء الورع الشعبي خاصية محلية ، طبيعية وبدائية [1]؛

---

(١) من هنا نظرية الـ «بركة» الضبابية التي أفادت مرات شتى في سلطات كاذبة في « الأمور المغربية » .

وتركت منظومة المدارس القرآنية القديمة (**الكتاب** والمسيّد Maid) بلا معونة تمضي الى الاضمحلال إذ إنها لم تعد تموّل من قبل الحبوس (الاوقاف) التي أخذت تتزايد مطالبة الادارة بها ؛ كذلك حُوِل تثبيط الهمم من أجل القيام بفريضة الحج الى مكة واقيمت العراقيل في وجه الصلات القديمة بين الارياف واسلام المدن . ولا شك في انه كانت قد صارت هناك عناصر تفريق بينهما منذ عصور الانحطاط ولكن اللوحة التي كانت تعرض حوالي عام ١٩٢٠ للاسلام المغربي هي ، أكثر من امر واقع ، نتيجة سياسة وتعبير عن ايديولوجية . فليس من قبيل الصدفة أن تستعاد ، عن طيبة خاطر ، في آداب ذلك العصر ، العقلية الابتدائية . لعل المثل الاعلى في النظر الى الشعب الماثل انه « شعب بلا كتابة » وعليه جرى اتخاذ التدابير من أجل الوصول الى ذلك ؛ فتركت المدارس الاسلامية الى الانقراض ، احياناً كانت تغلق كما جرى في الجنوب المراكشي ولم يبذل اي جهد جدي لفتح مدارس فرنسية ؛ وفي الحالات العادية لم تكن نسبة الاطفال المغاربة المسجلين في المدارس لتتجاوز ٢ ./. من عدد الاطفال العام الذين هم في سن التعليم (كانت هذه هي حالة الجزائر في عام ١٨٩٠ والحالة في مراكش عام ١٩٣٩) .

هكذا تتخذ سياسة الـ « محاصرة » كامل اتجاهها : فلم يكن المقصود فحسب طرد المغاربة مرة أخرى الى ما وراء التخوم ، **الليمس** في المغرب الصحراوي منطقة الابل ، والنخيل **والزوايا** ، وانما كذلك أن يقهر في النفوس كل مكتسب تاريخي ، ديناً ولغة ؛ كان الهدف هو الوصول ، وراء هذه المكتبـــات ، الى الانسان الذي لا ثقافة له والذي كان في الوسع عندئذ تحضيره . فمن يستطيع ان ينكر أن هذا الطرد كان يبدو في لحظة ما انه نجح ؟ ان المغربي ، المفتقر ، و « المنزوع الثقافة » لم يعد يغادر منزله؛ اذا كان يخرج فانه كان يسرح بنظره بعيداً وفارغاً – هذا النظر الذي كثيراً ما أذهل المسافرين والذي نعثر عليه أحياناً حتى اليوم في حالات الانتظار ، في فرنسا او في المغرب – على أرض لم تعد تخصه . فكيف نعجب اذاً ، في اللحظة التي تضيع من يده ارضه وحيث تصبح لغته غير شفافة بالنسبة له وحيث يتبدد دينه في حركات لا معنى لها ، قال المغربي لنفسه اريد : ارضي ، ديني ، لغتي ، انه استرداد لا شك ولكن من الناحية التاريخية على ادنى مستوى .

٣ ـ منطق الحالة

في منتصف القرن التاسع عشر ، كما قلنا ، لعبت الجالية الاجنبية ، التي كانت لا تزال ضعيفة ، دور الطبقة البورجوازية المكافحة من اجل حرياتها ، وانه لمن الجائز ان نتخيل مغرباً ينعم بحكومة قوية ، مدربة ومنظمة ، كان يمكنها ان تجعل هـذه « الثورة الليبرالية » نافعة بالاشراف عليها ، لكن فشل خير الدين يُظهر جيداً ان هذا المغرب كان من عالم المستحيل ، بسبب تأثير الاجانب المتزايد على وجه الدقة . فقد كان حضور هؤلاء في التحليل الاخير ، يرسم في الوقائع تطوراً بعيد الاحتمال . وفيما بعد ، في الحقبة الممتدة من ١٩٣٠ إلى ١٩٥٤ سوف تلزم الجالية الاجنبية القيام بدور مماثل ولكن على مستوى ارفع ؛ ففي مجتمع سوف يوحده الاقتصاد خارجياً ، فانها ستعارض النزعة الديموقراطية البورجوازية لدى القوميين بالنزعة الارستقراطية البورجوازيـة هي ايضاً ؛ انها سوف تريد ، وقد بنت فوق المغـرب الحقيقـي ، مغرباً مجرداً الى حد ما ، فرض منظومة من الـ « حالات العامة » محددة على قاعدة اقتصادية ، باسم هذه الثنائية ، وعاملة على ان تكون مسألة السيادة ثانوية . لكن هذا البرنامج سوف لا يظهر بوضوح الا في نهاية المشوار عندما ستكون البنية التي ستزعم التعبير عنها قد تم تجاوزها جزئياً . وثمة تأخر مماثل وجد في اثناء الحقبة الممتدة من ١٨٨٠ إلى ١٩٣٠ وهذا هوما كان علينا ان نشير اليه في هذه المرحلة من التحليل .

لم يظهر المغرب لا رأسمالية حديثة ولا بالتالي طبقة بورجوازية . فقد منحته اوربا الاستعمارية واحدة ولكن بشروط : أن تنعم بامتيازات قاصرة عليها . فالحق البورجوازي والحريات البورجوازية والاقتصاد والادارة البورجوازيين امور يجب ان يظل مبدئها محرماً على المغاربة . وعلى أية حال ، كما كان يقال ، لا حاجة لهم بها . كان الامر يؤول هكذا منطقياً ويمكن القول ، معنوياً إلى تعايش مجتمعين ؛ الا انه تعايش مؤقت ، لانه كان على احدهما بعد ان يعيش طوراً من الاستبدادية المستنيرة [1] ان يتحول الى ديموقراطية بورجوازية راشدة ، في حين كان على

---

(١) في معناها التاريخي أي من حيث هي سياسة تشجع نموطبقة بورجوازية وذلك بتزويدها قبل أن تطلبه ، باطار قانوني وشفافي ضروري لها وبتدعيمها مالياً بنظام ضرائبي يضير الفلاحين بصفة رئيسية .

الآخر بعد تفكك بطيء تحت رقابة متسامحة من العسكريين ان يتغــير الى رديف انثروبولوجي . فنمو يحظى بالعون من جهة وتقهقر متسارع من جهة اخرى؛ ذلك كان ، كما كان يراد الظن أو يُعمل على الاعتقاد ، حكم التاريخ . ان المجتمع المدان حتّى آخر رمق سيكون عليه ان يموّل المجتمع الذي كان عليه ان يعيش بعده .

إن تبدو لأعيننا ، في الساعة الحاضرة ، هذه الداروينية الاجتماعية، ساذجة جداً ، لانها في حالتنا هذه ، لم تنجح ، امر لا ينقص شيئاً من قسوة منطقها . وكوننا أفلتنا منها ، في الوقت الحالي على الاقل ، لا يعتقنا البتة من واجب البحث مرة ومرة : عن اسباب فشلها . لانها اخيراً لم تكن تطمع في عمل شيء آخر ان لم يكن الاعتبار بتاريخنا . لقد قلنا ان الاستعمار كان يبدو انه يتشبّه ببُنى استقبال كانت تتهيأ بصورة منطقيـة لا شك ، ولكنها اضافية ، منذ القرن السادس عشر . تقهقر ثقافي ، تباين بين الاسلام في المدن والطقوس الريفية ، معارضة بين السلطة المركزية والحريات المحلية : جميع هذه السمات كانت قد صارت سمات التوازن في الانحطاط . فلم يفعل العنف الاستعماري الا انه فصم العلاقات النادرة التي كانت لا تزال موجودة بين ميدان التاريخي (دول ، مدن ، عدالة وطقوس اسلامية وثقافة واخلاقيات عربية) وميدان ما تحت التاريخي (زوايا ، طوائف ريفية ، عادات ، فولكلور وحياة خاصة) ؛ واذ تسلّل التاريخ بين الميدانين ونصّب نفسه حكماً فانه حكم على احدهما بالانحطاط والنسيان وعلى الآخر بالتقهقر وبالموت . ففي اية لحظة ولأي سبب أساسي ، انفصل ما كان منطق العصور المنحطة ، عن الحقيقة الواقعة ما ان أعيد صياغته في السياسة [1] ؟ هل يجب استنطاق علم الاحصاء البشري ؟ الاقتصاد ؟ هل يجب الاعتقاد بعدالة ثابتة ، كما فعلت دائماً القومية ؟ او بالاحرى يجب الاكتفاء بملاحظة المصيبة في عدم تلاؤم مستمر بين ايديولوجية وبنية والقول انه في الوقت الذي يبدأ فيه الاستعمار تصبح ايديولوجيته(جوهر حقيقة ما قبل الاستعمار) عديمة

---

(١) يوحي جاك بيرك ، المصدر السابق ص ٢٦٠ بأن الأرض المغربية نفسها رفضت في فترة معينة انابة التقنيات الجديدة التي كانت تدخل عليها . ولسوف يكون ميدان الرفض على هذا النحو شاملا ، ولكنه بالكشف عن جميع مؤشرات هذا الرفض لا يقول لنا أبداً عن سببه ولا حتّى مجرد المستوى الذي يظهر فيه على النحو الأكثر حسماً .

التأثير ، كما أن الاصلاحات التي سوف يطرحها بعد عام ١٩٣٠ لن تكون الا نظرية الحقيقة الواقعة المعاشة في الحقبة الممتدة من ١٨٨٠ إلى ١٩٣٠ ؟ لكن هذا هو ببساطة اعتراف بالجهل .

مهما يكن من الامر فلا بد من الاعتراف بأن الانتقادات الليبرالية التي وُجهت الى النظام كانت جد سطحية ، على الرغم من القيمة الرمزية والعاطفية التي ما تزال تحتفظ بهما في أعين بعض القوميين والمعادين للاستعمار اليوم . ان فضيحة فرض ضريبة مزدوجة على الجزائريين التي دامت حتى اصلاحات عام ١٩١٩ والظلم الفاضح الظاهر بفضل حسابات لا يمكن الطعن فيها ، في العمل على ان يدفع المغاربة الاقل غنى أكثر ضرائب وفي اعطائهم بالمقابل خدمات اقل [١] ؛ والتناقضات في المادة الدينية والثقافية التي كانت تقوم على الرغبة في أن لا يعود الاسلام يلعب اي دور اجتماعي وان يخدم مع ذلك أهداف الاستعمار ، أو في الوقوف في وجه تقدم التعليم العربي مع رفض استبداله بتعليم آخر في الفرنسية ؛ كذلك التناقض في ميدان القانون الذي كان يقوم على ادخال تشريع غير موضوعي ، شخصي ، في حين كان ينتقد التشريع الاسلامي تماماً لهذه الاخطاء نفسها ؛ وواقعة الطلب ، اخيراً ، من المغاربة أن يضحوا بأنفسهم للدفاع عن الامة والقيم الفرنسية في نفس الوقت الذي يمنع عليهم العوض الشرعي ، اي حق المواطنة [٢] ... جميع هذه الانتقادات التي راحت تُتناقل بخوف في الاوساط الليبرالية في فرنسا ، والتي اخذ بها رجال تونس الفتاة ورجال الجزائر الفتاة ثم شكلت برنامج القوميين « المعتدلين » ، تختصر جميعها في هذا الاقتضاء : ان تلعب الجالية الاجنبية دورها حتى النهاية كـ « محررة للمجتمع » ، ان تبقى مخلصة لايديولوجيتها في القرن التاسع عشر التي سمحت لها ان تكسب امام الرأي العام الدولي دعواها ضد نظام حكم ما قبل الاستعمار . لكننا نبصر جيداً جداً

---

(١) كان الجزائريون وفقاً لهذه الحسابات يساهمون في عام ١٩١٤ في مختلف الميزانيات الخاضعة للمزاحمة بـ ٤٦٪ على حين كانوا يسيطرون على ٣٧٪ من رأس المال الاجمالي ، نفس النمط من الانتقادات بالنسبة لتونس ومراكش في مؤلفات ب. سيباغ Sebag وأ. عياش Ayache السابقة .

(٢) يلخص ش. أ. جوليان في خاتمة كتابه افريقيا الشمالية ... ، ط. جوليار ١٩٥٢ ص ٣٩٥ — ٤٠٩ جميع هذه الحجج : فالمساواة أمام القانون والثقافة الفرنسية هما أهم دوائين معروضين .

من أين يأتي هذا النقد : يتظاهر بالجهل ان الجالية الاجنبيـــة تشكل بورجوازيـــة مجلوبة، ترفض باسم منطقها الخاص أن تخدم مجاناً شرف الانسان أو مجد الله، وأنه طالما ان المجتمع يكون متنافراً وانه اكثر تنافراً في غضون الحقبة الممتدة من ١٨٨٠ إلى ١٩٣٠ فإنه يشكل مجتمعاً منفصلا ، مجاوراً لمجتمع آخر يستطيع أن يرجعه الى الخلف، ولكن لا أن يُثَوِّره . كان لهذا النقد اتجاه في منتصف القرن التاسع عشر وسوف يكون له هذا الاتجاه كذلك بعد عام ١٩٣٠ عندما يمكن تقديم الاصلاحات المقترحة كمجرد وسيلة لتوسيع السوق المحلي المستقل امام بورجوازية كانت لا تزال تستطيع الامل في ان تكون معتمدة ؛ لكنها في الحقبة المتوسطة تكون ، بمنطقها المفارق نفسه ، غير منطقية . فلماذا في الحقيقة ، العمل ، بالتشريع والثقافة ، على « برجزة » سكان ، في حين كان الاقتصاد يعمل في ذلك الزمن على تقهقرهم ، الى ما وراء مدينة الله ، نحو البدائية القبلية ؟ عدالة ابوية وشخصية ، نعم : عدالة بورجوازية مفارقة ، لا : كان هذا ما كان ينادي به اصدقاء آخرون للساكن الأهلي ، هـــم العسكريون [1] .

هكذا فان النقد الليبرالي لليبرالية هو الذي كان رغم اعتداله غـير منطقي ، في حين كان النقد الآخر الراديكالي وان كان صامتاً في ذلك الزمن ، يظهر منطقاً لاذعاً أكثر من منطق الاستعمار نفسه . فان لا فعالية الاصلاحية الليبرالية وذيلها ، القومية المعتدلة ، لم تكن البتة آمراً مفاجئاً .

---

(١) نرى هكذا ، بعد مختلف ملاحظاتنا وكثرتها كم هي صعبة مسألة تجانس المجتمع الاستعماري . فمن الجلي أن التحليل الاقتصادي وإعادة البناء التاريخي يطرحانها كسلمة بقدر ما تنكرها البسيكولوجية الفردية والاجتماعية والمطالبة السياسية ، والمقصود أن نعرف ما هو مستوى الحقيقة الواقعة وما هي وجهة النظر التي يميزها التحليل ؛ ولكن لا يمكن أن نعمل كما لو أن « الأمور » قد أجابت هي نفسها ، في هذا المعنى أو ذاك ومرة نهائية .

١٥ - المغرب المتجدد

عرفنا الآن بأن المجتمع المغربي ، وقد بُتر عن ارضه وعن ماضيه ، وجد مع ذلك الوسيلة للافلات من الموت . وهذا لا يضطرنا الى اعادة كتابة تاريخ الحقبة الاستعمارية ، ولكن الى ان نعي خطوط التحديد التي ميزناها [١] دائماً ونحن نعالجه . كل تاريخ استعماري يحتمي بالاقتصاد ان لم يكن بالتكنولوجيا العادية ، يمكنه ان يجد مبرراً في كون المغرب الذي ردت اليه الحياة قد استعاد شركة الحالية الاجنبية كما هي واقام نفسه عليها الحامي الامين ، دون حتى تقييم الكلفة الاجتماعيّة لهذه الامانة المحافظة . فان التبرير مع ذلك يكون ظرفياً لان من ما شيء يثبت أن وجل المغاربة سيستمر دائماً [٢] . الا أن الاخطر هو ان لا يظهر المغرب ابداً في نهاية التحليل الاقتصادي الا كبُقيا ، مهزوماً امام نظام اخذ في التوسع ، ولو انه ، فيما بعد ،

---

(١) يقاوم جاك بيرك في مناسبات عديدة في كتابيه عن المغرب ومصر ، اللذين سبق ذكرهما ، هوس « التنبؤ بالحادث المفاجيء» ، ولكن ألا يمكن القول بأن الحادث المفاجيء يعطي على وجه الدقة للحوادث أوزانها النوعية المختلفة وان اعادة وضعها على المستوى نفسه بحجة أنه قبل أن يقع حادث ما كنا لا نستطيع التنبؤ به ، تعني بتر الأفعال بصورة تعسفية ، عن نتائجها والحكم على التاريخ كله بأن يكون نوعاً من الحضور الأبدي ، وفي حقيقة الأمر بالنسبية وبالتفاهة ؟ .

(٢) كثير من المؤرخين الماركسيين يظلون في اطار هذه النزعة الاقتصادية (وعنوان أ. نوشي A. Noushi : «معنى بعض الأرقام» في دراسات مغربية ص ١٩٩ واضح الدلالة) في حقيقة الأمر ، بورجوازية بصورة نموذجية ، الأمر الذي يفسر ما تلقاه أعمالهم من استقبال التأييد لدى المؤرخين الاستعماريين الراغبين في تكييف الانتاج لصالحهم . في هذا المعنى يمكن القول بأن هذه الحركة كلها (أياً كانت النية الحسنة في الذين يشاركون فيها) تساعد في تكوين ايديولوجية الاستعمار - الجديد التي يمكن أن تحدد بانها تبرير للاستعمار بدون معمرين . ويقال بأن التكنولوجيا الحديثة قد جرى الا ستئثار بها بافراط من قبل الاستعمار بمعنى استثمار المستعمرات) فلنردها إلى غايتها الأولى ... ومن الواضح أن المقصود عودة إلى السان سيمونية .

يكون له حظ في ان يُبعث من جديد متحولاً من داخل هذا النظام نفسه الذي اصبح سائداً .

يقتضي التحديد الاقتصادي اذن في آن واحد استمرارية الحقبة الاستعمارية مع اوربا الامبريالية والانقطاع مع الماضي المحلي : فهناك في حياة المغرب درجة صفر في الوجود ، نقطة حيث يلتقي فيها بالانسان النوعي . لكنها وجهة نظر عالم الاجناس او الفيلسوف ؛ اما المؤرخ فلا يعترف بحلول مماثلة من الاستمرارية ، يجب عليه ان يطرح كمسلمات تطورات مستمرة . ومن هنا ، اللجوء الى تحديدين آخرين : اجتماعي قبل كل شيء ، يفترض به تأثيراً مباشراً من الجماعة الاجنبية على المجتمع الاصلي (قائلا ان الفعالية الاستعمارية تخلق بورجوازية محلية تعي مصالحها وتنظم نفسها وتقيم من نفسها ناطقاً باسم جميع الجماعات المُسْتَغَلّة » ؛ ثم ايديولوجية بعد ذلك ، عبر شهادات مغاربة معنيين باعادة بناء السلسلة المتوالية لردود الفعل ابتداء من الحركة الاصلاحية الدينية الى الفعالية السياسية . هذان التحديدان لا يؤكدان ، مع ذلك ، الاستمرارية المفترضة ، لان هناك ، في الأول انفصام على مستوى التغييرات في الادوار الاجتماعية ، أقل وضوحاً بالتأكيد في حالة التحديد الاقتصادي لكنه حقيقة واقعة مع ذلك ، وفي الثاني انما المقصود هو استمرارية وهمية بما أن نفس الايديولوجية تستطيع ان تخدم مقاصد سياسية مختلفة .

ينبغي الا نسرع باتخاذ موقع في هذا الجدل ؛ وليكفينا أن نسترعي الانتباه الى تغاير الاستمراريات الثلاث المطروحة كمسلمات ؛ استمرارية الاعداد ، استمرارية الادوار واستمرارية الجهر بالعقائد ؛ فالأولى ترجع الى عمل المستعمِر والاخيرة إلى ألم المستعمَر ، اما الثانية فالى الوسط الذي يبدو انه مشترك بينهما . فهل نستطيع مع ذلك الامل في أن نواجه بوجل الحقيقة الواقعة الشاملة للمجتمع المستَعْمَر بمجاورة التحديدات الثلاث أوبتقليصها الواحد الى الآخر بواسطة التعبيرية الرمزية ؟ يبدو جيداً أنه غير ممكن ؛ هذا هو على الأقل الانطباع الذي تتركه قراءة العديد من الدراسات

المكرسة لرد الفعل المغربي في مواجهة الاستعمار . فنادراً منها ما لا يستسلم للسهولة الصحفية [١] .

١

على الرغم من هذه التحفظات لنبدأ بتلخيص النقاط المقررة بالتحليل الاجتماعي والايديوموجي .

ان الحقبة المنظور فيها تقدم ، اذا اخذت جملةً ، مشخصات متناقضة : المقاومة العسكرية لم تختف تماماً ، فقد استمرت في الجنوب التونسي حيث كانت تجمعات عديدة تعبر في اتجاه او في آخر الحدود الليبية الى صحراء الجزائر حيث كان عدد الانتفاضات تنشب على نحو متفرق ولا سيما في القسم الاكبر من الاراضي المراكشية. وكانت المرحلة الاخيرة من هذه المقاومة ، وهي حرب الريف ، ملفتة للنظر وقد اقتربت من الحد الذي كان في وسعها فيه ، ان تتحول ، بالعون الخارجي ، الى ثورة تحررية ، لانها جاءت على وجه الدقة متأخرة وتمكنت على هذا النحو من الافادة من حالة لم يكن في قدرة ابن غداهم في عام ١٨٦٤ ولا مكراني Mograni في عام ١٨٧١ ، معرفتها [٢] . ومن الممكن اعتبار الانتصارات الريفية من بعض

---

(١) ثمة مثال للتنظير مبكر يمكن العثور عليه في كراسة: القوميات المغربية، التي نشرتها المؤسسة القومية للعلوم السياسية (يوليو – تموز – ١٩٦٦). ففي الدراسة المخصصة لتونس كان الجهل بالوقائع الأولية باعثاً على تأكيدات قاطعة؛ وكانت الدراسة المخصصة للجزائر ابرازاً لقضايا غريبة تماماً على المسألية المغربية ؛ أما المتعلقة بمراكش فكانت تعميماً انطلاقاً من أعمال جزئية ومتحيزة، في خدمة المندوبية أو السلطة الحالة ؛ وقد استرسل المؤلف حتى انه عاد إلى الأخذ بالحماقات في التزايد بالاحصاء السكاني وتكاثر الزيجات المختلطة كظواهر القومية وفي الحالات الثلاث كان استخدام أعمال جاك بيرك قابلا للمناقشة كثيراً ؛ إذ يتطلب هذا الاستخدام ، لكي يكون مبرراً، معرفة عميقة لماضي المغرب وثقافته التي لا يملكها المؤلفون بداهة . ان مؤلف جاك بيرك، إذا كان لا بد من إعادة القول فيه يكاد أن يكون مصاغاً باكمله من فرضيات حول أمر ثابت يفترض انه معروف؛ولا يمكن في أي حال ان يعتبر كسلسلة من الموجزات مختصرة لوقائع تم اثباتها نهائياً ، يستطيع كل واحد فيما بعد تفسيرها وفقاً لرغباته .

(٢) إذا نحن حصرنا أنفسنا في الإطار المراكشي لأذهلنا التطابق بين نهاية حرب الريف(١٩٢٦) وبداية الحركة القومية (١٩٢٧) ويمكن إعطاء معنى خاص لتاريخ ١٩٣٤ حيث انتهت« إعادة السلام » وحيث صيغت « خطة الإصلاحات » . جميع المؤرخين يلفتون النظر إلى هذه التوافقات؛ ومع ذلك أليس المقصود وهماً، ذلك أننا إذا وسعنا الرؤية لتشمل جميع المغرب فان الريف يبتعد في الماضي ليمضي الى

النواحي كبطولات باهرة قامت بها مؤخرة جيش مدحور من قبل ، لكن أنوال Anoual (يوليو – تموز – ١٩٢١) حيث فقد الجيش الاسباني مئتي مدفع ومئي بسبعمائة اسير بينهم الجنرال سلفستر Sylvestre ولا سيما التعهد الذي وجدت فرنسا واسبانيا فيه نفسهما ملزمتين بحشد جيش ؛ مجموعه نصف مليون جندي ، يدعمه اربعة واربعون سرب من الطائرات الحربية المقاتلة قبل أن يضطر الزعيم محمد بن عبد الكريم الى الاستسلام [1] ، هي امور تشهد على مدخر عظيم من القوى غير المستعملة ؛ لم تستطع السلطات الشرعية عندئذ من تعبئتها ؛ لسوف يكون من شأن آخرين ان يفعلوا ذلك لأن الزمن لن يستنفدها .

تدعو أهمية الجيش الفرنسي المعسكر في المغرب وكذلك عدد القواعد البحرية والجوية [2] الى التفكير باحتلال عسكري للبلاد ، ولكننا في نفس الوقت وحتى عام ١٩٢٧ لم نكشف لدى المستعمرين انهم يطرحون للمناقشة ثمن هذا الاحتلال ؛ كان يبدو هذا الاحتلال مسلماً به في الحدود التي سيشكل فيها عوضاً عن توسع السيادة الفرنسية (على عكس الاسبانيين لم تكن لهم ثقة بأنفسهم ابداً حقيقة وطردوا ، رغماً عنهم في بداية الامر من الانجليز ثم بعد ذلك من قبل الفرنسيين) . الا ان أكثر مغزى من تفاؤلية المستعمرين كان التعقل البالغ ، اذ لم نقل الغموض ، في مسلك المغاربة انفسهم . فقد شارك المغرب في الحرب الى جانب فرنسا . ولم ترسل الجزائر

=التلاقي مع مختلف الثورات الريفية والجبلية (فالريف كان في غليان منذ عام ١٨٦٠ ضد الأسبان) ، على حين كانت الفعالية السياسية مرتبطة بالحركة القومية العامة للمغرب وللمشرق. وقد اتسعت الشقة بين مقاومة أوليـــة وقومية سياسية كثيراً فيمـــا وراء السنتين المعترف بهما . فان رفض المؤرخ الوضعي لقبول هذه الفكرة سوف يجعل شاقاً أكثر عليه تفسير نجاحات وانكسارات جيش عبد الكريم. قارن في حرب الريف التي ما تزل بعد غير مدروسة بصورة مرضية ر.فورنو R.Furneaux في كتابه عبدالكريم لندن ١٩٦٧ من أجل المراجع المتداولة . أثار الصحفيين، الدبلوماسيين والموظفين أو عالم الأجناس مثل ك.كون C.Coon في كتابه : Fcesh of the Wild ox, New york 1932 . أما كتاب د. س. وولمان : Rebelsin the Rif 1968 فهو مخيب للأصل .

(١) أرقام بقيت سرية مدة طويلة ؛ قارن ا. عياش المصدر السابق ص ٣٣٢ .

(٢) ليس من السهل بلا شك الوصول إلى أرقام دقيقة في هذا المجال ، الكثرة ما كان عدم ثبات عدد القوات الاستعمارية عظيماً وكذلك سهولة الجوء إلى الجنود الإضافيين ؛ ولا شك في أن عدد هذا الجيش تراوح فيما بين الحربين بين ٧٠،٠٠٠ و ٢٠،٠٠٠.٠ جندي . ومع ذلك فان الأهمية هي مقارنة هذه الأرقام بعدد الجنود الإنجليز في الهند أو في مصر ، القليل جداً .

١٧٣,٠٠٠ مقاتل كانت شجاعتهم بالغة التأثير في اغسطس – آب – ١٩٢٤ ، منهم ٢٥,٠٠٠ لم يرجعوا ابداً ، فحسب ، وانما رأت سكانها من الذكور (١١٩,٠٠٠ رجل عام ١٩١٨) يغادرون البلاد كذلك ليحلوا في المصانع الفرنسية محل العمال المساقين الى الجبهة . واضطرت تونس ، على الرغم من نظام الحماية ، الى تجنيد ٥٦,٠٠٠ جندي لاقى ١٢,٠٠٠ منهم الموت . وارسلت مراكش نفسها ، التي لم يكد فتحها يتم ، جنوداً شاركوا في الدفاع عن باريس وهبط عدد من العمال المراكشيين بوردو منذ عام ١٩١٥ ، وايا ما يمكن القول في الطابع المتكافف في هذه التعبئة العسكرية والمدنية ، وفي عصيان الاوراس ودسائس الاتراك في تونس والالمان في مراكش ، فانه يبقى ان الصفوة المغربية ، على وجه الاجمال ، قد تعاونت مع السلطة الفرنسية ، مرجئة الى ما بعد الحرب مطالبها الاكثر تواضعاً ؛ اما السكان فانهم كانوا على وجه العموم سلبيين .

كيف نعرض هذه النشازات ؟ ذلك ان تحليل التغيرات الحادثة في المجتمع المغربي يفرض نفسه هنا . فان القطاع الذي كان يكابد الضغط الاقوى من الاستعمار كان لا شك قطاع فلاحيّ السهول والهضاب العالية ؛ هؤلاء الناس كانوا يفقدون أرضهم مع استمرارهم في تحمل فرض الضرائب الباهظة ، وحقيقة الامر أنهم حُوّلوا إلى حالة المتسولين وعلى الاخص في الجزائر . لئن كان الانسان يهلك فذلك لان القطيع كان يؤول الى الزوال كلما كان يضيق مجال المرعى.فقد قدر ان قطيع الاغنام قد نقص في الجزائر من ثمانية ملايين رأس عام ١٨٦٥ إلى ٧,٧ في عام ١٨٨٥ والى ٦,٣ في عام ١٩٠٠ ؛ ونقص قطيع الابقار من ١,٠٧١,٠٠٠ في عام ١٨٨٧ إلى ٨٤٦,٠٠٠ في عام ١٩٠٠ [٢] ، وفي نفس الوقت كان عدد الفلاحين الذين لا

---

(١) أنظر في هذا الموضوع فتاوى الفقهاء المراكشيين (الكتاني، الدكالي ، ولا سيما م. سكيريج M.Skirg) رداً على دعوة السلطان العثماني إلى الجهاد ، في مجلة العالم الإسلامي عدد ديسمبر – كانون الأول – ١٩١٤ ، عدد خاص وكذلك عدد ٣٤ (١٩١٧ – ١٩١٨) .

(٢) قارن هذه الأرقام الدقيقة التي يقدمها ش. ر. أجيرون وآخرون وفقاً لنشرات رسمية بتعميم ج. ديبوا الرزين ، المصدر السابق ص ٢٥٠ : « نقع الفترة التي كانت فيها قطعان الغنم أكثر عدداً بين عامي ١٨٨٥ و ١٩١٥ وقد بلغت في المتوسط عشرة ملايين رأس في الجزائر ». وكانت الدراسات الجارية حول تطور حياة البداوة من خصوصية الاداريين ذوي التكوين العسكري. فكل شيء يصدر عن هذا الانحطاط ، كما يقولون ولكننا لا نملك في الأمر شيئاً . أنظر مسألة مرموشة في مراكش (ج. بيرك : المغرب .. ص. ص ١١٩ – ١٢٣) .

يملكون ارضاً ، المحكوم عليهم بالنظام الاقتصادي الجديد . بالبقاء كذلك الى ما لا نهاية ، يزداد بلا توقف ويبلغ نسبة ٥٠ ٪ في الجزائر حوالي عام ١٩٣٠ . ولم يكن هذا على وجه التأكيد الاّ جانب من الحالة السيئة؛ اما الجانب الآخر فكان تدعيم طبقة وسطى من الملاكين المغاربة ، تشجعها صراحة الادارة الفرنسية ولم يعد يربطها اي التزام (عادة) بالفلاحين الذين انتزعت منهم املاكهم . فجميع المتعاونين مع السلطة الاستعمارية من مدنيين او عسكريين كانوا يستولون على مساحات واسعة من الارض مقابل تواطئهم مع المستوطنين والمضاربين . هذه الطبقة كانت تخلف من زاوية ما تلك التي رأيناها ، منذ القرن الثامن عشر قد أخذت تنزع الى التفرّد [١] ، ولكن في ظروف أكثر ملائمة وبفعالية متزايدة ابتداء من عام ١٩٠٠ . لقد اعيد شراء ٦٠,٠٠٠ هكتار . في الجزائر من المستوطنين عام ١٩١٨ في منطقة قسنطينة من قبل جزائريين لم يكونوا بالطبع من طبقة صغار الفلاحين . ومن عام ١٩٢١ إلى عام ١٩٢٥ اشترى الفرنسيون من جديد ١٣٥,٠٠٠ هكتار من الجزائريين واشترى الجزائريون ١١٤,٠٠٠ هكتار من الفرنسيين . وفي عام ١٩٣٠ كان ١ ٪ من الجزائريين يملكون اكثر من $\frac{1}{5}$ الاراضي الجزائرية (الملكية الفرنسية غير واردة)

وثمة تطور مماثل يلاحظ في تونس حيث سبق لسياسة خير الدين ان كانت موجهة نحو تدعيم طبقة الملاكين الريفيين الميسورين ؛ وقد وجدت هذه الطبقة السند نفسه من جانب ادارة الحماية وعلى الاخص عندما كانت تتضامن مع الاستعمار الفرنسي كما جرى لها في الساحل . اما في مراكش ، حيث كان ليوتي Lyautey ينظر الى الامور جملة ، اقتسمت الاراضي المعدودة من الاراضي الاميرية أو المشاع او الحبوس بين كبار المستوطنين وكبار القادة qà'id - s ، ففي عام ١٩٣٣ كان الفلاحون الذين لا يملكون ارضاً يقدرون بثلث السكان الريفيين . وهكذا يلاحظ التمييز الاجتماعي نفسه في البلدان الثلاثة وبالطبع هذه الطبقة من كبار الملاكين

(١) لم توجد بعد دراسة جدية في هذا الموضوع .فان المؤلفين يكتفون بملاحظات متفرقة ؛ وعلى الرغم من هذا لايمكننا المصادقة على حكم م.لاشراف M.Lacheraf بأن هذا الاقطاع الأرضي هومن خلق العمل الاستعماري الفرنسي الصرف . فالرجال كانوا جدداً ولكن الزمرة الاجتماعية المعنية كانت موجودة منذ زمن طويل سبق . كل مرة تكون فيها الدولة أجنبية أو ضعيفة في المغرب فإن الوضع ييسر تفريخ طبقة من كبار ملاكي الأرض .

العقاريين الذين تحابيهم السلطة سواء أكانوا هم الذين يسيّرون الادارة المحلية ام لا ، كانت السند الكبير للسلطة الاستعمارية في الارياف . بل نجحت في ان تحوّل عن هدفها ، الأول ، ولفائدتها ، الاصلاحات القليلة التي ادخلها الفرنسيون كالشركات التعاونية (أنشئت في الجزائر عام ١٨٩٣ وفي تونس عام ١٩٠٧ وفي مراكش عام ١٩٢١) والمصرف العقاري [١] ، ولكن الظروف المتلابسة ، هي التي ، في غضون زمن طويل ، يسّرت لها واتاحت لها الاغتناء بسرعة . فحتى عام ١٩٢٠ ظلت اسعار الحبوب مرتفعة ولم يخف الطلب عليها في فرنسا . وفي نفس الوقت من جانب آخر كان الفلاحون ، المنزوعو الملكية ، يستأجرون في المشاغل العامة او يجندون في الجيش [٢] .

فيما يتعلق بسكان المدن ، لنذكر بأن الصفوة التجارية القديمة قد اختفت تقريباً بأكملها في الجزائر (في عام ١٨٨٦ كان ٦,٩ ./.فقط من الجزائريين يعيشون في المدن وفي عام ١٩٠٦ كانت النسبة ما تزال بعد في حدود ٨,٥ ./.) . في تونس وفي مراكش استطاعت طبقة التجار وارباب الحرف البقاء بفضل تراكم رأس المال والخبرة ؛ في بداية الامر استفادت من الهجرة الاجنبية نفسها بتأجير عقاراتها ، بالارتباط بالتجارة الاستعمارية . الخ وانتفعت على نطاق واسع كذلك بالحالة الناشئة عن الحرب ولكن الظروف المتلابسة أخذت منذ عام ١٩٢٠ في التغير ولم تتوقف منذئذ عن التردي . ومن اجل ان نفهم ردود الفعل الغامضة لهذه الجماعة الاجتماعية لا بد من التذكر بأنها كانت تحمل منذ زمن طويل «بصمة» الحماية الاجنبية . وكانت هذه النخبة من أبناء المدن في القرن التاسع عشر في حالة تمرد شبه دائم لانها كانت تتحمل ضرائب باهظة ، في حين لم تكن ، على وجه العموم ، الكتل الريفية كذلك . ومع تأسيس الحماية كانت الحالة قد انعكست ورغماً عمّا اصابها به النظام الجديد من جروح في كبريائها فانها كانت تعترف له بجدارته في اعادة توطيد الامن الذي

---

(١) لم يستطع صغار الفلاحين (دائماً في الساحل) ، الا في تونس ، الإفادة من خدمات البنك العقاري (أنشيء في عام ١٩٠٧) ومن الشركات التعاونية التونسية (٣٦ في عام ١٩٠٩) .

(٢) هذا صحيح بصورة خاصة في مراكش ، وغني عن البيان التذكير بأن كثيرين من المغاربة قد شاركوا في سحق المقاومة الريفية وكذلك في سحق الثوره السورية عام ١٩٢٥ .

كانت تراه طبيعياً . كذلك لمدة زمن طويل لم تمسها [1] خطيئة الاستعمار الاساسية ، الا وهي نزع الملكية العقارية .

هكذا ، وفقاً لهذا الخط في التحديد الاجتماعي فان الوقائع المتنافرة المذكورة آنفاً يمكننا ان تفهم على النحو التالي . حدثت العصيانات العسكرية في نهاية زلزلة ضخمة كانت نقطة الانطلاق فيها جشع المستوطنين الى الارض ؛ فلم يكن من الضروري أن تكون الجماعات المتمردة قد سلبت ، هي نفسها ، بل كان يكفي ان تتأثر بموجة من تلك الموجات التي كان يطلقها كل نزع ملكية أو تحديد ارض ، على سطح المجتمع المغربي . حتى ليمكننا القول انه كلما كانت جماعة ما أكثر بعداً عن المنطقة المستعمرة فعلياً كلما كانت فرصها أوفر للتمرد بالنظر الى أنها أقل ضعفاً وأقل يأساً وابعد عن المراقبة . فكيف كان الزعماء التقليديون ، الزمنيون ، ينظرون ، من خلال مثل الآخرين ، الى كل الخير الذي كانوا يستطيعون ان يجنوه من خضوع قصير ، هذا ولم يكونوا هم الذين يقودون أعند المشاريع وانما منافسوهم الدائميون ، رجال الحظوة الدينية [2] . لكن هذه العصيانات التقهقرية بالمعنى الحقيقي للعبارة ، لم تكن تحظى بدعم من المدن لان الفصل القديم كان كذلك قد تفاقم بتقسيم البلاد الى منطقة مدنية .T. C ومنطقة عسكرية .T.M ؛ وكثيراً ما كان سكان المدن لا يعرفون حتى بمدى الضعضعة في الارياف . فرغماً عن هذه الانتفاضات اذن ، العديدة لكنها لم تكن شاملة ابداً ، استدرجت فئات النخبة القديمة من التجار في

---

(١) ندع جانباً ، طواعية ، الملاحظات التي كثيراً ما أبديت حول التطور الإحصائي لفئتي السكان : الاستعمارية والمغربية . فالأرقام المقدمة غالباً ما تكون قابلة للمناقشة ويصعب جداً تفسيرها . ومن الممكن أننا نواجه اجابة فيزيولوجية أثارها عدوان سياسي – عسكري . ولكن وفقاً لأي سياق ؟ إن عالم الاحصاء لم يجب بعد وسوف يحسن المؤرخ صنعاً في أن لا يجيب بدلا عنه .

(٢) هذه الرؤية هي رؤية جاك بيرك: إن المرابطة تفهم بحياة ترحال مختلفة ، (المغرب ، ص ص ١١٤–١١٦) . وقد طبق الحكم نفسه على عبد الكريم (ص ١٧٤) ، ولكنه مخاطر . ذلك أن اطروحة جاك بيرك تريد أن يكون الريفي بجانب المهديين والمرابطين وليس بجانب الزعماء التقليديين (الذين أصبحوا في معظمهم قادة كبار) ، لكن المعلومات المستخدمة هي موضع شك كبير . قارن بحكم د. اشفورد D. Ashford في Political Change...,1961 المتعجل هو الآخر والذي يجعل من عبد القادر سلفياً وجميل أبو نصر في « حركة السلفية ... » : In St Antony's Papers, 1963,p.102 .

مراكش وتونس ومن الدينيين والاقطاعيين في الجزائر ، برفق الادارة وحسناها ، وباحترام العسكريين الظاهر ، الى تعاون ضمني على الأقل . ومنذئذ فان القطاع الاجتماعي الوحيد الذي وجدت لديه نزعة سياسية كان قطاع الانتلجنسيا الجديدة ، قليلة العدد ، المنعزلة ، وكان تكوينها حصيلة السياسة الاستعمارية نفسها . وهي حصيلة موضوعية ناجمة عن الاحتكاك بين الجالية الاجنبية والمجتمع المغربي ؛ وحصيلة مرادة كذلك لان القوة المستعمرة ، في ذلك الزمن ، كانت بحاجة لـ « معارضة خدمات » لاسباب سياسية (مشكلة التجنيد الجزائرية) ودبلوماسية (التقرب من زعماء تركيا الفتاة) . كانت هذه الجماعة ، المتكونة من موظفين ثانويين ومن مدرسين تنادي باصلاحات جد متواضعة وتدريجية باستخدام لهجة الاحترام الخجل [1] . وان هذه الجماعة في تونس هي التي اسمعت بادىء ذي بدء تظلماتها بسبب التطور الذي عرفته هذه البلاد في القرن التاسع عشر ، ثم مارست ، بسرعة ، تأثيرها في الجزائر . كذلك وجدت جماعة مماثلة في مراكش ولكن الوقت لم يمكنها من أن تتميز عن الحركة القومية اللاحقة [2] .

هذا التحليل الشافي في الظاهر ، بالنسبة للفكر ، يجب مع ذلك ان يقدر بما يستحقه ؛ انه أكثر عمومية من ان يسمح لنا بوضع اصبعنا على الآليات الداخلية للمجتمع المغربي . فعيبه الجسيم ، كما سبق ان قلنا ، هو في انه يطرح كمبدأ مسلم به استمرارية ليست واضحة كل الوضوح . فالزعيم التقليدي الذي يصبح ملاّكاً عقارياً ، المنتجع (البدوي المقيم بماشيته في مواضع الماء والكلأ) الذي يصبح عاملا زراعياً ، بورجوازي فاس التاجر الذي ينقل ، حوالي عام ١٩٢٠ ، نشاطاته الى الدار البيضاء ، ابن المحضر الذي يصبح معلماً وناطقاً سياسياً يغيرون أدوارهم

---

(١) كثيرون من الزعماء القوميين فيما بعد عام ١٩٣٠ الذين تمردوا على جبن آبائهم بقدر ما تمردوا على السياسة الفرنسية . ومن هنا الغموض في مواقفهم : فعالية تكتيكية وتمرد بسيكولوجي على اساس الاحتماليـة .

(٢) بلغ الرجال ، المتحدرون من عائلات المخزنيين ، التي كانت الحماية تخصصها للقيام بهذا الدور ، سن الرشد حوالي عام ١٩٣٠ فحملتهم موجه القومية ؛ وقد مثلوا فيها عنصراً معتدلا مع ذلك. وبعضهم تعاون فيما بعد مع النظام الاستعماري .

الاجتماعية ولا يمكن النظر الى هذا التغيير ، من وجهة نظر مجتمع خاضع على انه مسلم به . فليست التحليلات البنيوية الاقليمية ناقصة فحسب بل ان التراجم الكاشفة معدومة كذلك . ومع ذلك فان دراسات هذا شأنها تستطيع وحدها ، التدقيق في النظرة الاجمالية التي قدمت [1] .

٢

تهتم المعالجة الايديولوجية ، ويمكن القول الفقهية ، بتكوين الحركات والمفاهيم السياسية اساساً، وتستخدم قبل اي شيء الـ « مكتوب » ، المنشور أو مـــا زال مخطوطاً ، دون الانشغال كثيراً بمسائل المغزى الاجتماعي لكلمة مثل **(وطن)** ومفهوم مثل **(حرية ، استقلال ، شورى ...)** ، المعقدة أكثر مما ينبغي ، ولا بالوزن الفعلي الذي كان لذلك الفعل وتلك المعركة في الوسط المغربي . فان أهم الوقائع بدأت الآن تصبح معروفة [2] ، وأحدث المحاولات في هذا المضمار تشير بخاصة الى رغبة قوية للامعان في الرجوع مع القرن التاسع عشر بحثاً عـــن الاصول [3] .

من يقل « مكتوب » يعنِ بصورة خاصة مقالات صحف أو كتباً ويرجع الى عمل ثقافي وسياسي . فالنظر يكون هكذا منذ البدء محصوراً في الناس الذين يعملون (في حقيقة الأمر يعارضون الفعل الاستعماري) ؛ ويُحصر الاحساس بالذات ، من حيث المبدأ ، في مظاهره القومية . هذا التقليص هو الذي خوّل تونس مزية الاولين

---

(١) لا توجد دراسات وافية جدية عن الاسر البورجوازية اوالاقطاعية . فبعض سير القادة Çâ'id الكبار (جلاوي ، جوندي ، بغدادي ، رايسولي) كتبت على شكل رواية . فقد كان هذا مع ذلك نمطاً كلاسيكياً في النتاج التاريخي الاسلامي .

(٢) قارن المؤلفات التي سبق ذكرها : ش — ا. جوليان ، ر. لوتورنو بالفرنسية ، علال الفاسي بالعربية .

(٣) هذه هي حالة ن. زيادة : أصول القومية الفرنسية . بيروت ١٩٦٢ ؛ علي مراد : النزعة الاصلاحية الإسلامية في الجزائر ... ، ط. موتون ١٩٦٨ ؛ ج . هالستيد J.Halsted في كتابه : Rebirth of a nation. the origins and rise of moroccan nationalism, Campridge mass, 1967.

بما ان مشروع شخص كخير الدين ونظام الحماية نفسه قد مهدا هنا التربة لتعبير سياسي ما .

يُميز عادة في تكوين القومية التونسية حقبة اولى دامت حتى هجمة العنف في عام ١٩١١ . هذه الحركة ، الثقافية في أساسها ، كانت النتيجة المباشرة والسلبية في آن واحد لتجربة خير الدين [١] . مباشرة لأن عدداً من زعمائها كانوا متعاونين قدماء او اصدقاء للوزير المصلح مثل محمد سنوسي وس. بو حاجب ، وسلبية لان فشل الاصلاحات في اطار البايوية Beylik المستقلة كان يجعل الحركة متأثرة بالحجج الفرنسية التي كانت تشهد لصالح تدرجية متعلقة [٢] ؛ فقد اقتصر اذن نشاط هؤلاء الناس على المظاهر التربوبة كانشاء مجلة اسبوعية في اغسطس — آب — ١٨٨٨ هي **الحاضرة** تمكنت بفضل اعتدالها ، من الاستمرار في الصدور حتى عام ١٩١٠ ، في حين أوقفت صحيفة اخرى ، انشئت في عام ١٨٩٠ وكانت أكثر التزاماً ، هي **الزهرا** ، منذ عام ١٨٩٦ [٣] ، وعلى تأسيس حلقة ثقافية باسم **الخلدونية** في عام ١٨٩٦ كان رئيسها شاباً من الاعيان هو بشير صفار ، أعد من قبل الادارة الفرنسية لمستقبل باهر . وقد الحت المقالات المنشورة في هاتين الصحيفتين والمحاضرات التي القيت في مقر الحلقة **الخلدونية** ، دائماً ، على ضرورة الاستعداد للاصلاحات بتطور بطيء يقتضي بدؤه بالتربية الفردية وتحسين الوسط العائلي . ولسنا بحاجة الى ان نبين

---

(١) انظر شادلي خيرالله : الحركة التطورية التونسية،تونس ١٩٣٤،الذي يلخصه زيادة في المصدر السابق في مطلع كتابه. أنظر كذلك م.بوالي M.Bouali : مدخل إلى التاريخ الدستوري في تونس،جزء ٢ تونس ١٩٦٤ (هوامش الجزء الذي يحمل عنوان : « رحلة إلى نهاية الليل » ص ١٥٩ وما يليها .

(٢) هذا الوضع هو مواز للوضع في مصر. ويجد هذا التشابه تجسيده في أعمال شخص مثل محمد بيرم (V) صديق كرومر وفي رحلتي محمد عبده (وهو كذلك صديق الإنجليز) إلى تونس (١٨٨٤ — ١٨٨٥ و ١٩٠٣) . راجع م. شنوفي : « مصادر عن رحلتي محمد عبده إلى تونس » ، في حوليات جامعة تونس . (٣) ١٩٦٦ ص ٧١ وما يليها وهي تشكل بالفعل دراسة في بدايات الحركة الاصلاحية في تونس .

(٣) عندما يتعلق الأمر بهذه الصحف يندر أن يقال لنا إذا كان قد بقي منها اعداد ام لا . وغالب الأحيان يكتفي بذكر العناوين المستقاة من مقالات نشرت في مطلع القرن في مجلة العالم الاسلامي (على سبيل المثال الصحافة المراكشية ، ج ٢ لعام ١٩٠٧ ص ٥٨٦ والصحافة العربية في مراكش ج ٧ لعام ١٩٠٩ ص ١٢٨) ، وتنقل بعد ذلك من كتاب إلى كتاب دون أي شيء جديد ؛ وهذا هو شأن كتاب زين العابدين الكتاني الصحافة المغربية ج١ (١٨٢٠ — ١٩١٢) الرباط ١٩٦٩ .

الطابع المعتدل وغير المستنير لهذه الايديولوجية كلها . يجسر بعضهم على القول احياناً بأهداف بعيدة هي الحرية والديموقراطية ولكن يجب بادىء ذي بدء ان نكون جديرين بها . وكانت هذه الحركة التي ينظر اليها بعين الرضى من قبل الادارة الفرنسية ، تمضي بطبيعة الاشياء الى الفرنسية عقلياً ولغوياً . فقد صارت للشباب المجازين من كلية صادقي (الصادقية القديمة وقد تسلمها مدير فرنسي) جمعياتهم الخاصة عام ١٩٠٥ سرعان ما فرض نفسه في اوساطها زعيم شاب هو علي باش همبا Ali Bach Hamba بثقافته وديناميكيته . ومن هذا الوسط نفسه توفرت المناسبة لحركة ثقافية أكثر اخلاصاً لتقاليد البلاد وأكثر استقلالاً عن السلطة الاستعمارية لكي توطد نفسها . وكان مركزها الطبيعي جامعة الزيتونة القديمة ورئيسها عبد العزيز الثعالبي الذي يدين بتكوينه في آن واحد لمذهب الاصلاح المحلي الذي قاده قبادو Q abàdu وبيرم وللحركة الجديدة التي قادها في القاهرة محمد عبده ، وسوف يتكلم هو كذلك بالاصلاح الاخلاقي والاجتماعي ، الفردي والجماعي ولكن باتجاه مختلف جداً [1] . وقد اصدر من عام ١٨٩٥ إلى ١٨٩٧ مجلة اسبوعية : **سبيل الرشاد** لكنه سرعان ما اصطدم بمعارضة الادارة ، ليس لان الافكار التي كان يفصح عنها ، كانت ثورية وانما لان مصادره لم تكن تدين بشيء لليبرالية الغربية وانه كان يتوجه إلى اناس لم يكن في وسع النظام الجديد دمجهم . وبتأثيره الذي هيمن بعد عودته من الشرق في عام ١٩٠٢ والخصومة الشريرة التي سعى إليها اساتذة الزيتونة التقليديون ، صارت كذلك لقدماء تلامذتها جمعيتهم . وانطلاقاً من هذه الحقبة لم تتوقف الفجوة بين الجماعتين عن الاتساع : الأولى وهي متنفذة وسط الاسر القديمة لموظفي البايوية التي نجح ابناؤها في ان تستخدمهم الادارة الفرنسية ، حاولت الحصول على بعض الامتيازات من السادة الجدد لفرط اعتدالها ، في حين كانت الجماعة الثانية ، وقد وجدت أكثر انصارها حماساً بين اولئك الذين

---

(١) ان الاختلاط في أيديولوجية الحركتين(الصادقية والزيتونية) على مستوى فقه اللغه ، مألوف في حقيقة الأمر ؛ وما يمكن الوصول فيه إلى بعض التمييز هو على مستوى النماذج ، اللاواعية أحياناً ، التي يرجع إليها هؤلاء وأولئك .

كان الجهاز يبعدهم ، تصبح موضوعياً ، أكثر فأكثر معارضة [١] . الا ان الجماعة المعتدلة كانت تخضع في بعض المناسبات لتأثير منافستها مثلما حصل في عام ١٩٠٦ عندما طرحت مشكلة الاراضي الحبوس (الوقف) التي وضعتها الادارة تحت تصرف المستوطنين . عندئذ ظهرت حقيقة الحماية العميقة ، فحتّى بشير صفار اضطر الى الاعتراف بأن الاستعمار كان نظاماً [٢] . فحاولت الادارة عندئذ أو تقوي صداقة المعتدلين ؛ دعي محمد الاصرم وحسّون العياشي الى المؤتمر الاستعماري في مارسيليا (سبتمبر – ايلول – ١٩٠٦) ؛ وصفار وزاووش الى مؤتمر افريقية الشمالية الذي عقد في باريس بعد عامين ، وقد استقبلت مداخلات التونسيين المعتدلة ، التقنية ، الموثقة على نحو متقن ، استقبالاً حسناً من قبل اساتذة الجامعات والصحفيين وكبار الموظفين الحضور ، لان السلطة الفرنسية لم تكن في أية لحظة موضع اتّهام [٣] . وفي عام ١٩٠٧ ، في الفترة الفاصلة بين المؤتمرين اذن أنشأ باش همبا صحيفة باللغة الفرنسية ، **التونسي** لتعريف الرأي العام الفرنسي بشكاوى هذه الجماعة فردت الادارة هذه الترتيبات الحسنة بتسمية صفار حاكماً على سوسه . وكان هدف هذه السياسة عزل اللامعتدلين ؛ فلم تفعل على العكس إلا أن زادت في تصلبهم . فعارض الثعالبي في عام ١٩٠٩ صحيفة **التونسي** الفرنسية **بتونسي** في اللغة العربية وفي عام ١٩١٠ انطلق الطلبة الزيتونيون باضراب في الظاهر من اجل انجاح مطالبهم في اصلاح الدروس وفي الحقيقة لوضع سياسة التجميد الاستعمارية برمتها موضع الاتّهام . واضطر المعتدلون أنفسهم الى دعمهم . وكان عام ١٩١١ عام الازمات الدولية بصدد الاراضي المغربية التي ما تزال حرة (مراكش وليبيا) ؛ فقربت استشاطة الانفعالات الحركتين الواحدة من الاخرى : فوحد باش همبا والثعالبي جهودهما للعمل من حركة تونس الفتاة التي كانت في حالة المخاض منذ عام ١٩٠٨ حزباً سياسياً (حزب

---

(١) التشابه مع الوضع المصري هو مرة أخرى مثير . فبعد عام ١٩٠٦ – ١٩٠٧ (مسألة دونشواي واستدعاء كرومر) أصبحت معارضة الاحتلال البريطاني أشد ضراوة .

(٢) راجع ملخص خطاب صفار (٢٤ – ٣ – ١٩٠٦)امام جمعية « أوقاف التكية » في زياده المصدر السابق .

(٣) محمد الأصرم هو الذي تفوه بهذه الجملة : « المسلم التونسي الذي يعتبر الانقياد لديه خلة وراثية يعي تمام الوعي عجزه في تغيير الوضع الناشىء عن أحداث عام ١٨٨١ » .

النشوء والارتقاء) التي كانت فكرته بوضوح مؤيدة للعثمانيين ، (كانت جريدته تسمى **الاتحاد الاسلامي**) . وفي الحال انفجر عدد من الحوادث كان أشهرها حادث الجللاز jallaz (٧ نوفمبر – تشرين الثاني – ١٩١١) ، الذي يحمل اسم المقبرة الاسلامية التي كانت بلدية تونس تريد اعداد نزع ملكيتها بالعمل على تسجيلها بادىء الامر تطبيقاً للقانون العقاري لعام ١٨٨٥ . وقد ألغي الاجراء بعد ان اثار احتجاجات بالغة ، ولكن المظاهرات لم يعمل على توقفها ؛ واستُثير البوليس وبقيام الجيش باعادة النظام الى نصابه قتل عدداً كبيراً من التونسيين . وأعلنت الاحكام العرفية . ووضع الهياج الشعبي خاصة التونسيين والايطاليين بعضهم في مقاومة بعض ، لما كان بينهم من تنافس شديد في مختلف ميادين الحياة الاقتصادية ؛ ومن هنا اصل الحادث الثاني (فبراير – شباط – ١٩١٢) الذي تورط فيه سائق ترام ايطالي وأدى الى مقاطعة لهذه الوسيلة من المواصلات . وقد دفع ما اظهره اهالي تونس من نظام في هذه المسألة ، وكان يدل على عمق التأثير الذي كان يمارسه زعماء حزب النشوء والارتقاء ، الادارة الى رد فعل شرس : فأوقفت الصحف القومية ونفت الزعماء ؛ فلجأ النشاط السياسي عندئذ الى السرية . هكذا انتهت الجولة الاولى في المبارزة التي كانت تضع القومية في معارضة الادارة الاستعمارية في تونس ؛ كانت تشكل النموذج لما كان لا بد ان يحدث مرات عديدة فيما بعد ، في تونس نفسها وفي سائر المغرب : حقبة قصيرة من التقارب بين المعتدلين والادارة ، يتبعها قمع وحشي عندما سيقيم الدليل اهتياج العناصر الأقل اعتدالا على التعارض بين مصالح الطائفتين .

وقد عرفت الجزائر حركة مماثلة ، متأثرة تأثراً شديداً من جانب آخر بمثل البلد المجاور [١] . في الوقت الذي لم يعد فيه الضمير الاسلامي القديم ممثلا الا في الوسط التلمساني ، الذي اخذ يصبح خارج العصر وسبق ان كان منفياً في الفكر كثيراً قبل

(١) راجع ش. – ر. أجرون Ageron في: «المسلمون الجزائريون وفرنسا» ط .P.U.F ١٩٦٨، وخاصة الفصل المتعلق بحركة الجزائر الفتاة جـ ٢ ص. ص١٠٣٠ – ١٠٥٥ التي نشرت باختصار في دراسات مغربية المصدر السابق ص. ص ٢١٧ – ٢٤٣ .

الهجرة الجماعية في عام ١٩١١ ، تجمع حملة الشهادات الاولون من المدارس الفرنسية وكانوا غالباً من اصل قبائلي ، في روابط ثقافية ، مزودين ببركة الحاكم جونّار Jonnard . ثم تم اجتياز مرحلة عندما نشروا صحائف اسبوعية (**مثل الرشيدي أو العلم الجزائري**) ، كانت تتوضح فيها ايديولوجية مذهب اصلاحي تدريجي ومتعقل تحت وصاية فرنسا الرحيمة كايديولوجية **التونسي** . وفي يونيو – حزيران – ١٩١٢ أفادت الحركة من اشتغال الرأي العام الفرنسي نتيجة فقدان التوازن السكاني وبالتالي العسكري ، المتزايد بين فرنسا والمانيا ، فقدمت **بيان عام الشباب الجزائريين** . كانوا يعرضون أن يدعموا بنشاط مشروع تجنيد الجزائريين الاجباري في مقابل الغاء قانون ادارة المستعمَرين والضرائب العربية ، الترخيص بأكبر تمثيل في المجالس المحلية الجزائرية وحق ارسال نواب الى البرلمان الفرنسي في باريس . هذا البرنامج المدعوم مـن الاوساط الليبرالية الفرنسية ما يزال يوصف اليوم بأنـه اندماجي ؛ بيد انه لا بد من التذكير بأن الجزائر كانت في ذلك الوقت ذات استقلال ذاتي وان تطبيق برنامج كهذا البرنامج لم يكن في وسعه أن يؤول الا الى عكس الاغلبية اي الى جزائر جزائرية ؛ ليست عربية وليست اسلامية حقاً ولكن **الشباب الجزائري** في تلك المرحلة لم يكونوا يطرحون مسألة الهوية أكثر من **الشباب التونسي** انفسهم ، وعلى أية حال لم تبلغ الحركة هدفها بسبب ضعفها المفرط (الف عضو كما حدد عددها) ، وكان الاعتقال الاداري وحده هو الذي ألغي . غير ان برنامجهم كان وراء اصلاحات – فبراير – مارس – ١٩١٩ التي فرضها كليمنصو على مجلس نواب متردد [١] .

كانت حركتا **تونس الفتاة والجزائر الفتاة** تقتديان موضوعياً وذاتياً بحركة تركيا

---

(١) ازداد عدد المسلمين الجزائريين المؤهلين قانونياً للتصويت عندئذ (٤٢١,٠٠٠ بالنسبة للمجالس المحلية ، والبلديات والجماعة؛ ١٠٣,٠٠٠ بالنسبة للمجالس العامة والـ D. F.) ؛ وانتقلت نسبة اعضاء المجالس البلدية من الربع الى الثلث مع حق الاشتراك في انتداب العمدة . وانتقل عدد أعضاء مجالس المقاطعات الى ربع المجموع . وكـان الوصول الى المواطنين الفرنسيين دائمـاً مشروطاً بالتخلي عن قانون الأحوال الشخصية . قارن أ. برنار : المصدر السابق ص. ص ٤٩٣ – ٤٩٥ ؛ش –ا. اجيرون المصدر السابق ج ٢ ص. ص ١٢١٢ – ١٢٢٧ .

الفتاة ؛ كذلك مورس هذا التأثير في مراكش لكنه في هذه المرة على ما يبدو كان مباشراً . فمن الثابت اليوم انه كانت توجد حركة ذات نزعة دستورية في طنجة وفي فاس قبل عام ١٩١٢ في الاوساط التجارية التي كانت على علاقات ثابتة بانجلترا وفي وسط الصحافة حيث كانت تكثر العناصر السورية ــ اللبنانية ، وقد عارضت هذه الحركة تصرّفات عبد العزيز السيئة التي أخذ خضوعها يتزايد للدبلوماسية الفرنسية منذ مسألة توات Tuàt (١٩٠١ ــ ١٩٠٢) وساهمت في تمرد الحفيض al - Hafidh ووضعت القانون الاساسي الذي ولد ميتاً عام ١٩٠٨ [١] . ما نزال للاسف نجهل اشياء كثيرة عن هذه الحركة ولا سيما في صلاتها بالحركة الاصلاحية المعاصرة التي كان موئلها **القرويين** Qarawiyin والتي كانت أشد تأثيراً في وسط **المخزن** [٢] .

بعد حرب ١٩١٤ تم تجاوز الطور المعتدل والتربوي ؛ وكانت تونس أيضاً هي التي ، وقد تشجعت بفعل الوفد المصري ، اعطت المثل للمغرب. إذ حاول الثعالبي وقد اصبح الناطق باسم القومية التونسية بعد موت علي باش همبا في أواخر عام ١٩١٨ في القسنطينة ،أن ينقل النزاع مع دولة الحماية الى مؤتمر فرساي وتوفيراً لمعرفة أفضل بعناصر النزاع نشر في اللغة الفرنسية (بمساعدة مناضلين آخرين) كتاباً هاماً : **تونس الشهيدة** ، وصفت فيه تونس الاصلاحية في القرن التاسع عشر وتونس الخامدة في ظل الحماية واخيراً تونس المستقبل كما كان يتصورها القوميون . كان الكتاب كله مشبعاً بروح ليبرالية ودستورية ، الامر الذي يدفع القارىء الى التساؤل

---

(١) نص فرنسي (يعزى على الارجح الى فريق الارشيف المراكشي) نشر في ج. روبيرت : الملكية المراكشية ١٩٦٣ ؛ قارن التحليل ، بالعربية ، في علال الفاسي ، المصدر السابق ص. ص ٩٨ ــ ١٠٠ ؛ انظر كذلك المقال المأخوذ عن الجريدة التي كانت تنشرها هذه الجماعة : لسان المغرب . والنص نفسه موجود في ا. غنون Gannun في : الادب المغربي ، القاهرة ١٩٦٤ ص. ص ١٥ ــ ١٦. ويدل تحليل هذا الدستور ، في آن واحد ، على تخلف ثقافي وعلى شيء من الاصالة ؛ وكان من صنع النخبة المتاجرة في المدن (المقارنة بدستور عام ١٨٦١ في تونس لا تخلو من فائدة تثقيفية) .

(٢) قارن في موضوع هذه الحركة ج. هالستيد J. Halstead في :
« The Chaning Characters of Moroccan Reformism », 1921-1934 in Journal of African Society Vol. V. No 3, 1964 p. 438 .

حول نصيب الثعالبي نفسه الحقيقي في اعداده . واخلاصاً لهذه الايديولوجية اتخذ الحزب اسم الدستور بما ان المقصود كان اعادة تطبيق دستور عام ١٨٦١ ؛ وثمة برنامج نشر في ٧ مارس – آذار – ١٩٢٠ ، وفي مايو – ايار – من نفس العام ، تقدم وفد الى قصر الباي نصير (هو نفسه ذو نزعة اصلاحية) ، يحمل عريضة موقعة من آلاف الاشخاص (مثل التفويض الوفدي واضح هنا) . ومع ان المعاهدات الفرنسية – التونسية من عام ١٨٨١ الى عام ١٨٨٣ لم تكن صراحة موضع شكوى فان الاتصالات المباشرة بممثلي الدول الاجنبية والذبذبة في جعل المبادرة في الاصلاحات بيد الباي كانت تفرغها في حقيقة الامر من محتواها (على الرغم من الرأي المعاكس الصادر عن قانونيين ذو شهرة واسعة بالاستناد الى الدستور) . وعلى كل حال اتخذت الحكومة الفرنسية الامر على هذا النحو وبعد زمن من التردد عملت على توقيف الثعالبي في باريس في مطلع عام ١٩٢١ ؛ وانذر الباي نصير ، الذي كان قد اعلم باستعداده لقبول الاصلاحات ، (وهنا فان الموقف البريطاني في مصر هو الذي كان يشكل القدوة) بأن يتراجع . وانتهت الازمة بمنح الاصلاحات الادارية : انشاء وزارة العدل التي اسندت الى طاهر بن خير الدين وانشاء المجلس التونسي الكبير في عام ١٩٢٢ وهو هيئة استشارية صرف كان الفرنسيون ممثلين بضعف ما يحق لهم على حين كانوا اقل عدداً ولا يُنتخبون اليها الا بصورة غير مباشرة [١] ولقد ثبط هذا الفشل همة الزعماء وآل انشقاق حزب الدستور ؛ فغادر الثعالبي تونس عام ١٩٢٣ لكي لا يعود اليها الا في عام ١٩٣٧ ولم يعد يسترد فيها ابداً من جهة اخرى ، شأنه الرفيع .

في الجزائر ، انتهى نشاط سياسي مماثل الى فشل مرير كذلك ، وكانت اصلاحات عام ١٩١٩ قد هوجمت بعنف من قبل المستوطنين ؛ ولم تكن كذلك لترضي أكثرية اعضاء الجزائر الفتاة . فان اقلية ضئيلة ، لم تكن تعرف مأساة الضمير الجاد بالتخلي عن قانون الاحوال الشخصية ، هي التي كانت وحدها ترغب في القيام باللعبة ؛ اما الآخرون فقد قبلوا الافادة من حصانة الانتخابات ولكن للعمل على اسماع تظلماتهم ،

---

(١) كانت الدائرة الفرنسية من ٥٦ عضواً (٢٢ ممثلا عن غرف الزراعة والتجارة ، و ٣٤ ينتخبون مباشرة) ؛ وكانت الدائرة التونسية تعد ٤١ عضواً (١٨ تنتخبهم غرف الزراعة والتجارة و٢٣ ينتخبون وفقاً لطرق معقدة جداً تفضي تقريباً الى تسمية اعيان موالين للفرنسيين ، باستثناء العاصمة) .

وعثروا في شخص خالد حفيد الامير عبد القادر على زعيم لهم . فقد استأنف ، إذ انتخب عضواً في مجلس بلدية الجزائر ، ومتستشاراً عاماً ومندوباً مالياً ، برنامج عام ١٩١٢ ، عاملا على ايصاله الى اقصى نتائجه : سحب جميع الحقوق السياسية المعترف بها للفرنسيين على الجزائريين . وكانت الوسيلة المطلوب استخدامها لذلك هي بالتأكيد لاندماج ، الا ان النتيجة كان في وسعها ان تكون ثورية وهذا ما ادركته الادا ة التي نظرت دائماً الى الزعيم الجديد على انه توري خطر . وعندما استقبل الرئيس ميلليران Millerand في ابريل – نيسان – عام ١٩٢٢ أعاد المطالبة بتمثيل جزائري في البرلمان الفرنسي ، بلهجة طاب لبعضهم ان يصفها بأنها وقحة ، عندئذ ضاعفت الادارة الاستعمارية من الدعاوى الموجهة ضد الجريدة التي كان يديرها ومن الضغوط ضد اصدقائه وتوصلت اخيراً الى نفيه من الجزائر في عام ١٩٢٤ . وبعد ان لجأ في بداية الأمر إلى باريس ذهب يقضي بقية أيام حياته في دمشق منعزلاً وخائب الأمل .

تبدو لنا هذه الازمات الآن هزيلة الا انه كانت لها صدى عظيماً في ذلك الزمن لان الرأي العام الاوربي كان يربطها بجميع الاضطرابات الاجتماعية – السياسية المتعاقبة بعد الحرب الكبرى . وكان هذا على الارجح احد الاسباب التي دفعت ليوتي Lyautey الى الاستمرار ، رغماً عن المعارضات القوية ، في سياسته « الليبرالية » في مراكش وفي المحافظة على وهم حكومة مراكشية ذات استقلال ذاتي [1] .

انطلاقاً من عام ١٩٢٤ – ١٩٢٥ بدأ عهد الاستقرار : أخذت تبرز عودة الازدهار الاقتصادي ، فنمت الهيمنة على الحركات السياسية ، وقُهرت المقاومة الريفية وتم تأمين التنسيق في السياسة المغربية الفرنسية . (لقد عقد المؤتمر الاول لشمال افريقيا في ٦ فبراير – شباط – ١٩٢٣) . لقد فشل العمل السياسي ، في الاطار المرسوم من قبل الدولة المستعمرة نفسها ، وفي اثناء ما كان الفرنسيون يعتقدون بالعودة الى ازدهار ما قبل الحرب ، فان ما شهدنا العودة اليه هو نوع من الـ« نزوع الى

---

(١) انظر في هذا الموضوع خطاب ليوتي Lyautey في جامع باريس في كلمات عمل ص. ص ٣٦٩ – ٣٧٤ ؛ وكذلك شهادة ج. سبيلمان G. Spillmann في كتابه : من الحماية الى الاستقلال (١٩١٢ – ١٩٥٥) ط. بلون ١٩٦٧ ص ٢٢ وما يليها .

التقليدوية » او « تأميم » الحركات السياسية المغربية . وفي الظاهر ، كانت الحقبة الممتدة من ١٩٢٥ — ١٩٣٠ هادئة ؛ وفي الحقيقة الواقعة بدأ فيها تعميـــق بسيكولوجي وسوسيولوجي في آن واحد ؛ ويكاد تزامن السياقين في الساعة الحالية ممكن الاستبانة : إذ تتضح مسألتي الهوية القومية والتعبئة الاجتماعية في آن واحد في شعر الشابي وفي آثار صحفي مثل طاهر الحداد [1] . وفي عام ١٩٢٤ دخلت الفكرة الاقتصادية بدفع من محمد علي ، في المجال التصوري للقوميين التونسيين ؛ أسست جمعية للتعاون بمباركة ت . صفار لكن هذه المحاولة التعاونية جرفتها موجة الاضرابات التي افضت الى تكوين الاتحاد العام للعمل التونسي U. G. T.T. في اكتوبر — تشرين أول — من نفس العام على الرغم من معارضة الدستور والاشتراكيين الفرنسيين . وفي نفس الوقت يلاحظ ، في الجزائر ، نفس الاقتران : فرضت حركة العلماء للاصلاح الديني بقيادة الشيخين العقبي وابن باديس فكرة الشخصية الجزائرية في أوساط طلاب المدارس الحرة التي راحت تتزايد بعد عام ١٩٢٢ ؛ وانتظم العمال الجزائريون في فرنسا (٩٢,٠٠٠ في عام ١٩٢٣) حول نجمة الشمال الافريقي (١٩٢٥) التي ترى المضيّ في عمل خالد بدفعه الى نهايته العادية الا وهي استقلال الجزائر . وفي مراكش انضمت حملة علال الفاسي وجماعته في فاس المناهضة للمرابطين الى محاولات احمد بلفريج في الرباط و أ. بنّونه في تطوان (١٩٢٧) الأكثر سياسة ، بهدف اعادة السيادة المراكشية . ولسوف يؤكد هذا السياق من الـ « تأميم » بافعال رمزية ، في حقيقة الامر بردود فعل على مبادرات ادارة استعمارية تتناقض خبرتها بسياسة الاعتبارات : داهر Dahir بربري (مايو — ايار — ١٩٣٠) مجمع القربان المقدس المنعقد في قرطاجة ، العيد المئوي للاستيلاء على الجزائر . فكل شيء ينعقد حوالي ١٩٣٠ — ١٩٣٢ وسترى الحقبة الواقعة بين ١٩٣٣ — ١٩٣٧ نشوء احزاب سياسية حقيقية سوف تنتزع المبادرة في الحوادث من الادارة الاستعمارية . وستحاول الجبهة الشعبيـــة تفكيك القوى الجديدة التي كانت قـــد تجمعت حول

---

(١) هذا الاقتران لم يميز في مفهوم بعد . قارن ن. سرايب N. Sraieb في « مساهمة في معرفة ط. الحداد (١٨٩٩ — ١٩٣٥)» في مجلة الغرب الاسلامي والبحر الابيض المتوسط ، ٢ ، لعام ١٩٦٧ص. ص. ص ٩٩ — ١٣٢ . وأكثر منه تنقيباً كتاب ا. خالد : الحداد في البيعة التونسية ..M. T. E ١٩٦٧

البورجوازية الصغيرة المدينية ؛ ولسوف تنجح في ذلك احياناً ، لكن كل عمل ايجابي من جانب القوميين في غضون الحقب الحامية في المطالبة (١٩٣٧–١٩٣٨ ، ١٩٤٥–١٩٤٩ ، ١٩٥١ – ١٩٥٤) سيكون ثمرة تضافر توكيد هوية مقدسة (في شكل حمية دينية) مع رفض للاستغلال الاجتماعي .

بأي أفق يجب النظر الى هذه الافعال الموجزة ؟ فاذا تناولنا كل بلد على حدة نستطيع ان نتصور متتاليات مختلفة : حركة اصلاح ثقافي ، حركة اصلاح سياسي ، فعالية سياسية بالنسبة لتونس؛حركة دمج تدريجي ، حركة دمج متسارع ، حركة اصلاح ديني وفعالية سياسية ، والحركتان كلاهما ذات قصد استقلالي في الجزائر ؛ مقاومة عسكرية، حركة اصلاح ديني ، فعالية سياسية في مراكش. فان اطوار الوعي القومي لكل بلد تكون على هذا النحو مختلفة وتتعاقب وفق نسق خاص ؛ وبنفس الفعل فان تفسير كل منها لا يقتضي الذهاب الى ما وراء تحليل سوسيولوجي محلي أو حتى بكل بساطة لعرض السياسة الاستعمارية ، كأن كل حركة كانت تولد من الفشل السابق تحت ضربات القمع . واذا بالمقابل تناولنا المغرب ككل فانه ليبدو من الممكن تبعاً لنتائج دراسة فقه اللغة نفسها ان نطابق التعاقب التالي : حركة اصلاح سياسي علمانية (معتدلة في آن واحد في ايديولوجيتها وفي عملها) ؛حركة اصلاح ديني (راديكالية في ايديولوجيتها ولكنها معتدلة في مسلكها) ؛ واخيراً فعالية سياسية (معتدلة في برنامجها متطرفة في وسائل عملها) [١] . فاذا كانت هذه المتتالية تظهر صحيحة ، فكيف نعرضها ونحن حريصون بالطبع على الا نناسق اصطناعياً بين الحوادث ؟ ان مؤرخي القومية المغربية ليسوا حتى الآن مهتمين بمثل هذه الاسئلة ؛ كل واحد يكتفي بالتعبير عن نتائجه الخاصة ، على بلد معين وفي فترة معينة ؛ فان بحثهم مهما كان غنياً يظل هكذا بلا أفق [٢] .

---

(١) هذه هي حالة دستور أبو رقيبه ورابطة المراكشية في عام ١٩٣٤ .

(٢) أنظر نتائج ن. زياده ، ش.. ر. أجيرون ،ج. هالستيد ؛ فانهم يتأكدون ولا يعجبون من شيء . هل صحيح مثلا أن الفكر المعلمن قد سبق في تونس الإصلاحية الدينية ؟ فاذا كان هذا صحيحاً فكيف تفسيره ؟ قارن الصفحات المتعلقة بهذا المبحث في كتابي ايديولوجية عربية سبق ذكره .

اذا كنا نريد التخلص من النسبوية المطلقة التي يمكنها ان تضفي على جميع الحركات السابقة فعالية متساوية ، فان اللجوء الى نظرية تفسيرية عامة يكون ضرورياً ؛ وإلاّ فباسم ماذا سيقال تلك المدرسة الفكرية مشتقة من تلك الاخرى وان هذا التكتيك ينشأ من الفشل أو من نجاح تكتيك آخر ؟ فان كل تعاقب يكون عندئذ ممنوعاً . والتحليل الفقهي اللغوي ، الاكثر دقة من التحليل الاجتماعي ، يكون في هذه النقطة ، أكثر نقصاً .

ونتأكد مع ذلك من انه حتى المؤرخين التنقيطيين يكادون يصلون دائماً الى تقسيم ثلاثي ؛ بعضهم يتكلم عن القومية : انفعالية ، ايديولوجية ، سياسية ؛ ويتكلم آخرون عن ما قبل القومية ، القومية بمعناها الحقيقي ، القومية الاممية (؟) ؛ وغيرهم اخيراً يتكلمون عن الاصلاحية الدينية ، القومية البورجوازية ، القومية الشعبية [١] . فالنعوت وحدها تسبق الى الاشارة بعدم الدقة التصورية التي تعمل على خلط المستويات ، سوسيولوجي ، (حركات واحزاب) ايديولوجي (امورالوعي) وتاريخي (تقدير قومية على ضوء قومية اخرى ، والحالة هذه قومية القرن التاسع عشر الاوربية) . ويبدو مع ذلك انه فيما وراء عدم الدقة هذه ثمة حقيقة واقعة تميل الى الاتضاح ؛ يمكن بصفة الافتراض ، وصفها هكذا .

لنعزل قبل كل شيء (وهذه هي ضرورة منهجية) حالة القرن التاسع عشر المغربي ، رافضين وهم استمرارية آلية ، لان الدراسة الفقهية اللغوية ، اذا اسلسنا الانقياد الى هذا الانحدار ، سيُظهر دائماً نسباً بين القومية والحركات الضاربة ابعد فأبعد في الماضي مع ميل متعاظم للتقليل من قيمة المؤثرات الخارجية ، ولا سيما من تأثير العمل الاستعماري نفسه . فقد عرف القرن التاسع عشر تعايشاً ، على الصعيد الاجتماعي ، بين نخبة حكومية (المخزن makzen) ، وبورجوازية صغيرة مدينية والسكان الريفيين ؛ ويتكشف التعايش نفسه على مستوى العواطف والوعي :

---

(١) انظر في هذه التعريفات المختلفة القوميات المغربية وقد سبق ذلك (فمفهوم قومية غير صافية ، منحرفة ، دولية قد استخدم بمناسبة الجزائر ص. ص ٦٣ – ٧٢) .

المخزن هو حارس تقليد تاريخي يتضح في نتاج المؤرخين ، النخبة المدينية تفرز اصلاحية في آن واحد دينية (على صعيد المعتقد) وسياسية (تحررية مخفّفة) ، في حين تغذّي الارياف وطنية محلية مقترنة بتجديد ديني (شعائري في هذه المرة) . وهذه الحالة تبدو انها تصور حالات اخرى ستتلوها ؛ ولا بد مع ذلك من التذكر بأنها تكوّن رد فعل على شكل محدد من الضغط الاجنبي ؛ ان أخذ الاستعمار للمغرب على عاتقه الكامل قد جر الى شق يجب ، من اجل حاجات التحليل ، اعتباره شاملاً هو كذلك . فدرجة الصفر في الوجود التاريخي التي يطرحها الاقتصاد الاستعماري كمسلمة لا تصبح ابداً تماماً حقيقة واقعة ، الا انه لا بد من القول (وهذا مطلوب في آن واحد من الاستعماريين ومن القوميين) بأن هذا هو ما تتجه نحوه الحالة الاستعمارية وان كل استمرارية مطلقة تصبح من هذا الفعل مستحيلة . واذا بقيت هذه الاستمرارية في الضمائر فانها تكون ايديولوجية ، والتحليل الفقهي اللغوي يعثر عليها بالتأكيد ولكن المؤرخ لا ينبغي ان ينخدع بها : يجب عليه ان يرفض بدافع المنهج التحديدات المتسلسلة تاريخياً .

عندما يتسلّل مجتمع استعماري بين المجتمع التقليدي وقاعدته الارضية فاننا نواجه تحديداً متعدداً وغير مباشر ؛ ومن اجل عرض ردود فعل مجتمع واقع تحت السيطرة وحتى محكوم عليه (لان ذلك ، في الحاصل ، هو المقصود) ، نكون ملزمين بأن نجرّب بناء نموذج يناسق جميع هذه التحديدات ويرمز بخاصة الى الـ « تقهقر » العام الذي يوغل فيه المجتمع الواقف تحت السيطرة والذي يجنح نحو درجة الصفر تلك المشار اليها منذ قليل ، اي نحو نفي موضوعي ومطلق لمافيه التاريخي . فالزمن المعاش يكوّن فيه عندئذ موجهاً نحو الداخل (بسيكولوجي وسوسيولوجي وحتى جغرافي) ، معارضاً للزمن المعاش في البورجوازية الاستعمارية ؛ ولما كانت هذه البورجوازية تفرض ايجابيتها ، فان الزمانية المغربية تصبح سلبية (لكنها ليست ، بالضرورة ، غير فعالة) . وقد يمكن القول بأن كل شيء ، في هذا المجتمع الذي يخضع لكبت شامل ، يكون منظوراً ، حتى المثل الاعلى ، بصورة استعادية ، والمجتمع الاستعماري لا يكتفي مع ذلك بكبت الجماعات التقليدية ، فهو يُحدث جماعات اخرى الا

انها تعيش ، في وضع تبعية ، نفس الزمن معه ، وفي نفس الافق ، وان كان بدون نافذة ، هذه الجماعات ترى الأمور في أفق مسطح ، دون ان تلقي بنفسها ابداً نحو مستقبل جديد كل الجدة ، فهذا الوسط هو وسط « القومية » بالمعنى الدارج للعبارة : مطلبيّة ، مشاغبة ، ولكن مشاركة ، معارضة للتجديدات . واذْ لا يكون في وسعها تصور حالة تعقب الحالة الاستعمارية ، فانها تتفنّن في العمل على احياء المأساة الاستعمارية طويلاً بعد ان تكون التبعية قد انتهت شكلياً ؛ وهذه السياسة هي التي جرت العادة على تسميتها بالاستعمارية الجديدية . فقبل اذن أن نحلل التحديدات الاقتصادية ـ الاجتماعية ، الموضوعات الايديولوجية ، نماذج التنظيم ... لهذه الحركة او تلك ، المقصود هو وصلها بـ « رحمها » الذي يعطيها معناها الدائم . ومن الممكن تصوير هذه الـ « أرحام » على الشكل التالي :

١	٢	٣
نخبة تقليدية	ماليون وبرلمانيون	نخبة جديدة
بورجوازية صغيرة	بورجوازية استعمارية	بروليتاريا مدينية
طبقة الفلاحين	استعمار زراعي	بروليتاريا زراعة

ان المغرب القديم (١) بجماعاته الرئيسية الثلاث هو ضحية تقهقر عام : لكل جماعة منها رد فعل خاص : نزعة اصلاح ديني ، نسك شعبي صيبا Siba ؛ وايا ما كانت الاحكام في هذه الايديولوجية أو انتشار ذلك الفعل لسوف يكون المقصود دائماً تعبيراً « سلبياً » ، ليس لانه يكون غير متمفصل ، وانما لانه ينفي موضوعياً الماضي (بالنسبة لنزعة الاصلاح الديني فان اثني عشر قرناً من التاريخ ، مصابة بالعجز) وان ايجابيته لا تصبح فعالة الا اذا اخذتّها تجمعات اخرى (منتمية ، هي ، الى النظام الجديد الذي انشأه الاستعمار) على عاتقها وفسّرتها . والمجتمع الاستعماري المتميّز كذلك ، يفرز ايديولوجيات تتوضح مباشرة في سياسات (قمع ، دمج او اشتراك في السيادة ، استقلال شكلي) ؛ فهو يهم المغرب في النطاق الذي يكون هذا المجتمع هو الذي يحدد فيه مستوى الفعالية التاريخية ، وهوالمستوى الذي يفصل الماضي عن المستقبل ، التقهقري عن التقدمي ، وعلى هذا المجتمع الاستعماري يضبط المجتمع المغربي (٢) الجديد فكره وعمله .

ان ايديولوجيات (تحررية ، شعبية وحتى اشتراكية) وتنظيمات (نوادي ، احزاب ، نقابات) وسياسات وشعارات هذا المجتمع الأخير – المغربي – الجديد ، يمكنها ان تختلف ، الا انها سوف تبقى في اطار التكتيك (ومن هنا المديح الذي يكال له : يتحدث لغة سياسية عصرية) ؛ هذا الرحم هو رحم القومية بمعناها الضيق والاستعمارية الجديدة [1] القادمة في آن واحد ؛ ولكن في النطاق الذي يتحرك فيه هذا المجتمع في ميدان التكتيك ، أي في المظاهر ، فان قوته الحقيقية تتأتى من سلبية المجتمع (١) . وليست القومية شيئاً اذا لم تستأنف على حسابها التعابير السلبية التي تكون نتيجة التاريخ الماضي ، وهذا هو ما تفعله انطلاقاً من عام ١٩٣٤ . وهذا الأخذ على العاتق يكون هو نفسه مع ذلك تكتيكاً : يعمل على تخويف الخصم بالتلويح بشبح عدمية الآخرين ، ولكن في أية لحظة من اللحظات ، لا يتدخل توضيح لهذه التعبيرات السلبية ولا يمكن القول حتى بعد الاستقلال ان هذا الاستقلال قد حدث حقيقة . هذا اذا كانت هذه الامكانية قد تحققت فلسوف يجد المرء امام نفسه رحم آخر (٣) سوف تعبر عنه قومية من نوع جديد ، هي بكاملها من تقديرات المستقبل ، وبهذا نفسه تستأنف متطلبات الرحمين السابقين وتتجاوزها . وقد يمكن الكلام عندئذٍ عن تحمل حقيقي لاعباء الماضي [2] .

طبيعي انه يمكن دراسة جميع ضروب التحديد في تعبيرات مختلف الـ « أرحام » ، ولكن من الممكن قبل ذلك التأكيد بأنها لا تستطيع ان تكون لا مباشرة ولا مستمرة . وكما انه يوجد بين الرحم (١) الاستعادي الماضي والرحم (٢) الذي يعيش الزمنية

---

(١) ومن هنا الانتقادات التقليدية لبرامجها : إصلاحات اجتماعية كثيرة بدون اهتمـــام بالتنمية الاقتصادية (س. ا. جوليان ، المصدر السابق ، ص ١٥٤ ؛ لوتورنو ص ١٩١). وهذه اللاواقعية هي مع ذلك التعبير المضبوط عن الحالة الاستعمارية –. فان الاستثمار الاستعماري قد تأسس باسم التكنولوجيا والتجهيز والتنمية؛ وإليه يرجع حل المشاكل الاقتصادية . والقومية تعتبر نفسها ناطقة باسم بروليتاريا عريضة لها مطالب اجتماعية ، وعلى البورجوازية الاستعمارية أن تستجيب لتحقيقها مقابل الامتيازات الضخمة التي تمتعت وتتمتع بها . اذن لم يكن التحالف مع الاشتراكي – الديموقراطي الفرنسي عرضياً ؛ ثمة موقف واحد كان يقرب بين الحركتين .

(٢) تخفي القومية بالطبع التاريخ الحقيقي ، تاريخ الحقبة السابقة للاستعمار وتاريخها الخاص في اثناء الاستعمار .

الاستعمارية ، انفصام هو الاستعمار فانه سوف يحصل بين الرحم (٢) والرحم الذي ما يزال غير متحقق بعد (٣) انفصام هو الثورة [١] .

نصل هكذا الى نفس ثلاثية الحكم ، ولكن بدلا من الكلام عن قوميات : انفعالية ، دينية ، سياسية ، سوف يكون هناك ما يدعو الى الكلام بتعبير عن حقيقة واقعة نفسها (حقيقة مغرب واقع تحت السيطرة ، يقاوم) : سلبية ، حيادية [٢] استقبالية ، معيدة بالتتالي الى مجتمع يكابد الاستعمار دون ان يفهمه ، والى آخر يلعب لعبته دون ان يضع الاستعمار بصفة أساسية موضع الاتهام واخيراً الى ثالث سوف يفهم آلياته ويتجاوزه وكذلك تلوّثاته الخاصة ونقائصه . واذا اقتصرنا على الرغم من كل شيء على عبارة القومية فاننا سوف نميز ثلاثة انواع منها قومية العزوف ، القبول التكتيكي والتجاوز العقلاني . انها هناك شبكة ستساعدنا على قراءة مختلف المظاهر التي أجملنا عدداً منها من قبل ، وستظهر اخرى منها بعد الحرب العالمية الكبرى الثانية وتبقى حتى أيامنا هذه .

٤

تجيز لنا مسألية القومية هذه أن نتوقف عند الحقبة التي تدلف نحو عام ١٩٣٠ — ١٩٣٢ ؛ ان حركة استعادة المجتمع المغربي لازدهاره بنفسه ، التي يكشف عنها عدد من الحوادث الرمزية ما زالت اليوم بعد لم تجز كل مداها . ولسوف لن يتغير الاستقطاب الذي عرفته الحياة في المغرب انطلاقاً من هذا التاريخ : لقد تجابه المستوطنون والقوميون بايديولوجيتين متعارضتين وبرنامجين سياسيين ؛ والظروف المتلابسة التي تعمل في هذا الاتجاه أو ذاك تكون في أغلب الاحيان لصالح القومية .

تدافع الجالية الاجنبية عن نفسها بقوة ؛ ولسوء حظها انها ، في اللحظة نفسها التي

---

(١) ومن المسلم به أن هذه الملاحظات لا تكتسب قيمة الا إذا ابرزتها دراسة خاصة بوصفها موضع الاختبار . غير انها هي نفسها . نتيجة دراسات متفرقة في القومية المراكشية آمل أن أصل بها في اقرب وقت إلى غايتها .

(٢) لأن هذا الرحم لا يطرح مشكلة المستقبل والهوية المشتركين فانه يقبل رؤية الآخر .

حسبت فيها انها قادرة على تأكيد استقلالها الذاتي ، وجدت نفسها في حاجة الى العاصمة الام التي كان قد انتقل مركز القرار اليها . واصابتها الازمة العالمية بقسوة ؛ فانتقدت بعنف الادارة المحلية التي كانت دائماً تكرس لها نفسها ولكنها مع ذلك تجعلها مسؤولة عما هو خارج قبضتها الى حد بعيد ، ومن ثم بأنها تحيد عن المغاربة الذين لم تعد تراقبهم الا بوسائل سطحية من البوليس . ولقد استلزمت الجالية الاجنبية مساعدة (دعم الاسعار ، اغلاق السوق الفرنسية في وجه المنتجات الاجنبية ، منح قروض عامة ، تخفيف الديون ...) ومن هنا تعرضها لنقد البرلمان ، واذ أصبحت موضوعاً لحساب اقتصادي ، فانها تألمت من تناقضات اجتماعية مصدرها العاصمة الام . وعندئذ ، كشفت ، اذ هي تعرضت لقدح العسكريين في المغرب والبرلمانيين في فرنسا وخانها الصناعيون واصحاب المصارف ، عن انانيتها التي اصبحت تماماً « باهظة الثمن » ، بما انه يجب في آن واحد دعمها اقتصادياً وتخفيف الاضرار التي يولدها عملها (سياسة الاستعمار الاجتماعية) والدفاع عنها عسكرياً . وباسم ماذا ؟ الشرف ؟ العلم ؟ الاخلاص للموتى ؟ انه منطق جيل آخر ...

لقد حدث هذا في نفس اللحظة التي تكلم فيها الحزب القومي ، يخدمه اتجاهه التكتيكي لغة الارقام في اوانها ، فالنظام والامن والاستعمار الزراعي امور تكلف غالياً جداً فثمة أوجه توفير كثيرة يمكن القيام بها ، وأكد بأن المكاسب « غير المرئية » سوف تزيد كذلك بمنح جميع الضمانات المطلوبة . ولاعطاء وزن لعروضه ترك تمرد المحرومين ينطلق هناك حيث نقطة الضعف : في المدن . فماذا يهم ان تبقى البلاد هادئة وان يحافظ البربري الطيب على ابتسامته ، فليس ها هنا تُجنى الثروات ، هذه اللغة ، من الذي تستطيع اقناعه ؟ أولئك الذين يقدرون على ادراكها مباشرة ، وهم في باريس .

كل هذا كان دفعاً بالغيبة وتكتيكاً ! طبعاً ، وكان الامر دائماً على هذا النحو في المغرب منذ عام ١٨٣٠ . لم تتضح البُنى ابداً مباشرة في سياسة . ولكن الادوار في هذه المرة قد انعكست ؛ ان منطق العصرية ينتج القومية ، على حين تظهر الجالية

الاجنبية بأنها بقايا عصر تم تجاوزه ، تعاني نفس التغيير التاريخي الذي تعرض له النظام السلطاني او حكم البايات في القرن التاسع عشر . واذا ما جاء اليوم فان الجيش الفرنسي سوف يقاتل في سبيل الكثير او القليل ، المصالح المطلوب حمايتها والحقوق المطلوب الاعتراف بها . وما ان ينطق بكلمتي : الشرف والمجد ، حتى يزفّه الصراخ ويطارده فان المغرب القديم لم يعد بعد عام ١٨٣٠ الا في حالة تأجيل ، فصار الامر كذلك بالنسبة للاستعمار بعد عام ١٩٣٠ .

ولكن هذا المنطق الذي كان ينتج القومية ألم يكن يضع لها في نفس الوقت حدوداً لن تتجاوزها في الواقع ابداً ؟ ان اهمية هذا السؤال هي التي تدفعنا للوقوف عند ١٩٣٠ ـ ١٩٣٢ ، لانه اذا كان ثمة نجاح ما قد ارتسم فيها فاننا ما نزال بعد فيه قريبين جداً من تلك النقطة النظرية حيث تفسر الى الابد الانسانية المغربية القديمة ، وهي نقطة ما زالت أكثر انكفائية بعد من نقاط اخرى كشف عنها على مدى الصفحات السابقة : نهاية الالف الثانية ، القرن الاول ق. م، القرن الرابع عشر بعد المسيح وحيث يرى المغربي نفسه وقد طرد من التاريخ ، معاداً الى ابعاده الانثروبولوجية . وانطلاقاً من هذه النقطة المحرقية ، نستطيع ان نضع في المنظور جميع الحقب السابقة وتقديم المسائل على شكل مقتضيات ، دون ان نسائل أنفسنا كثيراً ، لئلا نمكن منا الجدل ، ما اذا كانت هذه المقتضيات قد تحققت ام لا فيما بعد .

من مجتمع أتلف ، من تاريخ نفي ـ نتيجة الماضي ، مستعاد ومستهلك من الاستعمار ـ ماذا صنعنا ؟ وماذا علينا ان نصنع ؟ ذلك ان القومية التكتيكية تستطيع ، بتبنيها هذا التساؤل ان تتجاوز نفسها الى قومية والى سياسة عقلانيتين .



التركة وعودة الازدهار

١

انتهى العصر الاستعماري : وسواء كان الدفاع عنه يجري ببلاغة أو باطراف الشفاه ، ويوضع موضع الاتهام بمناسبة أو بغير مناسبة ويعتبر إثراء للطبيعة وللفرد في رأي البعض ، ام جرحاً في المشهد الطبيعي وفي الاجساد في رأي الآخرين فان امتداح تلك الحقبة باتجاهي العبارة الايجابي والسلبي لم يتوقف ، على الارجح لأنها هي نفسها لم تمت نهائياً . ومع ذلك فان ما يجب أن يحكم على القضية فيه هو صعيد آخر تماماً .

هناك بلا شك شيء ما من الصح في آن واحد في اطروحة الاستعمار ــ الصدفة، كثمرة للعنف وفي اطروحة الاستعمار ــ الرسالة ، المحرض عليه بنوع من الاختلال والفراغ التاريخيين ؛ والا فما كان لأيهما ان ينجح في الحصول على الحد الادنى من المنطق المصاغ متضمناً لاقناع العقول . فمن الصعب ان ننكر بان استعمار المغرب كان من قبل متضمناً في الحلول الخادعة المقدمة لازمة القرنين الرابع عشر والخامس عشر . والامر يعني توسعاً كان هو عاقبة منطقية لتوسع آخر حدث على نفس الاراضي لم يكن بالضروري محتمــاً ، لكن هذه الا مكانية في تجنبه ، وهذا هو الجوهري كانت تتعلق هي نفسها بالآخرين. أما وقد صار امراً مقضياً فلم يكن من المستطاع ايقافه الا بالـ «حساب الاقتصادي » الذي كان هو كذلك يشكل جزءاً من المنظومة الآخذة في التوسع . فليست وقائع الاستعمار هي ما ستقتضي اهتمامنا ولكن شروطه . فرصة فائتة ؟ فشل ضروري ؟ من الممكن أن نناقش الى ما لا نهاية في رد الفعل المغربي في القرن التاسع عشر ؛ وعلى أية حال لم تكن وافية بالغرض . فلم يكن في الوسع الدفاع عن الموانىء من اليابسة ببعض المدافع القديمة المشتراة من العدو ؛ والسهول الساحلية التي كانت مدمرة طيلة قرون لم يكن في المستطاع ان تسترد الا

بتعمير متراص واستعمال مكثف للارض ؛ ولعل الدفاع الحقيقي كان فحسب في قبول مخاطر الـ « فتح » اي في ما كان يبدو على وجه الدقة انه الانكسار .

ان الخاصية السلبية أو غير الكافية للنتائج الحاصلة لا ينبغي مع ذلك أن تحجب امراً هاماً جداً وهو ان ثمة ارادة للاصلاح كانت موجودة . خبط عشواء ، موجهة توجيهاً خاطئاً ، بل حتى ضالة ، الا انها كانت حقيقة واقعة ، وهذه المزية لا يمكن انكارها لا على اصدقاء خير الدين ولا على عبد القادر واعوانه ولا على السلاطين العلويين . وقياساً على هذا انه مما لا يقبل الجدل ان النقطة الاستراتيجية لكل اصلاح كانت تحديث الجيش ؛ إذ لم يكن في وسع اي تحسين ان يتحقق في غياب جيش قوي ، مكرس ، ليس بالتأكيد لقتال العدو ولكن لاخضاع داخل البلاد . وكانت المسألة التي تكشفت بعد محاولات عديدة ، انها مسألة متعذرة الحل ، هي ان ذلك لم يكن في الامكان اجراؤه في غياب «رأس المال» متكون اومن السهل تكوينه؛ فان ما يصبح محسوساً هنا بقسوة هو غياب ارستقراطية حقيقية . على حين ان الفائض الاقتصادي في المغرب لم يكن في الوسع الاستيلاء عليه الا بجيش لم يشكل بعد ، فقد كان موجوداً في جانب آخر جهاز أو عدة أجهزة : ديني او اجتماعي او سياسي كانت تسمح بالاستحواذ عليه من أجل تأليف جيش عصري تماماً ، واد خال : علم ونظام وتوسع بواسطة والبدء على هذا النحو بظاهرة النمو الثابت .

ان القرب من اوربا . قد مارس بلا شك في حالة المغرب ، تأثيراً سلبياً ؛ حال دول أن تسترخي البُنى المتناقضة مع الزمن وأن تسير في طريق تجاوز للذات لكن ثقل الماضي ، اي سياسة الحاكمين وعمل الشعوب المغربية ، هو الذي لعب الدور الحاسم . تضافر الضغط الاوربي وتعقل المغاربة النمطي والمنتفع في آن واحد في الوقائع وفي ذهن الناس ، بما ان السياسة الاستعمارية صيغت على وجه الدقة انطلاقاً من معطيات قدمتها دراسة الماضي المغربي . وبعد كل حساب انهى الاستعمار واستهلك هذا الماضي بتوفيره للمغرب ما حاول يائساً ، منذ قرنين ، الحصول عليه : جيش ورأس مال منظم . وانطلاقاً من هنا فان ما تلا لم يعد سوى ثمرة منطق كامل لا سيما وأن التلازمين المباشرين ، الموضوعي والذاتي ، كانا يتطابقان على وجه رائع .

فالجيش يقيم حيثما يمرّ ادارة وعدالة . وقد فتح الحق الرأسمالي ، ادارة لا شخصية ، لغة بورجوازية ، (وهذه هي الكلمة الشائعة) المسالك الكبرى التي سوف يندس بواسطتها التاجر حيثما كان . تلك ، هي اللحظة المجردة ، غير الظاهرة (مثيرة من هنا بالذات معارضة اقل كثيراً قبل الفتح منها بعده) ، التي تدخل بين لحظتين ملموستين : الفتح والتنمية .

ان ما سيعقب ذلك ويغير المشهد الطبيعي : طرق ، استثمارات منجمية ، صناعات خفيفة ، تحضير ، سيكون كذلك من صنع التاجر (اذ ان الاستيطان الزراعي ، كما قلنا هو من عهد آخر ويدل ، في المغرب على تأخر الوعي الاستعماري) ، وهذا هو ما يصيب الاستعمار بعدم كامليته . ذلك انه على نحو ما استثمر المغرب ، قد جرى بأكمله في ميدان التبادل ؛ فمن اجل أن ينمو او بكل بساطة لكي يبقى على حاله يجب ان يكون هناك دائماً « بدائيين » ؛ واذا لم يبق هناك منهم او لم يبق ما يكفي فان الاستعمار الوسيط ينقلب ضد نفسه ؛ يهرب الى المال ، وهو تبادل من الدرجة الثانية ، الامر الذي يجعله أكثر بشاعة ، لانه يستغل جزءاً متعاظماً من الاستعماريين انفسهم ، وبخاصة فائضاً بما انه يصبح من البديهي ان الاستعمار ، في هذه الشروط ، يمكنه الاستغناء عن الحالية من حيث هي حضور جسدي على ارض الغير ، كثيرون يدركون عندئذ كم كان يدخل في توسع القرن التاسع عشر ولا سيما في المغرب ، من الايد يولوجيات التي تمت الى عهد آخر .

لكن الاسباب الدبلوماسية حينذاك ، وكانت في البداية وهمية بأكملها ، اذا ما نظر اليها برؤية موضوعية اكثر عمقاً ، هي التي ، شيئاً فشيئاً تضمنت محتوى . فان اعادة السلام ، الانفتاح على الـ « حضارة » ، الامن ، التوحيد الاقليمي ، تلك التبريرات الخادعة للمشروع الاستعماري ، قد نقشت على الدوام في الارض المغربية أكثر من جميع التحسينات التكنولوجية في الزراعة او في الصناعات الدقيقة . ولقد قدمت مراكش المثل الكامل على هذا العكس للدوافع ، على هذا التحول الجديد في « حلية العقل » ، لان التجربة أختبرت فيه ، في آخر المطاف ، بعد ان كانت الممارسة قد محصت مفاهيم الاستعمار ، لكن هذا كان صحيحاً كذلك بالنسبة لجزائر عبد

القادر وتونس خير الدين . كان المغزى الحقيقي للعمل الاستعماري انه عمم حضور الجيش وانه جعل فرض الضريبة فعلياً . ولم يكن هذا جلياً بالنسبة لمعظمهم مع ذلك بما أن كل شيء ، إذ قرّرت هذه النتائج ، قد أوقف ، في حين انه كان على كل شيء أن يبدأ تماماً : فما كان ينبغي ان يكون صنع القرن التاسع عشر تم تأخيره بعناية الى ابعد حد مستطاع ، الى منتصف القرن العشرين . اما المحصلة فانها كانت المحافظة على البُنى ، التي يشعر ، المنتفعون بها انفسهم ، بأنها قد تجاوزها الزمن ، وفي حالات عديدة ، الدفع الجغرافي والبسيكولوجي – السوسيولوجي ، في الطريق الى اشكال أكثر قدماً ايضاً التي ما ان عادت الى الظهور حتى كانت تملأ نفس المستعمر فرحاً ، متظاهراً بالبراءة.

وها هنا هو الاثم الاعظم لكل استعمار .

ليس ذلك في أنه يوقف التطور التاريخي فحسب وانما يكره المستعْمَر على اعادة هذا التطور باتجاه عكسي . ومنذئذ يصح القول ان كل استعمار ، في مبدئه ، هو حكم بالموت التاريخي . فان البُنى العتيقة ، العادات البالية ، التبجحات القديمة تطفو في الأذهان وعلى سطح المجتمعات وفي الشقاء ، يعتصم الناس كلهم في الطفولة ؛ ومن السهل عندئذ ، ومن حسن السياسة ، قدوم المرء للانتشاء : انظروا ، هذا لم يتغير منذ عشرين قرناً ، دون أن يُبصر بأن حضوره نفسه هو الذي يرجع الرعية الى ماضيه البعيد . صحيح ان جو كورتا ، على الصعيد الفردي يتطابق مع عبد القادر تمام المطابقة وتاكفاريناس مع عبد الكريم لان الانسان عبر الاجيال ليس له الا طفولة واحدة والاّ مرجع واحد . فالاستعمار لا يترك الا خياراً واحداً ، التمرد او الموت . والامثلة لا حصر لها ، في الجزائر يواصل طريق عبد القادر ، لكن على البارد وبلا أفق ؛ يُحافظ على الجمعيات الدينية ، منحرفة عن مقصدها الأول ؛ تدعم ، بل وتنشأ ، عند الحاجة ، زعامة ارستقراطية مزورة ، ضعيفة وبلا نفوذ ؛ وتحاصر الاسرة حصاراً ضيقاً حتى لتصبح سجناً للروح ، ومن ثم يسمح ، وقد كاد يتم بلوغ الهدف ، للافراد أن يدلفوا واحداً واحداً الى الحاضرة الفرنسية ، هو العمل على ان يقدموا اعترافاً خطياً بأن الحاضرة القديمة قد ماتت حقاً . بالطبع لم يكن في وسع رد الفعل الا ان يكون عودة إلى الارض والى الدين ، اساسيّ المشاركة القديمة ، فيما

وراء الاشكال الاجتماعية ، المشيّدة على مرّ العصور والمدانة منذئذ . ومثل تونس مقنع اكثر ايضاً : ان اصلاحات خير الدين المصاغة من قبل التونسيين على الرغم من شروط اعطائها شكلها النهائي ، لم يمكنها ان تتحقق الا بعد مضي قرن من الزمان، بعد حقبة الحماية التي لم يكن لها الا شاغل واحد : هو معارضتها . اما فيما يتعلق بمراكش التي ضيّقت الى حالة « روضة قومية » شاسعة ، فان التقاليد فيها منعت عن التقليديين والملكية عن الملوك والعرف عن المعتبر انهم المستفيدون منه ، وكلما دام الاستعمار كلما ثُبطت الارادة وانحط العقل وصارت النزاهة نادرة لدى الشعب الواقع تحت السيطرة . وعندما يُؤكد على ان الاستعمار يجلب معه بذور زواله ، تغرب عن البال السنوات الضائعة ، الفرص الفائتة ، النشاطات المبذولة هدراً في عالم المظاهر ، ابتداءً من الكفاح القومي نفسه . فمن يستطيع تقدير ما كانت ستجلبه الى حياة التونسيين الاربعون سنة من الفاعلية العقيمة ضد ادارة محافظة ومتصلبة في رأيها ؟ ان الاستعمار الحديث يخلف وراءه مهمة اشد صعوبة من تلك المهمة التي كان يتبجح بأنه يقودها الى النجاح في نهاية القرن التاسع عشر ؛ فيما وراء الطرق والحواجز ، انهاض الانسان المخبول وحمله على ان يتعلم ، ثانية ، التفاؤل .

ولعله يمكن السؤال هل من الضروري مع ذلك تبرير الاستعمار أو العيب فيه ؟ ربما لا . لكن كثيرين يحاولون كسب قضية في الاستئناف ؛ ولا بد من القول لهم بأن هذه القضية لم تكن قد فتحت جدياً حتى الآن ، طالما ان الجدْع الحقيقي ما زال باق بالنسبة لهؤلاء واولئك ، مرضاً معيباً .

٢

لقد توقفت الآلية الاجتماعية مرات عديدة في تاريخ المغرب ؛ فان عدداً من الافراد والجماعات غالباً ما عقدوا وثاماً مع القدر . كيف العمل لئلا يعود ذلك الى التكرر بعد الفرصة المقدمة من الاستعمار للبدء بانطلاق جديد ؟ انها لمسألة يمكن ان تكون غريبة على المؤرخ ، لكنها مسألتنا ، لانه ليس من قبيل الصدفة أن يكون الشباب المغاربة شغوفين بملحمة القرن التاسع عشر الاوربي وأن يعتريهم النعاس عندما يوجه لهم الحديث عن المغرب الوسيط . فماذا تهم الكلمات : تأخر ، استعمار ،

تطور موقوف ، تنمية غير متساوية ؟ وما يهم ان يكون المسؤولون هم : الله ، الجغرافيا او الناس ؟ ففيما وراء المداخل الاربعة التي استبنّاها ، حيث النطاق الوسيط بين بحر ورمال ، بين مدن وقبائل ، يتغير الى عدم تاريخي ، فيما وراء نشوة الافلات من الموت ، ان ما يريد كل منا ان يعرفه هو كيف السبيل الى الخروج من ذاته ، من جباله ومن كثبانه ، كيف يتعيّن هو في ذاته وليس بالنسبة الى الغير ، كيف الكفّ عن ان يكون منفياً في الفكر ؟ هذا وحده هو **الثورة** وهي ما تزال تنتظر القيام بهـــا .

في الصفحات السابقة كثيراً ما ترددت كلمات ثلاثية الحكم وثنائيته ؛ فان التنوع يبدل شكله واتجاهه من مرحلة الى مرحلة . فهو لا يختفي ابداً وفي نهاية التحليل فان صورة المغرب العامة التي تبقى في ذهننا هي صورة مغــرب متدرج : تدرج انثروبولوجي ، لغوي ، اجتماعي – اقتصادي ، بالاختصار تاريخي ، وكل مستوى هو راسب تناقض غير محلول . فكل ثورة حقيقية سوف تكون بالضرورة ، بوعي ، شاملة ؛ والا ، فان راسباً آخر سوف يُضاف الى الرواسب الاخرى ، بعد تفسخ طويل . وبانتظار ذلك ، وهذا تهيئة لهذه الثورة نفسها ، لا ينبغي ان يفرض على احد عقيدة الجار ؛ فمجموعة القوانين التاريخية الباقية من أجل أن تتكون ، يجب ان تكون محايدة . ان الحياد الذي كان سيتطابق مع حياد الدولة ، ولكن قبل أن تتقيد به هذه الحكومة ، يجب قبل كل شيء تحقيقه في وعينا بمقدار ما يروّع كل واحد جزءاً من نفسه . سوف يطول الوقت في ذلك ؛ الا ان الامل في وعي سياسي بدون هذا الوعي التاريخي يكون خديعة .

المغرب مستقل منذ عقد من السنين الآن : فعلى الرغم من جميع الافكار التي اشاعتها في الشعب دعايات الدولة ما زالت المشكلة فيه هي سياسية – ثقافية ؛ لن يقهر التخلف الاقتصادي ابداً اذا لم يشخص التخلف الاجتماعي والثقافي قبل كل شيء ويحارب وهذا يتطلب مساءلة الماضي . لنسق في هذا الصدد ثلاث ملاحظات :

– على الرغم من خطبنا ، التي لها ما يبررها من بعض النواحي ، في موضوع الديموقراطية والعدالة الاسلامية فلا بد لنا من الاعتراف بان البنية السياسية المتعلقة

بالدولة ، التي ولدتها هذه الخطب ووطدها الضغط الاجنبي ، ان لم يكن حجّرها ، لم تكن في مستوى الحاجات الحديثة ولن تصير ابداً . ان الاحتلال الاستعماري لم يزل هذه الحاجات ولم تنجح الدول المتعاقبة حتى وقتنا الحاضر في تخيل الوسائل للايفاء بها . وازمة المغرب المزمنة يمكن تلخيصها على النحو التالي : اننا لم نعرف لا اقطاع حقيقي ، فرض في ظل شكله السياسي ، معنى الانضباط والعمل المنظم ولا سيطرة بورجوازية حقيقية وحدت المجتمع ثقافياً ولا بالتالي ، ملكية مطلقة حقيقية التي كانت بشرعيتها الذاتية والموضوعية ، قد سيطرت على الطبقتين المتنازعتين وتضع تنافسهما في خدمة أمة تخطو الى الامام . تلك كانت الاسس الاجتماعية — السياسية للثورة الاقتصادية الحديثة ونحن لم نعرفها ، على افضل تقدير ، الا في حالتها البرعمية . ومن الممكن ، حتى ارهاق القارئين ، مناقشة مسألة الاسباب ، الداخلية والخارجية ، التي حالت دون مثل هذا التطور عندنا ؛ فالامر اليقيني ، هو انه مما يعود الآن الى الدول المغربية الجديدة ، على اساس النتائج السلبية اكثر مما هي ايجابية للعهدين السابقين ، القومي والاجنبي ، أن تقود الى النجاح في آن واحد المهام التي كان هناك الوقت الكافي لتحقيقهما في أماكن اخرى ، لدى الاقطاع كثورة في القرى ، ولدى الملكية المطلقة ، مرحلة بعد مرحلة . ليس المقصود لا التأسف على ما لم يقع ، ولا الابتهاج بذلك ، ولكن من اجل تسجيل هذه الحقيقة : اما وإنه لم يجز التطور الذي بُدىء به حتى النهاية فان المجتمع المغربي لم يهيأ للعصرين الا هامشياً ؛ هكذا ، سواء أكانت اتماماً او بدءاً ، بحسب الاوساط ، فان هذه التهيئة تصبح الواجب الاساسي للقومية المعاصرة ، فان التوحيد الثقافي ، تسييس الجماعات ، اكساب نظام الدولة شرعيته ، امور هي منذ الآن ضرورات كل سياسة قومية .

— كان رد فعل السكان في الماضي ، دائماً ، اما الخضوع واما عدم الاعتراف الذي عمّمه المراقبون الاجانب باسم القدرية و**الصيبا** Siba . وفي هذا المعنى كانت القومية **صيبا** عامة ، التي قررت ، انطلاقاً من ازمة ١٩٣٤ — ١٩٣٧ لا شرعية النظام الاستعماري . فلقد اعتبرت مواقف الرفض عندئذ على انها صفات ، إذ أخذ الانطواء نحو الحياة الخاصة وعدم التعاون ، الاستقلال الشخصي او العائلي ، اللاانضباط ، الاهمال واخيراً التمرد الفردي المخرّب ، على انها بحق هي الرد الوحيد الكامل على

التدخل الاجنبي . ولكن لا بد من الاعتراف بان هذه الردود مهما كانت مبررة على سلطة باغية وغير مختصة – قومية او اجنبية – لم يكن لها الا زمن وان هـذه العادات ، التقليدية من جهة أخرى في مجالات الكبت التاريخي ، يجب ان تستأصل ، ليس بالتأكيد بالعنف وانما بالاقناع ، لأن استخفاف الحاكمين حيثما كان يتغذى من يأس المحكومين .

– ان اردأ السياسات ، أخيراً ، هي سياسة **التقاليد** التي تقوم على معاودة الاخذ بقواعد حكم الانظمة السابقة ، لانها من اجل ان تكون فعالة على المدى القصير ، بما انها تجد ، وهي تبرر **بصورة استدلالية** عمل الدولة المستعمرة ، لدى هذه الدولة كل عون مرجو ، فانها تكون على المدى الطويل ، مجرمة في الحدود التي تحافظ فيها على بُنى الانحطاط . ذلك ان هذه البُنى اذ تتجمّد تقتل حتى بذور التطور التي أدخلها الاجنبي على الرغم منه . ان الدفاع عن التقاليد في الجبال والسهول ، ردع التحضير ، تشجيع الهجرة كصمام الأمن ، يعني في الواقع تدعيم الحكم الذي ابداه الاستعمار فينا ، دائماً .

ترمي هذه الملاحظات الثلاث الى تحديد الشروط (التاريخية) لعمل سياسي ناجع ؛ وهي تتلخص بالتحليل الاخير في المسألة التي لازمت هذه الدراسة كلها الا وهي مسألة الشرعية .

ان لـ« سلطة الشخصية » التي يعرفها المغرب في الساعة الحالية ، اسباباً موضوعية بكل تأكيد ؛ حتى لتستطيع من بعض النواحي التشبه بالـ « استبداد المستنير» ، لكنها على المدى الطويل لا يمكن اقرار شرعيتها الا اذا أعدت ، أو انها في النهاية تركت الاعداد يجري لتحولها . واذا اقتصر نشاطها الاساسي على افراغ المشاريع القليلة التي يفرضها عليها الضغط الاجنبي أو وسواس النفوذ ، من تبعاتها العادية ولكن الثورية ، فانها تكون بصفة اساسية لا شرعية كالنظام الاستعماري الذي حل محلها سواء بسواء.

المشكلة الحقيقية ، كما قلنا ، هي ذات طابع ثقافي (توحيد البلاد بالابتداء بالشبيبة وبالعمل ، في اطار تنظيم وحيد ، على صهر الفروقات التاريخية التي تتخذ

غالباً كثافة تباينات الفرق) وذات طابع سياسي (العمل على اشراك كافة الجماعات بالعمل السياسي وبادىءذي بدء على المستوى المحلي من اجل العمل على الكف عن تلك المواقف السلبية الموروثة من الماضي والوصول اخيراً الى ذلك الانصهار الذي طال انتظاره وأخر كثيراً ، بين الدولة والمجتمع) . ولا بد من التذكير أن المستقبل هو للمدن : يجب تشجيع التحضير لا محاولة ايقافه لئلاّ يكون علينا حل المشاكل التي يولدها ؛ ولكن حيث ان التحضير سيكون الى زمن طويل متقدماً على التضيع فمن الضروري تنظيم جموع القاطنين الجدد في المدن ، بشكل او بآخر ، بتوفير عمل لهم حتّى وان كان غير مربح اقتصادياً الا انه على أية حال مربّ اجتماعياً . حكـــم الامور ! هذا ما يبدو لنا ان يكون شعار اليوم لجميع الانظمة المغربية . لكنه سبق ان كان شعار الاستعمار الذي كان له ضباطه في شؤون السكان المستعمَرين . أليس المقصود على الأصح تسييس الناس والعمل على ادخالهم في وحدة اجتماعية ؟ سياسة التنمية ، هذا ما نرمي اليه دائماً ! وهو يذكّر كثيراً بتنمية وسياسة الاعداد لدى المستعمِرين اللتين كان مرد فشلهما الواضح الى عدم تعاون المعنيين . فالأوليّ الذي سوف يجب الكلام فيه هو التكيف مع الحياة المشتّركة إذ بدون ذلك لا نصيب لاي تضيع بالدوام .

في أي مكان من الأمكنة ، مع ذلك لم تؤد الـ « سلطة الشخصية » هذه المهمة بنشاط واستمرارية وصدق . وبكل تأكيد توجد وسوف توجد مجالات صناعة ، مستجلبة من الخارج ومزروعة ، (انها رهانة للمشهد الطبيعي ، كما يقول السواح)، وهي أجنبية كالمجتمع الذي بناه الاستعمار في الأرض المغربية على حد سواء . فالحالة ليست بالتأكيد متّسقة : ان النتائج التي يمكن تقديرها اكثر من غيرها في الطريق المشار اليه هنا هي ، رغماً عن المظاهر ، في حصة تونس ، ثمرة القرن التاسع عشر فيها ؛ واعظم التوقعات ما زالت تناط بالجزائر بسبب الضعضعات الناجمة عن حرب التحرير ؛ اما اعظم اخطار التفسخ فانها تترصد مراكش بسبب **تقليدها** الطويل ؛ لكن انغماس الدولة في المجتمع وبكلمة ، تأسيس ديموقراطية حقيقية ، كمطلب ما يزال غير متحقق ، يبقى معلقاً في كل مكان . فان مستقبلنا مرتبط بديالكتيك

حر بين الجماعات الاجتماعية . ولعل احدهم يرد بأن التناقضات الاجتماعية يجب مع ذلك أن تخضع للمراقبة ؛ فالمراقبة الوحيدة والدائمة الفعالة تستند الى الشرعية المقرّرة التي لا تكون مجرد اعتراف شكلي . وهكذا تصبح المشاركة الديموقراطية في آن واحد سابقة للاقرار بشرعية السلطة ومحصلة طبيعية لها .

وبعبارات واقعية ، ان الضرورة الواجب الوفاء بها هي العمل على ان تنزل من الجبال وتعود من الصحارى ضحايا جميع الانكسارات وجميع الوان الطرد . بعد عصور الانحطاط والاحتلال الاجنبي ، وعلى الرغم من عمل الجمعيات الدينية الاخوية التوحيدي والنهضة التي بدأتها الاحزاب والاخاء المعاش في غضون عهد العنف فان الثورة الكبرى ما زالت لم تحدث بعد ؛ فهي دائماً موضع اهتمام وعناية وهي بادىء ذي بدء وقبل كل شي سياسية . وهي وحدها ، فوق ذلك ، سوف تكفل عمق ودوام كل تضيع مقبل :

لكي يتصالح المغربي مع زمنه ومع نكهة ترابه لا بد من ان يتصالح قبل كل شيء مع نفسه وبخاصة مع اخيه والحكومة الشرعية الوحيدة والمستقبلية هي تلك التي تعمل فيه بكل قواها وبالنفوذ الذي تكتسبه بهذه الرؤية نفسها .

الفهرس

مقدمة :	٥
١ ـ المغرب تحت السيطرة	١٥
ـ البحث عن الاصول	١٧
ـ من استعمار الى آخر	٢٩
ـ فاتح يطرد فاتحاً آخر	٦٩
ـ استعادة الاستقلال الذاتي	٩١
٢ ـ المغرب الامبراطوري	١٠٥
ـ الاسلام وتجارة القرن التاسع	١٠٧
ـ وحدة تنطلق من الشرق	١٣٠
ـ وحدة تنطلق من الغرب : محاولة الموحدين	١٧٥
ـ فكرة الامبراطورية تمنى بأخفاق	٢٠١
٣ ـ توازن الانحطاط	
ـ صليبية الغرب	٢٢٧
ـ استجابتان، سلطتان	٢٤٤
ـ في الانتظار	٢٦٣
٤ ـ المغرب الاستعماري	٢٨٩
ـ ضغط استعماري وصمود اولي	٢٩٣
ـ الاستعمار المنتصر	٣٢٧
ـ المغرب المتجدد	٣٤٩
٥ ـ الخاتمة : التركة وعودة الازدهار	٣٧٧

تاريخ المغرب

يعتبر كتاب « تاريخ المغرب » من أهم ما أصدره عبد الله العروي ، ان لم يكن اهم ما كتبه في التاريخ ، فهو من ناحيــة رد موضوعي على الكتب الاستعمارية التي تحاول فصل المغرب عن المشرق ، ولا سيما قبل الموجــة العربية الاخيرة التي حملت لواء الاسلام وهو من ناحية ثانية كشف عن الروابط العضوية التي تربط هذا المغرب بالمشرق في مختلف العصور ، بل وتظهر تجاوبه وانفعاله بما كان يجري في اطراف الوطن العربي ، اكثر من أي مكان آخر فيه ٠ وعلى عكس ما يذهب اليه معظم مؤرخي المغرب كان اتصال المغرب وتطلعه دائما قبل الاسلام الى المشرق ، الى شرق البحر الابيض المتوسط اكثر كثيرا من تطلعه وارتباطه بمختلف مراكز اوروبا الحضارية ، وعلى الرغم من خضوعه في حقب متلاحقة لغير اقوام هذه المناطق المرتبط بها للغوط وللرومان ٠٠ ثم لاوروبا فان هؤلاء الفاتحين كانوا دوما محدودي الاثر ومحصورين ومحاصرين في أماكن محددة ٠٠

وفي نفس الوقت الذي يعيد فيه عبد الله العروي كتابه تاريخ المغرب ويجعل من كتابه « قراءة » لماضيه ونقد لما كتب فيه وتصويب للنظرات الخاطئة فانه لا يعبر فيه عن حقائق تاريخية فحسب بقدر ما يريد ان يعبر عن علاقة مغرب اليوم ، القلق على مستقبله ، الحريص على دعم هذا المستقبل بربطه بماضيه الحقيقي ٠



الثمن ١٥ ل٠ل٠ او ما يعادلها

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية صمدي وصالحة - ص.ب: ١١/٥٤٦٠
بناية برج شهاب - تلة الخياط - ص.ب: ١٩٥١١٩
برقيا: موكيالي - بيروت